الإعجاز اللغوى في القرآن والسنة

الجزء الأول

أ.د. عبد الغفار حامد هلال

أستاذ ورئيس قسم أصول اللغة

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى للناشر
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ٢٥٠٧١/٢٠١٠
الترقيم الدولى:
977-255-309-0

الصحوة
ALSAHOH
للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أعجز القرآن الكريم العرب بروعة معانيه، ودقة ائتلاف ألفاظه ومبانيه، فتأليف القرآن بديع على غير مثال سبق ولم يحر المعاندون والمعارضون جوابًا طوال ثلاثة وعشرين عامًا نزل فيها مع ما للعرب وغيرهم من خطباء وشعراء ضربوا بسهم وافر فى قوة اللغة وامتلاك ناصيتها.

وقد حث الله تبارك وتعالى المؤمنين على تذكر معانيه، وتدبر أغراضه، وأن يجعلوه نصب أعينهم يهتدون به، ويحققون بمبادئه عزتهم وكرامتهم، وينشرون دين الله فى الأرض حتى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

وكل سورة من سور القرآن الكريم معجزة بنفسها لا يقدر الخلق على الإتيان بمثلها مصداقًا لقوله جل ثناؤه - فى تحدى المعارضين - ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣].

ونحن نعلم أن الكلام موضوع للإبانة عن المعانى والأغراض التى فى النفوس، وهذا يتطلب حسن تخير اللفظ وملاءمته للمعنى المراد بحيث لا يكون مستكرهًا على الأذن، ولا غريبًا عليها، واضحًا للأفهام، ولا يكون عاميًا مبتذلاً، والكلام فى ذلك درجات: فمنه العالى ومنه المتوسط، ومنه الأدنى، ومن هنا ندرك أن اللغة تقوم على ثلاثة عناصر:

أولاً: المعنى الذى يريده المتكلم.

ثانيًا: اللفظ الذى يحمل هذا المعنى.

ثالثًا: العلاقة التى تقوم بينهما.

والمعانى التى يحملها القرآن الكريم كلها معانٍ فى غاية الرقى والسمو، تتلقاها العقول فتشهد برقيها وإحكامها، ونزولها على مستوى الفطرة البشرية، تتناول الحديث عن التوحيد، ونبذ الشرك، ودعوة العباد إلى طاعة الله الواحد، والأخذ بمناهجه، والتذكير بأخبار القرون الماضية وأحوال الآخرة، وما يكون فيها من ثواب أو عقاب على ما قدمت يد الإنسان إلى غير ذلك مما يتصل بالقيم والمبادئ والمثل العليا، وما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم.

وقد اجتمعت للقرآن الكريم هذه الخصائص التى لا يمكن أن تتوافر لغيره متكاملة بهذه البراعة، ذلك القرآن الكريم الذى أحاط مُنزِله بكل شىء علمًا، وأحصى كل شىء عددًا.

ولا ريب أن الاستعمال القرآنى للألفاظ يلمس جوانب المعنى ويحددها تحديدًا دقيقًا، ونعرض هنا لبيان خصائص التعبير القرآنى فى بعض الجوانب اللغوية ومنها:

الاشتقاق:

فكما يقول اللغويون: الاشتقاق أخذ كلمة من أخرى مع الاتفاق فى الحروف والمعنى، وهو أوسع دائرة من الاشتقاق بالمعنى النحوى والصرفى، وهذا فتح مجالات واسعة لانتزاع لفظ من آخر، والربط بينهما بروابط معنوية أدت إلى السعة فى تناول المعانى واستعمالها.

وهذا يجد مجالاً واسعًا جدًا فى الاستعمال القرآنى، فالقرآن الكريم يأتى بالكلمة الواحدة التى يمكن أن ترجع إلى عدة أصول لغوية تتفرع منها، وهنا تزيد المعانى ثراءً واتساعًا، ويمكن للآية الواحدة أن تفسّر بوجوهٍ متعددة، ويمكن أن تنضم هذه الوجوه جميعها لتكوّن معنى عامًا واحدًا يطول المقام عند شرحه من جميع جوانبه، ويتجلى هنا الإيجاز اللفظى حيث يمكن لكلمة واحدة أن تؤدى مؤدى عبارات طويلة جدًا.

ونضرب نماذج وأمثلة لذلك - ونترك التفصيل لاستقصاء هذه النواحى من خلال سور القرآن الكريم حينما نأخذ فى بيانها بالتتبع الدقيق - إن شاء الله تعالى.

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ [البقرة: ٣] يمكن أن تفسر (إقامة الصلاة) بعدة معان يكمل بعضها بعضًا ويدرك ذلك عن طريق الاشتقاق اللغوى، فإذا كان الفعل (يقيمون) مشتقًا من (أقام العود): إذا قوَّمه وعدَّله فالمعنى المراد من إقامة الصلاة - حينئذ - تعديل أركانها وحفظها من أن يقع فى شئ من أركانها وسننها وآدابها خلل على معنى أن يهتم المصلى بإتقانها وسلامتها من الخلل والنقص، وإذا كان الفعل (يقيمون) مشتقًا من (قامت السوق): إذا نفقت أى راجت وكثرت الحركة الشرائية فيها، و(أقمت السوق): جعلتها نافقة فالمعنى المقصود - حينئذ - هو المواظبة على الصلاة والاهتمام بأدائها فى أوقاتها، وإذا حوفظ عليها فهى كالشئ النافق الذى يرغب فيه، ويصدق هذا قول رسول الله ﷺ «**وجُعلت قرة عينى فى الصلاة**».

وإذا كان الفعل (يقيمون) مشتقًا من (قام بالأمر وأقامه): إذا جد فيه واجتهد فيكون المعنى المراد هو التشمير لأداء الصلاة من غير فتور ولا توانٍ.

وبهذا نرى أن تعديل أركانها، والمواظبة عليها وحبها والتشمير والجد فى أدائها كل هذا مطلوب من المسلم حتى يحقق الاهتمام المقصود بها، وحتى يدخل فى عداد المتقين الذين امتدحهم الله تعالى فى هذه الآيات.

وهنا نرى أن (يقيمون الصلاة) أدت معانى نحتاج فى التعبير عنها إلى وقت طويل وعبارات مستفيضة، وهكذا تتجلى روعة الاختيار للألفاظ فى القرآن الكريم وسلوكها مسلك الاشتقاق الذى يوسع دائرة المعانى.

وتأمل كيف يكشف الاشتقاق عن أسرار اختيار اللفظة لموقع تتنوع فيه المعانى كقوله تعالى - عن المنافقين - ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٩] فأصل الخداع - فى اللغة - هو الإخفاء، ومنه الأخدعان وهما عرقان مستبطنان فى العنق، والخداع: أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد من المكروه ليوقعه فيه من حيث لا يشعر، أو يوهمه المساعدة على ما يريد هو به ليغتر بذلك، وهذا - بلا شك - يقوم على مبدأ الإخفاء والتستر حتى لا ينكشف أمر المنافق، وهكذا كانت حال المنافقين - فى صدر الإسلام -

فإنهم كانوا يريدون أن يطلعوا على أسرار المؤمنين فيذيعوها إلى الكفار والمعاندين ليلحقوا الضرر بالمسلمين، ومع ذلك لا ينكشف حال المنافق؛ لأنه يظهر خلاف ما يبطن.

وانظر أثر الاشتقاق ودلالته فى ختام هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة: ٩] وفى ختام آية أخرى - بعد ذلك - عن نصيحة المؤمنين للمنافقين بأن يؤمنوا كما آمنوا فلا يستجيبون بقوله سبحانه: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣] فما الفرق بين (يشعرون) و(يعلمون)؟ ولماذا أتى بهذا الختام هنا وبذلك الختام هناك؟ إن هذا يكمن فى اشتقاق كل من اللفظتين والمقام الذى يقتضيها.

فالشعور: إدراك الشيء من وجه يدق ويخفى، وهو مشتق من الشعر لدقته، وقيل: هو الإدراك بالحاسة، وهو مشتق من الشعار وهو ثوب يلى الجسد، ومنه مشاعر الإنسان أى حواسه الخمس التى يشعر بها.

ولما كان عمل المنافقين قائمًا على أساس الإفساد وهو محاولتهم تهييج الحروب والفتن التى تؤدى إلى اضطراب أحوال العباد واختلاف أمر المعاش، وهو مما يدرك بأدنى تأمل؛ لأنه من المحسوسات التى لا تحتاج إلى عميق فكر، فنفى عنهم ما يدرك بالحواس مبالغة فى تجهيلهم وهو أن الشعور الذى قد ثبت للبهائم منفى عنهم.

أما فى الآية الثانية فالمتحدث عنه هو الإيمان الذى يعنى صدق العقيدة واستقرارها، وهذا شيء يكون فى القلب، ولما لم يقع منهم هذا التصديق والإيمان ناسب التعبير بنفى العلم عنهم فهو الخاص بالإدراك اليقينى.

وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٥].

يقول اللغويون: إن (رمضان) مشتق من الرمض، ويحتمل اشتقاقه وجهين بناء على مفهوم الرمض وهو الاحتراق.

أحدهما: أنه اشتق منه لأنه يرمض الذنوب أي: يحرقها بمعنى يمحوها ويذهبها.

الثاني: أنه مشتق من الرمض - أيضًا - لكن لمعنى آخر وهو احتراق القلوب فيه من الموعظة.

والمراد بالبينات: الآيات الواضحات، ولما أعاد القرآن الكريم كلمة (الهدى) مرتين عدل عن تكرير كلمة (البينات) وأتى بدلاً منها بكلمة (الفرقان)، والسر في ذلك يكمن وراء الاشتقاق، فكلمة (الفرقان) فيها مزيد معنى لازم للبينات وهو كون القرآن يفرق بين الحق والباطل، ولا ريب أن الآيات الواضحات جعلت علامات تفرق بين الحق الذى جاء به القرآن وما عليه الفرق الأخرى - غير المؤمنين - من ضلال وزور وبهتان.

ويستخدم الاشتقاق كثيراً فى الدلالة على كثرة المعنى كقوله (الرحمن) عدل به عن (راحم) للمبالغة، ولا يجوز أن يوصف به إلا الله عز وجل لأنه يدل على معنى لا يكون إلا له وهو معنى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وكذلك صيغ المبالغة المعروفة كقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقد يبالغ القرآن الكريم باستخدام اللفظة التى هى صيغة عامة بأن يضعها موضع الصفة الخاصة كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وفى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] قال: شهداء - جمع شهيد - ولم يأت باسم الفاعل جمعًا مثل (شاهدين أو شهودًا) - جمع شاهد - لإرادة المبالغة هنا.

وتأمل معى الكشف عن أسرار الاستعمال القرآنى فى اشتقاق كلمة (السفيه) واختيار القرآن لاستخدامها فى قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

السفيه: من لا يميز ما له وما عليه، ويعدل عن طريق منافعه إلى ما يضره، ولا شك أن الخطأ فى أمور الدين أعظم مضرة من الخطأ فى أمور الدنيا فيكون أولى بهذا الاسم.

ولا ننسى أن الناحية الصوتية للفظ لها أثرها في إبراز المعنى، فقد يقتضي التفريق بين معنيين أحدهما قوى والآخر ضعيف - وهما من مجال معنوى واحد - أن يعبر عنهما بتغيير بعض الأصوات، وهذا الموضوع مبنى على نظرية مهمة فى فقه اللغة وهى الارتباط بين أصوات اللفظ ومعناه، فاللغويون العرب يتحدثون عن أنواع المعانى ودرجاتها ومناسبة الحروف، والأصوات المستعملة لها ويسمونه أحيانًا (الاشتقاق الأكبر).

فالألفاظ فى اللغة العربية تختلف عن نظائرها فى اللغات الأجنبية من حيث اشتراكها فى حروف واحدة، ودورانها حول معنى مركزى واحد، فألفاظ اللغة العربية تتشابه وتتشاكل وتترابط فى أسر وعائلات لغوية بينها وشائج قربى، ومن هنا تبرز سمة من أوضح السمات الأصيلة للغة العربية وهى واضحة تمام الوضوح فى القرآن الكريم فهو يسوق مرة الدعوة إلى التوحيدوأخرى الدعوة إلى العبادة، وثالثة الدعوة إلى الطاعة أو الدعوة إلى التفكير فى السموات والأرض وأخبار القرون الماضية، وتأمل الحياة والموت كل ذلك يسوقه بعبارات متفاوتة تؤدى غرضها وتأتلف الألفاظ حولها.

وفى مجال أصوات اللفظ واختيارها نرى أن القرآن الكريم يبرهن على دقته الفائقة فى استخدام الأصوات للمعنى المراد بحسب درجاتها قوة وضعفًا، فقد قال سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] وقال عز حكمه: فى شأن مريم ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

فالأز والهز كلمتان تتفقان فى (الزاى) المضعفة، وتختلفان فى أن الأولى تشتمل على الهمزة، والثانية على الهاء فى أولها، واللفظان من مجال معنوى واحد، فهما يدلان على التحريك فمعنى (تؤزهم) تحركهم إلى المعاصى وتغريهم بها، ومعنى (هزى) حركى فهما من مجال معنوى واحد هو التحريك.

وقد يسأل سائل: لم استعمل (الهمزة) فى تحريك الكفار إلى المعاصى واستعمل (الهاء) فى تحريك جذع النخلة، ولم يكن العكس مثلاً؟

والسر دقيق وهو أن التحريك الأول من قبيل تحريك العقول وتحريك العقول وتحويلها من فكرة إلى فكرة ليس أمرًا سهلاً بل هو فى غاية الصعوبة، وكم تعبت الرسل فى هداية أقوامها وعرض الحجج البينات أمام عقولها ومع ذلك كانوا يقولون لهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] على الرغم من وضوح الحجج والبراهين والدلائل على صدق الرسل، وهذا ناشئ عن عدم انصياع العقول وتحركها نحو الحق بسهولة ويسر، وقد تحاول أنت إقناع أحد الناس بفكرة معينة فلا يقتنع بما تقول إلا بعد أن تبذل معه جهدًا جبارًا، وقد لا يتفق معك فيما عرضت عليه من رأى، فمعنى ذلك أن تحريك العقول يحتاج إلى جهد خارق، وعزيمة قوية. والشيطان - بلا شك - يبذل جهدًا كبيرًا فى تحريك الكفار إلى المعاصى، ولذا ناسب أن يعبر القرآن الكريم فى جانب تحريك العقول بالهمزة المعروفة بين أصوات العربية بأنها حبسة حنجرية شديدة لها طابع الفرقعة والقوة ليكون التعبير عن المعنى القوى بالصوت القوى.

ولما كان جذع النخلة من قبيل الجمادات، وتحريكها أمر سهل مهما يتصور الإنسان حجم الجماد وأنه قد يكون ضخمًا أو ثقيلاً إذ يمكن إزالة بناء معين أو جبل معين باستخدام آلات معروفة، ففى أيام أو شهور يمكن أن يقضى على هذا الجماد وأن يزحزح عن مكانه بخلاف زحزحة العقول فإنه أمر ربما يستمر طويلاً أو لا يمكن مطلقًا.

ولما كان تحريك الجمادات - بجانب تحريك العقول - أمرًا سهلاً استعملت معه (الهاء) الضعيفة التى تناسبه بصوتها الخافت.

وتعال معى نتأمل قول الله تعالى عن عيون الجنة: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦] فاستخدم (النضخ) وهناك ما يقابله وهو (النضح) - بالحاء - وكلاهما

بمعنى السيلان إلا أنه لما كان السيلان أحيانًا على صورة التدفق الغزير، وأحيانًا على صورة الرشح الضئيل اختار العرب لكل منهما صوتًا يناسبه، فاستعملوا الكلمة بالخاء للمعنى القوى، وبالحاء للمعنى الضعيف، واختار القرآن الكريم لعيون الجنة الكلمة بالخاء، ولو أنه وضع الكلمة بالحاء لكان هذا ذمًا لا مدحًا.

وعليك أن تتأمل معى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢٢] عن دعوى نسبة البنات لله - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا - وقوله جل شأنه عن أهوال يوم القيامة: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠] فكل من اللفظين (ضيزى) و(قمطريرًا) وقعت موقعها الصوتى الملائم وإن بدت كل منهما صاخبة الأصوات، وكأن الأصوات تشهد بعظم المعنى وفداحته مع ما جرت عليه العادة من استخدام الأصوات التى تقع على الأذن موقعًا سهلاً بسلاستها وعذوبتها.

ومن هنا ندرك أثر استخدام الأصوات فى القرآن الكريم.

ومثل ذلك كثير فى القرآن الكريم، ومنه ما يتعلق بزيادة أصوات كلمة عن أخرى فذلك يكون متجهًا إلى قوة معنى الكثيرة الأصوات عن صاحبتها فاقتدر - مثلاً - أقوى معنى من قولهم: قدر، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢] فمقتدر هنا أوفق من (قادر) من حيث كان المقام لتفخيم الأمر، وشدة الأخذ.

وكذلك قول الله سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فلما كانت السيئة تورث فاعلها إثمًا كبيرًا وجزاءً أليمًا ناسب أن يضيف التاء فى عملها، ولذا قال الله سبحانه: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠ - ٩١] فإذا كان فعل السيئة ذاهبًا بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية عظم قدرها، وفخِّم لفظ العبارة عنها، فزيد فى لفظ فعل السيئة حرف هو التاء وانتُقص من لفظ فعل الحسنة.

وخذ هذا الجانب المشرق من ملاحظة الإفراد والجمع فى القرآن الكريم وهو قائم على اختيار اللفظ المفرد لموقع لا يصلح له اللفظ المجموع والعكس قال تعالى : - فى شأن من يباح لهم الإفطار فى رمضان - ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]- بلفظ (أُخَر) الجمع - وقال سبحانه - حكاية عن موسى عليه السلام فى شأن عصاه - ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] - بلفظ (أُخرى) المفرد، ولا يصح فى الآية الأولى أن يؤتى بكلمة (أُخرى) المفردة لأن ذلك يفسد المعنى . وبيانه - على طريق الاشتقاق - أن (أُخر) تأتى جمعًا لأُخرى - تأنيث آخر بفتح الخاء - أفعل تفضيل كما تقول : أحمد آخر المصلين - على معنى أنه أكثرهم تأخرًا عن الحضور للصلاة مثلاً، وهند أُخرى المصليات - على هذا المعنى أيضًا - وتأتى جمعًا لأُخرى بمعنى آخرة - تأنيث آخر بكسر الخاء - مقابل المراد من لفظ (الأول) وهى تعنى المغايرة كما تقول : علي آخر المصلين وسعاد أخرى المصليات، أى : يقع ترتيبهما فى المؤخرة، وتقول : صليت خلف إمام آخر لم يتقن، فالمراد : إمام غير الإمام الأول، وكذلك تقول : الصوم ركن من أركان الإسلام، والصلاة ركن آخر من أركانه، أى غير الركن السابق، وتقول : أديت صلاة فى جماعة، وصلاة أخرى منفردًا، فالمراد : غير الأولى .

وكلمة (أخَر) - هنا - من هذا المعنى الأخير الذى يعنى التالية والبديلة، فالمراد : فعدة من أيام غير الأيام الأول التى أفطرها وتكون بدلاً منها يقضيها المفطر عند قدرته على الصوم، فكلمة (أخَر) وصف لأيام ولو أتى بها مفردة فقال : (أخرى) لأوهم ذلك أن تكون صفة لعدة، وعليها يفوت المعنى المطلوب، فربما يُفهم أن المطلوب من المباح له الفطر أن يقضى عددًا مختلفًا من الأيام أكثر من المدة التى أفطرها أو أقل منها، وهذا يخل بالمعنى، ولذا جاءت كلمة (أخَر) جمعًا ليتحدد أنها وصف لكلمة (أيام) لا لكلمة(عدّة) حتى لا يختل المراد .

ولما كان الاستخدام اللغوى فى القرآن دقيقًا إلى هذا الحد اقتضى أن نبين فى هذا الكتاب بعض هذه الخصائص فى القرآن الكريم .

ولما كان رسول الله ﷺ أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء وكلامه ﷺ فى الذروة والسنام وحديثه ﷺ يلى فى الفصاحة والبلاغة القرآن الكريم فلا غرو أن نوضح فى هذا الكتاب أهم خصائص التعبير النبوى الشريف .

ومن هنا جاء هذا الكتاب فى بابين يشتمل كل منهما على عدة فصول :

الباب الأول: لغة القرآن الكريم، ويشمل ثلاثة فصول:

الفصل الأول: خصائص التعبير فى القرآن الكريم .

الفصل الثانى: كثرة المعانى وجدتها وطرافتها فى المشترك اللفظى فى القرآن الكريم .

الفصل الثالث: الألوان والأطياف والظلال فيما يظن من المترادف فى القرآن الكريم .

الباب الثانى: لغة الحديث الشريف.

الفصل الأول: خصائص التعبير فى الحديث النبوى الشريف .

الفصل الثانى: من بدائع البيان النبوى .

الفصل الثالث: اللهجات والصيغ والتراكيب فى الحديث .

وأرجو الله تعالى أن يجعل عملى هذا خالصًا لوجهه الكريم وأن ينفع به طلاب العلم والإسلام والمسلمين . والله ولى التوفيق .

أ.د / عبد الغفار حامد هلال

الباب الأول

لغة القرآن الكريم

• الفصل الأول

خصائص التعبير فى القرآن الكريم

• الفصل الثانى

كثرة المعانى وجدتها وطرافتها فى المشترك اللفظى فى القرآن الكريم

• الفصل الثالث

الألوان والأطياف والظلال فيما يظن من المترادف فى القرآن الكريم

الفصل الأول

خصائص التعبير فى القرآن الكريم

تمهيد

لا ريب أن القرآن الكريم بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه - كما قال الباقلانى - فلا يوجد فيه تفاوت أو تباين بل هو حسن النظم لا إسفاف فيه ولا اختلاف، ووجوه التصرف فيه مما يتجاوز حدود الكلام المعتاد.

إن هذا القرآن منتظم من الحروف التى بنى العرب منها كلامهم ولكنه نظم لا يعرف له مثال.

والحروف والكلمات منتقاة بحيث لا يمكن أن يحل غيرها محلها.

والمعروف أن اللفظ هو زمام المعنى وثوبه الذى يبرزه -كما يرى المتكلم- فإذا عجز عن إبرازه كان غير ملائم له، والدقة تتجلى فى اختيار اللفظ على قدر المعنى لا أقل منه ولا أكثر، وهذا يتطلب وضع كل نوع من الألفاظ موضعه المناسب له الذى لا يمكن إبدال غيره منه، فإذا تبدل فسد المعنى، وذهب رونق الكلام.

فبعض الألفاظ قد يظن أنها متساوية المعانى، والحقيقة أنها متفاوتة لأن فى كل منها مزية ليست فى الأخرى، فإذا استعمل بعضها مكان بعض فسد المعنى كالعلم والمعرفة والحمد والشكر، والريب والشك والنور والضوء فلكل لفظ من هذه المجموعة خاصية يتميز بها عن صاحبه فى بعض جوانب المعنى، وإن كانا يشتركان فى بعضها.

وهنا نرى الدقة القرآنية فى استخدام اللفظ المناسب للمعنى المناسب، فهو سبحانه يقول عن القرآن الكريم: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] والريب هو الشك مع تهمة وهو يعنى قلق النفس واضطرابها، ومنه الحديث «دع ما يريبك إلى ما لا

يريبك» وقد نفى عن القرآن الكريم أن يكون محلا للريب أو مناطا للتهمة بمعنى أن معه من الأدلة والبراهين ما لو تأمله الكافر أو المنافق لم يرتب فيه .

وأيضا يعبر القرآن الكريم بالضوء والنور ولا يضع أحدهما فى موضع الآخر حين يقول المولى سبحانه عن المنافقين : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ** ﴾ [البقرة : ١٧] فقال ﴿ **ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ** ﴾ ولم يقل (بضوئهم) مع أنه مقتضى اللفظ والسياق لذكره قبل ذلك لكن لما كان المراد إذهاب النور عنهم تماما وكلية عبر بالنور، وترك التعبير بالضياء لئلا يحتمل أن الذى أذهب عنهم هو ما فى الضوء من الزيادة، وأن النور كان باقيا عندهم ؛ إذ الضوء أبلغ من النور وأكثر .

واختيار اللفظ ينبغى أن يقوم كذلك على القرب من الأفهام بحيث يبادر معناه لفظه انسياقا إلى القلب ومسرى إلى جوانب النفس .

واختيار الألفاظ للمعانى المؤسسة المبتكرة أمر يحتاج إلى براعة وإذا برع اللفظ فى المعنى البارع كان لطيفًا عجيبًا ، وألفاظ اللغة تتفاوت فى ذلك بحسب التناول .

وللقرآن الكريم فى ذلك طابع مميز ، فهو سهل ممتنع ، لا يقدر عليه أحد من البشر ، ولا يوجد بين كلمات القرآن وحشى مستكره أو غريب مستنكر .

والكلمة لا يبين فضلها إلا فى تضاعيف الكلام ، فتجذب الأسماع والنفوس ، ويبدو جلاء رونقها ، وصفاء لونها بين سائر الكلمات التى تحوطها من هنا ومن هنا كالدرة أو الياقوتة واسطة العقد .

وكذلك الكلمة فى القرآن الكريم يبدو فضلها فى تأليف نظمه الذى يبدو كله غررا لها حسنها ورواؤها .

انظر معى إلى كلمة (الروح) وكلمة (النور) فى قوله تعالى :

﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ [الشورى : ٥٢] .

فجعل القرآن الكريم (روحًا) لأنه - بتأثيره فى الخلق - له فضل الأرواح فى الأجساد: وجعله (نورًا) لأنه يضىء ضياء الشمس فى الآفاق .

ثم أضاف الله تعالى وقوع الهداية به إلى مشيئته، ووقف تحقق الاسترشاد به على إرادته، وبين أنه لم يكن ليهتدى لولا توفيقه وتعليمه سبحانه وتعالى .

وتأمل معى - كذلك - كلمة (ليأخذوه) فى قوله عز حكمه: ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ** ﴾ [غافر: ٥] إن كلمة (ليأخذوه) لا يمكن أن تقع أية كلمة أخرى موقعها من الحسن والدقة والبراعة والجزالة والأصالة والشمول لكل المعنى المراد بجميع جوانبه، ولا يمكن أن تسد أية كلمة أخرى مسدها، فهات - مثلاً - كلمات وحاول أن تتصور ورودها مثل (ليقتلوه) أو(ليرجموه) أو(لينفوه) أو (ليطردوه) أو (ليهلكوه) أو(ليذلوه) فلا يمكن أن تحقق المعنى الذى تحققه كلمة (ليأخذوه) بشمولها ودقة اختيارها .

ثم انظر معى إلى تلك المشاكلة اللفظية القوية فى قوله تعالى عقب ذلك: ﴿ **فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ [غافر: ٥] إن إعادة الكلمة آذنت بسمو المعنى وتنوعه الذى أحاطت به فى إيجاز عجيب .

وخذ - أيضًا - قوله تعالى: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء: ١٨]، إذا قلت: قذف به عليه فمعناه: ألقاه عليه على جهة القهر والإكراه، فالحق يلقى على الباطل فيزيله بقوة وجبروت، و(يدمغه) أكثر قوة من (يذهبه) ونحوه لما فى (يدمغه) من التأثير الذى يعنى نصرة الحق، والقضاء على الباطل بتأثير القوة .

وقد يضع القرآن الكريم اللفظ الخاص موضع اللفظ العام والعكس أيضًا، ولكل استعمال سره اللغوى الدقيق .

ففى مقام هدى القرآن يقول سبحانه: ﴿ **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة: ٢] ويقول مرة أخرى - ﴿ **هُدًى لِّلنَّاسِ** ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فخص المتقين - أولاً - لأنهم هم الذين

ينتفعون بالهداية، ويستجيبون للطاعة ويسارعون إليها، ويبدو أثر القرآن الكريم فيهم، ولذا جاء فى المقام الثانى وأطلق لفظ (الناس) لأن هذا هو الشأن فى هداية القرآن فهى شاملة لكل ناظر من مؤمن وكافر.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ [البقرة: ١٣] فعبر عن المؤمنين بكلمة (الناس) وهى عامة؛ لأن المراد هنا أنهم الكاملون فى الإنسانية العاملون بقضية العقل، والمراد: أنهم آمنوا إيمانًا مقرونًا بالإخلاص.

وتعال معى نتأمل التعبير القرآنى عن القصة الواحدة بألفاظ عدة، قال تعالى عن قصة موسى مع أهله: ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩].

هذا التصرف فى القصة بأساليب متعددة، واختيار ألفاظ لكل منها لونها وطابعها يسلك مسالك الدقة والجزالة والرصانة، فليس بينها لفظ سوقى أو حوشى، وإنما كلها طلية جلية تريك أنها مهما تتعدد صورها فهى فى منزلة رفيعة من القول لا تنزل، ولا تنحدر.

ولا يتأتى مثل ذلك فى أساليب البشر، ولا يتمكن إنسان أن يجعل فى كلامه المختلف مؤتلفًا بل فى كثير من الأحيان يظهر عليه إعياء التنقل ويظهر فى كلامه آثار التكلف والتعجل.

وتأمل معى هذه الصورة من إعادة اللفظة بعينها كيف تبدو للعين والسمع، قال تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الأسراء: ٧] وقال سبحانه: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء: ٨] فهى مؤتلفة مؤسسة للمعانى على الرغم مما يبدو من حيث الصورة، بتكرار الألفاظ، فإن أحسنتم بالعمل أحسن الله إليكم بالثواب والأجر وإلا فلا، وإن عدتم إلى الطاعة عاد الكريم إلى الصفو والعفو.

وقد يسأل سائل: لماذا كرر اسم الإشارة فى قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥] وما أثره فى نسق الجملتين؟

فنقول - والله المستعان - إن هذا التكرار لمزيد الاهتمام والعناية بأمر المؤمنين، وأن لهم خصلتين بارزتين: هداية ربهم لهم وفلاحهم، ويؤكد لك ذلك أنه أتى بحرف العطف (الواو) بين الجملتين، بخلاف قوله تعالى عن الضالين: ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فقد شبههم بالبهائم لبيان كمال غفلتهم والجملة الثانية مقررة لمعنى الأولى.

وفى اختيار الحروف يبلغ التعبير القرآنى الغاية ويشرف على النهاية فى الدقة فلا يجاريه أسلوب بشرى على الإطلاق.

تأمل - مثلاً - قوله تعالى عن القرآن الكريم فى أول سورة البقرة: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ [البقرة: ٢]، إن استخدام اللام التى للبعيد فى اسم الإشارة (ذلك) واستعمال (ال) فى (الكتاب) جعل الكلمة تدل على القرآن دلالة فريدة لا تتعداه إلى غيره، فاللام فى اسم الإشارة تدل على بعد المشار إليه فى المنزلة وإن كان قريبًا من المخاطبين، والقرآن الكريم منزل منزلة المشاهد بالحس البصرى، فالإشارة بلام البعد للدلالة على علو شأنه وكونه فى الغاية القصوى من الفضل والشرف على سائر الكتب؛ وهذا لا يتنافى ولا يتعارض مع قربه فى الحضور بين أيدينا و(ال) فى (الكتاب) تفيد معنى الكمال أى أنه الكتاب الكامل فى كل شىء.

ومن ذلك - أيضًا - قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ [البقرة: ١٨٤] استعمل فيه الحرف (على) وهو يدل على التمكن، ولذا قال الفقهاء: لا يباح الفطر للمسافر إلا إذا شرع فى السفر وقت طلوع الفجر، أما المرض فيباح معه الفطر ولو عرض فى أثناء اليوم وجاء الحرف (على) ليؤكد ذلك.

كما أكد استعمال الحرف (إلى) فى قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] معنى غاية فى الدقة، فالمراد من الآية أن الصيام يبدأ من الفجر وينتهى

عند حلول أول الليل بغروب الشمس، والحرف (إلى) يشارك فى هذا التحديد فهو متعلق بـ (أتموا)، والمعروف أن ما بعد (إلى) إذا كان من غير جنس ما قبلها لم يدخل فيه، فالليل ليس من جنس النهار وبإخراج الليل عنه نفى صوم الوصال؛ لأنه تعالى جعل الليل غاية للصوم، وغاية الشيء منتهاه، وما بعد (إلى) هنا يخالف ما قبلها.

ومن إعجاز القرآن الكريم فى مجال الجملة أو العبارة ما يكشف عنه فقه اللغة فهو جانب ثرى جدًا بالأسرار وجوانب القوة والفخامة والدقة التى بلغت حدًا لا تصل إليه الأفكار البشرية أو الهمم الآدمية.

وهو يختلف عن أى أسلوب بشرى من حيث الاستقامة والاعتدال، وتراكيب القرآن الكريم تحمل ما يريد المولى -عز وجل- إيصاله للناس جميعًا من حكم وأحكام ومبادئ وقصص ومواعظ وأعذار وإنذار ووعيد وتبشير وتخويف وأخلاق كريمة وشيم رفيعة، وسير مأثورة فى قمة التناسق والانتظام.

وتأمل الجملتين الفعلية والاسمية فى قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] وقوله سبحانه: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] لِم اختلف النسق التعبيرى بينهما؟

فالإنفاق متجدد، فاقتضى التعبير بالجملة الفعلية، وقد أكد بالجملة الاسمية اعتقاد المؤمنين الجازم بالآخرة وأن ذلك لا شك فيه وجاءت كذلك الجملة الاسمية فى قوله تعالى: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لتؤكد فساد ما عليه أهل الكتاب من اعتقاد فى أمر الآخرة وأنه بمعزل عن الصحة حيث زعموا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودًا أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات، وغير ذلك مما هو باطل، وجاء نسق الآية ردًا على أباطيلهم.

وتأليف القرآن الكريم فى درجة واحدة من المتانة والرصانة بحيث لا يتفاوت من مقام إلى مقام، ولا من سورة إلى أخرى، فهو فى كل موقع لا يعلو مرة وينزل أخرى، وإنما هو عالٍ دائمًا، سواء فى ذلك الآيات القصيرة والآيات الطويلة.

انظر إلى هذه الآيات الكريمة وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

هذه ست جمل لها رونق وسناء، وهى مرتبة ترتيبًا فريدًا، فقد ذكر العلو فى الأرض مجملاً، ثم فصله باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبى النساء، وترك للنفس أن تفسر مدى الفساد الذى كان عليه فرعون؛ لأنه إذا تحكم فى هذين الأمرين سهل عليه كل ما عداهما، ولذا حكم عليه حكمًا قاطعًا بالفساد.

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] اختص بالذكر أمرين هما: تنزيله الآيات والرزق، وهما أمران يختص الله سبحانه بالقدرة عليهما لتناسبهما فى أنهما من تنزيله من السماء، ولأن الرزاق الذى لو لم يرزق لم يمكن بقاء النفس تجب طاعته والنظر فى آياته.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٤ - ١٥ - ١٦].

قد يظن أن فى هذه الآيات زيادة وهى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ إلخ، والواقع أن هذا يفصح عن الأحداث الجسام التى تكون يوم القيامة، وهذا من طبيعة كلمة (البروز) ثم أكدها بقوله: ﴿لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦] ثم بين أن الأمر كله لصاحب القدرة القاهرة، وهو الله سبحانه وتعالى، فالدلالة اللفظية هنا دلالة رائعة، ولو أنك فكرت فيها وراجعت نفسك فى مراعاة معانى هذه الصفات العالية والكلمات السامية، والحكم البالغة والمعانى الشريفة لعلمت حق العلم ورودها عن الألوهية، ودلالتها على الربوبية، وهنا نتحقق أن الخطب المنقولة عن

العرب الفصحاء والأخبار المأثورة عنهم فى كلماتهم الفصيحة لا يمكن أن تصل إلى هذا التعبير القرآنى البديع فذلك مجال لا تعلق به الهمم البشرية، ولا تستطيع أن تحوم حوله الأفكار الآدمية.

ومعروف فى كلام البشر أن القصة الواحدة إذا أعيدت فى كلامهم فإنها - غالبا - لا تكون بالدرجة نفسها التى عرضت بها فى المرة الأولى فكلام البشر يعلو وينخفض تارات وتارات.

لكن القرآن الكريم - فى طوله وقصره، وإجماله وتفصيله - وافٍ بالغرض المقصود فيضع كلاًّ فى مكانه وزمانه المناسبين.

ولذا اعتلى نظمه، وسلس لفظه وحسنت بهجته وموقعه فى السمع، وسهل على اللسان، ووقع فى النفس موقع القبول، وتصور أمامها تصور المشاهد، فبيان القرآن الكريم أشرف بيان وأهداه، وأكمله وأعلاه.

وما أقرب التعبير القرآنى مما يسميه علماء فقه اللغة (اللياقة اللغوية) كاستخدام (الرفث) و(المباشرة) فى قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾، ثم التعبير المهذب فى قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

إن القرآن الكريم يعلمنا دروسًا مفيدة فى العفاف والأدب فى حياتنا العملية، وحياتنا اللغوية، فلا نورد على ألسنتنا شيئًا من بذىء القول، فالقرآن ذلك الدستور السماوى الذى يضع المبادئ للأمة لتقتدى به وتهتدى، وهذا باب واسع يمكن الكشف عنه بتتبع آثاره ومظاهره فى آيات القرآن الكريم.

وهكذا يمكن أن نقول: إن القرآن الكريم ملىء بالأسرار التى يمكن الكشف عنها من خلال تناول آياته الحكيمة من منظور فقه اللغة وقوانينه على ما سنبينه فى تفسيرنا البيانى إن شاء الله تعالى.

خصائص التعبير القرآنى
فى سورة البقرة

[١] بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓمٓ ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥].

للقرآن الكريم والمؤمنين صفات وخصال تحدث عنها القرآن الكريم فى مواضع كثيرة، وهذه الآيات من سورة البقرة يبين فيها الحق تبارك وتعالى بعض هذه السمات التى جاءت مجتمعة فى مطلع السورة ونوضح للقارئ الكريم أمرها.

أولاً: صفات القرآن الكريم

وصف المولى سبحانه القرآن الكريم بثلاث صفات هى:

الأولى: أنه الكتاب الكامل وكل ما عداه من الكتب أقل شأنًا ومقامًا منه، وأنه تفرد بالصحة والائتلاف وليس به خلل فى أى جانب من جوانبه أو شىء من قضايا الشرع أو الاجتماع أو التاريخ أو غيرها مما يشتمل عليه.

ثم هو الكامل فى نواحى اللغة فلا خلل، ولا تناقض ولا نقص، ولا نزول عن المرتبة العليا فى مجال اللغة.

لقد جاء التعبير فى كلمتين ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، ويمكن أن نشرحها فى كتب مطولة، وأحاديث مفصلة تأخذ منا أوقاتاً، وأوقاتًا وأوراقًا وأوراقًا، فهو الإيجاز الذى بلغ الغاية فى الإفهام والبيان.

وإذا أتينا إلى التفصيل نجد أن اسم الإشارة (ذلك) الذى استخدمه القرآن مع أن المشار إليه قريب وهو (القرآن الكريم)، فكيف يستخدم الإشارة للبعيد مكان اسم الإشارة للقريب (هذا)؟ إنه استعمل الإشارة للبعيد لغرض سام نبيل وهو أن يبين بعد مكانة القرآن الكريم وعلو منزلته، فالبعد هنا ليس بعداً فى المكان، والمسافة المحسوسة ولكنه بعد فى الرتبة، والصفة التى هو عليها - إذا قورن القرآن بسائر الكتب الأخرى سواء منها المنزل على الرسل والأنبياء السابقين كالتوراة والإنجيل والزبورأو غيرها من سائر الكتب البشرية - إن القرآن الكريم على رأسها جميعًا، فهو فى الغاية القصوى من الفضل على سائرها.

ولعلك - أيها القارئ الكريم - تدرك - أنه أشار إلى القرآن، وهذه الإشارة تقتضى أن يكون القرآن موجوداً أمام البصر، وأمام البصيرة فى مشاهدة لا تقل عن مشاهدة المحسوسات.

وقد دخلت (ال) على (كتاب) ويسمونها (ال) التى تفيد الكمال، فهذان الحرفان - الألف واللام - جاءا ليدلا على غرض، وهو أن القرآن الكريم بلغ النهاية فهو كامل فيما عرض من أحكام، وشرائع، وما دل عليه من أخبار وعلوم، وما أشار إليه مما يهدى البشرية فى حياتها، ووجودها بما يجعله فى مكان الصدارة فوق سائر الكتب، ومن باب أولى لا يمكن أن يقارن به غيره من الكتب الأخرى.

بل إن وجود (ال) يتميز بأن يترك للسامع والقارئ حرية التفسير على وجوه شتى لا يمكن أن نحصرها الآن.

الصفة الثانية: نفى الريب عن القرآن الكريم ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾، فالقرآن الكريم ليس محلاً للريب، ولا يتعلق به الريب وأداة النفى (لا) الموجودة هنا نافية للجنس على معنى أنها تنفى أى شيء من الريب أن يكون له وجود أو محل فى حقائق القرآن الخالدة.

والريب - كما يقول اللغويون - هو الشك مع تهمة، وهو يعنى قلق النفس، واضطرابها ومعنى هذا أن النفوس تطمئن إلى صحة القرآن، ووروده عن الله عز وجل دون أدنى إحساس بعدم الثقة فيه.

وقد يقول قائل : إن بعض الناس - وهم غير المؤمنين بالطبع - شك فى القرآن، فما رأيك؟

نقول : إن غير المؤمنين هؤلاء لو علموا حقيقة القرآن، وفهموا ما فيه، وتأملوه تأمل الراغب فى الهدى والاستقامة لزال الريب من نفوسهم، وانمحى الشك من قلوبهم، فالقرآن صادق فى كل ما أتى به ؛ لأنه كلام رب العالمين .

الصفة الثالثة: القرآن سراج الهداية ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ نزل على نبى الإنسانية محمد ﷺ دستوراً يرشد الناس إلى ما ينفعهم، ويحذرهم مما يضرهم، فبه تستقيم حياتهم .

والهدى فى قوله سبحانه : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ هو الرشاد والبيان، فجعل المولى سبحانه القرآن هو الهداية وهو الاستقامة، وهو الصلاح للبشرية .

ولكن لماذا خص المتقين بالذكر دون سائر الناس مع أن القرآن الكريم عام فى الهداية للناس جميعًا كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

والجواب : أنه خص المتقين بالذكر هنا لأنهم أسرع الناس إلى الاستجابة لأوامره، ونواهيه، ومبادئه كلها على حد قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥] .

ثم انتقلت الآيات إلى بيان صفات المؤمنين فوصفهم المولى سبحانه بعدة صفات :

الأولى: إيمانهم بالغيب قال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣] والفعل (يؤمنون) بمعنى : يصدقون أو يعترفون أو يثقون ونحو ذلك .

والغيب : بمعنى الغائب فهو مصدر استعمل بمعنى اسم الفاعل، والغائب معناه، ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة، بحيث لا تدركه إحدى الحواس، ولا يدركه العقل كذلك من تلقاء نفسه .

والأشياء الغائبة عنا نوعان:

نوع يختص الله تعالى بعلمه وهو الذى قال عنه سبحانه: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَيَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ** ﴾ [الأنعام: ٥٩] كرزق الإنسان وحياته وموته، وشئون العالم التى لا ندرى عنها شيئًا، ونوع آخر ترشد الأدلة عليه، وإن لم نشاهده، أو نحس به بذاته، فمعرفة الله وصفاته، والأنبياء، والبعث والنشر والحساب، والجزاء كل هذه أمور غائبة عنا، ولكن أمامنا الأدلة والبراهين الدالة عليها فى هذا الكون، وفى أنفسنا وفى مخلوقات الله كلها، وإقامة الله تعالى الأدلة فى هذا الكون على عدله، وعلى فضله، وإرساله الأنبياء بالمعجزات، والدلائل، لتدل على الله تعالى، وعلى أن للإنسان نهاية ينتهى إليها، وأنه لابد من الحساب والجزاء بعد البعث، وغير ذلك مما قامت الأدلة السمعية عليه.

وهذا النوع الثانى الذى سمع من الأنبياء، وحكاه القرآن الكريم هو المقصود بالغيب هنا.

فالمراد هنا: وصف المؤمنين بأنهم هم الذين يقرون بوجود الله تعالى وبصفاته، وبأنبيائه، وبأن البعث والنشر، والحساب واقع لا محالة.

ثانية صفات المؤمنين: أداء الصلاة قال عز حكمه: ﴿ **وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ** ﴾ [البقرة: ٣] ويرد الفعل أقام بعدة معان.

فيقال: أقام فى المكان: إذا سكن فيه وهذا يعنى المداومة فيكون المراد بإقام الصلاة المداومة على أدائها وعدم التفريط فى صلاة منها بأداء الصلوات كاملة فى أوقاتها، ويقال: أقام العود: إذا عدله وقومه بعد اعوجاج، وعليه يكون معنى إقامة الصلاة أداؤها على الوجه الأكمل باستيفاء قيامها وقراءتها وركوعها وسجودها بأدائها بتؤدة وطمأنينة لا كما نلحظ من أدائها بسرعة خاطفة لا تستغرق ثوانى معدودة عند بعض الناس، ويقال فى العربية - أيضًا - قام بالأمر: إذا جد فيه واجتهد، وعليه فسرت إقامة الصلاة بالجد فيها من غير تكاسل أو فتور.

ويقال: قامت السوق إذا نفقت، وأقمتها: جعلتها نافقة على معنى نشطت حركة البيع والشراء فيها فرغب البائع فى البيع ورغب المشترى فى الشراء، وعليه فالمعنى المراد من إقامة الصلاة حب الصلاة والرغبة فى أدائها كما قال الرسول ﷺ: «**وجعلت قرة عينى فى الصلاة**».

ولا بأس بأن يكون المعنى جامعًا لكل هذه الجوانب وهذا هو سر اختيار القرآن الكريم لكلمة (يقيمون) دون غيرها كأن يقول، يواظبون أو يؤدون أو يجدون مثلا، فاختار الكلمة التى لها كثير من المعانى، وكلها تدخل فى الإطار المطلوب من المؤمن حيال ركن مهم من أركان الإسلام وهو الصلاة.

الصفة الثالثة للمؤمنين: الإنفاق مما أعطى الله تعالى لهم قال جل شأنه: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ [البقرة: ٣].

المراد إخراج جزء من المال فى سبيل الله وللاهتمام والإشارة إلى أن المؤمن يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن المال مال الله وأن الجزء الذى ينفق منه ليس فيه فضل لمالكه بل الفضل فيه يرجع إلى الخالق الرزاق قدم (مما رزقناهم) على الفعل (ينفقون).

الصفة الرابعة: هى صفة أساسية متصلة بالحديث عن القرآن وهى، التصديق بالقرآن الكريم وكتب الله الأخرى المنزلة على رسل الله السابقين، والتصديق باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ [البقرة: ٤].

وفى التعبير القرآنى دلالات كثيرة:

أولها: التعبير بالفعل (أنزل) الذى يدل على معنى الزمن الماضى فهو يشعر بأن القرآن قد نزل بالفعل من قبل مع أنه لم يكن فى ذلك الوقت قد تم نزوله، بل كان يتنزل ويترقب نزول أجزاء منه بعضها تلو بعض.

والسبب فى أنه استعمل الفعل الماضى هو الدلالة على أن القرآن بعد أن بدأ نزوله

أصبح فى حكم المتحقق النزول كله فجعل ما سيتحقق بمنزلة المتحقق بالفعل ، ومن عادة القرآن الكريم أن يجرى على هذه الطريقة ليفيد تحقق الأمر الذى يتحدث عنه .

والتعبير بنزول الكل عن نزول البعض ليدل على أن هذا الكتاب الذى جاء لهداية البشرية متحقق النزول ولن تقف أية عقبات فى طريق معرفة البشر له ، وكونه معمولاً به ، وأنه سيكون الدستور الحى لبنى الإنسانية لا محالة ، ولن يستطيع أحد أن يمنعه من النزول ، أو يصرفه عن الأهداف المرسومة لانتشاره واستمراره .

وقد عبر بقوله سبحانه : ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ للإحاطة فى أسلوب موجز بالكتب التى نزلت على الأنبياء والرسل السابقين وهى كثيرة يكفى من المؤمن أن يعترف بها إجمالاً لا تفصيلاً ، فليس على المؤمن أن يبحث عن كل الكتب السابقة الموحى بها ليعرف أسماءها ، ويؤمن بكل منها ، بل يكفيه المعرفة الإجمالية وأن يصدق بأن الله أرسل رسلاً - على كثرة عددهم - وأنزل عليهم وحيه ، وأنه مصدق بكل ذلك ، وقد جاءت الآية مجملة فى إيجاز دقيق معبرة عن المطلوب من المؤمن لصحة عقيدته دون عنت أو إرهاق .

وقوله سبحانه : ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ، الآخرة - فى أصل اللغة - تأنيث لكلمة (الآخر) بمعنى الذى يقع بعد غيره فى الترتيب ولا يتلوه شىء كما أن كلمة (الدنيا) تأنيث لكلمة (الأدنى) بمعنى ما يكون فى مكان أسفل من غيره ، والتسفل قد يكون محسوسًا وقد يكون معقولاً كالأدنى فى المرتبة الاجتماعية ، أو الحسب أو الدين أو غير ذلك ، وقد يكون الأدنى فى المكان ، أو فى الثروة المالية أو نحو ذلك فيكون الأمر حسيًا .

ولكن جاء استعمال الكلمتين فى القرآن الكريم كثيراً ويراد منهما الحياة التى يحياها بنو الإنسان (الدنيا) والحياة الثانية - بعد البعث والنشور والقيام من القبور - ليعبر عن الزمن الذى يجازى فيه الإنسان على ما قدم فى حياته الأولى من خير وشر ، وهذا استعمال لغوى أحدثه الإسلام ، ويعد هذا الاستعمال مما خصصت فيه الألفاظ بعد الإسلام وكانت قبل ذلك عامة .

فبالنظر إلى أن حياة الإنسان من العدم تفنى وتنقضى لا تستحق أن يكرس الإنسان لها وقته وأن يفنى فيها عمره فى جمع حطامها ؛ إذ إن ذلك ليس بدائم، أما الحياة الثانية بعد القيام من القبور فباقية تستحق أن يكرس لها الإنسان جهوده، وأن يجمع لها ما يجعله فيها مترفًا ثريًا ثراء حقيقيًا، ولذا فإن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى أن الحياة الثانية أرقى مكانة ومنزلة من الحياة الأولى، وحث الناس على العمل للآخرة أكثر من الدنيا، ومع ذلك لا يمنع الإسلام من العمل الدنيوى السليم، فإنه طريق العمل الأخروى، ولذا جاءت الموازنة بين الدنيا والآخرة وجاء التعبير اللغوى مؤديًا للمراد فى شمول ودلالة دقيقة.

وجاءت (وبالآخرة) متقدمة على الفعل (يوقنون) للدلالة على أن التصديق بالآخرة أهم من أى شىء آخر مما يؤمن به الناس من التعلق بالحياة الدنيا، وأن الإيمان بالآخرة يمثل أمرًا حيويًا للإيمان الصحيح.

وقال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ولم يقل (يوقنون) فقط لتأكيد الاهتمام بالآخرة بإتقان العلم بها، ونفى الشك والشبهة عنها، فمعنى (هم يوقنون) أن المؤمنين - حقًا - هم الذين يصدقون تصديقًا جازمًا بالآخرة، وما يجرى فيها من العدل الإلهى بين البشر، وأنه لن تكون هناك مزايا لبعض البشر دون وجه حق كأن يعلو جنس معين، أو طائفة معينة لا لشىء إلا لأنها ذات حسب ونسب، أو لأنها هى الوحيدة التى رضى عنها دون غيرها كما كان يزعم أهل الكتاب من اختصاصهم بالجنة أو بعدم مس النار لهم إلا أيامًا معدودات، وبذلك فإن المؤمنين الصادقين هم البعيدون عن هذه الشبهة المعتقدون اعتقادًا جازمًا فى عدل الله تعالى ومجازاة الطائعين، ومعاقبة العصاة الفاسدين من البشر دون نظر إلى جنس أو لون أو انتساب سابق.

وجاءت الأفعال كلها مضارعة (يؤمنون) (يقيمون) (ينفقون) (يوقنون) ليدل على أن هذه الأفعال مستمرة عند المؤمن لا تفارقه، ولا ينقضى زمنها حتى يفارق الحياة.

النتيجة ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، حكم الله تعالى لهذه الطائفة التى جمعت الصفات المشار إليها بأنها هى الطائفة التى استقامت وسارت فى الطريق الصحيح فاستحقت الفوز والفلاح.

وهنا نلاحظ عدة ألفاظ لها استعمالات تؤكد على علو مكانة المؤمن.

الملاحظة الأولى: استعمال اسم الإشارة للجمع البعيد (أولئك) دون القريب (هؤلاء) مع أنهم قريبون ليدل على منزلتهم العالية.

الملاحظة الثانية: (على هدى) فاستعمل الحرف (على) الذى يفيد الاستعلاء فكأنهم فوق الهدى، وهذا تمثيل لتمسكهم بالهدى بهيئة الراكب الذى يعلو الشىء، ويستولى عليه، فالمؤمنون متمكنون من الهداية راسخون فيها واصلون إلى قمتها لا يزحزحهم عنها شك أو غيره من غوايات الشياطين، أو ضلال المضلين.

الملاحظة الثالثة: فى قوله سبحانه: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، فقد كرر اسم الإشارة (أولئك) لإظهار الاهتمام بالمؤمنين، والتأكيد على أنهم يستحقون الفوز عن جدارة وكفاءة لما بذلوا من عمل وجهد.

ويتأكد ذلك من بيان معنى (المفلح) فهو الذى تغلب على المصاعب بالكفاح، والعمل حتى وصل إلى ما يريد.

[٢] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⟨٦⟩ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦ - ٧].

يتحدث المولى عز وجل فى هاتين الآيتين الكريمتين عن عدم استجابة الكافرين للرسول ﷺ، وإعراضهم عن الإيمان بالقرآن الكريم، وصدهم عنه، ويبين أنهم بذلك أوردوا أنفسهم موارد الهلاك ويذكر هنا صفات هذه الفئة الضالة التى حقت عليها كلمة العذاب وتتلخص فيما يلى:

١- عدم تأثير دعوة الحق، والإيمان فيهم فالإنذار وعدمه عندهم سواء.

٢- عدم استجابتهم لأوامر الله تعالى، لأن منافذ الإحساس لديهم قد أغلقت.

فالصفة الأولى: عبر عنها المولى سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

وأصل الكفر فى كلام العرب: الستر، والتغطية، ومنه قول الشاعر:

فى ليلة كفر النجوم غمامها

فالمعنى فى ليلة سترت السحب النجوم فيها.

والكافر قد ستر، وأخفى نعم الله عليه، وأخفى مشاعر الإيمان الفطرية فى نفسه، والدلائل، والبراهين على وجود الخالق جل وعلا.

وقد عبر القرآن الكريم عن استواء الإنذار وعدمه عندهم، بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، الإنذار هو: الإبلاغ، والإعلام، وهو لا يستعمل إلا فى مجال التخويف، والعرب يستعملونه للتخويف بأمر يقع بعد مدة ليترك فرصة للمنذر للتفكير، وتنفيذ ما أنذر عنه، فإذا لم يلتزم بتنفيذ ما طلب منه نزل به العقاب، فإذا قلت لمخاطبك فى أداء حق لك عليه: أنذرتك أن أرفع الأمر للقضاء فمعناه: أنك أعطيته مهلة ما من الوقت يراجع فيها نفسه لسداد الحق، أو يؤول أمره إلى القضاء للفصل بينكما وإنزال الجزاء به.

أما إذا أعلمته بأمر سيحل به بعد لحظات فهذا يسمى - فى اللغة العربية - إشعارًا لا إنذارًا.

وهنا - فى الآية التى معنا - استخدم الإنذار الذى يعنى إعطاء مهلة للكافر ليثوب إلى رشده، وإلا فسينزل به العذاب فى الدنيا، أو فى الآخرة بحسب تقدير الله تعالى، وهذا من رحمة الله تعالى بالبشرية.

والهمزة - فى قوله ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ - يسميها اللغويون همزة التسوية بمعنى الاستواء، أى تعادل أمرين، وكونهما متساويين لا يفرق بين أحدهما وصاحبه، والكافر لم يفرق بين حاليه قبل الإنذار، وبعد الإنذار، فقد بلغ الرسول الكريم الكفار دعوة الحق، والإيمان، وطلب منهم أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يرجعوا إلى صوابهم، ويتأملوا فى آيات الله التى تدل على وحدانيته، وربوبيته، والانقياد لأوامره سبحانه، فإذا لم يرتدعوا، ويعودوا نزل بهم العذاب إن عاجلاً أو آجلاً.

وهنا يذكر اللغويون أن الهمزة الداخلة على الفعل - بعد الاستواء - لابد أن تأتى معها (أم) العاطفة التى تعطف أحد الأمرين على الآخر وقد تحذف الهمزة كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦] فأصل الكلام: سواء عليكم أصبرتم أم لم تصبروا، وقد حذفت الهمزة مع ما دخلت عليه؛ لأن الكلام المذكور قبل سواء دل عليه.

والقرآن الكريم فى قمة الاستعمال اللغوى الذى يبعد عن التكرار، وينأى عن العبث فى الكلام، فالفعل (أنذر) يتعدى إلى مفعولين كأن تقول - مثلا - أنذرتك العقاب، وقد جعل بعض المفسرين المفعول الثانى فى الآية محذوفا تقديره: العذاب، والمعنى: أأنذرتهم العذاب أم لم تنذرهم إياه.

والأحسن - فى رأينا - ألا يقدر مفعول محذوف لتذهب النفس فيه كل مذهب، وتفكر فيه تفكيراً طويلاً، ويجمع فيه كل المعانى التى ترد على الخاطر، كالعذاب، والحرمان من السعادة، أو نزول البلايا، أو الإذلال، أو غير ذلك مما يمكن أن يحمل عليه معنى الإنذار، وهذا هو السر الحقيقى وراء حذف المفعول هنا، ولو كان القرآن الكريم يريد مفعولاً واحدًا معينًا لحدده، لكنه أراد الإطلاق، والشيوع فتركه.

ولكن الكافرين مع ذلك الإنذار والتهديد تحجرت قلوبهم وعميت أبصارهم فلم يستجيبوا، ولم يبالوا بما سينزل بهم من ألوان العقاب الأليم.

والله تعالى يخبر نبيه ﷺ بألا يتعب نفسه مع هذه الفئة الضالة لأنها لن تثوب إلى الحق مهما يبالغ فى تخويفها، وتوقع نزول العذاب بها.

وهذه الصفة خاصة - كما قلنا - بمن حقت عليه كلمة العذاب من الكافرين ، أما من كتب الله تعالى له الهداية فإنه خارج عن نطاق هذه الصفة ، ومفهومها .

الصفة الثانية: لهذه الفئة الضالة وهى : إغلاق منافذ الحس قد عبر عنها المولى جل شأنه بقوله : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ .

المراد بالختم - فى الأصل - التغطية على الشىء ، وتمكن إغلاقه والاستيثاق منه حتى لا يدخله شىء ، ومن ذلك وضع الخاتم على الشىء ، وطبعه فيه صيانة لما فيه كختم الكتاب وما يشبه ذلك حتى لا يوصل إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه شىء غير ما أغلق عليه .

والقلب يراد به - فى الأصل - الجسم الصنوبرى المعروف فى الصدر - وهو موضع التفكير والإدراك - وقد يعبر عنه بالفؤاد ، والصدر ، قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان : ٣٢] ، وقال سبحانه : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : ١] ، وقد يعبر به عن العقل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

ولا يراد - هنا - بالختم الختم الحسى ، ولا بالقلب الجسم الموضوع فى الصدر بل المراد نفى الإدراك ، ووصول الحق إلى قلوبهم ، وعدم تأثير الإيمان فيها ، فقد أغلق تفكيرهم ، وامتنع إحساسهم بالبراهين ، والدلائل على وجود الله ، ووحدانيته ، وعلى ما أتى به الرسول ﷺ ، وهذا بمشيئة الله تعالى الذى علم عدم صلاحيتهم لقبول الدعوة ، فمنع وصولها إلى قلوبهم ، ونفاذها إليها ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ⑫ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [الحجر : ١٢ ، ١٣] ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الأنعام : ٢٥] أى لئلا يفقهوه ، فلا ينفذ إليهم شىء من ألوان الهداية ، وهذا نقل للمعنى المحسوس إلى المعقول وهو فى غاية الطرافة والحسن .

وقد وصف الله تعالى قلوب الكفار ، ومن على شاكلتهم من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ، ويبطنون الكفر بعشرة أوصاف هى : الختم ، والطبع ، والضيق ، والمرض ، والرين ، والموت ، والقساوة ، والانصراف ، والحمية ، والإنكار ، فقال :

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقال: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقال: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، وقال: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، هذا أيضًا يدخل فى نطاق معنى الختم والمراد بالختم على الأسماع: إعراضهم عن سماع القرآن، وعدم استعدادهم لفهمه، أو تدبر آياته، أو سماع أى شئ من أحكامه، ومبادئه، وكل ما جاء به الرسول ﷺ، وما أمر بتبليغه عن ربه.

ولكن: قد يسأل سائل: لمَ ذكر القرآن الكريم (السمع) بلفظ المفرد مع أنه جمع القلوب، و(الأبصار) بعده فما السر اللغوى والمعنوى وراء ذلك؟

ونجيب بأن السر فى ذلك أن (السمع) مصدر للفعل (سمع يسمع) ويقول اللغويون: إن المصدر يصلح لأى عدد قليلاً كان أو كثيرًا، واحدًا أو أكثر من واحد فهو - هنا - مفرد لكنه يراد به الجمع، فالاستعمال صحيح ويرشدك إلى ذلك أن القرآن الكريم أضافه إلى الجماعة فقال: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، فالمراد: أسماع الجماعة وهذا كما قال الشاعر:

كأنه وجه تركيين قد غضبا

فقد ذكر كلمة (وجه) مفردة، وهو يريد بها (وجهين) لأنه لا يعقل أن يكون هناك وجه واحد لشخصين اثنين.

فإضافة (سمع) إلى ضمير الجماعة يؤكد أن المراد: أسماع لا سمع واحد، ولذا وردت بعض القراءات (وعلى أسماعهم).

ولعل المقصود من ذلك أن الصوت لا يصل إلى منافذ السمع فهى مغلقة، ولذا قال بعض اللغويين إنه على حذف مضاف، والأصل (مواضع سمعهم) فهذه الأماكن مغلقة لأنهم ليس عندهم استعداد لسماع القرآن، وتلقى هداه.

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]:

الغشاوة: هى الغطاء، فأبصارهم لا ترى آثار قدرة الله تعالى، ودلائل سيطرته فى الكون والحياة، فتعرض عنها، ولا توصل المعرفة بها إلى القلب والإدراك فقد عميت، ووضع عليها حاجز منعها من الرؤية، والإبصار لهذه الدلائل.

وجاءت كلمة (غشاوة) نكرة لتدل على فظاعة الحواجز التى حالت بينهم، وبين رؤية الحق، فهى موانع لا ينفذ منها بصيص من النور إلى عيونهم، ولذا انحرفوا عن الجادة، وضلوا ضلالاً بعيدًا، وليس هذا إلا ناتجًا عن سلوكهم، وأنهم أرادوا لأنفسهم أن يكونوا أشقياء تعساء فحقت عليهم كلمة الله.

ولكن لماذا خص القرآن الكريم هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر: القلب والسمع والبصر؟

نقول: إن ذلك لأنها طرق العلم، والمعرفة، فالقلب محل العلم، وطريقه إما السماع، وإما الرؤية، فهذه الحواس الثلاث هى منافذ الإدراك، ومن أهملها فقد ضاع منه العلم والهداية، والكفار قد خسروا بإهمالها، وعدم تسخيرها فيما ينفعهم من الإيمان والاستجابة.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ :

تعد هذه نتيجة لإعراضهم، وعدم استجابتهم، فقد ثبت لهم العقاب دون ريب.

و(العذاب) هو: كل ما يؤلم الإنسان كالضرب، والحرق بالنار، والقمع بالحديد إلى غير ذلك.

(العظيم) ضد الحقير، والأصل أن توصف به المحسوسات من الأجسام، وقد توصف به المعانى أيضًا فيقال: عذاب عظيم بمعنى: قوى دائم.

وقد يسأل سائل: هل هناك فرق بين العظيم والكبير أو هما بمعنى واحد؟

يقال: إن الكبير يقابل الصغير، والعظيم يقابل الحقير، وبعض اللغويين يسوى بين الكبير والعظيم، فهما بمعنى واحد، وكثير من اللغويين يرون أن العظيم فوق الكبير، ونحن نرى أن إثبات الفروق المعنوية أكثر دقة من إهمالها.

[٣] ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٨ - ١٢].

المنافقون:

طائفة من البشر تظهر خلاف ما تبطن، وقد حكى القرآن الكريم صنيعهم فى صدر الدولة الإسلامية، وحالهم مع المؤمنين، وما كان لهم من تأثير ضار فى أنفسهم، وفى المجتمع الإسلامى آنذاك.

وحذر القرآن منهم، وفضح شأنهم الذى كانوا يخفونه، ويوهمون المؤمنين بأنهم معهم مع أنهم على خلاف ذلك، وكان الوحى الإلهى الذى تجلى فى هذه الآيات

كاشفًا عن خفاياهم، وضمائرهم الخبيثة ليحذر منهم النبى ﷺ والمؤمنون معه، وينبه المجتمع الإسلامى فى كل زمان ومكان إلى الحذر من كل من يصطنع هذه الخصال، ويلبس تلك الثياب ويضمر السوء للأمة حتى يقيها من أخطارهم ومكائدهم وإفسادهم.

وتتناول هذه الآيات الكريمة عدة صفات للمنافقين:

١ - إظهار الإيمان وإبطان الكفر، والخداع والتمويه على حالهم السيئة.

٢- تأصل الكفر وسوء النية فى قلوبهم.

٣- إفسادهم فى الأرض.

وقد عبر المولى سبحانه عن الصفة الأولى بقوله: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة: ٨ - ٩].

فالمنافقون يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، والإيمان فى هذا الموضع معناه التصديق، والاعتقاد الجازم بوجود الله سبحانه، وهيمنته على الكون وهذا هو العنصر المهم للإيمان كما أن العنصر الثانى هو التصديق بما جاء به النبى ﷺ مصدقًا لما بين يديه من الكتب بالإيمان باليوم الآخر، وإذا كان مصطلح اليوم الذى نعرفه هو الزمان الذى يبدأ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس فإن المراد باليوم الآخر معنى يختلف عن ذلك.

وقد فسره العلماء بأحد احتمالين:

الاحتمال الأول: أن المراد باليوم الآخر الوقت الأخير من الزمان الذى يعقب كل الأزمان، وليس بعده وقت آخر، ويقصد به وقت النشور، وإعادة الحياة إلى الأجسام، وخروجها من القبور للحساب إلى دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

الاحتمال الثانى: أن المراد باليوم الآخر، الوقت الدائم الذى لا انقطاع له، وهذا هو الراجح.

ويجب التصديق بهذا اليوم الآخر وما فيه من النشور والحساب والثواب والعقاب.

والمنافق يظهر الاعتقاد فى ذلك خلاف ما يضمر فى قرارة نفسه من عدم الإيمان.

ولذا نفى القرآن الكريم دعواهم، وكشف كذبهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وكان مقتضى السياق أن يقول: «وما آمنوا» لكن القرآن الكريم عدل عن التعبير بالفعل الماضى المنفى، وجاء بجملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر ثم نفاها بأداة النفى (ما) ولا شك أنه لو عبر بالماضى لدل على نفى صدق دعواهم فيه فحسب، وأنهم ربما يؤمنون بعد ذلك، ولكن القرآن الكريم أثبت انتفاء الإيمان عنهم فى جميع الأزمنة فهم غير مؤمنين ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وهذا لتعرية دعواهم الخادعة.

وقوله سبحانه: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٩] يصور وجههم الظاهر وحقيقتهم الباطنة تصويراً يبين الخداع الذى يعيشون فيه، ويبين ما تنطوى عليه نفوسهم من حقد على المؤمنين، وأمانٍ سيئة ينشدونها.

وأصل الخداع أن يوهم الرجل صاحبه أنه معه، وهو فى الوقت نفسه عليه، وهو يوهمه خلاف ما يريد به من المكروه، ويظهر له غير ما يخفيه، وينشأ عن ذلك اغترار الصاحب، والمنافقون كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ليوهموا المؤمنين أنهم معهم فيطلعونهم على أسرارهم، فينقلونها إلى أعدائهم، ويدبرون لهم المكائد، وكانوا حريصين - فى الوقت نفسه - على ألا يظهروا الكفر - وهم بين المؤمنين - حتى لا يصيبهم ما يصيب سائر الكفرة من عداء المسلمين لهم، ونزول المتاعب بهم.

والمخادعة: مفاعلة من الخداع بمعنى أنها تأتى للمشاركة بين طرفين، والواقع أن الخداع مستحيل بالنسبة لله تعالى، ولم يكن المؤمنون أيضًا محلاً للخداع، وإنما كان الخداع من طرف واحد هم المنافقون، فالمخادعة - هنا - من جانب واحد، ولذلك يقال: إن المفاعلة لم تأت على بابها بمعنى أنها لم تأت كما هو مقرر لها من المشاركة بين طرفين.

وهذا له نظائر فى اللغة، فأنت تقول: عاقبت الجانى والعقاب من جهتك وحدك، ولا دخل للجانى فى عقاب نفسه، فلا مشاركة هنا كذلك.

وقد جاء فى آية أخرى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٤٢] قد يتوهم متوهم أن الخداع نسب إلى الله تعالى فى هذه الآية، وهو من حيث الظاهر يناقض ما ذكرناه من أن الخداع مستحيل على الله تعالى، فنقول: إن الخداع الذى منعناه فى جانب الله هو المراد منه المكر والحيلة، وإظهار خلاف الباطن، لكن الخداع الذى ذكر فى هذه الآية منسوبًا إلى الله تعالى بمعنى آخر وهو كشف ما يخبئونه، وفضح قبائحهم، وإظهارهم على حقيقتهم من الكفر والعداء للمسلمين حتى يحذر منهم المجتمع الإسلامى، فالمنافقون أصحاب حيلة ومكر فى إخفاء حقيقة أمرهم، والله تعالى يكشف خداعهم، ويظهره، وشتان بين هذا وذاك.

فإذا سأل سائل: لِمَ عبر بالخداع فى جانب الله هنا ولم يقل يكشف أو يظهر مثلا؟ نقول: جاء لفظ (خادعهم) على أسلوب معروف فى اللغة العربية يسمى (المشاكلة)، فلما قال: ﴿ يُخَادِعُونَ ﴾ - فى أول الآية - ناسب أن يعبر عن إظهار الخداع بقوله: ﴿ خَادِعُهُمْ ﴾ لتكون شبيهة بها فى اللفظ، ومن مادتها، ولكنهما مختلفان فى المعنى وهذا مما يحسن الأسلوب، ويجمله.

ولذلك بين القرآن الكريم أن عاقبة هذا التمويه والتضليل تعود على المنافقين أنفسهم فقال: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٩] فهم يظنون أن مكرهم وتدبيرهم لا يعلمه أحد غيرهم وهم بذلك يوهمون أنفسهم، فالحقيقة أن الله تعالى أذاع أخبارهم، وهتك أسرارهم.

ولذلك قال الله تعالى لنبيه عن المنافقين لما اغتر بهم وخدع بمظهرهم فكان ينصت إليهم، ويستمع إلى حديثهم ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤] فنبهه على عداوتهم المتأصلة.

وهذا الخداع أو التمويه يتم من المنافقين بتدبيرهم دون أن يكون لديهم إحساس بخطورته عليهم، وعودة عاقبته إلى حظائرهم، وهم يجهلون ذلك لأنهم فقدوا كل إحساس وشعور.

والشعور: هو إدراك الشئ الخفى، فهو مشتق من الشعر لدقته، وقيل: إن الشعور هو الإدراك بالحاسة مشتق من الشعار وهو الثوب الذى يلى الجسد، ومنه مشاعر الإنسان التى هى حواسه الخمس التى يشعر بها، وهى السمع والبصر، والذوق، والشم، واللمس.

وقيل: شعر به: علم، ومعنى ذلك أنهم لا يحسون حتى ما يقع تحت حواسهم.

والفعل (يشعرون) حذف مفعوله ليفكر فيه السامع والقارئ أى ما يشعرون عاقبة أمرهم أو خداعهم أو غير ذلك مما يخطر على البال، وكأن المراد نفى الشعور عنهم بكل صوره.

الصفة الثانية: تأصل الكفر وسوء النية فى قلوب المنافقين عبر عنها بقوله سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

المرض حقيقة: ما يعرض للبدن من العلل التى تخرجه عن الاعتدال اللائق به، وتوجب الخلل فى أفعاله، فتمنعه من ممارسة وظائفه الطبيعية، وقد يؤدى بالإنسان إلى الموت.

استعير هنا لما فى قلوبهم من الجهل، وسوء العقيدة وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه، ونحو ذلك مما فى نفوسهم من الشر والضلال.

ويمكن أن يقال: إن المعنى: فى قلوبهم ألم لما فاتهم من الرياسة حسداً للمجتمع الإسلامى الصاعد لما يرون من ثبات أمر المؤمنين، واستعلاء شأنهم، وهنا يكون المرض على حقيقته، ولا مجاز فى الاستعمال.

وتنكير (مرض) للدلالة على كونه نوعًا غريبًا من الأمراض غير ما يتعارفه الناس.

ولما كانت حالهم التى هم عليها لا يؤثر فيها علاج أو دواء ناجع من وعظ الرسول لهم، وتذكيرهم، وتحذيرهم من عاقبة أعمالهم السيئة، وعقائدهم الفاسدة، وأنه لا أمل فى هدايتهم لما جبلت عليه نفوسهم الخبيثة ونباتهم الشريرة لكل ذلك زادهم الله غمًا على غمٍ، وألمًا على ألمٍ ومنع عنهم كل خير، فأصبحوا لا مأوى لهم إلا النار، والعذاب الأليم، وهذا هو العدل الإلهى.

الصفة الثالثة: وهى ناشئة عما تقدم - إفسادهم فى الأرض باسم الإصلاح - قال سبحانه: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** ﴾ [البقرة: ١١].

الفساد: خروج الشيء عن الوضع اللائق به من الصلاح ويقصد به هنا تهييج المنافقين للحروب والفتن وما يؤدى إلى ذلك من إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار وإغرائهم بهم وإثارتهم عليهم، وغير ذلك من فنون الشر التى تجشم المجتمع من ويلاتها.

وكان المنافقون إذا حدثوا عن ذلك قالوا ﴿ **إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** ﴾ فهم يتصورون إفسادهم إصلاحًا، وهم لا يحسون لما فى قلوبهم من المرض والغشاوة التى على عيونهم على حد قول الله سبحانه: ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا** ﴾ [فاطر: ٨] ولذلك جاء أسلوبهم بطريق القصر ﴿ **إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** ﴾ فاستعملوا (إنما) ليفيد اعتقادهم أنهم لا يفعلون إلا الصالح من الأعمال، وأنهم يتمحضون من شوائب الفساد، وقد رد الله تعالى عليهم منبهًا لهم باستخدام الأداة (ألا) ثم أتى بجملة اسمية مؤكدة بأن مشتملة على ضمير الفصل ﴿ **أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ** ﴾، واستدرك قائلاً: ﴿ **وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾ مبينًا بذلك السبب فى اعتقادهم أنهم يفعلون الأصلح مع أنه فى الحقيقة ليس كذلك.

وقد دل بهذه العبارة على أن الفساد من طبيعتهم، وأن السبب فى أنهم يقلبون الأمور أنهم فقدوا العقل المميز الذى يدرك حقائق الأمور، فقد نفى عنهم الشعور مع أنه يتعلق بالحواس مبالغة فى تجهيلهم، فالشعور الذى ثبت للبهائم منفى عنهم.

[٤] ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٣ - ١٥].

لقد أعرض المنافقون عن أية دعوة توجههم إلى الحق، وتدعوهم إلى اتباعه، فقد أصموا آذانهم، وأعموا أبصارهم وضربوا بالنصائح عرض الحائط.

وفى هذه الآيات:

١- نصيحة لهم بالإيمان الحقيقى مقابلتها بالسخرية.

٢- سلوكهم الذى يتعاملون به مع المؤمنين ومع الكافرين.

٣- حكم الله تعالى عليهم.

ففى مجال نصحهم ليؤمنوا إيمانًا حقيقيًا وإعراضهم عن النصح، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾ [البقرة: ١٣] إلخ.

المراد بقوله: ﴿ آمِنُوا ﴾. صدقوا بمحمد ﷺ وما جاء به عن ربه صادقًا.

والمراد بالناس هم المؤمنون من المهاجرين والأنصار وهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعليهم أن يقتدوا بهم ليسلموا، ويحيوا حياة السعادة فى الدنيا والآخرة.

فكلمة ﴿ النَّاس ﴾ المراد بها الكاملون فى الإنسانية العاملون بقضية العقل وقد رد المنافقون - على هذه النصيحة لهم - بالسخرية بالمؤمنين فسموهم ﴿ السُّفَهَاء ﴾ وهو إهانة صارخة لمجتمع الإيمان الذى كرمه الله بالتقوى والاستقامة.

وأصل السفه في كلام العرب: الخفة، والرقة، يقال: ثوبٌ سفيه، إذا كان باليًا رقيقًا، وتسفهت الشئ: استحقرته، ويطلق السفه على الجهل، والطيش، وعدم التمييز بين النافع والضار.

وهم يريدون بالسفهاء. الصحابة الكرام لاعتقادهم فساد رأيهم، أو لتحقير شأنهم بأن أكثر المؤمنين كانوا فقراء، ومنهم موالٍ كصهيب، وبلال بن رباح.

والمراد بقولهم – هنا – ليس النطق الصريح العلنى لما نعلمه عن خداعهم – فهم مخالطون للمؤمنين ومسلمون ظاهراً فلا يمكنهم أن ينسبوا المسلمين للسفه – علنًا – وإلا لظهرت حالهم وهم يخفونها، وإنما هذا هو ما حدثتهم به نفوسهم أو بين بعضهم وبعض من غير أن يعلنوه صراحة، ولكن الله تعالى اللطيف الخبير أطلع نبيه والمؤمنين على ما أسروه.

وقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم بعبارة مماثلة ﴿ **أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ** ﴾ فهذا الوصف حقيق أن يطلق على المنافقين دون المؤمنين فالسفيه من لا يميز ما له وما عليه، ويعدل عن طريق منافعه إلى ما يضره، ولا شك أن الخطأ فى أمور الدين أعظم مضرة من أمور الدنيا.

وجاء الحكم عليهم بصورة الجملة الاسمية وفيها ضمير الفصل (هم) لبيان اختصاصهم بالسفه، وصدر الجملة بأداة الاستفتاح (ألا) لينبه إلى خطورة ما هم فيه من حمق وجهالة، وأنهم هم الحقيقون بإطلاق وصف السفه عليهم.

وانظر إلى ختام الآية وهو قوله تعالى: ﴿ **وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾ فهنا نفى العلم عنهم، وفى الآية السابقة حينما تحدث عن إفسادهم فى الأرض قال: ﴿ **وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾ فنفى الشعور عنهم.

ولسائلٍ أن يسأل: ما الفرق بين (يشعرون) هناك و(يعلمون) هنا؟

فنقول: إن الإجابة عن ذلك تكمن فى اشتقاق كل من اللفظين، والمقام الذى يقتضيه.

فقد نفى عنهم الشعور – هناك – لأن الإفساد مما يدرك بالحواس للمبالغة فى وصفهم بالجهالة والغباء.

وفى الآية التى معنا نفى العلم عنهم لأن المتحدث عنه هو الإيمان الذى هو تصديق بالعقل والقلب، ولما لم يقع منهم، ولم يفكروا فيه ناسب أن يذكر نفى العلم عنهم فهو الخاص بالإدراك اليقينى.

وفى مجال سلوكهم فى معاملتهم الظاهرية للمؤمنين بإظهار الإيمان، ورجوعهم إلى الكفر الذى يبطنونه، وتصريحهم بذلك للكفار ورؤساء العناد والضلال عبر عنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [البقرة: ١٤]، واللقاء: هو المصادفة، يقال: لقيته ولاقيته: إذا صادفته، واستقبلته.

والمراد بشياطينهم زعماء الضلال الذين يقودونهم ويتبعونهم، وإضافتهم إلى التابعين لهم لأنهم يشاركونهم فى الكفر والتمرد والعناد، والاستهزاء معناه: السخرية واللعب، والتكذيب، يقال: هزئ به، واستهزأ بمعنى واحد.

فكأنهم يقولون: لم يخطر ببالنا الإيمان حقيقة، وكأن جملة ﴿ **إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾ جواب عن سؤال يتبادر إلى الذهن عند قولهم لزعمائهم (إنا معكم) فكيف يكون مع الكفار ويظهرون الإيمان للمؤمنين؟ لأن المستهزئ بالشىء مُصر على خلافه.

وقد يظن ظان أن هذه الآية وما بعدها تكرار لقوله تعالى قبل ذلك ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [البقرة: ٨]، إلخ.

لكن الحقيقة أن الآيات السابقة كانت للدلالة على خداعهم بإظهار الإيمان، وإبطان الكفر، وظنهم أن ذلك لا يعرفه أحد من المؤمنين فكشفه الله تعالى وفضحه.

والآيات هنا لبيان شئ آخر، وهو كشف أساليب المنافقين فى معاملة المؤمنين، ومعاملة الكافرين، وكيف كانوا يدبرون المؤامرات للإيقاع بالمؤمنين، ومن ذلك قصة يحكيها المفسرون عن ذهاب أبى بكر وعمر وعلى وجماعة من الصحابة إلى المنافقين لينصحوهم فقابلهم ابن أبى، وأظهر لهم الإيمان، وعند ذلك نزلت الآية، وهذه هى

طريقة القرآن الكريم فى تقصى الحقائق، وإيضاح أنواع السلوك لتعرية مواقف الكافرين المخادعين.

وقد حكم الله تعالى عليهم بحكمين (استهزاؤه بهم، واستدراجهم).

وعبر عن الحكم الأول بقوله سبحانه: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥].

والمعروف أن الاستهزاء من باب العبث والسخرية، وذلك مستحيل على الله تعالى لأنه حكيم قادر على تنفيذ ما يريد فلا يليق أن ينسب إليه الاستهزاء بمعناه الحقيقى ومن هنا يأتى السؤال:

كيف عبر بالاستهزاء فى جانب الله تعالى فقال: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾؟

ونقول: إن من على دراية بأساليب اللغة العربية يدرك أن عبارة ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ يراد منها: (الله يجازيهم ويعاقبهم على استهزائهم بالمؤمنين) فسمى جزاء الاستهزاء استهزاء من باب المشاكلة فى اللفظ كما قال الله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] فجزاء السيئة ليست سيئة مثلها؟ وإنما هو عقوبة عليها بمثل العدل فكيف يسمى سيئة؟ إنما سمى كذلك مشاكلة وموافقة فى اللفظ لكلمة(سيئة) التى وردت فى سياقها.

وكقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤] فقد سمى رد العدوان، والدفاع عن النفس اعتداء مع أن الاعتداء هو الطغيان، والظلم، والتعدى على الغير دون وجه حق، وكيف يصح ذلك فى الواقع وفى المنطق: نقول: إن الله تعالى عبر عن الدفاع عن النفس بالاعتداء لأن كلمة (اعتدى) وردت فى أول الكلام فناسب أن يجعل الكلمة الثانية بلفظ الأولى، وإن كان المعنى المراد مختلفًا جريًا على أسلوب المشاكلة اللفظية، والعرب تستعمل مثل هذا الأسلوب كثيرًا كقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فقد جعل رد العدوان عليه جهلاً مع أن رد العدوان ودفعه ليس جهلاً، وإنما هو انتصار للحق، والعدل واستعمل هذا من باب المشاكلة، وهى عادة عربية فالعرب إذا وضعوا لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاءً ذكروه بمثل لفظه، وإن كان مخالفًا له فى معناه.

ولسائل أن يسأل: لماذا قال ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾ بلفظ المضارع ولم يقل (مستهزئ) باسم الفاعل مشاكلة لقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ حتى يكونا من طراز واحد، وعلى نمط لفظى واحد، وأنت قلت لنا: إن المشاكلة أسلوب عربى بليغ؟

نقول الوضع هنا يختلف؛ والمشاكلة هنا تضر بالمعنى، فاسم الفاعل ربما يفهم منه الزمن الماضى أو الحال أو الاستقبال، أما الفعل المضارع فيفيد التجدد والاستمرار، والله تعالى يريد أن يبين أن جزاء فعلهم المنكر، وسلوكهم الشنيع يقع بهم، وتحل كوارثه وقتًا بعد وقت، وهذا هو الواقع الذى حدث لهم، فألوان العذاب، والبأس كانت تنزل بهم دائمًا – كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

وعبر سبحانه وتعالى عن الحكم الثانى وهو استدراجهم ليزيدوا فى ضلالهم وغيهم بقوله:

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥] أصل المد: الزيادة، وتطويل المدة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] والمراد: إطالة أعمارهم وتركهم فى غوايتهم.

ويقال: إن الفعل (يمدهم) مشتق من: مدَّ الجيش إذا زاده، وقواه، ومنه مددت السراج، والأرض إذا أصلحتهما بالزيت، والسماد.

ويأتى الفعل ثلاثيًا مجردًا (مد)، ويأتى مزيدًا بالهمزة (أمد) فيقال: مده، وأمده.

ويذكر بعض أهل اللغة أن الفعل الثلاثى (مد) يستعمل – غالبًا – فى الشر مثل قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]، وقد يستعمل فى الخير كقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧].

أما الفعل (أمد) فغالبًا ما يستعمل فى الخير كقوله تعالى: ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ [نوح: ١٢] ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الطور: ٢٢] ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وهنا المد والإطالة فى العمر ليزيدوا فى طغيانهم، والطغيان: مصدر للفعل طغى يطغى طغيانًا، ومعناه جاوز الحد، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١]، أى: لما ارتفع الماء وعلا، وتجاوز المقدار المحدد له.

والمراد بطغيانهم - هنا - كفرهم وضلالهم كما قال الله تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٤] ومعناه: أسرف فى ارتكاب الجرائم، والمآثم ودعوى الألوهية، نعوذ بالله من هذه الشرور.

وقوله تعالى: ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾، فعل مضارع مأخوذ من (العمه) وهو التردد والتحير.

ويفرق اللغويون بين (العمه) - بالهاء - و(العمى)، فالعمه - كما رأيت - يكون فى القلب، ويعبر به عن الخطأ فى الرأى، والتردد فيه، والفعل منه: عمه يعمه: إذا تحير، وتردد.

أما العمى فيطلق على ذهاب ضوء العين، كما يطلق أيضا على الخطل فى الرأى.

فالعمى أعم من العمه وأشمل.

وتردد المنافقين إنما هو فى البقاء على الكفر، وتركه إلى الإيمان، لأن بعضهم كان شاكًا فى حقيقة الإسلام وبعضهم كان مترددًا يرى الآيات الباهرة الدالة على الإيمان فيريد الدخول فيه، ثم تجتذبه عوامل الضلال فيعود إليه، وهكذا فهم مصرون على الكفر إصرار تجلد وعناد كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

وهذه كانت حال هؤلاء المنافقين، وعبر عنها القرآن الكريم أصدق تعبير، ولما وجد أنهم لا خير فيهم تركهم يتخبطون فى ضلالهم وأوهامهم.

[٥] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٦ - ٢٠].

فى هذه الآيات الكريمة بين القرآن الكريم عدول الكافرين والمنافقين عن الهدى إلى الضلالة فى صور دقيقة، وحين جاء القرآن الكريم أعرضوا عنه فضلوا وعاشوا فى شقاء وتعاسة وأصبحوا فى مأساة لا يحس بها غيرهم.

والضلالة: هى الجور عن القصد، والمراد: العدول عن الصواب فى الدين، والهدى: التوجه إلى الهدف الصحيح المستقيم، وإصابة الوصول إليه، والمراد: الاستقامة على أصول الدين.

والاشتراء: هو الاستبدال، وهو يعنى الحصول على شئ مرغوب فيه فى مقابل التنازل عن قيمته من شيء آخر، والشراء يكون فيما يحب مشتريه، والمراد هنا: الاختيار، فهذه الفئة الضالة اختاروا طريق الضلال على طريق الهدى والرشاد، فاستحبوا الكفر على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، ونلاحظ دخول الباء على كلمة (الهدى) فى قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦] وهذه الباء للعوض والمقابلة، وهى تدخل - عادة - على المتروك وهى - هنا - كذلك - فالمرغوب فيه عند الضالين هو الضلالة والمتروك الذى رغبوا عنه وكرهوه هو

الهدى، وقد دخلت عليه الباء، وهى القاعدة اللغوية الصحيحة التى لا يراعيها كثير من المتحدثين بالعربية الآن، ويجب عليهم الاقتداء بالقرآن الكريم.

والتجارة: هى صناعة التجار، وهى التصدى للبيع والشراء لتحصيل الربح وهو الزيادة على رأس المال.

والله سبحانه صور فئة الكافرين والمنافقين فى تفضيلهم الضلالة على الهدى بصورة جماعة تشتغل بعملية البيع والشراء تنازلت عن سلعة ثمينة يربح مشتريها ربحًا هائلاً فى مقابل الحصول على سلعة خبيثة يفقد مشتريها الربح، بل ربما فقد رأس ماله.

والسلعة الثمينة - هنا - هى: (الهدى) الذى هو مقتضى الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وهى مثل رأس المال الصالح للربح الكثير، وهو استقامة الحياة، والثواب من الله تعالى.

والسلعة الخبيثة - هنا - هى: (الضلالة) وهى التى تسمى فقدان كل شىء من رأس المال، والربح، بل تؤدى إلى العجز، وتراكم الكوارث على صاحبها.

وهؤلاء الضالون فقدوا وعيهم، وإدراكهم، فلم يميزوا الغث من السمين، بل تركوا الطيب إلى الخبيث، فقد فضلوا الضلالة على الهدى، فضلوا ضلالًا مبينًا، وخسروا أشد الخسران، وعبر القرآن الكريم عن خسارتهم الفادحة بقوله سبحانه: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]، ودل ذلك على عدم معرفتهم بطريق الكسب والربح، وهذا دليل مادى على سوء العاقبة، وأنهم أضاعوا حياتهم؛ لأنهم لم يعرفوا الطريق السليم الذى يوصلهم إلى الربح، والكسب الحقيقى لخلل وقع فى عقولهم، ولضعف استعدادهم وفساده، وبذلك فقدوا رأس مالهم الذى كان من الممكن أن يزيد من الإيمان والاهتداء إلى الحق والصواب، فليس عندهم - ويالسوء الحظ - علم بما يصح، وما لا يصح، وصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

وبعد أن حكى القرآن الكريم حالهم وإعراضهم عن الحق ضرب الأمثال التى توضح شأنهم، وتكشف صنيعهم المشين، وآثاره النازلة بهم فى صور محسوسة لينقل المعقول

إلى المحسوس، فيكون أكثر ثباتًا فى ذهن السامع والمتأمل، وهذه التجلية للمواقف ليتذكر أولو الألباب، ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

جاء القرآن الكريم فاهتدى به المؤمنون فنجوا، وأعرض عنه الكافرون والمنافقون فضلوا، وقد مثل المولى سبحانه حال هذه الجماعة الضالة بعد مجئ القرآن بالهدى، وإعراضهم عنه، وسوء عاقبتهم بحال جماعة أوقدوا ليلاً نارًا ليستدفئوا بها، وتضيء لهم، فأفاد منها فريق، وفريق آخر لم يهتم بالانتفاع بها، فانطفأت من حوله النار فصار فى ظلام دامس، فقال الله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ [البقرة: ١٧] إلخ.

والمثل بمعنى القصة والمراد: صفتهم، وقصتهم كقصة المستوقد.

واستوقد: بمعنى أوقد، والمراد: أشعل نارًا فى ظلمة، والإضاءة: الزيادة فى النور كما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: ٥].

وأضاءت ما حوله: أى: أنارت المكان الذى حول المستوقد، وقد عبر بالاسم الموصول (ما) عن المكان الذى يجلس فيه، وضمير الفاعل - هنا - مفرد فلعل الموقد هنا واحد على ما نعلم من أنه يمكن أن يقوم بهذا العمل شخص واحد، ثم ينتفع بالنار جماعة، ولذلك جمع الضمير حين قال سبحانه وتعالى: ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٧] فالذين عمهم الدفء والضوء جماعة.

[ويمكن أن يكون استعمل (الذى) وضمير الفاعل العائد عليه مفردًا لفظًا وأراد به الجماعة وهى لغة لبعض العرب، كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣] فالمعنى هنا: مثلهم كمثل الذين استوقدوا النار... إلخ، ويؤيده -أيضًا- قوله تعالى -بعد ذلك-: ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٧] فحمل أول الكلام على الواحد وآخره على الجمع.

[ولسائل أن يسأل: لماذا قال سبحانه: ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٧] دون أن يقول: «ذهب الله بضوئهم» على مقتضى السياق بعد أن ذكر ﴿ أَضَاءَتْ ﴾ قبل ذلك؟.

وسر اختيار الكلمة الأولى ﴿ بِنُورِهِمْ ﴾ أن يؤكد أن كل شيء قد ذهب تمامًا، فلم يبق بصيص من النور بعد أن انطفأت النار، وقد يظن أن ذلك قد حدث، فالغرض إذهاب النور عنهم تمامًا، ولو قال: « ذهب الله بضوئهم » فربما يجول فى الذهن أن الذى ذهب هو السطوع، وبقى جزء من النور كما يحدث فى أحيان كثيرة حينما تنطفئ النار، والأمر فى الآية ليس كذلك.

وجاء التعبير بقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧].

دالاً على تعدد الظلمات التى عمت المكان الذى أوقدت فيه النار، والصورة الحسية المعنية هنا صورة الجماعة الذين أوقدوا النار فى مكان مظلم تراكم غمامه فمحا النور الظلام عن المكان وأذهب الخوف عن قلوب الجماعة فاستدفأوا، وأبصروا ما حولهم، ثم فجأة انطفأ النور، وذهب عنهم فبقوا متحيرين خائفين لا يدرون أين الطريق.

والصورة المعنوية المقابلة هى صورة الكافرين، والمنافقين وقد استبد بهم الكفر فجاء الإسلام، وكتابه القرآن الكريم بمعانيه، ومبادئه وأحكامه لينقذهم من الكفر والضلال، فلم يتبعوه، ولم يؤمنوا به، فضلوا، وزلوا.

وقد نقل القرآن الكريم الصورة المعنوية إلى صورة حسية فالكفر، والنفاق ظلمات، والإيمان، والقرآن نور، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٢ - ١٣].

وهنا قرر القرآن الكريم أن الكفار، والمنافقين قد جنوا على أنفسهم لأنهم لم يذعنوا لآياته البينات، فالقرآن هنا - هو النور الذى أطفأه الله تعالى، والظلمات التى عمتهم هى ظلمة الكفر والنفاق والضلال، وظلمة يوم القيامة، وسخط الله عليهم، وظلمة العقاب السرمدى، فهى ظلمات كثيرة، وهى على التشبيه كما نعلم.

ولما لم يجد الله تعالى منهم استعداداً لتلقى الإيمان، وسماع القرآن أذهبه من حياتهم، وطمس على قلوبهم فهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

والصمم - فى كلام العرب - الانسداد، ويقال: قناة صماء: إذا لم تكن مجوفة، وصممت القارورة: إذا سددتها، فالأصم: من انسدت خروق مسامعه، وجمعه، صم.

والأبكم: الذى لا ينطق، ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس، وقيل: الأخرس والأبكم واحد، وجمع الأبكم: بكم.

فهم صم عن استماع الحق، وبكم عن التكلم به، عمى عن الإبصار، فهم لا يرجعون إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم.

فليس المراد - إذًا - نفى حواس السمع، والنطق، والبصر عنهم، وإنما المراد عدم قبولهم الحق والإيمان مع وجود هذه الحواس، فأهملوها، فأصبحت كأنها معدومة لا موجودة، ولذا فهم لا يرجعون عن غيهم، وضلالهم، ولا يدركون الصواب بالإيمان الحقيقى، لقد أهملوا حواسهم الظاهرة والباطنة فاعتبروها كأنها ذاهبة عنهم، وهذا الذهاب ذهاب للنفع الذى تؤديه هذه الأدوات، وليس ذهابًا لها على الحقيقة، فهى تمثيل لإعراضهم عن القرآن، ودعوة الحق، وعدم انتفاعهم برؤية عجائب الله فى خلقه انتفاعًا صحيحًا.

وهذه صورة رائعة من صور التعبير القرآنى تدمغ الكفر والضلال، وتكشف أضراره وأوزاره، وتوضح الهدى والحق وتبين منافعه وثماره، بحيث لا يخفى أى منها إلا على مَنْ لا يسمع، ولا يرى، ولا يجعل لعقله مجالاً للتفكير.

وصورة أخرى يضرب الله تعالى فيها المثل لكفرهم، وتمسكهم به، وإعراضهم عن الحق، والإيمان إعراضًا متمكنًا من نفوسهم، ، وعقولهم وسلوكهم وفى الجانب الآخر يمثل كذلك ما يحدثه القرآن الكريم من التأثير القوى حتى على المعاندين والمكابرين ، وهم يحاولون أن يمنعوا أثره، فيحرموا أنفسهم من خيره، وهدايته، وبذلك يحل بهم الوبال والنكال فى الدنيا والآخرة.

وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] إلخ . . .

أو - هنا - بمعنى الواو كما قال الشاعر:

نال الخلافة أو كانت له قدراً   كما أتى ربه موسى على قدر

على معنى: وكانت، والصيب: المطر، سُمى بذلك لنزوله، يقال: صاب يصوب: نزل، والسماء: كل ما علاك من سقف ونحوه، والسماء: المطر، سمى بذلك لنزوله من جهة السماء قال الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم   رعيناهُ وإن كانوا غضابا

والظلمات جمع ظلمة، وجمعها لأنها تعددت مصاحبة للصيب، فهناك ظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الليل الذى نزل فيه، والرعد والصاعقة بمعنى واحد، أو الصاعقة هى الصيحة الشديدة من صوت الرعد تكون فيها القطعة من النار، أو هى نار تخرج من السحاب.

ويصور المولى سبحانه وتعالى - هنا - جماعة من المسافرين صادفت ليلة شديدة الظلام نزل فيها مطر شديد تتخلله الرعود التى اشتدت أصواتها والبروق، ومن شدة خوف هذه الجماعة، وعدم تحمل آذانهم للأصوات التى تنزل عليها وضعوا أصابعهم فى آذانهم، وهم فزعون من تأثيرها عليهم، وقد عبر القرآن الكريم بالأصابع عن الأنامل مبالغة فى محاولتهم منع هذا التأثير.

فقال سبحانه تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [االبقرة: ١٩].

وهم - مع ذلك - إذا رأوا ضوء البروق ساروا فيها، وإذا خبت أمسكوا عن السير متحيرين ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠].

فمعنى يكاد: يقرب، ويوشك، والخطف: الأخذ بسرعة، ومعنى قاموا: أمسكوا عن السير حتى يزول الظلام.

وهكذا يمثل الحق تبارك وتعالى موقف الكافرين والمنافقين، وعنادهم ونزول القرآن بالخير وحرمانهم منه بصورة جماعة مسافرة نزل عليهم مطر شديد يبعث البروق ولم ترد الاستفادة منه لما فى طبيعتهم من شر وفساد ففسدت حياتهم، ولم يبق لهم من استقبال المطر إلا أن يعيشوا فى ظلماته، ويحاولوا أن يحموا أنفسهم من صواعقه.

إن القرآن الكريم ممثَّل فى هذه الصورة بالمطر الذى نزل ليحيى البشرية كلها، وبالبرق الذى يتسرب من خلال ظلمة (السحاب) وظلمة المطر، وظلمة الليل الشديد، وهذه الظلمات تعبر عن الضلال الذى يعيش فيه الكفار، والمنافقون، وحجج القرآن التى ترد على خواطرهم فيعتزلونها ويصدون عنها ممثلة بالصواعق التى تجعل الجماعة التى نزل عليها المطر تضع أصابعها فى آذانها خوفاً منها أن تذهب بأسماعهم، والموت الذى يخشون أن يحل بهم هو الإيمان الذى يذهب بالكفر والضلال، وغيرهما من العقائد الفاسدة.

إن الصورة رائعة فى بيان تأثير القرآن القوى وتسربه إلى أفئدة المعاندين الذين يحاولون أن يمنعوه بكل قوة وبأس فلا يستطيعون لأنه يختلط بالدم، ويجرى فى العروق، ويسيطر على العقل والتفكير قبل أن يختلط بالحواس الظاهرة؛ ولذا فإن تأثيره شديد مهما يبالغوا فى صده، أو الإعراض عنه؛ ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] فيهلكهم ويعاقبهم على إعراضهم.

وقد صور لنا جانبًا من انقيادهم له حينما قال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠] إلخ فهذا -كما يذكر المفسرون- تمثيل لحالهم بأنهم كلما سمعوا من القرآن ما فيه من الحجج أزعج قلوبهم بظهورها لهم فصدقوا به إن كان مما يحبون من عصمة الدماء والأموال والغنيمة ونحوها، وإن كان مما يكرهون من التكاليف الشاقة عليهم كالصلاة والصوم والزكاة وقفوا متحيرين.

واختطاف البرق لأبصارهم مثل لإزعاج القرآن لهم بما فيه من الحجج وتصديقهم لما سمعوا مما يحبون ممثَّل بمشيهم فى البروق، ووقوفهم متحيرين مما يكرهون ممثَّل بقيامهم فى الظلمة.

وهم حين يسمعون القرآن بآياته البالغات يخشون من نفاذه إلى قلوبهم وتأثيره فيهم فيحاولون الإعراض عن سماعه حتى لا يقع الإيمان فى قلوبهم، فالانتقال من الكفر إلى الإيمان يعد فى نظرهم موتًا، وهلاكاً لهم، وهم مع ذلك، متأرجحون بين الشك واليقين يعرض لهم الإسلام ومبادئه فيميلون إلى الدخول فيه، ثم يعرضون عنه.

وهكذا تكتمل هذه الصورة المحسوسة للتعبير عن صفة المعاندين والكافرين وهى دقيقة فى استقصاء عناصرها، وأجزائها، فكل عنصر فى نسيج قصتهم قوبل بعنصر محسوس فبدت متناسقة مؤتلفة.

ولأنهم عموا عن الحق قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة: ٢٠].

هذا تهديد من الله سبحانه وتعالى لجماعة المعاندين الذين أصموا آذانهم عن سماع القرآن، وأبعدوا أبصارهم عنه مع وضوح البراهين والدلائل على صدق القرآن الكريم ومن أنزل عليه وهو نبى البشرية محمد صلى الله عليه وسلم، ولا شك فى قدرة ذى الجلال والإكرام على إذهاب سمعهم وأبصارهم لأنهم منعوها من أداء وظيفتها التى خلقت من أجلها وهى التفكير فى آيات الله، والتأمل فيها، فقد عميت أبصارهم، وقلوبهم بالكفر فلم يعد جدوى من وجود حواسهم الظاهرة فإذهابها عنهم أولى.

[٦] ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ٢١].

هذه الآية الكريمة - والآيات التى بعدها - تدعوا إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وقد جاءت فى صورة الخطاب الذى يحتوى على الأمر الوجوبى بالاتجاه إلى الله وحده سبحانه وتعالى.

ولعلك تدرك معى - أيها القارىء الكريم - أن الحديث القرآنى هنا لا يزال مستمراً عن فريقى الكافرين والمنافقين، فقد بدأ القرآن الكريم يوجه إليهم الدعوة الخالصة بالإيمان بالله وحده جل وعلا وعبادته وتنزيهه عن الشركاء والأنداد.

فقد خاطبهم الله تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] وعدد لهم النعم التى أنعم بها على كل المخلوقين والمخلوقات لعلهم إذا نظروا فيها آمنوا واهتدوا إلى صراط الله المستقيم.

ومن تلك النعم (خلق الناس جميعًا من مات منهم ومن بقىَّ إلى قيام الساعة) وهذه النعمة هى التى عبر القرآن الكريم عنها بقوله تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وقد صدرت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهذا أسلوب من أساليب النداء، ومعروف أن النداء فى اللغة العربية طلب الإقبال من المخاطب على من صدر منه النداء كأن تقول مثلا (يا على أقبل)، فتريد قدومه إليك لأمر يتعلق بهذا القدوم.

ويستعمل لأغراض أخرى كتنبيه المخاطب لأمر مهم ونحو ذلك، ويكون النداء بأدوات معروفة عند اللغويين كالهمزة و(يا) و(أيا) و(هيا) والمشهور (يا) وهى التى وقع بها النداء فى القرآن الكريم.

وللقرآن الكريم خصائصه التعبيرية فى استعمال النداء، فأحيانًا يأتى النداء فى القرآن الكريم لطلب الإقبال كما فى قوله تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١]

ويأتى للتنبيه ولفت الأنظار إلى أمر مهم يلقى على المخاطبين كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الأنفطار: ٦] وأمثال ذلك كثير.

وقد يقصد منه التشريف بإضافة المنادى إلى الله سبحانه كقوله: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨] أو مدح المنادى كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد يراد منه بيان جنس المنادى وصنفه الذى ينتمى إليه من اعتقاد وديانة كقوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وهذا قد يسلك به القرآن الكريم مسلك الذم للفرق الضالة من الكفار واليهود وأشباههم كقوله عز وجل : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الجمعة : ٦] وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ [التحريم : ٧]

إلى غير ذلك فى صور النداء وأساليبه وأغراضه التى يكشف عنها البيان الدقيق لأساليب القرآن الكريم .

ونرى أن قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ [البقرة : ٢١] مما يدخل تحت غرض تنبيه المخاطبين لما يلقى إليهم من أمور مهمة فى توحيد الله وعبادته .

وجاء الخطاب هنا بلفظ (الناس) وهويعنى البشر بعامة لكن يبدو - والله أعلم - أن المقصود به هم الكفار والمنافقون الذين لم يعبدوا الله وحده، فهى دعوة إلى تأملهم فى نعم الله تعالى عليهم للعودة إلى حظيرة الإيمان والتقوى .

وبعض العلماء يجعل الخطاب هنا للناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم، فالناس جميعًا مطالبون بتوحيد الله وإخلاص عبادتهم له، فالخطاب على هذا شامل وعام للمكلفين جميعًا .

لكن سياق الآيات بعد ذلك يرجح الأول فالنهى عن اتخاذ الأنداد، وعن الشك فى القرآن يؤكد أن الخطاب للكفار والمنافقين .

﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ : أصل العبادة : الخضوع والتذلل، يقال : طريق معبَّدة : إذا كانت موطوءة بالأقدام معدة للسير، والعبادة : الطاعة، والتعبد : التنسك، والمقصود بالعبادة - هنا - توحيد الله والتزام شرائع دينه .

وهكذا ينادى المولى سبحانه وتعالى الناس لإخلاص العبادة له وحده والله تعالى يعدد النعم الباهرة التى تجعله مستحقًا للتوحيد الخالص .

والنعمة الأولى التى ذكرها القرآن الكريم - هنا - هى خلقه للناس جميعًا، وقد عبر عنها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١]، إن خلق العالم أمر ينبغى التأمل فيه لعظم شأنه ودلالته على قدرة الخالق سبحانه، ولفظ (الذى) اسم موصول وقع صفة للرب تبارك وتعالى.

وللخلق معنيان: أحدهما التقدير، فتقول العرب: خلق الشئ: قدره.

والمعنى الثانى هو: الإنشاء والاختراع والإبداع، وهو المراد - هنا - فى الآية، فمعنى (خلقكم): أنشأكم وبدأكم أول مرة ولم تكونوا شيئًا مذكورًا.

ويلاحظ -هنا- أن القرآن الكريم تحدث عن خلق الأحياء من الناس حين قال: (خلقكم) فى مواجهة المخاطبين، وتحدث عن خلق السابقين الذين ذهبوا إلى بارئهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ فقد ذكر المخاطبين بخلق الأحياء والأموات من الأمم على مر العصور والدهور.

ولسائل أن يسأل: ألم يكن يكفى التصريح بخلق الناس فى قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ﴾؟ ولماذا ذكر خلق السابقين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ مع أنه مفهوم من قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾؟.

ونقول: إن للقرآن حكمه البالغات فى أساليبه المحكمة بالإطالة أو الاختصار، فالمقام - هنا - مقام تنبيه وتذكير لهؤلاء الذين جهلوا أو تجاهلوا عظمة الخالق، فبعدوا عن عبادته، فأراد أن ينبههم إلى نعمة الخلق الكبرى من جهة، ومن جهة أخرى أراد أن يثير فى نفوس المخاطبين حال من مر من كثير من الأقوام أمثالهم، فقد خلقهم الله، وأحياهم، وأكرم من آمن منهم، وأهلك من انحرف عن طريق الإيمان، وأنزل به شتى الويلات والثبور، ليكون ذلك دافعًا للمخاطبين إلى الامتثال والرجوع عما هم فيه من باطل وضلال، والاعتراف بما للخالق الذى خلق وأمات، وأعطى، وعاقب من قدرة باهرة ينبغى التأمل فيها، والخضوع لسلطانها حتى يضربوا المثال الصالح للإنسان الذى عرف ربه، واهتدى إلى طريق سعادته لا إلى مهاوى شقاوته.

ومن هنا ندرك سر التفصيل القرآنى بالحديث عن خلق الأمم السابقة فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم ﴾ فهى عبارة ذات مغزى كبير، ودلالة واسعة فى العظة والتذكير.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ : التقوى: هى اتخاذ شىء حاجز بينك وبين ما تحذر من ضرره، وقد سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبيًا عن التقوى، فقال: هل سلكت طريقا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فماذا عملت فيه؟ قال: تشمرت وحذرت، قال: فذلك التقوى، وأخذ هذا المعنى الشاعر ابن المعتز فنظمه فى قوله:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

والمطلوب - هنا - فى الآية الكريمة أن يتقى الإنسان عذاب الله تعالى بصالح عمله، واستقامته على طريق الإيمان والهدى.

والتقوى هى جماع الخير كله، وهى وصية الله فى الأولين والآخرين، وهى خير ما يستفيده الإنسان.

والمراد - هنا - بقوله سبحانه: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أى لعلكم تتخذون وقاية بعبادة الله تحول بينكم وبين عقابه.

ولكن يقول اللغويون: إن (لعل) حرف ترج يفيد الطمع وتوقع الحصول على أمر محبوب، وهذا التوقع والترقب الذى يفيده هذا الحرف لا يتناسب مع جانب الله جل وعلا، فالله تعالى يعلم الأمور كلها علمًا يقينًا، ولا يحتاج إلى توقع أمر أو طمع فيه، فكيف يقع هذا اللفظ (لعل) فى القرآن الكريم؟، وكيف يفسر معناه على نحوٍ لغوى مستقيم؟

لقد ورد هذا اللفظ (لعل) فى آيات كثيرة كالآية التى معنا ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وقوله سبحانه فى آيات أخرى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ - لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾، إلخ.

ويجاب عن ذلك بأن الترجى والتوقع والإطماع المفهوم من (لعل) فى هذه الآيات ونحوها حاصل بالنسبة للبشر المخاطبين لا بالنسبة لله سبحانه، فكأنه قيل: افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تتقوا وأن تعقلوا وأن تهتدوا. وقد فسر بعض اللغويين (لعل) على هذا النحو فى قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٤] ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤]، قال: معناه: اذهبا وأنتما تطمعان وترجوان تذكر فرعون وخشيته.

وأيضا فإن العرب استعملت (لعل) حرف تعليل بمعنى اللام فالمراد من قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أى لتتقوا ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى لتهتدوا إلخ فلعل مثل اللام تفيد السببية والتعليل وعلى ذلك يدل قول الشاعر:

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق
فلما كففنا الحربَ كانت عهودكم كلمع سراب فى الملا متألق

فالمعنى فى البيتين: كفوا الحروب لنكف عن حربكم بكل تأكيد، ولو أفادت (لعل) معنى الطمع والرجاء لم يوثقوا لهم كل موثق، وكان المعنى متناقضًا.

وبهذا يتضح سر استعمال (لعل) وخصائص التعبير بها فى القرآن الكريم.

[٧] ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢ - ٢٣].

تحدث المولى سبحانه فى تعالى الآية السابقة - قبل هذه الآيات عن نعمة خلقه تعالى للناس جميعًا، واستحقاقه سبحانه وتعالى التوحيد الخالص.

وفى الآية الأولى - هنا - يتحدث المولى الجليل عن النعم الأخرى التى وصفها الله تعالى للتذكير بوحدانيته وربوبيته، واستحقاقه العبادة الخالصة، والإعراض عن الشركاء.

والنعم التى تضمنتها الآية هى:

١- فرش الأرض وهو يعنى خلْقها وبسْطها لتصلح الحياة عليها والاستقرار فيها.

٢- بناء السماء سقفا محفوظًا بلا عمد ترونها.

٣- إنزال المطر وإخراج الثمرات لسد حاجة الإنسان والحيوان واستمتاعه بتلك الخيرات واللذائذ.

وقد عبر - سبحانه وتعالى - عن النعمة الأولى بقوله تعالى: ﴿ **الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا** ﴾ [البقرة: ٢٢]، الفراش: هو البساط الذى يفترش، وقد جعل الله سبحانه الأرض ممهدة معدة مهيأة للانتفاع بها والاستقرار عليها، فليست صلبة أو لينة فيمنع من هذا الاستقرار والانتفاع، أما الجبال والبحار فهى - أيضًا - مما يفيد العباد؛ لأن الجبال كالأوتاد كما قال الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** ﴾ [النبأ: ٦ - ٧]، ولها منافع أخرى كثيرة اكتشفها الإنسان قديمًا وحديثًا كاستخراج المعادن وبناء المساكن، وغيرهما من سائر المنافع وفى البحار كثير من المنافع عبر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ **وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ** ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والمراد بجعل الأرض فراشًا: خلقها، وتصييرها صالحة للاستقرار عليها.

ولا يتنافى جعلها فراشًا مع كونها كروية لأن مساحتها الواسعة تجعلها تبدو منبسطة لا تظهر آثار الكروية فى افتراشها.

ولعل الأرض كانت فى أول الأمر غير مدحوة ثم دحيت بعد خلقها ومدت.

وتقديم (لكم) - على المفاعيل الأخرى - للتشويق والبشارة والإشعار بالمنفعة للمخاطبين حتى تتمكن من نفوسهم فضل تمكن.

وقد جاء الفعل جعل بمعنى خلق، وعبر - هنا - بجعل دون خلق التى وردت من قبل فى العبارة، كما فى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وعبر عن النعمة الثانية بقوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، وكل ما علا فأظل قيل له سماء، وأصل البناء وضع لبنة على أخرى حتى تثبت، والسماء سقف الأرض أو هى كالقبة المضروبة ويقال لسقف البيت بناء قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾، وهى عجيبة من عجائب ملكوت الله فهى مرفوعة بغير عمد ترونها كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

وعبر بلفظ (السماء) مفردة مناسبة لذكر الأرض والمراد بها السموات مجتمعة.

وعبر عن النعمة الثالثة بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

فقد أنزل الله تعالى المطر إلى الأرض ليرويها فتخرج ألوانًا من الثمرات، وأنواعًا من النبات، وقد بين هذا فى قوله جل ثناؤه: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾ ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً﴾ ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٥ - ٣٢].

وهذا هو المقصود بالرزق فى قوله تعالى: ﴿رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧] أى: طعامًا لكم ونفعًا لحياتكم.

والرزق: العطاء، وقد يطلق الرزق ويراد منه الشكر - فى لهجة جماعة من العرب هم أزد شنوءة - وقد استعمل الرزق فى القرآن بمعنى الشكر تبعا لهذه اللهجة فى قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أى: تستعملون بدل الشكر للخالق تكذيبكم لآياته ورسله.

و(من) الأولى للابتداء، فالسماء أصل المطر ومبدؤه، أو للتبعيض أى بعض مياه السماء، وهى تنزل من جهة السماء أو المراد بالسماء: السحاب الذى يحمل المطر.

وقد تكرر فى القرآن الكريم ذكر الماء نازلاً من السماء لكثرة نفعه وبركته.

و(من) الثانية للتبعيض، فكثير من الثمرات خرجت بالماء النازل وكثير منها لم يخرج بعد وسيخرج إن شاء الله تعالى.

و(ال) - فى الثمرات - للجنس أو للاستغراق، وليس المقصود خروج جميع الثمرات.

وأتى بجمع القلة (الثمرات) بدلاً من جمع الكثرة (الثمار) ليدل على أن ما خرج من الثمرات قليل من كثير مما عند الله تعالى.

والباء فى (به) تفيد السببية وقد ربط الله تعالى الأسباب بالمسببات شرعًا وقدراً خلافًا لمن يمنع ذلك وقد ربط مصالح العباد بالأسباب فى المعاش والمعاد كالأمر والنهى والحل والحرمة والثواب والعقاب والكفارات ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤ - ٨٥] ومع ذلك لا يتوقف الفعل على السبب حقيقة ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وقد ذكر - على الترتيب - الأرض ثم السماء ثم المطر لما يتوالى من المنافع المتتابعة منها.

وبعد أن عدد هذه النعم عقب عليها بذكر النتيجة المطلوبة ممن يتأمل فى تلك النعم، وهذه النتيجة هى توحيد المنعم ونبذ الشركاء، وقد عبر عن ذلك بقوله تعالى:

﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢].

الأنداد: جمع ند ونديد، والند: هو النظير والمضاهى والكفء، والمثل، والمراد - هنا - لا تتخذوا شركاء لله فى العبادة فهو مستحق للتوحيد الخالص.

والمشركون جعلوا الأصنام مماثلة له تعالى فى العبادة حماقة منهم وجهلاً.

وجمع الأنداد للتشنيع عليهم إذ ليس له ند واحد فكيف يجعلون له أندادًا؟

والفاء في قوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ في جواب شرط مقدر أي: إذا كان الخالق بهذه المثابة فلا تجعلوا له أندادًا أو الفاء عاطفة على جملة (اعبدوا ربكم الذى خلقكم)، ووضع لفظ الجلالة (لله) موضع الضمير لتعيين المعبود بالذات بعد أن تعين بالصفات المذكورة، ولبيان صفة الألوهية التى تتعين فيها الوحدانية، وعلق العبادة بصفة الألوهية - هنا - كما علقها من قبل بصفة الربوبية والمخلوقون عرفوه بخلقه لهم، ونعمه عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية، وصاحب الحال فاعل (فلا تجعلوا).

والخطاب إما عام أو خاص على أن المقصود أهل الكفر والنفاق ويخرج عنه المؤمنون وهذا الثانى أرجح.

وقد حذف المفعول هنا لعلمه مما سبق فهم يعلمون النعم الكثيرة التى تقتضى عدم إشراك غيره معه إذ هو صاحب القدرة والنفع، وغيره من النظراء والأنداد لا ينفع بشيء كما قال سبحانه فى آية أخرى -: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ؟﴾ [الروم: ٤٠].

أو يعلمون عدم مماثلة أى شيء له أو هم من أهل العلم فكيف يعبدون غير الله وعندهم الأهلية، وهذا تهكم بهم واستهزاء.

ولسائل أن يسأل: كيف وصف الكافرين والمنافقين بالعلم مع أنه سبحانه وتعالى قال عنهم - قبل ذلك - ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] وهذا يقتضى ألا علم لهم؟

والجواب أن هذا هو العلم الخاص بالأمور المذكورة فى الآيتين من نعم الله الباهرات.

أو أنه أراد بذلك دعوتهم إلى التأمل والتدبر فيما حولهم من نعم الله فهم قد أصموا آذانهم وأعرضوا عن رؤية الآيات من حولهم، ولو تركوا حواسهم على طبيعتها

لأدركوا وعرفوا حقيقة ما يجهلون أو يدعون جهالته، وفى هذا دعوة إلى استعمال العقل والنظر فى الحجج والأدلة للوصول إلى الحق، وإبطال لدعوى التقليد للآباء والأجداد فى مثل قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]

ثم انتقل القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

إلى حجاج الكفار والمنافقين ومناقشتهم فى دعواهم الزائفة بأن القرآن مفترى، وما ران على قلوبهم من شك فى صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وكيف تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، وأن يأتوا بعشر سور فعجزوا كذلك، ثم نزل معهم فى النقاش إلى حد طلب الإتيان بمثل سورة واحدة حتى لو كانت من قصار السور التى لا تزيد على ثلاث آيات، فأفحموا عن الجواب وتقطعت بهم الأسباب مع كونهم أصحاب البلاغة واللسن، وعنهم تؤخذ الفصاحة وقوة البيان.

ولا شك أن القرآن الكريم معجز بوجوه كثيرة فى نظمه الذى يسمو فوق كل نظم معهود فى لسان العرب وألسن غيرهم من الأمم، ومعجز فى أسلوبه المرتفع على جميع أساليب العرب وفى جزالته التى لا تصح من مخلوق على الإطلاق، إلى غير ذلك من وجوه الإعجاز كالإخبار بالغيب، والعلم، والحكم البالغة، والتناسب فى جميع ما تضمنه من شرائع وأحكام ومبادئ وقيم ومثل.

ونرجع إلى الآية لنحللها تحليلاً لغويًا ونبين إن شاء الله خصائصها التعبيرية.

فقد عبر عن شك الكافرين والمنافقين فى صحة القرآن وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة منه فقال عز من قائل: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

(الريب): الشك مع تهمة كما ذكرنا من قبل فى أول السورة.

(مما نزلنا): (ما) واقعة على القرآن الكريم وهى اسم موصول أو نكرة موصوفة، والعائد إليها محذوف على معنى (الذى نزلناه) وهو القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد ﷺ.

(على عبدنا): العبد مأخوذ من التعبد وهو التذلل والخضوع ولما كانت العبادة أشرف الخصال والتسمى بها أشرف التسميات سمى نبيه عبداً وهو القائل سبحانه:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧ - ٥٨].

وللغويين وقفات أمام التعبير القرآنى فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣] تبين خصائص هذا التعبير ومراميه اللغوية الفريدة.

فالمعروف أن أداة الشرط (إنْ) تحول الفعل الماضى إذا وقع بعدها إلى الزمن المستقبل.

ولسائل أن يسأل: كيف استعملت (إن) هنا مع أن الشك واقع فى الماضى من الكافرين والمنافقين؟ ويجاب عن ذلك: بأن شكهم مستمر فهو فى الماضى والمستقبل معا، والقرآن الكريم يناقشهم عن استمراره فى المستقبل، فصح استعمال (إن) الشرطية ليفيد المطلوب بدقة فائقة.

ويرى بعض اللغويين أن الفعل (كان) قوى متوغل فى المضى ولذلك يبقى معناه فى الماضى ولا تقلبه (إن) الشرطية إلى المستقبل، ويكون الكلام فى الآية عن شكهم فى الماضى وطلب عدولهم عنه.

والرأى الأول أقوى لأن القرآن الكريم يطلب من الكافرين والمنافقين عدولهم عن الريب الذى اعتنقوه فى الماضى والمتوقع استمرارهم عليه فى المستقبل وكذا كل من سار على دربهم فى كل مكان وزمان.

ولسائل أن يسأل أيضًا فيقول: إنّ (إنْ) الشرطية تستعمل - عادة - فى الأمر المشكوك فيه على حين أن (إذا) الشرطية تستعمل فى الأمر المؤكد المتيقن.

كما تقول للعاصى: إن تبت من ذنوبك غفر الله لك، وأنت تعرف بدلائل حالية أن توبته مشكوك فيها، أما إذا كنت واثقًا متيقنًا من عزمه على التوبة قلت له: إذا تبت من ذنوبك غفر الله لك، ولا يصح أن تستعمل إحدى الأداتين مكان أختها حتى لا يفسد المعنى المفهوم من العبارة.

وهنا فى المقام الذى معنا كان ريبهم فى القرآن واقعًا محققًا فكيف تستعمل (إنْ) مع أن المقام لا يقتضيها، وإنما يقتضى استعمال (إذا) مكانها؟

وجواب هذا السؤال حكمة بالغة وهى توبيخ الكفار والمنافقين على الارتياب، فالمفروض أن ريبهم فى القرآن ينبغى ألا يقع لأن القرآن ليس محلاً للشك بحال، ولذا يجب أن يزول من نفوسهم، ومن هنا استعملت (إن) التى تجعل ريبهم مشكوكًا فى وقوعه، ونكَّر (ريب) ليفيد أنه ينبغى أن يكون هذا الشك ضعيفًا قليلاً لسطوع الدلائل على صدق القرآن وكونه وحيًا منزلاً من عند الله بلا أدنى شبهة، فلعل أصحاب الريب يرجعون عنه وينصرفون إلى الإيمان.

وهذه دقة لغوية بارعة تشتمل على حسن توجيه الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وننبه هنا إلى أن الكثير من المتحدثين بالعربية فى عصرنا الحاضر يهمل النظر إلى دقة استعمال الأداتين (إنْ) و(إذا) فى مكانيهما الصحيحين، فقد يستعمل (إذا) فى الأمر المشكوك فيه ويستعمل (إن) فى المؤكد وقوعه بلا أدنى ملاحظة لدقة هذا الاستعمال، وما كان يجرى فى الأساليب العربية الفصحى.

ويجب أن يتخذ القرآن الكريم مثالاً يحتذى فى دقة هذا الاستعمال، فقد استعمل القرآن الكريم كلا التعبيرين فى مواضع كثيرة منتهجًا هذا النهج القويم، وقد يعدل عنه - كما هنا- لملاحظ واعتبارات غاية فى الدقة اللغوية، وليتنا جميعًا نعى هذه الحقائق القرآنية ونحتذيها لنحسن التعبير بالعربية فى دقة تعيد لساننا إلى ما كان عليه أسلافنا الفصحاء.

ومن خصائص التعبير القرآنى فى قوله سبحانه:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ [البقرة: ٢٣] أنه عبر بذلك دون أن يقول: كنتم مرتابين - مثلا- فقد استعمل كلمة (ريب) مجرورة بالحرف (فى) فجعل الريب ظرفًا محيطًا بهم من كل جانب كالمكان الذى يحل فيه الإنسان، وهذا يفيد قوة الدلالة على تمكن الشك من نفوس هؤلاء المعاندين، وهو بذلك قد أغنى عن عبارات طويلة يحتاج إليها من يريد أن يبين تمكن الشك من نفوسهم.

فكان الإيجاز القرآنى فى اللفظ ذا دلالة واسعة تغنى عن خطب طويلة وعبارات مستفيضة، وما أروعها من دقة لا يصل إليها كلام البشر.

وفى قوله سبحانه ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] قد يسأل سائل لم ضعف الفعل (نزل) وعداه بـ(على) دون (إلى) فلم يقل (نزلنا إلى عبدنا) مثلا؟

والجواب أن تضعيف الفعل (نزل) للتكثير وذلك يجعله دالاً على نزول القرآن الكريم منجمًا بحسب الحوادث فى أوقات متعددة، وقيل: إن التضعيف لمجرد تعدية الفعل، ولا دلالة له على ما ذكر والرأى الأول أرجح.

وإن التعبير بالحرف (على) أشد وأقوى من ناحية المعنى المراد، فـ(على) تفيد الاستعلاء كأن المنزل تمكن من المنزل عليه ولبسه، ولهذا جاء أكثر القرآن بالتعدى بها دون (إلى) فإنها تفيد الانتهاء والوصول فقط.

ونحن لا نرى المتحدث العربى الآن يلاحظ مثل هذه الدقائق العميقة فى استخدام الحروف (فى) و(على) و(إلى) بل يلقى بها كيفما اتفق، فهل نأخذ من قرآننا هذه الخصائص ونسير على منوالها لتحقيق صحة الدلالة اللغوية للحروف؟

وفى الألوسى أن فى ذكره ﷺ بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة تنبيها على عظم قدره واختصاصه به وانقياده لأوامر الله سبحانه وتعالى، وفى ذلك غاية التشريف والتنويه بقدره ﷺ.

وفى قوله سبحانه وتعالى ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾أسلوب بلاغى يسمى (الالتفات) فقد كان مقتضى التعبير أن يقول (مما نزل على عبده) -بأسلوب الغائب- ليوافق سياق قوله قبل ذلك (اعبدوا ربكم) لكنه غير سياق العبارة من الغيبة إلى التكلم فنقل التعبير إلى قوله ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ بضمير المتكلم المعظم لله لأن المقام يقتضى التفخيم والدلالة على عظم شأن القرآن، فنزول القرآن أمر جدير بأن يعبر جل وعز فى سياقه بنا المشعرة بالتعظيم التام وتفخيم الأمر رعاية لرفعة شأن القرآن ونبينا المنزل عليه ﷺ.

وجواب (إن) الشرطية فى قوله ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ هو قوله تعالى ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣].

وهذا هو مقام تحدى الشاكين فى نبوة الرسول ﷺ وصحة القرآن الذى أنزل عليه.

ومعنى الإتيان: المجىء كيفما كان، ويقال فى الخير والشر ويراد منه هنا محاولة المعاندين محاكاة القرآن أو معارضته بالفعل، وطلب الإتيان هنا فى قوله (فأتوا) من باب التعجيز والتبكيت لهم وبيان خيبة أملهم وضلالهم الذى هم فيه وشناعة ما ارتكبوه من الشك.

والسورة ترجع إلى مادة (سور) التى منها السور وهو ما ارتفع عن الأرض، وأخذت منه السورة بمعنى الارتفاع من منزلة إلى منزلة.

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

فالمراد: أن الله أعطاه منزلة شرف ارتفع بها عن الملوك.

والسورة: القطعة من القرآن، قيل: سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده ويرقى كسور البناء، وقيل: سميت بذلك لتمامها وكمالها مأخوذ من قول العرب للناقة التامة: سورة.

وأقل السور ثلاث آيات، والحكمة فى تقطيع القرآن إلى سور هو حسن التقسيم والتنويع وتناسب النظم وتنشيط القارئ، وتسهيل الحفظ والترغيب فيه، والضمير فى

قوله (من مثله) للمنزل وهو القرآن، والمعنى: إن ارتبتم أيها الكفار والمنافقون فى أن القرآن منزل من عند الله فأتوا بشيء مما يماثله كآية سورة ولو قصيرة تماثله فى بيانه المعجز.

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾ [البقرة: ٢٣] الدعاء هو النداء والاستعانة والأمر هنا أيضًا للتعجيز، والشهداء جمع شهيد وهو من يعتد بحضوره ممن له الحل والعقد، ويأتى بمعنى الحاضر أو الناصر أو القائم بالشهادة.

والمراد: ادعوا إلى معارضتكم للقرآن من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله فإنه لن يقدر على أن يأتى بمثله إلا الله، أو ادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثل القرآن.

وكأن الحكمة من إحضار الشهود ليس ليدلوا بشيء شاهدوه من قبل، بل ليعرفوا ما صار إليه أمرهم من العجز وعدم تمكنهم من المعارضة والتحدى فينقلون ذلك إلى من لم يحضر المعارضة، وسيسقط فى أيديهم لهذه الهزيمة المنكرة، وذلك أبلغ فى الرد على المعارضين وأوكد فى الحجة عليهم.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] فى زعمكم أنه كلام بشر إذ إنكم تقدرون على معارضته وهنا تحداهم القرآن أن يبرهنوا على صدق قولتهم (لو نشاء لقلنا مثل هذا) فثبت بهذا كذبهم وخداعهم، وجواب (إن) محذوف دل عليه الكلام السابق.

[٨]- ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

يقول الله تعالى للكفار والمنافقين:

الأولى لكم والأنفع -بعد أن تبين عجزكم عن محاكاة شيء من القرآن- أن ترجعوا عن شككم، وتشكيككم فيه، وأن تعترفوا بصحة نزوله من عند الله، وصدق النبى الذى جاء به لتحقق عجزكم عن معارضته، حتى لا تعرضوا أنفسكم للعقاب الأليم فى نار جهنم.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ولَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جملة شرطية مقترنة بـ(إن) وجاء بينها اعتراض بقوله: ﴿ ولَن تَفْعَلُوا ﴾ وكان مقتضى السياق أن يقول: «فإن لم تأتوا بسورة من مثله» بدل ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾ لكنه آثر التعبير الثانى لأنه صريح فى إظهار عجزهم عن المعارضة حيث لم يتمكنوا منها.

وهذا أقوى، وفيه أيضًا: بعُد عن التكرار المخل بسلامة الأسلوب وجزالته.

وقد يسأل سائل: لم قال: (فإن لم تفعلوا) فأتى بأداة الشرط (إن) مع أن المقام لـ(إذا) لأن عجزهم محقق لا مشكوك فيه؟

فنقول: إن القرآن الكريم إذا عدل عن تعبير إلى آخر فذلك لحكمة لغوية ومعنوية دقيقة وهنا استعمل (إن) التى للشك تهكمًا بالمعارضين وتسفيهًا لهم لشكهم فى القرآن وهو متيقن ثابت واضح شديد الوضوح لا يخفى إلا على جاهلٍ أو معاند، وذلك كما يقول الواثق بالغلب لخصمه (إن غلبتك لم أبق عليك) فتستعملَ (إن) الّتى للشك مع تيقنه من غلبته وذلك لإطماع خصمه وتهكمًا به.

وقد يسأل سائل أيضًا فيقول: لم جاءت جملة الاعتراض (ولن تفعلوا) مع أنها مقررة لمضمون ما قبلها وهو قوله ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾.

فيُجاب عن ذلك: بأن المقام يقتضيها، لأنها دمغ لهم بالعجز وأنهم لن يستطيعوا محاكاته فى أى عصرٍ وزمانٍ مهما يتكالب المعاندون ومهما يحاول المحاولون فإن الفشل حليفهم.

وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها وإن عجزهم المشين توقيف لهم على أن القرآن هو الحق، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب وأنه سحر وأنه شعر وأنه أساطير الأولين، وهم يدعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله.

ثم حذرهم من وبال معارضتهم وتكذيبهم فقال:

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ [البقرة: ٢٤] كأنه قيل: فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله كما هو المقرر فاحذروا من إنكار كونه منزلاً من عند الله سبحانه فإنه مستوجب للعقاب بالنار.

وعرفت النار (بأل) لتفيد الاستغراق والشمول، فالنار المعدة لهؤلاء الكفار والمعاندين ستحيطهم بلهيبها من كل جانب وهم غارقون فى أهوالها المستطيرة.

وقد يفهم سر التعبير هنا (بأل) لو قورن بالتعبير القرآنى الآخر فى سورة التحريم (الآية السادسة) فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾.

فالتنكير للنار فى هذه الآية لتقليل شأن هذه النار التى يدخلها عصاة المؤمنين وكأن الذى يصيبهم جزء منها لا كلها.

ونفهم كيف استطاع القرآن الكريم بأسلوبه البديع أن يفرق بين استعمال (ال) وتركها وأن تستغل هذه الظاهرة اللغوية فى أداء المعنى المطلوب بدقة فائقة، عكس ما يفعل المتحدث العربى الآن الذى لا يفيد من استعمال التعريف والتنكير فى الدلالة على المعنى فيما نسمعه من تعبيرات سائدة فى حياتنا اللغوية.

وقد وصف المولى جل وعز هذه النار بقوله:

﴿ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤]، الوقود - بالفتح - كما قرأ الجمهور - ويضم: الحطب، وما توقد به النار، ولفظ (الناس) هنا عام يراد به خاص وهم من سبق عليهم قضاء الله أن يكونوا حطبًا لهم، والحجارة: جمع حجر - جمع كثرة - قيل: إنها أحجار خاصة بجهنم فهذه النار تحرق الحجارة مع إحراقها للناس، وهذا يدل على شدة هذه النار وإفراطها فى الحرارة، وقيل: المراد بالحجارة هنا أصنام الكفار لقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وجاء قوله تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤] ختامًا للآية يفيد تسجيل الجريمة التى من أجلها استحقوا دخول النار.

وكان مقتضى السياق أن يقول: أعدت لكم - بضمير المخاطبين - فوضع الظاهر (الكافرين) موضع المضمر ليسجل سبب إعدادها لهم، وهو عنادهم وكفرهم برسوله وكتابه المبين.

والفعل (أعدت)، مأخوذ من العتاد بمعنى العدة يقال: أعدّ له كذا بمعنى هيأه فالمراد: أنها هيئت وجهزت لهم.

والإخبار عن إعدادها لهم بلفظ الماضى دليل على وجودها وأنها مخلوقة، ولا يمكن صرف الكلام عن ظاهره بلا قرينة.

وهنا نقول: إن المتحدث العربى الآن يستطيع أن يفيد بروعة هذه التعبيرات القرآنية ودقتها، لقد أصبح استخدام الأفعال فى حديث المتكلم العربى الآن لا يخضع لبيان المعانى أو الدلالات بقدر ما يخضع لمطلق الاستعمال، ولو أردنا السير على النهج السليم لغويًا لاستخدمنا الأفعال لتعطى دلالتها الموضوعة لها من ماضٍ أو حاضر أو مستقبلٍ ولأمكن فهم مراد المتكلم دون تأويل أو كد ذهن، ولعلنا جميعًا ندرك أسرار استعمال الأفعال فى اللغة العربية على ضوء استعمالات القرآن الكريم، وسنكون عنها فكرة قوية مع متابعتنا إن شاء الله للتحليل اللغوى لآيات القرآن الكريم.

[٩]- ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥].

بعد أن أطال القرآن الكريم الحوار عن الكفار والمنافقين وبين مصير أعمالهم المنكرة جاءت هذه الآية الكريمة مفصحة عما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين من الجزاء والثواب، وهم هذا الفريق الذى ذكر فى مطلع السورة، وقد وصفهم الله تعالى بالفلاح والفوز فى قوله عز حكمه: ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥].

ومن عادة القرآن الكريم أن يذكر طائفة المؤمنين، وطوائف الكفر ثم يعقب بذكر جزاء كل منهم ترغيبًا وترهيبًا.

وهنا يأمر المولى عز وجل نبيه ﷺ أن يعلن على الملأ تلك البشارة التى تستحق التنويه والذكر والإذاعة لها، وهى مكافأة أهل الإيمان والعمل الصالح فى روضات الجنات فقال سبحانه:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، بشر - هنا - فعل أمر ماضيه: بَشَّرَ، والتبشير هو: الإخبار بما يظهر أثره على البشرة - وهى ظاهر الجلد - وذلك يلاحظ من التغير على البشرة عند ورود خبر ما إلى الإنسان يسرُّه أو يحزنُه، ويقال: تباشير الشئ: لأوله.

والغالب أن يستعمل التبشير فى السرور والفرح بالخبر السارّ الذى ليس عند المُخْبَر علمٌ به، واشترط بعضهم أن يكون الخبر صادقًا، ويكثر استعمال التبشير فى الخير، وقد يستعمل فى الأمر المحزن مع النص عليه فى الكلام كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

والتبشير: مصدر للفعل بشَّر - بالتضعيف - وهى اللغة العليا، ويقال أيضا - بالتخفيف - بشر يبشر: إذا فرح - وهى لغة أهل تهامة، ووجه بشير: إذا كان حسنًا بين البشارة، وبشرنه بشارة فأبشر واستبشر والبشرى: ما يعطاه المبَشّرُ.

والفعل (بشّر) - هنا - خطاب للرسول ﷺ البشير النذير، فهو مأمور من الله تعالى بتبليغ المؤمنين الطائعين جزاء عملهم الصالح ودأبهم على طاعة الله تعالى، وهو - أيضًا - خطاب لكل من تصح منه البشارة أن يبلغ المؤمنين العاملين بما أعده الله تعالى لهم من الثواب والنعيم، كما فى قوله ﷺ: «بشر المشّائين إلى المساجد» - الحديث - ففيه رمز إلى أن الأمر لعظمته حقيق بأن يتولى التبشير به كل من يقدر عليه.

وجملة: (وبشر الذين آمنوا) عطفت بواو العطف على كلام سابق، قيل: إن المعطوف عليه جملة (وإن كنتم فى ريب) إلخ أو إنه (فإن لم تفعلوا) إلخ أو على قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤] إلخ.

وتظهر دقة النظم القرآنى فى أنه خاطب الناس جميعًا فى قوله تعالى: قبل ذلك - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة: ٢١] ثم عرض جزاء المعاندين وأنه النار، وعرض جزاء الطائعين وأنه الجنة - ولو كان هؤلاء الطائعون ممن تدبر ورجع من المعاندين فجمع بين الإنذار والتبشير. ولم يوجه الخطاب إلى المؤمنين كما وجهه إلى الكافرين لبيان علو شأن المؤمنين وأنه لا نزاع فى أحقيتهم بالتبشير والتهنئة، وقال: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة: ٢٥] ولم يقل (المؤمنين) فى مقابلة قوله: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤] - باسم الفاعل - فعلق التبشير بالاسم الموصول (الذين) وصلته (آمنوا) لبيان سبب التبشير وهو الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح.

والصالحات: جمع صالحة، وهى - فى الأصل - مؤنث الصالح من قولهم؛ صلح صلوحًا وصلاحًا وهو خلاف فسَدَ والمقصود بالأعمال الصالحة: ما حسّنه الشرع وسوّغه.

و(ال) فى الصالحات للجنس لا للاستغراق فليس المراد عمل كل الصالحات بل كل عمل صالح قليلاً كان أو كثيرًا، وقيل: هو مرهون بعمل الصالحات التى طلبها الشرع الشريف من المكلفين.

وقد بين القرآن الكريم ألوان المتع فى الجنات من الأنهار والثمار والأزواج المطهرة مع الخلود فيها.

وجاء ذلك فى عدة أوصاف للجنات.

الوصف الأول: جريان الأنهار فى قوله سبحانه: ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [البقرة: ٢٥] من باب الوصف بالجملة وهى صفة تتصل بذات الجنة، والجنة: مأخوذة من الجَنّ وهو الستر، ومنه البستان الذى سترت أشجاره أرضه، وقد أصبحت حقيقة شرعية فى دار الثواب التى أعدها الله لعباده، وفيها مراتب شتى، ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال والعمال.

والجنات جمع قلة، وتنوينها للتنويع أو للتعظيم وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥] على تقدير حذف الجار والأصل (بأن لهم جنات) لأن الفعل بشر يتعدى بالباء وقد حذفت لاطراد حذف الجار مع (أنّ) و(أنْ) لطول الصلة معها كما يقول اللغويون.

والنهر هو الماء الجارى نفسه أو الموضع الذى يجرى فيه الماء، لأن الماء ينهره أى: يحفره، وهو الأظهر؛ لأن النهر مشتق من: نهرتُ أى: وسّعتُ، ومنه ونهَرَ الماءُ: جرى فى الأرض، وجعل لنفسه نهراً، وكل كثير جرى فقد نَهَر.

والنهر دون البحر، وفوق الجدول، والنهر يجوز فتح هائه وإسكانها، وكذا كل ما عينه حرف حلقى مثل شعر وبحر ونحر، وساكن الهاء يجمع على أنهر ومفتوحها يجمع على أنهار كمفرد الجمع الذى فى الآية على حد قول ابن مالك فى ألفيته.

لفَعْلٍ اسمًا صحّ عينًا أفعُلُ

وقوله:

وغير ما أفْعُل فيه مطّرد   من الثلاثي اسمًا بأفعال يرد

وهى اللغة العالية، وأفعال لا ينقاس فى (فعْل) الساكن العين بل يحفظ نحو أفراخ، وأزناد، وأفراد.

وأنهار الجنة تجرى تحت قصورها، وأشجارها من غير حفائر تمسكها بل هى متماسكة بقدرة الله تعالى.

قيل: الضمير فى (من تحتها) عائد على الأشجار أو المنازل أو الأرض، والمعنى من تحت أشجارها ومنازلها، فأشجار الجنة تقع على شواطئ الأنهار، وأنهارها تحت ظلال الأشجار، وقيل: (تحت) بمعنى: جانب مثل قولك: دارى تحت دار فلان.

ولا غرابة أن تجرى الأنهار من تحت القصور والأشجار جريانًا حقيقيًا مع ما لذى الجلال والسلطان من قدرة وسبحان مبدع الإنسان ورافع السماء أعظم بنيان.

الصفة الثانية: للجنات: رزق الثمار فى قوله تعالى: ﴿ **كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا** ﴾ [البقرة: ٢٥] وهى صفة تتصل بسكان الجنة.

و(كل) لفظ يفيد العموم، فهو يعبر عن تكرار رزق الثمار وتنوعها وتعددها فى كل حين.

ومعنى ﴿ **هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ** ﴾ [البقرة: ٢٥] أن الذى أحضر إليهم وأرادوا أكله هو مثل الثمار التى رزقوها فى الدنيا، وفى الآخرة كذلك، فهو متشابه معها لونًا؛ لأن لون هذه الثمرات يشبه لون ثمار الدنيا فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك، وكذلك يؤتون فى الجنة - فى أول النهار - مثلا - بطعام، ثم يؤتون بمثله - لونًا - فى آخر النهار فيظنون أنهم أكلوا ذلك من قبل، فيجدون الطعم مختلفًا، ولا شك أن خلاف الطعم مع اتفاق اللون غريب فى العادة وذلك مدح لطعام الجنة كما روى عن الحسن « إن أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى فيقول ذلك؟ فيقول الملك: كُلْ فاللون واحد والطعم مختلف» ويمكن أن يكون اختلاف اللون مع التشابه فى الطعم غريبًا أيضا كما يشير إليه قوله ﷺ: «**والذى نفس محمد بيده إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هى واصلة إلى فيه حتى يبدل الله تعالى مكانها مثلها**».

وقوله تعالى: ﴿ **مِن قَبْلُ** ﴾ [البقرة: ٢٥] - على هذا - يمكن أن يكون منصرفًا إلى قبلية الدنيا بمشابهة ثمار أهل الجنة لما عرفوه فى الدنيا شكلاً لا طعمًا، ويدل لذلك ما أخرجه البيهقى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «**ليس فى الجنة من أطعمة الدنيا إلا الأسماء**».

ويمكن أن يكون منصرفًا إلى ما قدم لهم فى الجنة - فى زمن سابق - فيكون فى ذلك دليل على تنوع ثمار الجنة؛ أى أتوا بالمرزوق فى الجنة متشابه الأنواع، ويقول أبو حيان: «**والظاهر هذا لأن مرزوقهم فى الآخرة هو المحدث عنه، والمشبه بالذى رزقه من قبل**».

ويرى بعضهم صرف (الذى رزقنا من قبل) إلى الأعمال الصالحة التى كانت سببًا فى جزائهم عليها بالرزق من طيب الثمرات فأقام السبب مقام المسبب، أى: هذا جزاء الأعمال الصالحة التى عملوها فى الدنيا، والجزاء من جنس العمل كما قال الله تعالى: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] أى جزاءه.

وقداتسع معنى الآية لهذه الاحتمالات كلها بما يدل على براعة النسق القرآنى وتفرده بالإحاطة والشمول فى دقة وتركيب عجيب، وقد جاء وصف الله تعالى الجنة بهاتين الصفتين بالجملة الفعلية فى كل منهما فى قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ [البقرة: الآية ٢٥] وهذا لإفادة التجدد فجريان الأنهار فى الجنة متجدد ومحتوى هذه الأنهار متجدد - أيضًا - (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى)، كما أن الثمرات متجددة أيضًا، وهى تأخذ أوضاعًا وأشكالاً متنوعة، وكل ذلك أدعى إلى المتعة والتلذذ.

الصفة الثالثة: التنعم بالأزواج، وعبر عنها بقوله عز حكمه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]، الأزواج: جمع زوج وهو جمع قلة، وجمع الكثرة: زِوجة مثل عود وعِوَدَة، والمستعمل كثيراً هو جمع القلة استغنى به عن جمع الكثرة.

والزوج يقال للذكر والأنثى، فالمرأة زوج الرجل، والرجل زوج المرأة، فيستعمل اللفظ خالياً من التاء فى كل منهما، قال الأصمعى: ولا تكاد العرب تقول: زوجة، وحكى الفراء أنها لهجة لبعض العرب وهم بنو تميم وكثير من قيس.

والأزواج - هنا - تعنى النساء اللاتى تختص بالرجل لا يشركه فيها غيره والوارد فى الآثار يدل على كثرة الأزواج فى الجنة من الحور العين وغيرهن.

ومعنى (مطهرة) أن الله تعالى نزهها عن كل دنس من الناحيتين الجسمية والخلقية فهن طاهرات من الحيض والنجاسات الحسية، وطاهرات الطبع والخلق والأفعال سواء

كنّ من الحور العين أو من نساء الدنيا، فإذا كنّ من الحور العين فالتطهر فى حقهن: خلقهن على الطهارة بحيث لم يعلق بهنّ دنس ذاتى أو خارجى، وإن كنّ من بنى آدم كما روى عن الحسن: «من عجائزكم الرمص الغمص يصرن شواب» فقد أذهب الله تعالى عنهم كل عيب ذاتى أو خارجى.

والتعبير بقوله: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] أبلغ من (طاهرة) أو (طاهرات) لأن الأول من الفعل (طهّر) والثانى من (طهُر) ولا شك أن التضعيف يفيد زيادة المعنى وتقويته.

وتقوية المعنى عن طريق الزيادة فى الحروف كثير فى القرآن كقوله تعالى:

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، فهو - بلا شك - أبلغ من (قادر) وفرق كبير بين مادة، كسب واكتسب فى قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ولا ريب أن مناسبة حروف اللفظ لمعناه فى العدد والتركيب خاصة عربية جليلة، واللغويون يقولون: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، ويتجلى هذا المبدأ فى القرآن الكريم بأجلى بيان.

الوصف الرابع: جاء فى وعد الله تعالى المؤمنين بالخلود الدائم فى الجنة فقال سبحانه: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

الخلود هو البقاء الأبدى، ومنه جنة الخلد، وقد يستعمل فى طول المدة، ومنه قولهم فى الدعاء: خلد الله ملكه أى: طوله، والمراد بخلود أهل الجنة هو الخلود الأبدى حقيقة، ولا يتعارض هذا مع كون الحق تبارك وتعالى (الأول والآخر) لأن المراد أنه سبحانه لا ابتداء له ولا انتهاء فهو الواجب القدم المستحيل العدم، والخلق ليسوا كذلك، والله تعالى قادر على أن يعيد الأبدان بحيث لا تتحلل، أو يخلق بدل ما تحلل ما يبقى دائمًا أبدًا وكما يقول الفخر الرازى: «سبحان القادر العظيم الذى لا يعجزه شىء».

وقد وصف القرآن الكريم هنا الجنة بصفتين جاءتا بالجملة الاسمية فى قوله : ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة : ٢٥] لإفادة الثبوت والدوام فهم ينعمون دائمًا بالأزواج الطاهرات طهارة ثابتة دائمة لا يعتريها خلل أو تغيير إلى الأدناس والأرجاس .

والجملة الأخيرة تفيد دوام بقاء أهل الجنة فيها لا يمسهم نصبٌ ولا تعبٌ، ولا يخرجون منها إلى أى لون من ألوان الشقاء .

ولعلنا ندرك دقة لغوية لها دلالتها - أيضًا - فى استعمال الضمير المجرور (منها) - حينما قال : ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ [البقرة : ٢٥] و(فيها) حين قال : ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة : ٢٥] .

إن كلاً من قوله : (منها) و(فيها) يحقق فائدة جليلة وهى أن سكان الجنة يجدون كل هذه المتع ، وهؤلاء الأزواج وكل ما يريدون فى هذه الدار التى أعدت لهم وهم لا يحتاجون إلى غيرها لأن فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

ويؤكد هذا - أيضًا - دخول (من) على ثمرة فى قوله ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ لبيان ألوان الثمار التى يتمتعون بها إلى جانب الملذات الأخرى .

وما أروع هذه الدقة فى التعبير القرآنى ليزيل كل ما يخطر بالبال من وجود أى مكان آخر يسد مسد الجنة ، أو يقوم مقامها ، وهيهات .

١٠ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة : ٢٦] .

هنا يتحدث المولى سبحانه وتعالى عن بعض أنواع الشكوك التى أوردها المعترضون على القرآن الكريم من الكفار والمنافقين حين رأوا ما يأتى به القرآن من الأمثال كقوله تعالى - فيما سبق - : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة : ١٧] وقوله عز حكمه :

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩]، وما سمعوه - في مواطن أخرى - من تمثيل القرآن الكريم لآلهة المشركين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقد جعل الله تعالى كيد آلهتهم كبيت العنكبوت في قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

هذه الأمثال ونحوها كانت مثار عجب الكفار والمنافقين ومدخلاً لهم إلى إعلان شكهم في القرآن، وقولهم الزائف: كيف يضرب الله الأمثال بهذه المحقرات؟، وماذا يريد بها؟.

والآية تتضمن الرد عليهم في صحة التمثيلات السابقة ونحوها على أبلغ وجه.

وتبين إيمان المؤمنين بالأمثال، وتصديقهم بها، وفهمهم الحكمة منها لورودها عن رب العزة جل وعلا.

وتشرح الآية - أيضًا - موقف الكفار والمنافقين وتبين عدم معرفتهم مغزى الأمثال مما كان سببًا في ضلالهم.

ونبين للقارئ الكريم بيان القرآن الشافي المعجز في هذه الآية: فقد عبر المولى سبحانه عن حكمة ضرب الأمثال بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، وهذا يعني أن ضرب المثل بهذه الأشياء ونحوها جاء لحكم بالغة مهما تكن حقيرة في نظر الشاكين الضالين، وقد ورد - في اللغة - الفعل الثلاثي المجرد (حيي) والمزيد (استحيا) بمعنى واحد، والمشهور: استحيا يستحي فهو مستحي ومستحيا منه، وورد في لهجة تميم وبكر بن وائل بياء واحدة، فيقال: استحى يستحي فهو مستح، وبه قرأ ابن كثير وبعض القراء غيره.

والحياء تغير وانكسار يعترى الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم عليه، أو هو انقباض النفس عن القبائح كما قال الراغب الأصفهانى.

ويفرق بينه وبين الخجل بأن الخجل يكون عند صدور أمر إلى الشخص المتصف به وهو لا يريده، أما الحياء فقد يكون من أمر واقع أو لم يقع فيترك من أجل الحياء.

ومعنى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي﴾ [البقرة: ٢٦] أى: لا يخشى أو لا يمتنع من ضرب الأمثال لما فى ذلك من تأييد الحق وتثبيته، وفى صحيح مسلم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: جاءت أم سليم إلى النبى ﷺ فقالت يا رسول الله: إن الله لا يستحى من الحق، والمعنى: لا يأمر بالحياء ولا يمتنع من ذكره.

وقوله: ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ [البقرة: ٢٦]: المثل: كل شىء حاكيت به شيئًا، ويطلق على القول السائر، ويأتى بمعنى القصة والصفة كما فسر فى قوله تعالى:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] وضرب المثل: هو ذكر شىء يظهر أثره فى غيره، والمراد بقوله تعالى: ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ [البقرة: ٢٦] أى يذكره ويبين به أمرًا من الأمور، والهدف من ضرب المثل: التذكير والاهتداء كما يشير قوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وجاءت (ما) بعد قوله (مثلاً) لتزيد هذه النكرة شيوعًا وإبهامًا، فالمراد (أى مثل كان) وربما يفهم منها معنى التقليل والتحقير، أى أن الله تعالى يضرب المثل مهما يكن المتمثل به شيئًا صغيرًا أو وضيعًا لما لذلك من حكمة ومناسبة للمشبه به والمقام الذى يقتضيه.

والبعوضة واحد البعوض وهو طائر معروف كالناموس واشتقاقه من البعض وهو القطع.

(فما فوقها): الفاء عاطفة تفيد الترتيب، أو بمعنى (إلى) و(ما) بمعنى (الذى) والمراد بالفوقية أن الله تعالى يضرب المثل بالبعوضة، وبما هو أكبر منها، أو بما هو دونها،

فالفوقية إما بالزيادة والترقى من الصغير للكبير أو بالعكس بالتنزل من الحقير إلى الأحقر، فلله تعالى أن يضرب الأمثال بأى شيء مهما يصغر حجمه أو تقل قيمته.

فقد ضرب المثل بالبعوضة، وبالذباب وبالعنكبوت ونحو ذلك، ثم عبر عن موقف المؤمنين من الأمثال بتصديقهم لها وفهمهم لحكمها.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٦]: (أما) حرف يستعمل لتفصيل أمر مجمل تقدمه صريحًا أو دلالة أو لم يتقدم لكنه حاضر فى الذهن، والمجمل الذى تفصله هنا هو موقف الطوائف المختلفة من المؤمنين والكفار والمنافقين من الأمثال القرآنية، وقد تقدم ذكر هذه الفرق من قبل.

فالمؤمنون مصدقون بها مهتدون إلى مضمونها والكفار مكذبون ضالون عن آثارها ومنافعها.

وهذه الأداة (أما) مضمنة معنى الشرط ويفسرها اللغويون بقولهم (مهما يكن من شيء) وهى - بهذا التفسير تشعر بالشرطية وتدل على تحتم الوقوع وهو وجود شيء ما فى الدنيا، ولذا تفيد تأكيد ما دخلت عليه من الحكم فتصديق المؤمنين بالأمثال القرآنية واقع مدرك لا شك فيه.

ولمعنى الشرطية الموجود فيها دخلت الفاء فى جوابها إلا أنهم أخروا الفاء فى جملة الجزاء.

و(الحق): خلاف الباطل وهو مصدر حق يحق بمعنى وجب وثبت قال الراغب: أصل الحق المطابقة والموافقة والشيء الحق هو الموجود بحسب الحكمة وعلى وفقها، ويطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب، فالحق يعم الأعيان الثابتة والأفعال الصائبة والأقوال الصادقة.

وجاءت حكمة (الحق) معرفة بأل لتفيد القصد فالأمثال القرآنية هى الحق ولا حق غيرها مما يروج لها المعاندون الضالون المشككون فى صحتها وصحة القرآن المشتمل عليها.

ولنقف وقفة تأمل أمام التعبير القرآنى الدقيق بقوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦] لقد آثر التعبير بالربوبية فى جانب المؤمنين لأن هذا اللفظ يرمز للتربية والتقويم، فربهم هو خالقهم ومربيهم على الالتزام بالسلوك المستقيم، فلذا صدقوا بما جاء عنه سبحانه ثم هو رب النعم التى أنعم بها عليهم، ومن التشريف لهم أن ينسبهم إلى نفسه، ثم عبر القرآن الكريم عن موقف المكذبين من الكفار والمنافقين بقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ [البقرة: ٢٦] .

كان مقتضى السياق أن يقول: (وأما الذين كفروا فلا يعلمون أنه الحق من ربهم) ليقابل التعبير السابق فى جانب المؤمنين.

ولسائل أن يسأل: لم عبر بالفعل (يقولون) هنا وبالفعل (يعلمون) هناك؟ .

فنقول - وبالله التوفيق - إن (يقولون) مناسب هنا غاية المناسبة لحال فريق الكفار والمنافقين الذين تمتلئ صدورهم بالحقد والتكذيب، وهم لا يطيقون إخفاء هذه الأحقاد والشكوك فى نفوسهم، فهم لا يصبرون دون إعلانها على الملأ فتنطلق بها حناجرهم جهلاً وعنادًا.

والاستفهام بقولهم: (ماذا أراد الله بهذا مثلاً) يدل على عدم علم هؤلاء المكذبين بالحكمة من ضرب الأمثال القرآنية علمًا موصلاً إلى الصواب أو إنكارهم ونفيهم لها عنادًا ومكابرة مع علمهم بصحتها وآثارها النافعة، وكل من هذا الاعتبار أو ذاك يدل على جهلهم دلالة واضحة، بل يفيد المبالغة فى ذمهم والتنبيه بأحسن وجه على كمال جهلهم كما قال الشاعر:

ومَنْ قال للمسك أين الشذا؟ يكذبه ريحه الطيب

أما المؤمنون فقد عبر فى جانبهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٦] لأنها دقيقة من دقائق اللغة تفيد أن المؤمنين مصدقون جازمون بما فى القرآن الكريم من أمثال لها آثارها فى الهداية والتوجيه، وفى الوقت نفسه تفيد وصفهم بالعلم وأنهم

اكتفوا بالخضوع والطاعة من غير حاجة إلى التكلم وهذا يدل على منتهى الامتثال لأوامر الله تعالى والاستجابة لما يحققه انقيادهم المطلق.

ولسائل أن يسأل أيضًا: لم قال ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٦] فى جانب المؤمنين وقال ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٦]؟ فى شأن المعاندين؟، ونقول:

إنه أراد - كما ذكرنا من قبل - أن يشعر بتربية الله تعالى لعباده المؤمنين، أما هؤلاء الكفرة المنكرون لجلال الله ووحدانيته فناسبهم ذكر (الله) الذى له من القوة والجبروت ما يمحقهم به وما يهلكهم بنذره وعقابه.

كما قال الله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] فالمقام هنا يقتضى ذكر ما يفيد الألوهية الحقيقية فى جانب المنكرين المعاندين، حيث لا يعترفون بالربوبية ولا بالألوهية الحقة فذكرهم بها ووجههم إليها.

وقوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ﴾ [البقرة: ٢٦] جملتان للبيان والتفسير للجملتين المصدرتين بأما المذكورتين من قبل.

فالكفار - الضالون المعاندون المكذبون بهذه الأمثال كثير ومع الأيام يزداد عددهم لضلالهم وغوايتهم وتأثرًا بأسلافهم المكذبين.

والمؤمنون المهديون المصدقون بالأمثال القرآنية كثير ويزدادون كثرة على مر الأيام أيضًا.

وهذا التعبير القرآنى جاء مبينًا للحكمة من ضرب الأمثال وأنها طريق إلى هداية المهتدين والمستعدين للهداية وأن النظر فى هذه الأمثال قد يكشف الحجاب عن قلوب كثير من الشاكين الجهلاء الذين ضاع منهم نور الهداية فضلوا عن الحق ضلالاً بعيداً.

ويُعد هذا النسق القرآنى ردًا على زعم الكفار والمنافقين عدم الفائدة من هذه الأمثال القرآنية والذى جاء فى قولهم (ماذا أراد الله بهذا مثلاً)؟

ولسائل أن يسأل: لم عبر بالفعل المضارع فى الجملتين مع أنه كان من الممكن الإتيان بالمصدر محلهما وهو (الإضلال والهداية)؟

نقول: لقد عبر بالمضارع للإشعار بالاستمرار التجددى والمضارع يستعمل له كثيرًا، ففى التعبير به هنا إشارة إلى أن الإضلال والهداية لا يزالان يتجددان ما تجدد الزمان فكل مَنْ يتأمل تأملاً صادقًا فى آيات الله وما أوضحته أمثال القرآن يصير إلى الهداية مهما يكن ضالاً، ومن يعرض ويعمى بصره عنها يضل ولو كان قريبًا من الهدى والنور فيزداد عدد هؤلاء وهؤلاء إلى أن تقوم الساعة.

ثم بين أن ضلال هؤلاء الكافرين ليس ضلالاً ابتدائيًا بل هو مستمدٌ من ضلالهم القديم فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]:

كلمة (الفاسقين) جمع فاسق وهو مشتق من الفعل فسق يفسق فسوقًا بمعنى خرج عن الطاعة أو فجر ومنه قوله تعالى عن إبليس اللعين ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] أى خرج وأصل الفسق فى كلام العرب الخروج عن الشىء من قولهم فسق الرطب: إذا خرج من قشره.

والفسق فى عرف الاستعمال الشرعى: الخروج عن طاعة الله عز وجل ويقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان واختص فى العرف والاستعمال بارتكاب الكبيرة.

واستعمال الفسق وصفًا للإنسان لم يكن معروفًا عند العرب فى الجاهلية فهو من الألفاظ التى جدد الإسلام استعمالها فى معانٍ مستحدثة.

وتخصيص الإضلال بهؤلاء الشاكين مرتبًا على صفة الفسق وما تجره عليهم من القبائح لإفادة أن ما نشأوا عليه من الخروج على الإيمان هو الذى أعدهم للإضلال وجعلهم بيئة طبيعية لتقبله فإن كفرهم وعدولهم عن الحق وإصرارهم على الباطل صرف أنظارهم عن التدبر والتأمل حتى رسخت جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروا الأمثال القرآنية وقالوا ما قالوا من مزاعم وشكوك.

وهذا التعبير القرآنى الدقيق يفيد أن ضلالهم بإنكارهم الأمثال - ليس ضلالاً ابتدائيًا، بل هو ضلالٌ مستمدٌ من ضلالهم القديم، وهؤلاء هم الذين سبق فى علم الله أنه لا يهديهم.

١١ -﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧ - ٢٨].

يتحدث الحق تبارك وتعالى عن بعض صفات الكفار المذمومة - بعد أن بين ضلالهم - فهم ناقضون للعهد قاطعون للصلة بينهم وبين الله والناس فاعلون لكل فساد وشر أدى إلى خسارتهم بعد أن ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وفقدوا الثواب واستحقوا العقاب.

ثم أقام المولى سبحانه وتعالى بعض الأدلة على الإيمان بوحدانيته سبحانه، فبين قدرته على الإحياء والإماتة والخلق والاستواء إلى السماء وتسويتها، فالمحيى والمميت والخالق ينبغى أن يكون هو الإله، وغيره من الأصنام لا يصلح للألوهية لعدم قدرته على شىء من ذلك.

وفى هذا أيضًا دليلٌ على صحة البعث، فالذى قدر على هذا الخلق والإحياء والإماتة لا تعوزه القدرة على الإعادة.

وفى التعبير القرآنى عن نقضهم العهد يقول سبحانه وتعالى: **﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾** [البقرة: ٢٧]، النقض - فى الأصل - فسخ التركيب، ويكون فى الحبل وضده الإبرام، ويكون فى الجدار وضده البناء ويغلب استخدام معنى الحبل فى العهد كأنه صلة بين المعاهد والمعاهد.

والعهد: الموثق والوصية من قولهم عهد إليه فى كذا: إذا أوصاه بشىء ووثقه عليه.

والميثاق: مصدر أو اسم وضع موضع المصدر، والمراد بنقضهم العهد: مخالفة ما أخذه الله تعالى على عباده من قبولهم والتزامهم بعبادته وحده لظهور الأدلة فى الكون

والحياة على استحقاقه العبادة دون سواه، وعدم إيمان الكفار والمنافقين بما جاء به الرسل من الحجج والمعجزات الدالة على صدقهم فى دعوتهم إلى وحدانية الله، وتصديق الرسل جميعًا دون تفرقة بين بعضهم وبعض، فالكفار والمنافقون وأضرابهم تركوا الالتزام بذلك وأباحوا لأنفسهم تكذيب الرسل وكان ذلك نقضًا للميثاق الذى أخذوه على أنفسهم بالإيمان بالله ورسله جميعًا.

والتعبير بقوله ﴿ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ [البقرة: ٢٧] بـ(من) الابتدائية يشير إلى أنهم نقضوا العهد بعد توثقه وأنهم لم يأبهوا بالعهود ولم يلتزموا بها نكثًا منهم ودون مبالاة، وعبر المولى سبحانه وتعالى عن قطعهم الصلة بالله تعالى وبالناس بقوله: ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ [البقرة: ٢٧] هو تعبير شامل يدخل فيه قطعهم الصلة بينهم وبين خالقهم فلم يستجيبوا لما أمرهم به من طاعته وعبادته وتصديق رسله وطاعتهم - ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به ختاماً لهم، وقطعهم الصلة بينهم وبين الناس بقطع صلة الأرحام وتضييع حقوق العباد.

ولم تطابق أعمالهم أقوالهم - كما يحدث من المنافقين - فقد نسمع منهم ما لا يعلنون بمقتضاه.

وعبر عن وصفهم بالإفساد بقوله عز حكمه: ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٧].

والمقصود بإفسادهم فى الأرض ارتكابهم كل الجرائم والموبقات التى لا يقتصر ضررها عليهم بل يتعداهم إلى أذى الناس فى كل مكان، ويدخل فى إفسادهم صدهم الناس عن الدخول فى دين الله وإكراههم على الإعراض عن الإيمان واستدامتهم على الكفر وإيذاء المؤمنين.

وقوله سبحانه تعالى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧]، يشير إلى عملية المبادلة التى تشبه البيع والشراء فى صورة لم يربح فيها المتبايعان.

وكما تحدث الخسارة - لمن ليست له خبرة بالتجارة - فلا يربح أو يفقد رأس ماله وتضيع ثروته كذلك يكون استبدال الضار بالنافع بما يؤدى إلى البوار وضياع الأموال

وذلك باستبدال الضلال بالهداية، ونقض العهد بالوفاء به، وقطع الصلة بالله والناس بوصلها والإفساد والشر بالإصلاح والخير وذلك شأن هؤلاء الكفار والمنافقين فقد آثروا الضار لهم وكانت نتيجة ذلك شقاوتهم وتعاستهم وحلول العقاب بهم.

وجاء المبتدأ والخبر - فى أسلوب القصر بتعريف الطرفين - وضمير الفصل للدلالة على أنهم الكاملون فى الخسران فقد بلغوا فى الخسارة نهاية فظاعتها لأنهم لم يفكروا فيما ينفعهم، واختاروا ما يضرهم فبئس ما فعلوا ويا شر ما اختاروا.

وفى الآية الثانية عبر المولى سبحانه وتعالى عن توبيخه للكفار على كفرهم وإنكارهم البعث بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]؟

كيف: للسؤال عن الأحوال، وهو سؤال إنكار وتوبيخ على صفاتهم القبيحة التى ذكرها القرآن قبل ذلك فى الآيات السابقة من الشك فى القرآن، ونقض العهد، والإفساد فى الأرض ونحو ذلك مما أدى بهم إلى الكفر وإنكار الألوهية والوحدانية وأغرقهم فى مهاوى الضلالة، وهذا كله يقتضى الذم والتقريع. إذ لا ينبغى إنكار الوحدانية والقدرة الإلهية لأن الإشراك بالله مع قيام براهين الوحدانية أمر مستغرب، ولا يليق بعاقل، فهم يعلمون هذه البراهين التى تتعلق بالخلق والإحياء والإماتة، ويتجاهلونها كفراً وعناداً مما اقتضى تقريعهم ولومهم وذمهم.

وجاء هذا التقريع واللوم فى أسلوب الخطاب لهم قائلاً: كيف تكفرون بالله؟ بعد أن كان الأسلوب فى الآيات السابقة فى صورة الغائب.

ويسمى هذا بأسلوب (الالتفات) وهو أقوى فى التعبير وأنسب لحالهم، فبعد أن عدد قبائحهم المستديمة لمزيد سخطه تعالى عليهم وجه إليهم الخطاب لإنكار كفرهم، فالإنكار إذا وجه إلى المخاطب كان أبلغ من توجيهه إلى الغائب وأكثر ردعاً له فقد لا يصل ذلك الردع إلى الغائب لكنه للمخاطب أوقع وأشد نكالاً.

ولسائلٍ أن يسأل: لم قال: (تكفرون) بالفعل المضارع دون أن يعبر بالماضى (كفرتم) مع أن كفرهم حادث فى الماضى؟

فيقال: إن التعبير بالمضارع هو المحقق للمعنى المطلوب، فهم ملومون على استمرارهم على الكفر، ودوامهم عليه، ولو أقلعوا عنه ما وجه إليهم اللوم، وهذا دليل على بقائهم عليه وعدم تركهم له، ولو عبر بالماضى لم يحقق هذا الغرض.

وجاء التعبير القرآنى عن الإحياء والإماتة بقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨]:

الجملة حالية، والموت الأول هو العدم السابق أو كون الإنسان نطفة فى رحم أمه إلى تمام أطوار تكوينه، والإحياء الأول نفخ الروح بعد ذلك، والموت الثانى هو الواقع فى الدنيا، والحياة الثانية هى البعث، والمراد بالرجوع إلى الله جمع الخلائق فى الحشر للحساب والثواب والعقاب، كما قال الله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

والعطف بالفاء فى قوله سبحانه: ﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾ وبـ ﴿ ثُمَّ ﴾ فيما بعدها دقيق، واستعمال للحروف فى معانيها الموضوعة لها، فالفاء تفيد الترتيب والتعقيب بلا فاصل زمنى بين المعطوف والمعطوف عليه، و(ثم) تفيد الترتيب مع تراخى الفترة الزمنية بين المعطوف والمعطوف عليه، وذلك متحقق فى الاستعمال القرآنى.

فالإحياء الأول عقب التكوين فى الأرحام، وقد عطف الموت بعد الحياة الأولى بـ (ثم) لتخلل مدة العمر بين نفخ الروح والإماتة، وعطف الحياة الثانية بـ (ثم) فى قوله: ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ لتخلل مدة البرزخ، وعطف الرجوع إلى الله بـ (ثم) فى قوله: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ لتخلل مدة الحشر والحساب وكل ذلك دقيق غاية الدقة.

ولسائلٍ أن يسأل: لم بُنى الفعل (تُرْجَعُون) للمجهول مع أن المبنى للمعلوم كان هو الأنسب للسياق فكان يقول: (ثم يرجعكم) مكان التعبير الوارد فى الآية؟ ليناسب الأفعال السابقة عليه فكلها مبنية للمعلوم؟.

فالجواب: أن بناء الفعل للمجهول هنا يؤدى إلى تناسب رؤوس الآيات مع وجود التناسب المعنوى للسياق، والفاعل معلوم وهو الله سبحانه وتعالى.

١٢- ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٩ ، ٣٠].

يتحدث الحق تبارك وتعالى عن قضية الخلق الكبرى وهى خلق الكون بما فيه من أرض وسماء وما فيها من آثار قدرة الله التى تدل على وحدانيته ثم ذكر بدء الخليقة البشرية فتحدث سبحانه عن خلق آدم وخلافته فى الأرض وما جرى من حوار الملائكة فى خلقه.

وقد عبر عن خلق الأرض بقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

الخلق: معناه الاختراع، والإيجاد من العدم.

ولم يعطف هذه الجملة على ما قبلها - وهو قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨] - لاستقلالها عنها فى إقامة دليل آخر على قدرة الله سبحانه، لا يقل قوة وشأنًا عن إحياء الناس وإماتتهم.

و﴿مَّا فِى الأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩] تعنى كل شئ على الأرض سواها أو فى باطنها قد خلقه الله تعالى لنفع الآدميين كالحيوان والنبات والمعادن وغيرها، وقد تحدث القرآن عن خلق الأرض قبل ذلك فى قوله سبحانه: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقدم الجار والمجرور (لكم) على المفعول به (ما فى الأرض) ليعجل المسرة لعباده، واللام تفيد التعليل، والملكية فخلق ما فى الأرض من نبات وحيوان وجماد إنما هو من

أجل نفع البشر ولهم حق الانتفاع به فى أمور دنياهم وملاذهم وليتخذوا منه العبرة والعظة على قدرة ذى الجلال والإكرام فيجدوا فيه البراهين الدالة على وحدانيته وربوبيته وقدرته على البعث والنشور وكل ما هو من أمور الآخرة .

وهكذا نرى أن اللام الجارة أكسبت الكلام مفاهيم معنوية جليلة تغنى عن تفاصيل كثيرة من العبارات والألفاظ ، فالحرف فى موقعه ذو صدى تعبيرى واسع .

وكلمة (جميعًا) - هنا - بمعنى (كل) وهى لا تفيد الاجتماع فى الزمان بين المخلوقات على معنى أن خلق كل ما فى الأرض تم فى وقت واحد ، وهذا هو الفارق بين (جميع) وبين (مع) فى قولك : جاءوا جميعًا (وجاءوا معًا) فإن (مع) تقتضى المصاحبة فى الزمان بخلاف (جميع) فلا تقتضى ذلك .

ثم انتقل القرآن الكريم إلى الحديث عن خلق السموات قائلاً : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة : ٢٩] .

الاستواء : العلو دون تكييف ولا تحديد فالاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

وأصل (ثم) تقتضى - كما قلنا - تراخيًا زمانياً ولا زمان هنا ، فقيل : هى إشارة إلى التراخى بين زمنى خلق الأرض والسماء .

وقيل : لما كان بين خلق الأرض والسماء أعمال أخر من جعل الجبال رواسى وتقدير الأقوات كما أشار إليه فى آيات أخرى من سورة فصلت عطف بـ (ثم) إذ بين خلق الأرض والاستواء إلى السماء تراخ .

قال الله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ

وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢].

والضمير فى قوله سبحانه: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩] يعود إلى السماء على أنها الأجرام وجاز أن يرجع إليها مع أنه ضمير جمع بناء على أنها مؤولة بالجمع، ويجوز رجوع هذا الضمير (هن) إلى (سبع سموات) بعده وحينئذ يكون تقديمه لإفادة التفخيم والتشويق والتمكين فى النفس لما يأتى بعده وهو السبع سموات ذلك الخلق العجيب، وفى ذلك دقة لغوية لا تخفى.

ومعنى: (سواهن سبع سموات) أن الله تعالى خلقهن ابتداء وأتم خلقهن وقومهن مصونات عن العوج والفطور قال الله تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]: الشىء هنا عام باق على عمومه فيشمل جميع الأشياء، فالله تعالى يعلم كل شىء وقد وصف الله سبحانه نفسه بالعلم فقال: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦] وقال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤]، وقال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧] وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ [فصلت: ٤٧]، وقال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

و (عليم) من صيغ المبالغة فهذا أبلغ من (عالم) وأقوى فى الدلالة.

وهذا تذييل يدل على بديع صنع الله فى خلق السموات على هذا النسق العجيب الذى لا خلل فيه.

ولعلك تدرك معى - أيها القارئ الكريم - أن الآيات التى معنا وسابقتها استخدمت حرفى العطف (الفاء وثم) بطريقة دقيقة فيما وضع له كل منهما لغويًا ونحن نلحظ أن

المتحدث العربى الآن لا يستعمل الفاء العاطفة كثيرًا بل يكثر استعمال الواو مكانها وهذا لو لاحظه المتكلم لكان دقيقًا، فأزمان المعطوفات تتفاوت تواليًا وتراخيًا وترتيبًا وعدم ترتيب وكل ذلك ينبغى أن يدخل فى اعتبار المتكلم، ولعلنا نتخذ القرآن الكريم قدوة لنا لنعود إلى ماضى لغتنا ونسقها التعبيرى الدقيق.

وقد بدأت الآية الثانية بحديث الحق تبارك وتعالى إلى الملائكة مبشرًا لهم بوجود خليفة فى الأرض قائلاً: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]:

(إذ) و(إذا) ظرفان للزمان، لكن (إذ) تستعمل ظرفًا للزمن الماضى، و(إذا) للزمن المستقبل.

ويقول بعض اللغويين: إنّ (إذ) تحول فعل المستقبل الواقع بعدها إلى معنى الماضى، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] على معنى: وإذ مكروا، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] على معنى: وإذ قلت.

و(إذ) تحول الفعل الواقع بعدها إلى المستقبل كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤] وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣] - ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] على معنى: يجىء فى كل ذلك.

و(إذا) - فى الآية التى معنا - داخلة على الفعل الماضى كما هو شأنها وأصلها من كونها ظرفًا للزمن الماضى، والحديث موجه للنبى صلى الله عليه وسلم بعد خلق آدم وخلافته بحقب سحيقة فى التاريخ.

وقوله سبحانه تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] معنى (جاعل) خالق فالجعل بمعنى الخلق كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] أى خلقها، وصيغة اسم الفاعل للدلالة على المستقبل وهو أن خلق آدم حدث بعد كلام الله تعالى مع الملائكة.

والخليفة: مَنْ يخلف غيره وينوب منابه، والتاء للمبالغة فهو (فعيل) بمعنى (فاعل) ويجوز أن يكون (فعيل) بمعنى (مفعول) مثل ذبيحة بمعنى مذبوحة أى أنه (مخلف) وربما يرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧] وقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٥].

والمراد بالخلافة: الخلافة من جهة المولى عز وجل فى إجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس، وآدم هو خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره لأنه أول رسول إلى الأرض كما فى حديث أبى ذر قال: قلت يا رسول الله: أنبيًا كان مرسلاً؟ قال: نعم، فكان رسولاً إلى ولده، وتوالدوا حتى كثروا كما قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١].

وهكذا أخبر الله سبحانه تعالى بأنه سيخلق آدم ويجعله خليفة فى الأرض، وهذا كان مثار حوار وجدل من الملائكة فقد كانوا يعتقدون أن الله تعالى لن يخلق خلقًا أكرم عليه منهم ولا أعلم، ولذا جاء سؤالهم الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

ليس السؤال (أتجعل) باعتراض على الله ولا طعن فى بنى آدم على وجه الغيبة فإن الملائكة أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى عنهم: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وإنما هو سؤال للاستكشاف عما خفى عليهم من الحكمة فى خلق الإنسان وبيان فضله عليهم، وجاء قولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٣٠] على جهة الاستفهام المحض أو على طريق التعجب من استخلاف الله مَنْ يعصيه أو مَنْ يتوقع منه ذلك.

وهذا السؤال يكشف عن مقارنة الملائكة بينهم وبين آدم فى عصيان آدم وطاعتهم لربهم بلا عصيان.

ومراد الملائكة بإفساد آدم فى الأرض ما ينتظر وقوعه من بنى آدم من المعاصى والآثام.

و(مَنْ) اسم موصول يراد به جمع وهم بنو آدم وجاء الفعل (يفسد) صلة له دون إلحاقه ضمير الجمع متابعة للفظ (من) لا تبعًا لمعناه وإلا لألحق الفعل ما يفيد الجمع فقال (يفسدون)، ومراعاة لفظ (مَنْ) أو (معناها) جائز فى اللغة وقد ورد فى القرآن الكريم فى مواضع أخرى مراعاة لفظ (مَنْ) تارة ومراعاة معناها تارة أخرى كما فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦] فأفرد (يستمع) تبعًا للفظ (مَنْ) وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢] فجمع (يستمعون) تبعًا لمعناها لأن المستمع طائفة لا واحد فقط.

﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]: السفك: الصب والإراقة ولا يستعمل إلا فى الدم يقال: سفكت الدم أسفكه سفكًا: صببته وأرقته، وحكى ابن فارس والجوهرى استعمال السفك فى الدمع أيضًا، وجاء فعله ثلاثيًا مجردًا ومزيدًا يقال: سفك يسفك - بكسر الفاء فى المضارع وضمها فى لهجة بعض العرب - وقد قرئ بهما فى الآية التى معنا ويقال: أسفك يسفك، وقرئ هنا أيضًا بضم حرف المضارعة.

والمراد أن أبناء آدم سيقتل بعضهم بعضًا وهذا عصيان لله مما يقتضى - فى نظر الملائكة - ألا يستخلف فى الأرض وقد عبر الملائكة عن طاعتهم لله بقولهم كما عبر القرآن الكريم:

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]

التسبيح فى كلام العرب، التنزيه من السوء على وجه التعظيم وروى طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير (سبحان الله) فقال: تنزيه الله عز وجل عن كل سوء، والتسبيح مشتق من السبح وهو الجرى والذهاب قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾ [المزمل: ٧]، فالمسبح يبذل جهده فى تنزيه

الله تعالى وتبرئته من السوء، فمعنى نسبح بحمدك: ننزهك يا ربنا عما لا يليق بجلالك وكمالك.

ومعنى نقدس لك: نعظمك ونحمدك ونطهر ذكرك عما لا يليق بك، أو المعنى: نطهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك.

وبناء (قدس) كيفما تصرف فإن معناه التطهير، ومنه قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١] أى المطهرة وقال: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] يعنى الطاهر، ومثله ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] و(البيت المقدس) سمى به لأنه المكان الذى يتقدس فيه من الذنوب أى يتطهر، فالقدس: الطهر من غير خلاف.

ثم جاء الرد الإلهى حاسمًا فى أن الله تعالى وحده هو الذى يعلم ما يصلح الكون والحياة فقال لهم:

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] مما كان ومما يكون ومما هو كائن فلا ريب أن فى بنى آدم مَنْ سيكون طائعًا ومنهم أنبياء وفضلاء ولذا يستحق الخلافة فى الأرض.

١٣ - ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١ - ٣٣].

هذه الآيات تتضمن عدة أمور رشحت آدم للتفضيل على الملائكة وهى:

١- تعليم الله تعالى له الأسماء.

٢- عرض المسميات على الملائكة وسؤالهم عن أسمائها وعجزهم عن معرفتها.

٣- ذكر آدم لأسماء المعروضات ليثبت تقدمه على الملائكة بأمر الله سبحانه وتعالى.

٤- فى هذه الآيات بحث لغوى يتعلق بنشأة اللغة الإنسانية واللغة العربية.

أما الأمر الأول - وهو تعليم آدم الأسماء - فقد عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]:

فسر بعض العلماء (علّم) بمعنى عّرف ووقّف ولقّن، والأسماء بمعنى الألفاظ والعبارات، وبعضهم فسرها بخواص الأشياء وصفاتها.

وكلمة (الأسماء) تعنى أسماء المسميات و(أل) فى الأسماء عوض من المضاف إليه كقوله تعالى: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: ٤] وأصله (رأسى).

وكان مجال التحدى أن تعرض المسميات على الملائكة ويطلب المولى عز وجل منهم ذكر أسمائها، فعجزوا، وهو ما يفهم من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١].

تقول العرب: عرضت الشئ أى أظهرته، وقد أظهر الله المسميات للملائكة إذ كان مجال التحدى بعرض المسميات عليهم دون معرفتهم لأسمائها وخواصها التى تستخدم فيها والمنافع التى تؤخذ منها، وكان آدم يعرفها ويعرف كل ما يتعلق بها من سمات وخصائص كأن يعرض عليه الحديد مثلا فيذكر اسمه وما يستخدم فيه من الأغراض وهكذا كل المسميات.

والضمير (هم) جاء مذكرًا فى قوله ﴿ عَرَضَهُمْ ﴾ مع أن المعروضات منها ما لا يعقل من الحيوان والجماد وفيها المؤنث من الإنسان والحيوان وغيرهما تغليبًا للعاقل والمذكر على غيره، وقد وردت قراءات أخرى (عرضها) أو (عرضهن).

وقول الله تعالى ﴿ أَنْبِئُونِى ﴾: معناه: أخبرونى بأسمائها.

ولسائل أن يسأل: لم وضع (النبأ) مكان (الخبر) مع أنه بمعناه فقال: (أنبئونى) ولم يقل (أخبرونى)؟

فنقول: إن إيثار (النبأ) على (الخبر) لما له من مزية تعبيرية لا تتوافر فى لفظ (الخبر).

فالنبأ: خبر ذو فائدة عظيمة أو هو الخبر الخطير والأمر العظيم، فإيثاره على الإخبار للإيذان برفعة شأن الأسماء المسئول عنها وعظم خطرها.

ومعنى (الصدق) فى قوله تعالى: ﴿إن كُنتُمْ صَادِقِين﴾ [البقرة: ٣١]: العلم بحقيقة ما يدعى الملائكة من كونهم أفضل من آدم أو أعلم منه أو أحق بالخلافة منه فالواقع ليس كما قالوا أو كما ظنوا، وقد أثبت التحدى لهم ذلك واضحًا جليًا حيث عجزوا عن مجاراة آدم فيما علمه الله سبحانه وتعالى.

وقد اعترفت الملائكة بالعجز حين ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]:

كلمة (سبحان) مصدر - كغفران - ولا يكاد يستعمل إلا مضافًا منصوباً بفعله كمعاذ الله ومعناه: التنزيه، والتنزيه فيه بُعد عن النقائص، ويقصد به تنزيه الله تعالى عن السوء فى الذات والصفات والأفعال والأحكام وعن كل ما يشين أو يعيب.

ولفظ (سبحان) مع أنه يفيد التنزيه يحتوى أيضًا على معنى آخر وهو التعجب والدهشة.

فالمقصود بهذه الكلمة كثير وكثير لا يمكن أن يحاط به فهى كلمة واحدة لكنها تعبر عن مقالة عريضة يقول فيها الإنسان ما شاء.

إنها تعبر عن تنزيه الله سبحانه وكماله، إنها تعنى ما أعلى وأكمل وأشد تنزيه الله الذى يعطى مَنْ يشاء كآدم ما يفوق به غيره بما له من عطاء واسع وقدرة باهرة وعلم يحيط بكل شىء حاضر أو غائب فهو علام الغيوب ولا يمكن لأحدٍ أن يطلع عليها.

ولفظ (سبحان) لا يستعمل إلا لله وحده فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره.

وتصدير الكلام به هنا اعتذار من الملائكة عن الاستفسار والسؤال الذى قدموه، وإقرار بجهلهم بحقيقة الحال، ولذلك جعل هذا اللفظ مفتاح التوبة، فقال موسى عليه السلام:

«**سبحانك تبت إليك**» وقال يونس عليه السلام «**سبحانك إنى كنت من الظالمين**».

وقد أجاب الملائكة عن قوله تعالى لهم ﴿أَنْبِئُونِى﴾ بأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله، و(ما) فى التعبير (ما علمتنا) اسم موصول أى إلا الذى علمتنا مصدرية والمراد: لا علم لنا إلا تعليمك إيانا وفى هذا كشف عن فضل الإنسان والحكمة فى خلقه وإزالة ما اشتبه على الملائكة من كونه أقل منهم شأنًا.

وفى التعبير مراعاة الأدب واللياقة بتفويض العلم كله إلى الله سبحانه، ويؤخذ منه أن الواجب على مَنْ لم يعلم إذا سئل أن يقول: الله أعلم أو لا أدرى اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء.

وفيه دليل أيضًا على أن أحداً لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء ومن اقتضت حكمة الله أن يعلمه شيئًا من علمه.

ثم ذيل الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] لقد جاء التعبير بصيغتى المبالغة على (فعيل) بدلاً من (فاعل) كأن يقول (عالم) أو (مُفعِل) كأن يقول: (مُحكِم) مثلاً لما لصيغ المبالغة من إفادة التكثير.

ولسائلٍ أن يسأل: لم قدم (العليم) على (الحكيم)؟.

فنقول: إن تقديم (العليم) مناسب للمقام، فالحديث عن العلم قد سبق من قبل حيث قالوا: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] فناسب اتصاله به، ولأن الحكمة التى تقتضى الدقة والإتقان فى كل شئ ناشئة عن العلم وأثر له، وكثيرا ما تقدم صفة العلم عليها فى القرآن الكريم فى مواطن كثيرة.

وجاء دور آدم ليذكر أسماء المعروضات حتى تثبت مزيته وتقدمه على الملائكة بأمر الله تعالى.

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٢]:

فأراد سبحانه من آدم أن يذكر أسماء الأشياء والحكمة التى خلقت من أجلها بعد أن عرضها على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيهًا على فضله وعلو شأنه.

ثم قال سبحانه للملائكة لائمًا لهم :

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣]:

فهذا الاستفهام من قبيل اللوم لهم إذ كان الأجدر بهم أن يتوقفوا ولا يتجرأوا على السؤال بطريقة ربما يفهم منها الاعتراض والطعن على بنى آدم .

والمراد بالإبداء: الإظهار، وبالكتم: الإخفاء فى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، وأفهمت الآية أن الله تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها لأنه أخبر عن علمه تعالى بأسماء المسميات جميعها ولم تكن موجودة من قبل الإخبار .

وقد دار حوار وجدل بين علماء اللغة حول الاستدلال بهذه الآية فى بحث نشأة اللغة الإنسانية واللغة العربية .

فقال بعض العلماء: إن الله تعالى قال: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]، وعلَّمَ: معناه: لقّن ووقّف، والأسماء بمعنى الألفاظ والعبارات، فالله تعالى لقّن آدم أسماء جميع المخلوقات من الجن والإنس والملائكة والحيوانات والجمادات من أرض وسهل وجبل وأشباه ذلك، وكل ما هو موجود فى زمنه وبعد زمنه إلى قيام الساعة وكان ذلك بجميع اللغات البشرية كالعربية والفارسية والتركية والإنجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات التى وجدت والتى ستوجد إلى قيام الساعة .

وبعضهم فسر ما تعلمه آدم بأن الله تعالى علمه أسماء الكائنات من حوله فقط .

وبعضهم فسره بأنّ الله علمه كيفية تقطيع الأصوات وتكوين الكلمات فى جميع اللغات .

ثم إن أولاد آدم لما كثروا تفرقوا فى الأرض فتكلم كل منهم بلغة من تلك اللغات ونسى ما عداها .

وبعض العلماء يرى أن الله تعالى علم آدم من اللغات ما احتاج إليه فى زمانه فقط .

فآدم على هذا عرف أسماء المسميات كلها وبعض علماء اللغة يستدل بهذه الآية على توقيفية اللغات - ومنها العربية - وأنها وحى من عند الله ، وكان أبو على الفارسى - من علماء القرن الرابع الهجرى - وتلميذه أبو الفتح عثمان بن جنى - يميلان إلى هذا الرأى وقد قال ابن جنى - عن اللغة العربية - : «إننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاف والرقة ما تملك علىَّ جانب الفكر ، ثم قال : وأضاف على ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله تعالى فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توقيفًا من الله سبحانه وأنها وحى» . .

وأحمد بن فارس - من علماء القرن الرابع - أيضًا - يستدل بهذه الآية على توقيفية اللغة العربية وأنها من عند الله .

قال - فى كتابه الصاحبى - : « إن لغة العرب توقيف» ونقل عن ابن عباس قوله : علمه الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

ثم قال : « والذى نذهب إليه فى ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس ، ويقول : إن الله تعالى علم الأنبياء واحدًا بعد الآخر حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فآتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحدًا قبله تمامًا على ما أحسنه من اللغة المتقدمة» .

وعلى هذا فاللغات - ومنها العربية - توقيفية من عند الله .

وقد ولدت مذاهب أخرى كثيرة فى نشأة اللغة يمكن معرفتها بالرجوع إلى كتب فقه اللغة ككتابنا (العربية خصائصها وسماتها) .

ولا بأس أن نقول : إن آدم تعلم - عن طريق الوحى - شيئًا من اللغة التى احتاج إليها للتفاهم آنذاك .

[١٤]- ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤ ، ٣٥].

فى هاتين الآيتين الكريمتين يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن طرف من قصة خلق آدم - عليه السلام - تواصلاً مع الآيات السابقة التى تحدث فيها مع الملائكة عن خلافته فى الأرض، وما علمه من الأسماء.

وهنا يكمل بعض الأحداث الأخرى، فيذكر صدور الأمر الإلهى للملائكة بالسجود لآدم - بعد أن ثبت لهم استحقاقه التقدم عليهم بعلمه وفضله الذى فضله الله به - وقد بادرت الملائكة بالطاعة والانقياد إلا طاووسهم ورئيسهم إبليس فقد امتنع عن السجود لآدم لأنه زعم أن منزلته أعلى من منزلة آدم فنزل من مرتبة العبودية إلى قاع الكفر والضلال؛ وفى هذا الأمر بالسجود لآدم تكريم آخر لآدم وتوقير له.

كما يذكر الحق سبحانه تعالى نعمة أخرى من نعمه على آدم وذريته بأن أدخل وأسكن آدم وزوجه حواء الجنة - بعد الخلق والتكريم بالسجود -، وأباح لهما التمتع بألوان الرزق الواسع فيها واختبر عزمه فنهاهما عن الأكل من شجرة معينة إذ الأكل منها معصية تُعَد من الكبائر.

وقد تجلى التعبير القرآنى فى سوق هذه الأحداث على نحو لغوى ومعنوى دقيق.

وسنأخذ فى بيان جوانب الروعة فيه واضحة وضوحًا تامًا.

أولاً: صدور الأمر الإلهى للملائكة بالسجود لآدم، وتنفيذه، وعبر عنه المولى سبحانه بقوله:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]:

هذا التكريم يقوم مقام الاعتذار عما بدر من الملائكة قبل ذلك من تصورهم أنه يفسد فى الأرض، واعتراف بمكانته بعد أن عرفوا قدره فى العلم والمعرفة.

والواو فى (وإذ قلنا) عاطفة لهذا الجزء من أحداث قصة آدم على ما قبله ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، و(إذ) - هنا - أيضًا - ظرف للزمن الماضى والعامل فيها (اذكر) مثل ما قبلها من باب تعداد النعم الإلهية على آدم وبنيه وجعلها بعض العلماء متعلقة بفعل آخر يقدر بـ (أطاعوا أو انقادوا) ونحوهما أى أطاعوا وقت قولنا، ونحوه.

والسجود فى اللغة: الخضوع والتذلل مع الانحناء أو نحوه من وسائل الانقياد وعند الفقهاء: وضع الجبهة على الأرض - مع الذكر المعروف - عبادة لله تعالى.

واختلف فيما طلب من الملائكة من هذين النوعين، فمن قائل إن الذى صدرت به الأوامر هو الانقياد وإظهار التقدير لآدم مما يتدرج تحت المعنى اللغوى وبعض العلماء على أن السجود بالمعنى الشرعى من باب التكريم والتبجيل تبعًا لشرع من قبلنا، أو أن السجود كان لله سبحانه على أن خلق آدم وهيأه على هذا النحو الذى أدهش الملائكة بعلمه وفضله فكان آدم سبب هذا السجود لله على قدرته وقد عبر بقوله: ﴿ قُلْنَا ﴾ دلالة على التعظيم لله سبحانه بنون العظمة.

واللام فى ﴿ لآدَمَ ﴾ باقية على ظاهرها - على المعنى الأول - وبمعنى السببية على المعنى الثانى.

وكان مقتضى السياق أن يقول (وإذ قلنا لهم) فيعبر بالضمير بدلاً من إعادة لفظ (الملائكة)، وقد التفت من الغيبة إلى المتكلم.

فقد ذكر قبل ذلك﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾، وهنا ذكر ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ ولذلك هدفه اللغوى القائم على أساس تفخيم الأمر وعظمة الشأن فى موقف أمر هذا القبيل الكبير من الملائكة بإبداء التذلل والمهابة فى خلق آدم ومنزلته.

وفصل بالملائكة بين القول والمقول لما فى ذلك أيضًا من إظهار الأمر العظيم والمقام الجليل، إن هذا النموذج الذى خلقه الله من جسم وروح نمط من الخلق عجيب وذو شأن خطير يقتضى جمع الملائكة لمعرفته وشهوده.

﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٤] .

انقادت الملائكة ما عدا إبليس والفاء فى ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ تشعر بالمسارعة إلى امتثال الأمر الإلهى من الملائكة بالسجود لأنها عاطفة تفيد التعقيب وهوحدوث ما بعدها دون فاصل زمنى عما قبلها .

والإباء : الامتناع بأنفة مع التمكن من الفعل وفعله (أبى يأبى) - بفتح العين فى الماضى والمضارع - على غير قياس وسمع أبى - كرضى - على القياس ، وهذا الفعل متعمد حذف مفعوله للعلم به (السجود) .

والاستكبار والتكبر - بمعنى واحد - وهو أن يعتقد الشخص أنه أكبر منزلة من غيره وسواء كان ذلك مطابقًا للواقع أو لم يكن فهو مذموم وهو جانب نفسى على حين أن الإباء حسى .

وقد قدم الإباء على الاستكبار إظهارًا للجانب الحسى لتبدو مخالفته للملائكة مع أن الإباء ناشئ عن الاستكبار .

ولسائل أن يسأل : لماذا عبر بقوله (أبى) ولم يقل (إلا إبليس فلم يسجد)؟ مثلاً : فنقول : إن التعبير بقوله (أبى) أدخل فى الدلالة على الامتناع فقولك (أبيت الظلم) أبلغ من قولك (لم أظلم) .

والاستثناء (إلا إبليس) منقطع على اعتبار (إبليس) من الجن كما قال تعالى : (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) ولخلقه من نار ، كما قال تعالى : (وخلق الجان من مارج من نار) وقد قال إبليس : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) وإنما شمله الأمر بالسجود لأنه كان مع الملائكة بل إنه رئيسهم فتمنع عن طاعة الأمر غرورًا وجهلاً .

وجعل بعضهم الاستثناء متصلاً لوجود إبليس مع الملائكة أو على عده واحدًا منهم ، و(إبليس) اسم ممنوع من الصرف إذا عد أعجميًا أو عربيًا جاءعلى وزن لم يسم به وأصله من الإبلاس وهو الإبعاد عن الخير واليأس من رحمة الله تعالى .

وقد وردت عدة آيات فى مواطن من بعض السور ذكر فيها الفعلان (أبى واستكبر) -كما هنا - وفى سورة الحجر اكتفى بذكر الفعل الأول فقال (إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين)، وفى سورة (ص) اكتفى بذكر الفعل استكبر فقال : (إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين) .

معنى﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ : ثبت فى علم الله أنه كذلك وأوضح كفره امتناعه عن السجود امتثالاً لأمر الله سبحانه واعتراضًا عليه بما زعم من فضله على آدم حيث قال (أنا خير منه) ويرى بعضهم أن (كان) هنا بمعنى (صار) ـ أى صار من العاصين بما ظهر منه بعد أن كان من العابدين المقربين والعبرة بالخواتيم ففى الصحيح عن جابر ـ رضى الله عنه ـ «كان النبى ﷺ يكثر من قوله : يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» .

وهذه الجمل الثلاث فى موضع الحال أى آبيًا مستكبرًا كافرًا أو مستأنفة وكأنها جواب لسؤال بعد قوله (إلا إبليس) فقيل : ما الذى فعله ؟فقيل (أبى واستكبر و كان من الكافرين) .

وقد قيل : متى كان الأمر بالسجود؟ هل قبل خلق آدم أو بعده؟ وهل قبل الحوار العلمى عن الأسماء ؟أو بعده ؟ وهل الأمر تعليقى أو تنجيزى بناء على ذلك؟

وقد نشأت هذه الأسئلة وجوابات بعض العلماء عليها تبعًا لتعدد الآيات الواردة فى السور عن خلق آدم وما يتعلق به وما كان من الأمر بالسجود ففى بعضها ورد الأمر بالسجود قبل خلق آدم مثل ما جاء فى سورتى الحجر وص وفى بعضها ورد الأمر بالسجود بعد الخلق ونفخ الروح كما فى سور البقرة والأعراف والإسراء والكهف وطه .

لكن الأدلة النقلية وما يقتضيه الفكر فيها تؤكد أن هذه الآيات يكمل بعضها بعضًا وأنها قصة واحدة اجتزئ بعضها فى مكان دون آخر لمقتضى الحال الذى وردت فيه ، وهى متدرجة من الخلق والحديث عن الخلافة والعلم وظهور قدر آدم ثم السجود له ، ودلالة النصوص متواصلة فى ذلك .

ثانيًا: إسكان آدم وزوجه الجنة وما يترتب عليه وقد عبر عنه الحق جل ثناؤه بقوله: «وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين».

حذف(إذ) هنا اكتفاء بما ورد فى موضعين قبله، وأتى بالواو العاطفة لجملة (قلنا) على ما قبلها وقد اجتزأ القصة وترك بعض أحداثها اكتفاء بما ورد فى السور الأخرى فلم يتحدث هنا عن تقريع إبليس وما أجاب به واللعنة التى حقت عليه، وما ترتب عليها من طلب الإنظار أو الانتظار.

وجاء بأسلوب الخطاب لآدم- على سبيل النداء -تنبيهًا واهتمامًا بما يلقى عليه.

وقوله: (اسكن) فعل أمر من السكنى وماضيه (سكن) أى اتخذ محلا للإقامة والتوطن، والمراد بالجنة: دار الثواب للمؤمنين وهذا هو الراجح وقيل: كانت جنة أرضية فى فلسطين أو بين فارس وكرمان أو بأرض عدن (باليمن).

وقد خلق الله حواء من ضلع لآدم، ورفعهما إلى الجنة فأدخلا فيها كما روى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو الراجح من أقوال المفسرين.

والرغد: الهنىء الذى لا عناء فيه أو الواسع وفعله مسكور العين ومضمومها فيقال رغد عيش القوم - بكسر العين وضمها- أى أنهم فى رزق واسع كثير ويقال: أرغد القوم: أخصبوا وصاروا فى رغد من العيش.

وقال الجوهرى: قرب- بالضم- يقرب قربا: دنا، وقربته -بالكسر- قربانًا: دنوت منه، وبعض اللغويين يفرق بين ضم عين الفعل وكسرها فى المعنى، فبالضم، الدنو، وبالكسر التلبس وقد نهى المولى سبحانه عن الأكل من الشجرة معبرًا عنه بالنهى عن القرب أو الدنو منها على سبيل المبالغة فى التحذير والنهى، وقد أطلق المولى سبحا نه لآدم التمتع بمأكولات الجنة على كثرتهاوتنوع نعيمها وأشجارها وثمارها كما قال تعالى: ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة: ٣٥]. فالظرف (حيث) متعلق بالفعل الأمرى (كلا) لا بالفعل الأمرى (اسكن) فليس المقصود أن يتنقل فى السكن

بالأماكن المتعددة فى الجنة فهذا لا حرج عليه فيه بمقتضى قوله سبحانه ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف: ١٩] ولا حاجة إلى دلالة (حيث) عليه.

أما دلالتها الحقيقية فهى متعلقة بتنوع ما يتمتعان به من ألوان الرفاهة والنعيم وهذا هو الراجح بدليل قوله سبحانه تعالى فى موطن آخر ﴿ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [الأعراف: ١٩].

واختلف المفسرون فى الشجرة المنهى عن الأكل منها فقيل: الحنطة، وقيل: النخلة وقيل: شجرة الكافور، وقيل: التين، وقيل: الحنظل، وقيل: العنب.

ويرى بعضهم أنهاشجرة من أكل منها أحدث، ويرى آخرون أنها شجرة المحبة، ويرى غيرهم: أنها شجرة الطبيعة والهوى.

ولعل ذلك هو الذى فتح المجال لقول بعضهم إنها شجرة الجنس استدلالاً بما ورد من آيات ـ فى مواضع أخرى ـ عن ظهور السوأة لهما ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [طه: ١٢١]. وإخراجه لهما من لباسهما ونحوه كما قال تعالى: ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ولعل هذه الشجرة أن تكون حقيقة أولى، ولعلها كانت تؤدى إلى الحاجة إلى الإخراج مما هو غير معهود فى الجنة.

والإمساك عن الخوض فى بيان هذه الشجرة أولى وأسلم لأن هذه الأمور كلها جاءت بطريق الوحى الإلهى، ولم يرد تفسيرواحد مما ذكر على سبيل القطع أو اليقين فى مثل هذه الأمور الغيبية التى حكاها القرآن الكريم .

والأمر فى قوله تعالى (فكلا) للإباحة أما النهى فى قوله سبحانه وتعالى (ولاتقربا) فهو للتحريم بدليل ما رتبه المولى سبحانه عليه من أن الوقوع فى المحظور ـ بالأكل من الشجرة ـ عواقبه وخيمة فهو يؤدى إلى أن يسلكا فى سلك العصاة المذنبين .

وجاءت تراكيب الآية الكريمة متناسقة تؤدى معانيها فى دقة لغوية وسلامة تعبيرية.

فقد عطف «زوجك» على الضمير المستكن فى (اسكن) مع الفصل بالضمير (أنت) ويمتنع فى فصيح الكلام العطف على الضمير المتصل دون فاصل بالمنفصل أو فاصل ما كما يقول ابن مالك:

وإن على ضميـر رفع متصل عطفت فافصل بالضمير المنفصل

أوفاصل ما وبلا فصل يرد في النظم غالبًا وضعفه اعتقد

ولا يصح إسناد فعل الأمر - هنا - مباشرة إلى الاسم الظاهر (زوجك) لكنه في أسلوب العطف يصبح سائغًا إذ يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع.

وقد وجه الأمر إلى آدم وحواء حين قال (وكلا) إلخ فقد عمم الخطاب - بعد أن أفرده أولاً في (اسكن) - لبيان المساواة بينهما في مجال التشريف والتكاليف .

و(رغدًا) صفة لمصدر مقدر أي أكلاً رغداً وهو مفعول مطلق مؤكد لفعله (كلا) و(فتكونا من الظالمين) جواب النهي منصوب بعد الفاء، أو معطوف بالجزم على (لا تقربا).

ولسائلٍ أن يسأل: لِمَ قال (فتكونا من الظالمين) ولم يقل (فتأثما) مثلا؟، ولماذا لم يقل (فتكونا ظالمين) مكان (من الظالمين) ؟

نقول: ترك التعبير بقوله (فتأثما) إلى التعبير بالظلم لأن الإثم يطلق على الصغائر والكبائر، والظلم يطلق على الكبائر، فحسب.

وترك التعبير بـ(ظالمين) إلى (من الظالمين) لأن الثاني أقوى دلالة وفرق كبير بين أن تقول: زيد عالم - فتصفه بالعلم - وبين زيد من العالمين، فتجعله متبحراً في العلم مغموراً فيه بين أهله.

[١٦] ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٦- ٣٩].

فى هذه الآيات الكريمة يتحدث الحق سبحانه وتعالى عما حدث بعد سكنى آدم وزوجه الجنة وإباحة الله تعالى لهما الأكل من ثمارها ونهيه لهما عن الأكل من شجرة معينة ، فقد وسوس لهما الشيطان وأوقعهما فى المعصية بالأكل منها فكان سببًا فى حرمانهما من النعيم والمتع التى كانوا فيها فصدر الأمر الإلهى بهبوطهما إلى الأرض لتبدأ فيها حياتهما وحياة ذريتهما على ما فيها من العداوة والبغضاء، والاستقرار فى الأرض والتمتع بخيرها المؤقت الذى ينقضى بانقضاء عمر الإنسان، وينتهى بقيام الساعة، ولكن هذه المعصيةالتى وقع فيها آدم نتيجة نسيانه ووسوسة الشيطان له لا تخل بعصمته النبوية، وقد وجهه الله إلى التوبة فأعلن هو وزوجه أنهما ارتكبا هذا الإثم ظلمًا لأنفسهما وطلبا رضا الله ومغفرته فعفا عنهما وتأكد الأمر الإلهى بنزولهما إلى الأرض ووعد المولى سبحانه بإرسال الرسل وإنزال الكتب لهداية ذريتهما فمن آمن بالله ورسله وكتبه فقد شمله هدى الله وعنايته فأمن حين يخاف الناس ولم يصبه حزن من فوات الثواب فينعم بالأمن والسرور الدائمين، أما من لم يؤمن بالله وكذب الرسل فيما جاءوا به من كتب عن الله عز وجل دالة على توحيده وعبادته وحده وأنكر الدلائل على وجوده فى شواهد الكون والحياة وغيرها فقد ضل ضلالاً مبينًا وجزاؤهم الخلود فى نار جهنم وبئس القرار .

وسنوضح ماجرى من أحداث من خلال النص القرآنى الدقيق بما عبر به من تراكيب صيغت بعناية إلهية .

أولاً: وسوسة الشيطان لآدم وحواء وهما فى الجنة ونتيجة ذلك .

وقد عبر عنه المولى سبحانه بقوله : (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) :

حرض الشيطان آدم وحواء على الأكل من الشجرة التى نهاهما الله تعالى عن الأكل منها وعبر عن ذلك الحق سبحانه بالإزلال : والمراد أوقعهما فى الزلل بأن زين لهما ما نهاهما الله عنه وذلك بقول الشيطان لآدم ﴿ **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ** ﴾ [طه : ١٢٠]. وقوله لهما : ﴿ **مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠]، ثم أقسم لهما على حسن ما

يدعوهما إليه، ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] وهو محض كذب وافتراء، فغرهما بالوقوع فى المعصية وكان ذلك سببًا فى خروجهما من الجنة.

ولذلك فسر بعضهم الإزلال بالإذهاب والإبعاد إلى جانب معنى الإيقاع، وهما متصلان معنى لأن الذى ينزلق يبعد عن موضعه.

وعلى ذلك يفسر عائد الضمير (ها) فى (عنها) بأنه الشجرة وعن سببية. بمعنى الباء- وبأنه الجنة و (عن) على بابها.

ويمكن الجمع بينهما على أن الإيقاع فى المعصية بسبب الأكل من الشجرة وقد أدى إلى إبعادهما عن الجنة

و(ما كان فيه) يشمل المعنيين أحدهما: النعيم والرفاهة التى كانا يتمتعان بها فحرما منها، والثانى: الجنة التى هى مكان التكريم وناهيك بفخامتها وروعتها فليست مكانًا أى مكان إنما هى مكان جعله الله مناط الثواب للمؤمنين، وهو مكان لا مثيل له عظمة وجلالاً.

والهبوط: النزول، وفعله هبط يهبط ـ بكسبر العين وضمها فى المضارع، وقوله (اهبطوا) أمر للجماعة والمقصود آدم وحواء- والاثنان أقل الجمع كما يقولون-بدليل قوله سبحانه: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣] -بالتثنية- وكان الخطاب بالجمع- كذلك- نظرًا لأنهما أصل البشرية أوالخطاب لهما ولغيرهما والراجح الأول.

والبعض يطلق على الجزء وهو ملازم للإضافة لفظًا أو نية والعدو يطلق على الواحد والجمع مذكرًا وغيره والعداوة: مجاوزة الحد، والظلم والتنافر والتباعد.

فكأنه قال بعضكم يكون عدوًا لبعض، يقع بين ذريتكما التعادى والتباغض لما يوقعه الشيطان بينكم.

وهذه الجملة وقعت حالاً مقدرة أى: اهبطوا متعادين يبغى بعضكم على بعض فهى فى محل نصب وقد استغنى فيها عن الواو بضمير المخاطبين وحكم الفراء على ذلك الوجه بالشذوذ ورأى بعضهم أن هذه الجملة مستأنفة فى جواب سؤال مقدر.

واللام فى (لبعض) للتقوية .

والمستقر: اسم مكان أومصدر ميمى بمعنى الاستقرار أو موضعه، والمتاع: مأخوذ من متع النهار- إذا ارتفع ويطلق على الانتفاع الممتد وقته .

والحين: المقدار من الزمان قصيرًا أو طويلاً، فالأرض هى مكان الهبوط الذى أراده الله تعالى لآدم وذريته حيث يقع التعادى، والسعى فيها لنشدان ما فيها من متاع موقوت بنهاية العمر الفردى الذى ينتهى بموت الانسان أو العمر الجماعى الذى ينتهى بيوم القيامة، وتعرب الجملة- مثل سابقتيها-حالاً أو مستأنفة .

ثانيا: توبة آدم من معصيته وقبولها وعبر عنه المولى سبحانه بقوله: **﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** [البقرة: ٣٧]: ومعنى تلقى آدم الكلمات من ربه : أنه نبهه على معصيته ووجوب توبته عنها ووعده بقبولها وذلك من نعمه الكثيرة عليه وعلمه كلامًا به يتحقق له كمال التوبة، ومن ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن آدم عليه السلام قال : يارب ألم تخلقنى بيدك بلا واسطة؟ قال: بلى، قال: يارب ألم تنفخ فىَّ من روحك؟ قال: بلى، قال: ألم تسكنى جنتك؟ قال: بلى، يارب ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: يارب إن تبت وأصلحت تردنى إلى الجنة؟ قال: بلى، ومن هذه الكلمات قول آدم وحواء **﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** [الأعراف: ٢٣].

وقيل غير ذلك .

وأصل التوبة: الرجوع عن الذنب- إذا كانت من العبد - وهذا لعلمه بضرر الذنب وفداحته، والندم على وقوعه منه، والعزم على عدم العودة إلى مثله، والتوبة إذا كانت من الله فهى الرجوع عن العقاب إلى المغفرة، والتيسير لأسبابها والتوفيق لها، واختار صيغة المبالغة(التواب) لكثرة غفرانه لعباده المذنبين والتجاوز عن سيئاتهم، و(الرحيم) هو زيادة فى الإحسان إلى الإنسان إلى جانب العفو عنه؛ لأن رحمته سبقت غضبه ولذلك ما كاد يعاقب آدم حتى فتح مجالاً آخر للإحسان إليه وإلى بنيه .

والجملة تعليل- على كلا التفسيرين- فإذا كانت التوبة من قبل العبد وأن الله تعالى ييسرها له كانت تعليلاً لفتح باب التوبة له فى قوله ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ ﴾ [البقرة: ٣٧] إلخ، وإذا كانت التوبة من قبل الحق سبحانه بالرجوع عن العقاب إلى الغفران فالجملة تعليل لقوله سبحانه ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾.

ثالثا: الهداية بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وثواب التابعين لهم المصدقين بالحق الذى جاءوا به وقد عبر عنه سبحانه بقوله:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨]

مع قبول توبة آدم استمر الأمر بالهبوط ساريًا ولذلك كرره بقوله (قلنا اهبطوا منها جميعًا)حتى لا يظن أن قبول التوبة يؤدى إلى توقف الأمر، وليبين أن الهبوط- بعد قبول التوبة- مقرون بالهدى والنجاة لا بالتعادى والبلاء، وأن ذلك تحقيق لأمر الله بعمارة الارض واستخلاف آدم وذريته فيها(إنى جاعل فى الأرض خليفة) فالمكث فى الجنة كان مؤقتًا لا دائمًا على كل حال.

و(جميعًا) حال أى اهبطوا أنتم أجمعون، وهو بذلك حال تؤدى معنى التوكيد ولكنها لا تدل على نزول الجميع فى زمان واحد فهناك فرق بين قولك: جاءوا جميعًا، وقولك: جاءوا معًا.

وقوله سبحانه: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ إلخ تركيب يحتوى على جملتين شرطيتين وقعت الثانية جوابًا للأولى.

وأداة الشرط- فى الأولى- (إن) المقترنة بـ(ما) الزائدة للتأكيد وفعل الشرط (يأتين) مضارع مؤكد بالنون فهو مبنى على الفتح ولكنه فى محل جزم بإنْ، وجوابه جملة الشرط والجواب الواقعة بعد الفاء(فمن تبع إلخ)، وجملة الشرط الثانيه تشتمل على اسم الشرط (من) وفعل الشرط ماض فى محل جزم (تبع) وجوابه الجملة الاسمية بعد الفاء (فلا خوف عليهم)وما بعدها، وهذه الجملة وقعت جوابًا للشرط الأول (فإما يأتينكم إلخ)كقولك: إن جئتنى فإن قدرت أحسنت إليك، وقيل غير ذلك.

واستعمل أداة الشرط(إن) التى تفيد الشك مكان (إذا)التى تفيدالوقوع بالقطع ليدل على أن أمر إرسال الرسل وإنزال الكتب موكول إلى مشيئة الله عزوجل وإرادته فلا يجب عليه شى، وقد يقال: إن ذلك جرى على عادةالعظماء فى استعمال عسى ولعل ونحوهما فى مواضع القطع والجزم .

وهذا الخطاب الوارد يُعد خطابًا لذرية آدم الذين سيعمرون الأرض فيلقون جزاء أعمالهم فيها فمن صدق الرسل فيما جاءوا به انتفى عنهم الخوف والحزن انتفاءً دائمًا .

والخوف يكون من نزول مكروه، والحزن يكون من فوات مطلوب، والخوف هو الفزع فى المستقبل، والحزن - ضد السرور- مأخوذ من الحزن- وهو ما غلظ من الأرض، ويكون على أمر ماض - على المشهور- وقد يستعمل فى الهم على أمر مستقبل كقول يعقوب لإخوة يوسف ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٣].

وقد أراد الحق سبحانه- فى الآية الكريمة هنا- بنفى الخوف نفى العقاب فلا ينزل بهم، .-وأراد بنفى الحزن نفى الثواب فلا يفوتهم وذلك من باب الكناية وهى أبلغ من التصريح بأن يقول فلا يعاقبون، ويثابون، والكناية كدعوى الشىء ببينة فنفى عنهم حلول المكروه والحزن فى الآخرة، وهذا ليقابل به الفريق الثانى الآتى بعد من المكذبين وجزائهم.

ويرى بعضهم أن النفى المطلق للخوف والحزن أوسع من أن يختص بالجزاء الأخروى فخوف المكروه والحزن منفى عنهم مطلقًا فى الدنيا والآخرة.

ولسائل أن يسأل: لماذا قدم (منى) على الفاعل (هدى)؟ ولماذا أتى بالضمير الخاص (ياء المتكلم)؟

والواقع أن ذلك للإجلال والإعظام لله سبحانه وتعالى واهب الهدى وأنه يستحق التوحيد، وقد أتى بالرمز الخاص بذى الجلال لهذا الإعظام للواهب الحق وهو من باب الالتفات، ونكر (هدى) لأنه مطلق هدى.

ووضع المظهر موضع المضمرفى(هداى) وأضافه إليه تعالى إشارة إلى طبيعة الهدى الإلهى العالى، والإضافة للتشريف وبيان أنه أحق بالاتباع والبعد عما سواه لأنه وحده الطريق السوى وغيره ضلال وأوهام.

ولم يعرفه باللام قائلاً (فمن تبع الهدى) حتى لا يكون عين الأول لأن النكرة إذا أعيدت معرفة كانت كذلك، ولتتحقق الإضافة إليه سبحانه تشريفًا وإجلالاً.

ولسائلٍ أن يسأل-أيضًا-: لماذا قدم نفى الخوف على نفى الحزن؟

فنقول: لأن الخوف يكون فى المستقبل وهو كثير على حين أن الحزن يكون فى الماضى على ما فات ويكون مقدراً بحادث خاص ينقضى بانقضائه.

وإذا قيل: لماذا عبر بالجملةالاسمية فقال ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ دون الفعلية (ولا يحزنون)؟.

فنقول: تقديم الضمير يفيد الاختصاص فانتفاء الحزن خاص بالمهتدين دون سواهم، ويفيد- فى إطار الجملة الإسمية- الإسناد المتكرر مما يعنى دوام انتفاء الحزن عنهم، أما الجمله الفعلية(لا يحزنون) فيوهم انتفاء دوام الحزن وهذا ليس مقصوداً ولا يحقق الغرض المطلوب.

والتعبيربحرف الجر(على) فى (لا خوف عليهم) دون اللام أو غيرها كأن يقال: لا خوف لهم أو عندهم للدلالة على أن حالهم من الحصانة بما لا ينبغى معها التفكير فى أى خوف يلحقهم.

رابعًا: جزاء من لم يتبع الهدى فكفر وكذب بالآيات، وعبر عنه سبحانه بقوله: ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]:

هذا هو الفريق الثانى الذى ضل طريق الهداية وأعرض عن الإيمان ولم يصدق بالأدلة التى جاء بها الرسل من الكتب الإلهية لهدايتهم فاستحقوا العقاب الدائم على كفرهم وتكذيبهم.

ولسائل أن يسأل : لماذا عبر بالاسم الموصول(الذين) دون (من) قسيم ما ذكر من قبل عن المهتدين؟

فنقول : لأراد المولى سبحانه أن يسجل على الفريق الثانى اختياره طريق الضلالة من الكفر بالله والتكذيب بآياته لإظهار فداحة الجرم الذى ارتكبوه فاستحقوا عليه العقاب .

والمقصود بالآيات : معجزات الأنبياء التى كذب بها الكفرة مع دلالتها على الصانع سبحانه وقدرته وعلمه وتطلق على آيات القرآن وهى جمع آية ، وتدل على طائفة من كلمات القرآن المميزة عما قبلها وما بعده بفاصل والقرآن آخر الكتب الإلهية التى كذب بها المشركون وأضرابهم .

ويمكن أن يكون الكفر والتكذيب بالآيات بالاعتقاد القلبى والذكر اللسانى ويكون الجار والمجرور متعلقًا بأى من الفعلين على سبيل التنازع وذلك كله مؤد إلى إنكار المرسل المدلول عليه بهذه الآيات المعجزة .

والتعبير بأصحاب النار يدل على ملازمتهم لها والمراد بالخلود هنا المكث الدائم وقد أجمع على ذلك المفسرون والعلماء .

واسم الإشارة (أولئك)ـ بصيغة الجمع للبعيد ـ يدل على تمادى هؤلاء الكافرين المكذبين فيما إليه ذهبوا وأن ضلالهم وصل إلى منتهاه ـ وهو مبتدأ خبره(أصحاب النار) وهذه الجملة خبر الاسم الموصول (الذين كفروا) إلخ .

ويمكن جعل اسم الاشارة بدلاً ، وعطف بيان على الاسم الموصول (الذين كفروا) وما بعده خبر عنه .

وجملة ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فى موضوع الحال كما جاء ذلك صريحًا فى مثل ، ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ويصح إعرابها خبرًا ثانيًا لأولئك .

والتعبير بالجملة الإسمية للدلالة على دوام بقائهم فى النار جزاء كفرهم وتكذيبهم .

وبذلك تكمل النعم التى عدَّدها الله سبحانه لبنى آدم .

[١٦]- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

الخطاب القرآنى هنا لليهود المعاصرين لنبينا محمد ﷺ، للاستجابة لداعى الإيمان به، وقد حثهم على ذلك بإنعام الله تعالى عليهم بالنعم الكثيرة وجعلها مجالاً للذكر والاعتبار والانقياد إلى طاعة الله والإيمان بنبيه محمد ﷺ.

وهنا أوضح القرآن الكريم أن العهد الذى أخذ على اليهود هو الإيمان بنبيه فى مقابل النعم التى عمهم الله بها، وما وعدهم به من الثواب الأخروى. وقد حذرهم المولى جل وعز من نقض هذا العهد الموثق حتى لا يتعرضوا للعقاب الأليم.

والآية ـ على هذا ـ تتضمن ثلاثة أمور:

الأول: دعوتهم إلى ذكر نعم الله تعالى عليهم.

الثاني: أمرهم بالوفاء بالعهد، الذى أخذه الله تعالى عليهم.

الثالث: تحذيرهم من نقض هذا العهد، وما يترتب عليه من عقابهم.

وقد عبر سبحانه وتعالى عن الأمر الأول بقوله:

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

النعم التى حثهم الله تعالى على ذكرها كثيرة ورد بعضها فى الآيات التالية لهذه الآية، ومن هذه النعم إنجاء آبائهم من آل فرعون، وفرق البحر بهم، وتظليل الغمام لهم، وإنزال المن والسلوى عليهم، وتفجير العيون من الحجر، إلى غير ذلك مما سيتحدث عنه القرآن الكريم فى تفصيل واسع.

و(اذكروا): أمر مأخوذ من الذكر، وقد ورد فى اللغة الذكر ـ بكسر الذال – وسمع بضمها (الذُكر) على لهجة بعض العرب، ومعناهما واحد.

فهو: اسم جامع لما ينطق به اللسان، وما يحضُر فى القلب أو يخطر بالبال ويمثل أمام التفكير.

وقال بعض اللغويين : إن(الذكر) - بكسر الذال - لا يستعمل إلا فيما هو خاص باللسان وضده : الصمت .

والذُكر - بضم الذال - خاص فيما يكون بالقلب وضده : النسيان .

والنعمة : اسم جنس لكل ما يُنْعَمُ به ، فهى نعم كثيرة لا تعد ولا تحصى ، على حد قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل : ١٨] .

والمقصود بذكر النعمة – أيها القارى الكريم - شكرها والعمل بموجبها ، لأن الشكر فعل ينبئ عن تعظيم المنعم من حيث إنه منعم فكأنه سبحانه قال : أطيعونى ، وعظمونى من حيث إنى منعم عليكم وعلى آبائكم .

وقد يسأل سائل : لم ذكّر اليهودَ بالنعم مع أنهم لم ينسوها بل هم ذاكرون لها دائمًا؟

فالجواب : إنهم لما لم يشكروها ولم يعملوا بموجبها فقد أهملوها ، فصاروا كالناسين لها ، وإن أكثروا ذكرها .

وقد أضاف النعمة إلى ضمير الجلالة ، فقال (نعمتى) لتشريفها وإيجاب تخصيص شكرها بالله تعالى .

وعبر بـ (على) فى قوله تعالى (عليكم) للدلالة على شمول النعمة لهم ، وقيد النعمة بهم فى قوله (عليكم) لأن الإنسان مجبول على حب النعمة ، فإذا نظر الى ما فاض عليه من النعم حمله ذلك على الرضا والشكر .

وقد يسأل سائل أيضًا فيقول إن القرآن الكريم طالب اليهود بذكر نعم الله تعالى عليهم على حين طالب الأمة الإسلامية بذكره سبحانه ذكرًا خالصًا دون الإشارة إلى النعم كما فى قوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، فلماذا اختلف الأسلوب هنا عنه هناك؟

والجواب أن هذا تفضيل للأمة الإسلامية التى ينبغى أن تعرف خالقها ، وأن تتوجه إليه لذاته لا لشىء آخر فهى أمة التوحيد الخالص المبرأ عن كل الأغراض والأهواء

والأشياء، على عكس الأمم الأخرى التى كانت تتوجة أنظارها إلى حياتها الدنيا وأغراضها قبل التغلغل فى معرفة الله تعالى والتوجه إليه.

والدعوة القرآنية لذكر اليهود النعم جاءت بأسلوب الملاطفة واللين فى هذه الآية، وهذه إحدى طرق الخطاب لهم إلى جانب طرق أخرى -سترد بعد ذلك- كالتخويف وإقامة الحجة عليهم، وتوبيخهم على سوء أعمالهم.

وأساليب التوجيه والنصح تأخذ صوراً متعددة لعل أولها وأهمها هو هذا الأسلوب الهادئ الناجح فى الإقناع والدعوة إلى الحق.

وهذا يعنى أن الدعوة إلى الله ينبغى أن تتم بالحسنى وفى أسلوب لين حكيم، وكثيراً ما يعلمنا القرآن الكريم هذا المبدأ المهم فى إنجاح الدعوة إلى الله كما قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وكما قال سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام حينما أرسلهما إلى فرعون الطاغية ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤]، ولعل الدعاة المسلمين يتخذونه طريقًا لهم فى أداء واجبهم مع عرض الحجج واللجوء إلى التخويف والترهيب فى الوقت المناسب ليتحقق لهم ما يرجونه - إن شاء الله - من الاستجابة والطاعة أما إذا عاند الخصم فما على الداعى إلا أن يبلغ، وما على الرسول إلا البلاغ.

لقد أخذ الله تعالى على اليهود عهوداً كثيرة تتمثل فى الإيمان بالله ورسله وكتبه، والتصديق بهم، ونصرتهم، وأداء واجب العبادة والطاعة لله تعالى، كإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة حتى يفوزوا بالجنة، لكنهم نكثوا هذه العهود، والمواثيق كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾ [المائده: ١٢، ١٣].

وفى الآية التى معنا حديث عن واحد من هذه العهود يتمثل فى الإيمان بنبينا محمد ﷺ وفى الآيات التالية تكملة للحديث عن التصديق بالقرآن الكريم والدعوة إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهو حديث شامل.

وقد جاءت الجملة الشرطية هنا مصدرة بفعل الأمر -أوفوا- ومنتهية بجوابه وهو قوله: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بالفعل المضارع المجزوم، وماضيهما هو الفعل (أوفى) ونلاحظ أن مادة (وفى) -فى اللغة العربية- تتشكل منها ثلاثة أفعال كلها صالحة لمعنى الوفاء بالعهد هى: أوفى، ووفّى -بالتشديد- ووفَى -بالتخفيف- وقد ورد استعمالها فى القرآن الكريم.

فالفعل (أوفى) وقع مضارعه وأمره فى الآية التى بين أيدينا ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]

ووقع الأمر منه كذلك فى آيات أخرى من القرآن الكريم كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]، وقوله عز حكمه: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

كما ورد التعبير بالفعل: (وفّى) فى مواطن أخر كقوله تعالى ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧].

أماالفعل (وفَى) -مخففًا- فلم يأت صريحًا فى القرآن الكريم وإنما أخذ وروده من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١] فقد أتى باسم التفضيل (أوفى) وهو مأخوذ من الثلاثى (وفَى) وكما قال أبو الفتح عثمان بن جنى -أحد علماء فقه اللغة الأجلاء فى القرن الرابع الهجرى- إذا جاءت الصفة فالفعل فى الكف، فمجىء اسم التفضيل (أوفى) يدل دلالة قاطعة على فعله الذى اشتق منه وعلى صحة استعماله.

والعهد -كما نعلم- يضاف إلى كل واحد ممن يتولى طرفيه، والعهد الأول فى الآية الكريمة ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِى﴾ [البقرة: ٤٠] مضاف إلى ضمير الفاعل -وهو الله سبحانه وتعالى- والعهد الثانى فى قوله ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] مضاف إلى المفعول فإن الله تعالى عهد إلى اليهود بالإيمان ووعدهم بالثواب إذا أوفو به.

الأمر الثالث: تحذير اليهود من نقض العهد وقد عبر عنه بقوله سبحانه ﴿وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]

الرَّهَبُ والرَّهْبُ والرَّهبةُ: الخوف مع تحرز ويتضمن الأمر به فى قوله (فارهبون) معنى التهديد والمراد خافونِ فيما تأتون وما تذرون وبخاصة فى نقض العهد.

وقدم الضمير: (إياى) لإفادة التخصيص فذلك يشعر بتخصيصه سبحانه بالخوف منه، والإقبال عليه وعدم الالتفات إلى غيره.

وأصل (فارهبون): فارهبونى بياء بعد النون إلا أنه حذفها للتخفيف ولمناسبة رؤوس الآيات قبلها وبعدها وقوله (إياى) مفعول لفعل محذوف دل عليه ما بعده، ولم يكن (ارهبون) المذكور عاملاً فيه لأنه قد استوفى مفعوله وهو الياء المقدرة، ومن هنا تتجلى دقة التعبير القرآنى، فالعبارة، أمامك: (إياى فارهبون) واحدة لكنها فى الواقع جملتان والتقدير: (وإياى ارهبوا فارهبون) فيكون الأمر بالرهبة متكررًا للمخاطب مرتين، وهذا أكثر إفادة لمعنى التخصيص والتوكيد.

والفاء فى قوله: (فارهبون) جاءت لربط الجملتين المشارإليهما إحداهما بالأخرى.

ومعنى هذا أن نقض عهد الله يُحل بهم الكوارث فإن من أبرموا العهد معه ذو جبروت وسلطان يستطيع الانتقام منهم إن هم أخلفوا أو خرجوا على ما أقروه، واعترفوا به أمام بارئهم وخالقهم.

وفى هذا إنذار لكل من يخلف وعد الله أو يخرج على أوامره ويرتكبُ الجرائم التى تنشر الفساد فى الأرض سواء كان ذلك أمرًا دينياً أو دنيوياً.

١٧ - ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١]

فى هذه الآية الكريمة طلب الحق سبحانه من اليهود الإيمان بالقرآن، والمسارعة إليه، ونهاهم عن الإعراض عن التصديق به وصرف الناس عنه وتضليلهم عما يصدقه فى التوراة فى مقابل أمور دنيوية رخيصة. أما طلب الإيمان بالقرآن الكريم فقد عبر عنه بقوله سبحانه: ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾.

والمراد بما أنزل الله -هنا- القرآن، وبما معهم: التوارة والإنجيل والكتب السماوية السابقة.

ومعنى تصديق القرآن لها: أنه مطابق لما فيها وناطق بمثل ما نطقت به، ففيه الدعوة إلى التوحيد الخالص والأمر بعبادة الله، والعدل بين الناس، والنهى عن المعاصى والفواحش ما ظهر منها وما بطن إلى غير ذلك من الأحكام والأوامر والنواهى الإلهية.

وفى القرآن الكريم كذلك تصديق لما ورد فى الكتب السابقة من أمر النبى محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه والحديث عن أمته كما فى قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح: ٢٩]

ومن الأسرار اللغوية الدقيقة -فى الآية التى معنا- التعبير بقوله تعالى: ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ فقيد المنزَّل -وهو القرآن- بكونه مصدقًا لما معهم من التوراة- لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان فإن إيمانهم بما معهم مما يقتضى الإيمان بما يصدقه قطعًا.

وقال سبحانه﴿ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ فعبَر بالمعية التى هى المصاحبة؛ لأنها تقتضى تكرار المراجعة لما يصاحبهم من التوراة والوقوف على ما فى تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكون

القرآن مصدقًا لها. وتؤخذ االدعوة إلى المسارعة إلى الإيمان بالقرآن من قوله سبحانه: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾، فالمراد هنا: التعريض باليهود لأنهم كانوا أكثر بطئًا إلى الإيمان فكفروا وكذبوا.

ولسائل أن يسأل: لماذا قال: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ ولم يقل: ولا تكفروا به؟ وهل تدل كلمة أول على معناها المعروف؟

فيقال: إن التعبير القرآنى أكثر دلالة وفيه دقة لغوية لا تخفى، فاليهود كانو يعرفون من التوراة والكتب السابقة أمر النبى صلى الله عليه وسلم وكتابه، وكانوا يستفتحون به على المشركين من العرب كما فى قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ [البقرة: ٨٩].

فعلمهم هذا كان يقتضى أن يتسابقوا إلى الإيمان، وهو الأجدر بهم لعلمهم به.

وذكر الأولية هنا أفحش لما فيها من الابتداء بالكفر، أو أن الأولية هنا نسبية أى لا تكونوا أول الكفار من أهل الكتاب، على معنى: لا تبدأوا بالكفر حتى لا تسير ذريتكم عليه فتتحملوا وزركم ووزر من بعدكم من ذريتكم الذين اتبعوكم.

وعلى هذا فالتعبير بقوله ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أبلغ من قولك «ولا تكفروا به» لأن فى التعبير الأخير دلالة على إثم واحد وفى الأول دلالة على فداحة جرمهم فى الكفر وتعدده وما يتحملون من تبعاته الثقال.

وقد يسأل سائل: لم قال: ﴿أول كافر﴾ بالإفراد مع أن الخطاب لجماعة فى قوله: ﴿ولا تكونوا﴾؟

فالجواب: أن «كافر» هنا صفة لموصوف محذوف يدل على معنى الجمع والتقدير: «أول فريق كافر» فصح التعبير بذلك.

وفى النهى عن الإعراض عن القرآن الكريم ومحاولة صرف الناس عنه يعبر المولى عز وجل بقوله: ﴿ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾.

لقد حاول أحبار اليهود ورؤساؤهم التقليل من شأن القرآن وما جاء به من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فشوهوا وغيروا ما ورد فى التوراة مما يدل على صحة القرآن وصدق من نزل عليه وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا يريدون أن تبقى لهم المكانة والرئاسة فى قومهم لقاء ما يقدمونه إليهم من ثمار وأموال، فخشوا أن يضيع منهم ذلك بانضمامهم إلى الدين الإسلامى الحنيف وانضوائهم تحت لواء كتاب الحق القرآن الكريم على حد ما ورد فى قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقره: ٧٩]

والمراد بالشراء: الاستبدال فقد اختاروا الثمن الدنيوى الرخيص وتركوا الإيمان ولذا دخلت الباء على المتروك وهو هنا الآيات وفقًا لما هو معروف فى هذا المجال اللغوى الدقيق، وجاءت عليه آيات كثيرة، كقوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٦] وقوله عز حكمه: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ [البقرة: ٨٦] وقوله سبحانه: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١] وكثيرًا ما يخطئ المتكلم العربى الآن فى إدخال الباء على المتروك فنسمعهم كثيرًا يدخلونها على المأخوذ لا على المتروك كما فى قول بعضهم: استبدلت الهزل بالجد وهم يقصدون ترك الهزل والأخذ بالجد.

ويقولون: لا تستبدل العلم بالجهل ولا تستبدل الذهب بالفضة والصواب، لا تستبدل الجهل بالعلم والفضة بالذهب.

وفى التعبير القرآنى هنا -أيضًا-: ﴿ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا ﴾ -دقة فى الدلالة على حال اليهود وتحذير القرآن من اتجاههم المشين، فقد جعل الثمن الذى من شأنه أن

يكون وسيلة هو المقصود والأصل والهدف المنشود، وجعل «الآيات» التى حقها أن يتنافس فيها المتنافسون وسيلة لا مقصدًا أصليًا، وهذا يدل على انعكاس الأمر عند اليهود واستخفافهم بآيات الله وإعراضهم عنها، ومن التعبير القرآنى نفهم الدلالة على قبح هذا المسلك الخبيث.

وجاء تذييل الآية الكريمة ﴿وَإِيَّاىَ فَاتَّقُون﴾ [البقرة: ٤١] دعوة إلى خوف كل غاش مضلل من عقاب الله وأن يعمل حسابًا للقائه قبل فوات الأوان.

١٨- ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] جاءت هذه الآية مؤكدة لمعنى الآية السابقة عليها فى دعوة اليهود إلى الإيمان بمحمد ﷺ، والقرآن الكريم، وهى تتناول أمرين:

أولهما: نهى اليهود عن تشويه الحقائق الوارد فى التوراة من أوامر الله ونواهيه وإخباره عن محمد ﷺ وكتابه القرآن الكريم.

ثانيهما: نهيهم عن الكفر بالنبى ﷺ وكتابه وصدهم عنه والنَّعى باللائمة عليهم لأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

فالأمر الأول وهو نهيهم عن تشويه حقائق التوراة عبر عنه بقوله سبحانه: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، الفعل المجزوم (لا تلبسوا) مأخوذ من المصدر (اللَّبس) ومادة (لبس) فى اللغة العربية -يأتى فيها مصدران أحدهما (اللبس -بفتح اللام- والثانى (اللُبس -بضمها- وكلمة ثالثة هى (اللِّبس -بكسر اللام)، فاللَّبس -بفتح اللام- مصدر معناه: الخلط، والفعل الماضى منه: لَبَس والمضارع: يلبس تقول: لَبَسْتُ الأمر ألبسُه: إذا مزَجْتَ بينَه بمشكله وحقَّه بباطله، ومنه قوله تعالَى: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، وتقول: -كذلك- التبس الأمر: إذا أشكل.

الُّلبس -بضم اللام- مصدر بمعنى ارتداء الثياب، والماضى منه: لَبس والمضارع: يلبَس تقول: لبسْتُ الثوبَ ألبسه. واللِّبس -بالكسر- اللِّباس وهو مايُلْبس ومنه: لِبسُ الكعبة والَهودج: ما عليهما من اللباس.

وقد فسر بعض العلماء: لا تلبسوا -هنا- من هذا المعنى أى لا تغطوا الحق بالباطل، ولكن الأول أقوى.

وعلى الناطق العربى أن يفرق تفريقاً جيداً بين الألفاظ الثلاثة (اللَّبس واللُّبس واللبس) والأفعال التى تتفرع عنها، فالفرق بينها فرق فى الحركات فقط سواء كان فى المصدر أو الفعل والمعانى متباينة تباينًا شاسعًا.

وقد اختلط الأمر فى لسان المتكلمين العرب الآن فى استعمال الفعلين: لَبَس ولبس ومصدريهما فيضعون أحدهما مكان الآخر، والاقتداء بالقرآن فى هذا واجب فقد استعمل هنا «لا تلبِسوا» من اللَّبس وكذلك قوله تعالى ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الانعام: ٩] وفى مواضع أخر استعمل الفعل (يلبَسُون) من اللُّبس فى مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾[الكهف: ٣١] فما أدق التعبير القرآنى وأحرى أن نحتذيه ونسير على هداه.

والباطل -فى كلام العرب- خلاف الحق ومعناه: الزائل. قال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وبطل الشيء يُبطل بُطلاً وبُطُولاً وبطلاناً: ذهب ضياعًا وخُسرًا، ويقال: ذهب دمُه بطلاً: أى هدرًا، والبطل: الشجاع، سمى بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ إشارة واضحة إلى التغيير والتبديل الذى أحدثه اليهود فى التوراة لإخفاء معالم الرسالة المحمدية حتى لا يدركها من يطلع عليها فيؤمن بها.

الأمر الثانى: وهو نهيهم عن كتمان أمر النبى ﷺ وصدهم عن القرآن الكريم عبر عنه بقوله سبحانه:

﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾: الكتمان، هو الإخفاء والمراد بالحق هنا نبوة محمد ﷺ وصحة القرآن الكريم، فحملة التوراة كانوا يتمنون ويرجون أن يكون الرسول منهم

فلما أدركوا محمداً ﷺ كفروا به وبكتابه وهم يعرفونه، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾. [البقرة: ٩٨]

والفعل (تكتموا) معطوف على (تلبسوا) فهو داخل فى نطاق النهى على معنى: لا تلبسوا ولا تكتموا، وهذا هو الأولى والأرجح.

ويرى بعض اللغويين أن الواو هنا بمعنى (مع) والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة، والمعنى: لا تجمعوا بين اللَّبس والكتمان، وفائدة الجمع: المبالغة فى النَّعى على اليهود وإظهار قبح أفعالهم من كونهم جامعين بين الفعلين اللذين إن انفرد كل منهما عن صاحبه كان قبيحًا، ومع قبح الجمع بينهما فكل منهما منهى عنه على انفراد لما فيه من القبح والشناعة.

ولسائل أن يسأل: لم كرر (الحق) فى قوله ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ [البقرة: ٤٢] ولِمَ يعبر عنه بالضمير قائلاً وتكتموه؟

فالجواب: أن (الحق) الثانى مغاير (للحق) الأول على ما شرحنا فالأول يراد به حقائق التوراة والثانى يراد به نبوة محمد ﷺ وصدق القرآن الكريم.

وقد يراد بالحق فى الموضعين معنى واحد، ويكون التعبير فى الثانى بالظاهر أقوى وأكثر ملاءمة من التعبير بالضمير للتسجيل عليهم بكتمان ما هو حق صراح وهو يدل على شناعة جرمهم الذى ارتكبوه، ولا يقوم الضمير فى هذا مقام الظاهر.

وفى نهاية الآية جاءت الجملة الحالية وهى قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾: فى موقع تعبيرى دامغ لهم ولأمثالهم ممن يعلم الحق وينكره أو يتجنى عليه، فهذا منتهى الجرم الذى يستحقون عليه أقسى العقوبة، فالجاهل قد يعذر أما من يعلم فلا عذر له.

١٩ - ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣]

فى هذه الآية يطالب القرآن الكريم اليهود بأن يلجأوا إلى الإيمان بالدخول فى الإسلام وتصديق نبيه وكتابه، وأن ينضموا إلى المؤمنين بأداء الواجبات المفروضة من

صلاة وزكاة، فإنها الطريق لفتح مغاليق قلوبهم، وتطهير نفوسهم مما علق بها من أدران الكفر والضلالة.

ومع كون هذة الآية مطالبةً أساسيةً لليهود فهى -كذلك- توصيةً لكل الأمم والشعوب بالانضواء تحت لواء الإسلام، واتباع تعاليمه الحميدة، وهى كذلك توجيه للأمة الإسلامية تصريحًا أو تلميحًا لتواصل ميسرتها فى أداء هذه المبادئ والمحافظة عليها.

ففى هذه الآية إيجاب ثلاثة أمور:

الأول: إقام الصلاة.

الثانى: إيتاء الزكاة.

الثالث: الانضمام إلى أهل الإيمان ومشاركتهم فى أداء فريضة الصلاة.

فالأمر الأول: -وهو إقام الصلاة- عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾: فالفعل (أقيموا) فعل أمر يؤدى معانى عدة تفهم على أساس الاشتقاق، وكلها مجتمعة تؤدى المعنى المقصود باعتبارها كلاً لا يتجزأ.

ففى معاجم اللغة: (أقام العود) إذا قومهُ وعدله، ويقال: قامت السوق إذا نفقت، وأقمتها: جعلتها نافقة، ويقال: قام بالأمر، وأقامه إذا جد فيه واجتهد

ويقال أيضا: قام من القيام، وكل هذه الأفعال ومصادرها الأصلية تصلح أساسًا لاشتقاق الفعل (أقيموا) منه.

فإذا نظرنا إلى تقويم العود وتعديله فهمنا من(أقيمو الصلاة) أن المطلوب تعديل أركانها، وحفظها من أن يقع فى شىء من فرائضها وسننها وآدابها خلل.

وإذا نظرنا إلى (قامت السوق): إذا نفقت، فهمنا أن المطلوب المواظبة على الصلاة، فالصلاة إذا حوفظ عليها كانت كالسلعة النافقة التى يرغب فيها.

وإذا نظرنا إلى (قام بالأمر أو أقامه) إذا جد فيه واجتهد فالمطلوب التشمير لأداء الصلاة من غير فتور ولا توان.

وإذا نظرنا إلى القيام فالمطلوب أداء الصلاة والاستعداد لها دون إهمال أو تقصير.

وعلى هذا فالمعانى المفهومة من أصل الاشتقاق كلها مطلوبة لهذه العبادة الأساسية فى الإسلام وهى أداؤها مع المواظبة عليها والتشمير لها، وإكمال أركانها، والبعد بها عن أن يقع فيها خلل أو نقص.

وبهذا فإن الاشتقاق اللغوى يؤدى بنا إلى فهم ما يرمى إليه القرآن الكريم من المعانى الكثيرة فى اللفظ الموجز القليل (أقيموا) وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

والأمر الثانى هو: إيتاء الزكاة، وقد عبر عنه المولى سبحانه بقوله: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وتعال معى -أيها القارئ الكريم- لنكشف معًا ما وراء هذا التعبير من أسرار الاشتقاق اللغوى وصلته بالمعنى الذى يهدف إليه القرآن الكريم.

الفعل (آتوا) فعل أمر معناه: أعطوا وماضيه (آتى) بمعنى أعطى، قال تعالى: ﴿لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة: ٧٥] أى: لئن أعطانا، والفعل المضارع منه هو: (يؤتى) كما فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الحديد: ٢١] وقوله عز وجل حكمه: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] والأمر للمفرد هو: آت.

والمادة اللغوية يصاغ منها فعل آخر بمعنى المجىء هو «أتى» بمعنى جاء والمضارع منه إذا كان للمتكلم هو (آتى) بمعنى: أجىء كقولك مثلاً: (آتيك إن شاء الله تعالى).

وترى -أيها القارىء الكريم -أن عندنا فعلين هما: (آتى) و (آتى) والفرق بينهما هو فتح التاء فى الأول، وكسرها فى الثانى، وبهذه الحركة التى اختلفت اختلفَ الفعلان، فالفعل (آتى) -بفتح التاء- فعل ماض بمعنى أعطى، ومصدره الإيتاء، والفعل (آتى) -بكسر التاء- فعل مضارع بمعنى أجىء ومصدره الإتيان بمعنى المجىء.

وهنا ندرك دقة اللغة العربية التى تفرق بالحركة بين نوعى الفعلين، وما أبرع اللغة التى تستخدم الحركات فى التفريق بين المعانى، ولاعجب فى ذلك فاللغة العربية من أرقى اللغات بيانًا إن لم تكن أرقاها على الإطلاق، والقرآن الكريم يعبر عن ذلك أصدق تعبير.

والزكاة ترجع فى اشتقاقها إلى كلٍّ من الفعلين (زكا) و(زكَّى) ويتطلب الكشف عن المعنى الذى قصد إليه الشارع الحكيم معرفة اشتقاقها إذ يكشف عن المراد من اللفظ القرآنى كشفًا دقيقًا ويجليه جلاء يبين شموله واتساعه.

فالفعل (زكا) ورد بمعنى النماء والزيادة، يقال: زكا الشىء زكاء إذا نما وزاد فتقول: زكا الزرع والمال يزكو: إذا كثر وزاد، وزرع زاك إذا كان واضح الزكاء أى النمو، وزكا الفرد إذا صار زوجًا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعًا.

والفعل (زكا) -أيضا- يرد بمعنى (طهر)، يقال: زكا فلان: إذا طهر من الدنس.

والفعل المضعف (زكَّى) من معانيه، الثناء الجميل، يقال: زكى القاضى الشاهد: إذا أثنى عليه.

وبهذا ترى -أيها القارئ الكريم- أن الزكاة الشرعية للمال تتحقق فيها كل هذه المعانى التى ينضم بعضها الى بعض فى إطار إسلامى دقيق.

ففى الزكاة معنى الزيادة والنماء - آخذاً من معنى الفعل (زكا) بمعنى نما وزاد.

ولسائلٍ أن يسأل: كيف يسمى إخراج جزء من المال زكاة وهو نقص؟

فالجواب: أن هذا المعنى الذى يدل على الزيادة والنمو ملحوظ فى الزكاة الشرعية للمال، فإذا كانت من حيث الظاهر نقصًا فى المال فهى فى الحقيقة زيادة ونماء له، فالمال المزكى منه ينمو بالبركة وبالأجر الذى يثاب به المزكى.

وفى الزكاة معنى الطهر من الأرجاس.

ولسائل أن يسأل: كيف يرتبط إخراج الزكاة بمعنى الطهر؟

فالجواب: أن الجزء الخارج من المال بالزكاة يطهر المال وصاحبه من تبعة الحق الذى جعله الله فيه للمساكين، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وفى الزكاة تحقيق الثناء الجميل لفاعلها، فلا ريب أن من يخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل من الله والناس.

والأمر الثالث: هو مطالبة اليهود وغيرهم من الناس -بالانضمام إلى أهل الإيمان، ومشاركتهم فى أداء فريضة الصلاة، وقد عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]

الركوع فى اللغة: الانحاء، وكل منحن راكع قال لبيد:

أخبر أخبار القرون التى مضت   أدبُّ كأنى كلما قمت راكع

وقيل: الانحناء يعم الركوع والسجود، وبعض العرب يطلقون على الركعة سجدة.

لكن القرآن الكريم يفرق بين الركوع والسجود كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]

ويستعمل الركوع للانحطاط فى المنزلة مجازًا كما قال الشاعر:

ولا تعاد الضعيف علك أن   تركع يومًا والدهر قد رفعه

والركوع الشرعى: أن يحنى الرجل صلبه ويمد ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعًا ويقول سبحان ربى العظيم ثلاثًا، وذلك أدناه.

والمراد بالركوع هنا فى الآية: الصلاة كاملة أى صلوا الصلاة ذات الركوع فى جماعة.

ولفظ (مع) فى قوله تعالى ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ يدل على المعية والجمعية.

ولسائل أن يسأل : هل يعد الأمر بالركوع تكرارا فى قوله : ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ مع قوله سبحانه قبل ذلك ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾؟

فنقول -وبالله التوفيق- لا يعد هذا تكراراً بل تأسيسًا لمعنى جديد، لأن قوله ﴿ ارْكَعُوا ﴾ قد اقترن بمعنى الجمعية فى قوله جل وعز ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾، وهو يرشد إلى طلب الانضمام إلى الجماعة المؤمنة، وإلى صلاة الجماعة التى تفوق صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة كما بينت ذلك السنة الشريفة.

●●●

الفصل الثاني

كثرة المعانى وجدتها وطرافتها فى المشترك اللفظى فى القرآن الكريم

مادة (خلف):

يستعمل منها الفعل مجردًا ومزيدًا.

فيقال: خلف الرجل يخلفه: جاء بعده، وقام بالأمر بعده، فمن الأول قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الاعراف: ٦٩] قال ذلك هود لقومه عاد فقد خلفوا قوم نوح فى الأرض وصاروا ملوكًا مستخلفين فيها بعدهم.

ومن الثانى قوله سبحانه: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] أى نائبًا عن الله تعالى فى تنفيذ أحكامه وعمارة الكون.

والخالفة هو الذى يقعد عن القتال فلا يشارك فيه كقوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبه: ٨٣] وكان أن تخلف المنافقون عن الاشتراك فى غزوة تبوك ووعدوا أن يشاركوا فى غزوات أخرى بعدها كذبًا ونفاقًا مع اختيارهم القعود ففضحهم الحق سبحانه وكشف أمرهم.

ويقال: خُلِّف: أى حدث ما دعاه إلى التأخّر عن الأمر كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة: ١١٨] أى حدث ما دعاهم إلى التأخر وعدم الخروج للجهاد مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك التى وقعت فى رجب سنة تسع وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ولم يكونوا من المنافقين وقد عاقبهم الرسول والمؤمنون على تخلفهم بمقاطعتهم وعدم كلامهم ولما سئلوا عن سبب

التخلف لم يكذبوا بل صدقوا الله ورسوله وبعد خمسين ليلة من المقاطعة تاب الله عليهم لصدقهم و توبتهم التي قبلها منهم الله تعالى فقال سبحانه : ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبه : ١١٩].

●●●

مادة (عرج)

ما هو منها بفتح الراء يستعمل فى معنى الصعود و الارتفاع يقال: عرَج عروجًا فهو عريج: ارتفع وعلا ومنه قولهم، عرج - كنصر - عروجًا وعرجانًا: مشى صاعدًا كالصاعد فى درجه وقد جاء عليه قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ: ٢] أى يصعد، وكذلك قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤] أى أن الملائكة تصعد إلى عرشه وحيث تهبط منه أوامره فى يوم تقدر مدته بخمسين ألف سنة من السنين التى يعدها الناس. وكذلك قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥] فالأمور تدبر- عند الله- ويصعد جبريل وينزل بالوحى قاطعًا المسافة فى هذه المدة الزمنية ذهابًا وإيابًا بسرعته التى تستغرق فى الجولة الواحدة خمسمائة عام فيما يعد الناس أو أن هذا تعبير عن طول يوم القيامة والله أعلم.

والمعرج-كمقعد ومعطف- المصعد والمعراج: السلم والمعارج و المعاريج: المصاعد والسلالم.

وبالمعراج سميت رحلة المصطفى ﷺ وصعود من بيت المقدس إلى السموات العلى حيث نصب له المعراج وهو مرقاة كسلم صعد فيها وطوى الزمن، أو وقف الزمان حتى أتم رحلته إلى ما فوق السموات ورأى رب العزة جل وعلا ولما سئل ﷺ: كيف رأيت ربك؟ قال: رأيت نورًا، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٣] فالمعارج هى المصاعد إلى الأعالى وعليها يظهرون السطوح أى يعلونها ويصلون إليها وجعل بيوت الكافرين على هذا النحو استدراجًا لهم وتعمية على ما سينالهم من العقاب على كفرهم فى الآخرة، أما جزاء المؤمنين العاملين فهو النعيم الدائم الباقى.

مادة (رأى)

يستعمل الفعل (رأى) للرؤية البصرية-بالعين-كما يستعمل بمعنى ظن أو علم ويستعمل للرؤيا المنامية.

فمن الأول: الرؤية البصرية قوله تعالى عن إبراهيم -عليه السلام- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] ورؤية الله تعالى- البصرية-امتنعت على موسى عليه السلام حين طلبها ﴿قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]

وقد اختص نبى البشرية محمد ﷺ برؤية الله تعالى ليلة المعراج و فسر عليه قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٩-١٠].

كما رأى النبى ﷺ جبريل- عليه السلام- على صورته الحقيقية و لم يتيسر ذلك لغيره ﷺ من الأنبياء، وقيل إنه رآه مرتين: إحداهما فى الهواء حيث سد الأفق والثانية ليلة المعراج فى الجنة ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٨].

ومن استعمال (رأى) بمعنى (ظن) و(علم) قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧] فهم يظنون أن القيامة غير واقعة ونحن نعلم قرب ميعادها.

ومن استعمال (رأى) فى الرؤيا المنامية ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] وقد تستعمل (الرؤيا) للرؤية البصرية كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] قيل إن الآية تشير

إلى رؤية النبى ﷺ ربه ليلة المعراج فقد كانت مثار جدل وشك من المشركين ومجال صدق من المؤمنين.

ويستعمل أرأيت بمعنى أخبرنى كما فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ [الأنعام: ٤٦] إلى غير ذلك من المعانى التى تؤديها هذه المادة اللغوية.

●●●

مادة (سرو-سرى-سُرى)

جاءت هذه المادة منتهية بالواو أو الياء على أنها لام الكلمة فيقال: سَرُوَ يَسْرُو، وَسرا يسْرُو وسرَى يسْرَى، ككرُم ودعا ورضى سَرَاوَةً وسرْوًا وسرًا وسراءً فهو سريّ.

كما جاء: سَرى يسرْى -مجردًا-وأسرى يُسرى مزيدًا وورد للمجرد والمزيد معان لغوية استعملت في بعض آيات القرآن الكريم.

فاستعمل الفعل سرُو يسرُو، وسرَا يسرُو، وسرىَ يسْرَى لمعنى الشرف والسيادة واستعمل منه السَّرىّ بمعنى السيد الشريف، ويستعمل - أيضًا- السَّرى بمعنى الجدول أو النهر الصغير، وجاء على ذلك قوله تعالى لمريم: ﴿ **فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا** ﴾ [مريم: ٢٤-٢٥] فقد جعل الله تعالى تحتها السيد الشريف وهو الوليد عيسى- عليه السلام- أو جعل تحتها ماء يجرى فى جدول لتشرب منه، ويسر لها الحصول على الرطب طعامًا لها.

واستعمل الفعل: سَرى يسرى بمعنى مضى وانقضى وعليه قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** ﴾ [الفجر: ٤] أى إذا يمضى و يذهب كقوله ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ** ﴾ [المدثر: ٣٣] فيطلع النهار.

ويستعمل: سرَى يسْرى سُرًى و أسرى إسراء بمعنى: سار ليلاً كقوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الإسراء: ١]

كانت المعجزة الإلهية بركوب النبى ﷺ البراق من مكة إلى بيت المقدس- فى جُزْءٍ من الليل- بعد صلاة العشاء وعرج به إلى السماء من المسجد الأقصى وعاد فى نفس

الليلة والمسافة من مكة إلى بيت المقدس يقطعها المسافرون بالراحلة فى أربعين ليلة وإنما تيسرت الرحلة له ﷺ بقدرة الله تعالى و أحيا الله تعالى له الأنبياء فصلى بهم إمامًا فى المسجد الأقصى، ورحبوا به فى السماء وهذه هى معجزة الإسراء التى تحدث عنها القرآن الكريم ولم يذكر المعراج فى هذه السورة التى منها هذه الآية الكريمة وهى سورة الإسراء.

●●●

مادة (فتح وتصرفاتها)

الفتح : يستعمل- فى اللغة- للفتح الحسى الذى يراد به إزالة الإغلاق- مثل فتح الباب والمظروف ونحوه، ويستعمل للفتح المعنوى الذى يدرك بالبصيرة لا بالبصر منه النصر فى الحرب. وفتح المستغلق من أبواب العلم والمعرفة والفتح : الظفر بالبلد عنوةً أو صلحًا بحرب أو بغير حرب لأنه مُنغلق ما لم يظْفر به فإذا ظفر به و حصل فى اليد فقد فتح وقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا** ﴾ [الفتح : ١-٣] و هو يشير فى الراجح من أقوال المفسرين إلى فتح مكة ليحقق للرسول ﷺ أربعة أمور : المغفرة و إتمام النعمة والهداية للإسلام والنصر العزيز، وقيل غير ذلك. فاستعمل الفتح بمعنى النصر ومثلها قوله تعالى- بعد ذلك- ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح :١٨] وكان ذلك يوم الحديبية - وهى بيعة الرضوان- والفتح القريب هو فتح خيبرالذى تم للمسلمين بعد قفولهم من الحديبية. وقال عنه-أيضًا- ﴿ **فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾[الفتح : ٢٧]وهو فتح خيبر لتستروح به قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر فتح مكة الموعود والفتح بمعنى النصر أيضًا.

وكذلك قوله تعالى : ردًا على المنافقين الموالين للمخالفين فى الدين من أهل الكتاب ﴿ **فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ** ﴾ [المائده : ٥٢] فسينصر الله رسوله ويظهره على أهل الكتاب وساعتها يندم المنافقون على موالاتهم وسوء ظنهم وفضْح أمرهم.

ومثله قوله تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ** ﴾ [السجده : ٢٨-٢٩] فالمراد بالفتح يوم

القيامة لأنه يوم نصر المؤمنين على أهل الأذى من المشركين وغيرهم فى الدنيا وكانوا يستعجلون به فإذا أتاهم فآمنوا لم ينفعهم إيمان وإذا طلبوا المهلة لم يمهلوا، وقيل : المراد فتح مكة أو نصر بدر ومن مات منهم على الكفر لم يستطع أن يؤمن ومن آمن عند القتل لم ينفعه إيمانه كما لم ينفع فرعون إيمانه عند الغرق.

ويقال : استفتحوا : طلبوا الفتح - وهو النصر - كما فعل ذلك كفار مكة يوم بدر فقد قالوا : اللهم انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعانى فانتصر المسلمون كما قال تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال : ١٩] وقال تعالى عن نصر رسله ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ابراهيم : ١٥] بمعنى : طلبوا النصر من الله تعالى على أعدائهم فنصرهم وهزم أعداءهم الجبارين المعاندين من أقوامهم أو أن الكفار طلبوا النصر فهزمهم الله ونصر رسله. وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة : ٨٩] أى يستنصرون على المشركين بالنبى الذى سيبعث فلما بعث كذبوه فلعنهم الله.

●●●

مادة (نصر) وتصرفاتها

يأتى منها الماضى والمضارع والأمر و المصدرو المصدر المجرد والمزيد وتؤدى معانى متعددة منها:

أن يأتى الفعل الثلاثى المجرد نصر وتصرفاته متعديًا بنفسه فيقال فى اللغة (نصره ينصره نصرًا)، أعانه وأيده كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الصافات: ١١٦] ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح: ٣]﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وقوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون: ٢٦] ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٣].

ويقال: نصر المؤمن الله سبحانه: أيد دينه وشريعته- على سبيل المجاز- كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] أى أنه يعين من يتبع دينه ويؤيد شريعته ويقال: نصر الكفار آلهتهم: دفعوا عنها الأذى كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨] ويتعدى هذا الفعل على عدوه بمعنى أعانه و أيده-أيضًا- كقوله تعالى: ﴿ وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقره: ٢٥٠].

ويتعدى بـ(من) فيقال: نصره من عدوه: نجاه وأنقذه منه كقوله تعالى عن نوح: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٧] وكقوله سبحانه عنه أيضًا ﴿ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٣٠] أى يمنعنى من نزول عذابه بى إن أطعتكم.

وفى مزيد الثلاثى يقال: انتصر ممن ظلمه: أخذ منه حقه، وانتصر من عدوه: انتقم منه ويقال: انتصر: امتنع أن يمسه ضر يراد به فمن الأول قوله تعالى: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: ٤١] ومن الثانى ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ [محمد: ٤] أى انتقم، ومن الثالث قوله عز حكمه ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٥] فيوم القيامة لا يستطيع أحد أن يمتنع جنيًا كان أو إنسياً عن نزول أهوال القيامة وأحداثها الجسام حين تقع وليس هناك ملاذ أو مفر مما ينزل المخلوقات.

ومن المزيد: استنصره: أى طلب منه النصر والعون لأن الهمزة والسين والتاء للطلب ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ [الأنفال: ٧٢] فمن طلب معاونته على حفظ دينه وعدم العدوان عليه فعلى المؤمن مناصرته و الدفاع عنه وتأييده.

●●●

مادة (شهد) وتصرفاتها

تأتى مادة (شهد) و تصرفاتها فى القرآن الكريم- كما ورد فى اللغة- بمعنى الحضور للشىء أو العلم به، ومن ذلك- فى عقاب الزانية والزانى- ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢] بمعنى ليحضر ويطلع على ما أنزل بهم من العقوبة زاجراً لغيرهم، وقوله تعالى: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٨] أى ليحضروا فى الأماكن المقدسة لأداء الشعائر حين يأتون من كل فج عميق.

ومن ذلك يقال: الشهيد وهو الذى يقتل مجاهداً فى سبيل الله لأن الملائكة تشهده أى تحضره أو لأنه يشهد ما أعده الله له.

ومما جاء من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] قيل المراد بالشهداء- هنا- الذين بذلوا أنفسهم فى سبيل الله بالجهاد والدفاع عن الدين والأوطان، وفسر بعضهم الشهداء هنا بالعلماء العارفين بالأدلة والبراهين على وجود الله تعالى وتوحيده، وكذلك جاء قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٩] فالمراد بالشهداء- فى الآية-المجاهدون الذين تصدوا للدفاع عن عقيدتهم ومقدراتهم فقتلوا فى المعارك والحروب ونحوها فالذين يعتنقون الإيمان بالله وحده ويصدقون بكل رسل الله هم- عند الله- كالصديقين ومن بذلوا أرواحهم فى سبيل الله أجراً وثواباً.

وتأتى مادة شهد بمعنى قيام الأدلة والبراهين القولية وغيرها على صحة أمر من الأمور كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت: ٢١] لم نطقت بالأدلة على ما فعلوا، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ﴾ [آل عمران:

٨٦] دلت الدلائل قولاً أو غيره على إرساله ونبوته كما نطقوا بذلك وكذلك قوله سبحانه ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء : ١٦٦] فقد أقام البرهان والدلائل القاطعة على صحة الوحي ونطق بذلك الملائكة والرسول ﷺ شاهد : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ [الأحزاب : ٤٥] وشهد كذلك : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة : ١٤٣] فالأمة الإسلامية تشهد على الأمم بالقول والبرهان لمن آمنوا وعملوا الصالحات ، والرسول ﷺ يقر بالقول والبراهين على صحة إيمان المؤمنين الصالحين من أمته .

●●●

مادة (أيد)

يقال في اللغة: آد يئيد أيْداً: اشتد وقوى ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] فالسموات قد بنيت بقدرة الخالق القادر سبحانه وتعالى ولا يقدر على مثلها إلا الله تعالى وحده.

ويقال: فلان أيْد، وذو أيد وذو آد أى قوة وإياد كل شيء: ما يتقوّى به، ومنه قوله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] فهو يطلب من النبي ﷺ أن يصبر على أذى المشركين وأن يتحمل مشقاته التى تحل به وبأتباعه مؤتسيًا بداود الذى كان يتحمل أعباءً جسامًا للنبوة والملك وكان قويًا فى الدين لدرجة أنه كان يصوم يومًا ويفطر يومًا ويقوم نصف الليل ويكثر من الاسترجاع والتوبة إلى الله تعالى.

ويأتى الفعل: (أيّد) مزيدًا بالتضعيف ليدل على قوة أكثر فى المعنى المراد، يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] فيذكر المسلمين بضعفهم وتقوية الله تعالى لهم ومعاونته وذلك بأمرهم بالهجرة ونصرهم يوم بدر إلى غير ذلك مما أغناهم بالرزق الوفير وكذلك يقول له سبحانه: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢] فقد قواه وعاونه بأن جعل المسلمين يكثرون ويلتفون حوله إلى جانب نصره على المشركين فى معاركهم الحربية وقوى ذلك -أيضًا- بتعاون الأوس والخزرج على البر والتقوى بعد دخولهم فى الإسلام.

وقال عنه ﷺ وهو فى الغار ليلة الهجرة ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾ [التوبه : ٤٠] فشد أزره وقواه بجنود الملائكة التى التفت حول الغار و رافقته فى رحلته إلى المدينة.

وقال تعالى لعيسى بن مريم - عليه السلام - : ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴾ [المائده : ١١٠] فقواه بجبريل وثبته بالحجة على قيامه بالدعوة إلى عبادة الله وأعطاه القدرة على كلام الناس فى المهد وعلمه الكتاب والحكمة وأعطاه المعجزات الدالة على نبوته ؛ ومثله قوله تعالى فى تأييد حواريى عيسى - عليه السلام - ﴿ **فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴾ [الصف : ١٤] أى غالبين لهم ومنتصرين عليهم، وفى تأيد المؤمنين الذين لا يوالون المشركين ﴿ **أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ** ﴾ [المجادله : ٢٢] أى أثبت الإيمان فى قلوبهم وقوى إيمانهم لأن الإيمان حياة للقلوب وللنفوس، وأمدهم بقوة من عنده سبحانه وتعالى.

●●●

(أمر) وتصرفاتها

يرد الفعل من هذه المادة مجردًا ومزيدًا وله استعمالات لغوية ودلالات متعددة.

يقال في اللغه: أمره يأمره أمرًا إذا طلب منه فعل شيء وإتيانه وهو ضد نهى.

ومن استعمال الفعل (أمر) قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

ويأتي منه المضارع: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقره: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقره: ٦٧]

ومن استعمال فعل الأمر قوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]

ومصدره (الأمر) ويستعمل لطلب الفعل أو لمعنى المأمور به أو الفعل والعمل في قوله تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] بمعنى طلب الفعل وقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي قضى المأمور به والأمر بمعنى الشأن.

ومن المزيد: ائتمر القوم: إذا أمر بعضهم بعضًا أو تشاوروا كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] بمعنى أن بعضهم يطلب من البعض الآخر ويتشاورون في أمر قتل موسى- عليه السلام- وقوله تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦] أي ليطلب بعضكم من بعض عمل الخير.

والإمر: هو الشيء المنكر الخطير أو العظيم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١] أى شيئًا خطيرًا منكرًا بخرق السفينة فذلك يؤدى إلى غرقها بمن فيها.

●●●

(أم) ومعانيها

يقال: أممت الشيء أؤمه: قصدته واتجهت إليه ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٤] أى قاصدين.

ويقال: أممت القوم: تقدمتهم وصرت إماماً لهم كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقره: ١٢٤] أى مقتدى به ويطلق الإمام على من يقتدى بقوله أوفعله حقًا أو باطلاً ويسمى الكتاب إمامًا لأنه يقتدى بما فيه من مبادئ وأحكام.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أى بمن كانوا يأتمون بهم من الأنبياء أو غيرهم كأن ينادى أين أتباع محمد؟ أو أين أتباع ابراهيم ونحو ذلك أو ينادون بالكتاب المنزل عليهم كأن يقال: يا أهل القرآن أو يا أهل الإنجيل مثلاً.

وأم الإنسان هى الوالدة وتطلق على المرضعة التى لم تلد الغلام الرضيع كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢].

ومن إطلاقها على الكتاب قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]و إذا ضم شيء إلى آخر سمى الأصل أماً وكل مدينه تعد أما لما حولها من القرى ولذلك سميت مكة أم القرى كقوله تعالى ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

والأمة: الجماعة من الناس كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وتأتي بمعنى الحين كقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [هود: ٨] وبمعنى الدين مثل: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٢٢] وبمعنى القدوة الحسنة مثل ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٠].

●●●

(أمن) واستعمالاتها

هذه المادة يعود معناها إلى الاطمئنان والثقة.

منها:

أمن أمنًا وأمَنَة. زال عنه الخوف فاطمأن كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] وقوله سبحانه: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧] ومثله المزيد آمن ويقال- فى اللغة- آمن صاحبه وأمنه على ماله وبماله: وثق به ومصدره الأمانة ضد الخيانة كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وقال سبحانه﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾[الأنفال: ٢٧].

والأمين هو الثقة المؤتمن كقوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨] وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] ويطلق الأمين بمعنى الآمن أو المأمون كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ٣] أى البلد الذى يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه، أو أن أهله آمنون أو هو بلد مأمون لا خوف فيه، والبلد الأمين- فى الآية-مكة.

ويقال: آمن يؤمن إيمانًا: أذعن وصدق والإيمان هو الإذعان والتصديق كقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١] وكقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] والمأمن: مكان الأمن كقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[التوبه: ٦].

(أنس) وتصرفاتها

يقال فى اللغة : أنس- كفرح وكرم أُنُسًا وكضرب أنسًا أى زالت عنه الوحشة ووجد ما يطمئنه، ويقال أنس به وإليه : ألفه.

واستأنس به و إليه وجاء من المزيد قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النور : ٢٧] فالذى يطرق باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا فيخفى عليه الحال فيستوحش فإذا ما أذن له استأنس.

أو يكون الاستئناس- هنا- بمعنى الاستعلام والاستكشاف فهو يستعلم عن الإذن وعدمه.

ويأتى بمعنى الألفة وحب الاجتماع واللقاء كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] فمن كانوا يدعون إلى الطعام فى بيت النبى ﷺ كان بعضهم يحب البقاء بعد تناول الطعام وحب الحديث بعضهم إلى بعض ألفة ومودة واجتماعًا فنهوا عن ذلك.

ويقال : آنس الشيء يؤنسه، أدركه وأحسه ببصره أو علمه ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ [القصص : ٢٩] والمعنى أنه أحس وأبصر نارًا من بعيد ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ [طه : ١٠] أى أحسست و أبصرت نارًا.

ومن معنى الإدراك والعلم قوله تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء : ٦] فإذا أدركتم وعلمتم بلوغ اليتيم سن الرشد فلا بأس أن تعطوه ماله ليتصرف فيه بمقتضى بلوغه سن الإدراك وحسن التصرف فى المال، فهم أحق بأموالهم رعاية لها وانتفاعًا بها.

(البهتان)

يستعمل للباطل الشنيع والقول الكذب الذى يبهت ويحير .

فمن المعنى الأول : الباطل الشنيع جاء قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ٢٠] أى إن أخذتم شيئًا من المهر أو حق المرأة فهذا عمل باطل وظلم و تبهتون به الزوجة وتحيرونها وكذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنه : ١٢] هذه الآية فى بيعة النساء يوم فتح مكة والمراد بالبهتان الذى يأتينه أن المرأة كانت تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدى منك كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذبًا لأن بطنها الذى تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذى تلده به بين الرجلين .

ومن المعنى الثانى : القول الكذب الشنيع قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٦] فهذا فى النهى عن حديث الإفك ورمى السيدة عائشة الطاهرة النقية بالفجور وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له ما وراءك فيحدثه بحديث الإفك حتى شاع وانتشر وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١١٢] ذلك فى حادث سرقة طعمة بن أبيرق درعًا واتهامه زيد بن السمين اليهودى به وتبرئة الله تعالى لليهودى من هذا القول الكاذب الشنيع .

●●●

(بغى)

يرد فى معنى ظلم الغير والعدوان على حقه وتطاوله عليه وبمعنى ظلم الإنسان نفسه وكبره وفساده وبمعنى طلب الشراء وورد يبتغى بمعنى يطلب وانبغى صلح له أن يفعل ولا ينبغى لا يصلح ولا يجوز وانبغى بمعنى تيسر وسهل فمن المعنى الأول ظلم الغير جاء قوله سبحانه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧] وقوله: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

ومن المعنى الثانى: الكبر وظلم النفس والفساد جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣] أى كبركم وظلمكم وفسادكم وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أى بسبب كبرهم وظلمهم وفسادهم ومن المعنى الثالث: طلب جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف: ٦٤] أى ما كنا نطلب وورد بمعنى الظلم والطلب قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥] أى ما نكذب وما نظلم أحدًا أو ما نطلب لأنفسنا شيئًا.

ومما ورد فيه ابتغى بمعنى طلب قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧] أى طلب وسعى وقوله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] أى أن تتاجروا وتطلبوا الربح. ومن استعمال انبغى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢] أى لا يجوز ولا يصلح ومن معنى تيسير الشئ قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠] أى لا يتيسر ويستعمل بغى بمعنى فجر قوله سبحانه: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

(تلا)

يأتى بمعنى تبع وبمعنى قرأ.

يقال: تلا فلانًا يتلوه إذا تبعه ومن هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ [الشمس: ١-٢] أى أن القمر تبع الشمس وجاء بعدها.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧] محمد ﷺ على بصيرة من ربه ويتبعه ويؤازره على هدايته شاهد من الله تعالى أو من القرآن الذى نزل عليه أو من نفسه وهذا يجعله لا بستوى مع من ليس معه ذلك.

والتالى: تلا الكتاب يتلوه تلاوة: قرأه ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[البقره: ٤٤] وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] وقال عز حكمه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] وقوله جل شأنه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

وجاء قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة: ١٠١] محتملاً للمعنيين فيصح أن يفسر (تتلو) بمعنى تتبع فيكون المعنى: واتبعوا ما تبعه الشياطين فى عهد ملك سليمان ويصح أن يفسر (تتلو) بمعنى تقرأ فى عهد سليمان.

●●●

(البِر)

جاءت هذه الكلمة البِر بكسر الباء بمعان كثيرة تبعًا لسياقاتها المتعددة بما يثرى المعانى القرآنية وذلك من إعجاز القرآن الكريم وبلاغته.

البر صله الرحم وإحسان المعاملة للأرحام وغيرهم من الناس، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢٢٤] فهذا نهى عن الحلف، الذى يجعل حاجزًا ومانعًا من صلة الرحم وحسن المعاملة والتقوى والصلاح، وكان أبو بكر الصديق قد حلف ألا ينفق على مسطح ابن خالته، وكان من الفقراء المهاجرين؛ لما وقع فى حديث الإفك، فنهاه المولى سبحانه عن منع الإنفاق عليه بالحلف؛ لأن هذا يقطع صلة الرحم ويمنع التقوى.

ويجوز أن يكون المعنى يتعلق بالنهى عن كثرة الحلف بالله تعالى؛ لتكونوا بارين متقين، وقال تعالى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨]، وقال تعالى: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٣٢].

والبر: كلمة جامعة لكل صفات الخير كما قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢].

●●●

(البَر)

يأتى البَر -بفتح الباء- اسمًا من أسماء الله تعالى، والبَر الكثير الطاعة، والبَر ضد البحر.

فبالمعنى الأول- وهو استعماله اسمًا من أسماء الله تعالى جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

واستعمل للكثير الطاعة وجمع على أبرار فى قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وفى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الأنفطار: ١٣] والبار من يصدر عنه البر والطاعة ومنه قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٧-١٩] هى صحف الشريعة التى شرعها الله تعالى لخلقه وهى صحف منتسخة من اللوح المحفوظ مكرمة عند الله تعالى مرفوعة فى السماء ومرفوعة القدر (مطهرة) على معنى أنها منزهة عن أيدى الشياطين لا تمسها إلا أيدى الملائكة المطهرين وهم (سفرة) الكتبة الذين ينتسخون الكتب من اللوح وهم (بررة) أتقياء وقيل هى فى صحف الأنبياء وهى الصحف الأولى وقيل السفرة هم القراء.

والبَر اليابسة وهو مقابل البحر كما فى قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦].

●●●

(أجل)

يستعمل الأجل للدلالة على غاية الوقت والمراد وقت الحياة ووقت الدَّين ووقت العمل وأى وقت يحدد لأى شيء.

وقد يطلق الأجل على نفس الوقت الذى له أجل ويقال: أجَّل الشيء تأجيلاً: حدد له أجلاً ففى وقت الحياة يقول تعالى: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقال سبحانه: ﴿ **مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** ﴾ [الحج: ٥] ووقت الدين كما قال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ** ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقال سبحانه: ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا** ﴾ [القصص: ٢٩] فقد قضى الوقت المحدد بين موسى عليه السلام وشعيب ويراد به نفس الوقت الذى له أجل وقد قال سبحانه: ﴿ **أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ** ﴾ [القصص: ٢٨]ويستعمل (الأجْل) للتعليل والسببية وذلك قوله تعالى: ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة: ٣٢].

●●●

(أدّى)

يقال أدى الأمانة ونحوها تأدية أوصلها جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

وتأتى بمعنى الإرسال مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٧ : ١٨] فموسى عليه السلام- طلب من فرعون وقومه أن يرسلوا بنى إسرائيل معه ليخرج بهم ويخلصهم من عذاب فرعون وقومه لهم.

ويجوز أن يكون المراد معنى آخر هو عمل الواجبات الدينية من الإيمان بالله تعالى وقبول دعوة موسى- عليه السلام-واتباع سبيله فهو رسول أمين غير متهم فيما جاء به عن الله عز وجل.

الأداء بمعنى إعطاء الحق كاملاً كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

●●●

(بسط)

البسط: التوسعة والبسط النشر والبسط مد اليد للبذل والعطاء ومدها طلبًا لشيء ويستعمل للبطش والقسوة.

فمن المعنى الأول قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] أي يوسع ويضيق على من يشاء بما تقتضيه حكمته.

ومن المعنى الثاني: النشر جاء قوله عز حكمه: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٧] أي ينشره ويفرقه.

ومن المعنى الثالث: مد اليد للبذل والعطاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ومن المعنى الرابع: مد اليد طلبًا للشيء قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد: ١٤] فهو يمد يده ويطلب من الماء أن يصل إلى فيه وليس هذا من مقدور الماء.

ومن المعنى الخامس: البطش والقسوة قوله تعالى على لسان هابيل لأخيه قابيل: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨] يقال بسط إليه يده إذا بطش به وبسط يده مدها إلى المبطوش

به ومثله قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ [المائدة: ١١] وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ [الإنعام: ٩٣] أي يمدونها لإخراج أرواح الظالمين بعنف.

●●●

(بعث)

يأتى بمعنى أرسله وأيقظه من نومه وأحياه فبمعنى الإرسال جاءت آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣] وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [المائده: ١٢] جعل موسى لكل جماعة منهم كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به وسار بهم موسى ولكنهم هابوا ورجعوا والنقيب الذى ينقب عن أحوال القوم ويفتش عنها.

وبمعنى أيقظه من نومه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [الأنعام: ٦٠] أى يوقظكم فى النهار لتكتسبوا وتكدوا بالأعمال ومثله جاء على لسان الكفار يوم القيامه ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ٥٢] استعملوا البعث هنا بمعنى الإيقاظ من النوم ظنًا منهم أنهم كانوا نائمين فأوقظوا لكن الحقيقة التى لا يدرونها أنه القيام من القبور للحساب وعندما يعلمون ذلك يسقط فى أيديهم ويقال لهم ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾

وبمعنى الإحياء جاءت آيات كثيره فى البعث يوم القيامة منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦] أحييناكم بعد الموت بالصاعقة وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] فالله تعالى يحيى الموتى من قبورهم وهو قادر على هداية الكفار وأنت لا تقدر على ذلك وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] فالبعث أهون من الخلق.

(تجارة)

تستخدم بمعنى المبادلة بالبيع والشراء لقصد الربح وبمعنى المال المتجر فيه وتستعمل مجازًا للعمل الذى يترتب عليه خير أو شر.

فمن المعنى الأول: المبادلة بالبيع والشراء جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. فالمبادلة التجارية بيعًا وشراءً أساس التعامل الصحيح بين الناس.

ومن المعنى الثانى: المال المتجر فيه قوله تعالى -فى آية المداينة- ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] فهى متعلقة بكتابة الأموال المتجر فيها وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٣٤] كان قبل فتح مكة من آمن لم يتم إيمانه إلا بأن يهاجر ولا يطيع أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ من آثار ذلك عليهم فنزلت الآيات فهاجروا وقاطعوا أقاربهم ثم رخّص لهم بعد ذلك.

وجاء بالمعنيين قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] فيحتمل المبادلة وذكر البيع من ذكر الخاص بعد العام، وأن يراد المال المتجر فيه.

ومن المعنى المجازى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] فقد عملوا عملاً سيئًا فاختاروا الكفر على الإيمان وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

تَعْلَمُونَ ⑪ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢]. فالمجاهدون يتاجرون مع الله سبحانه وتعالى على معنى أنهم بجهادهم يحصلون على الثواب الجزيل.

●●●

(جعل)

يأتى بمعنى خلق وأوجد وبمعنى صيّر حقيقة أو حكمًا وبمعنى شرع وحكم وقرر.

فبالمعنى الأول الخلق والإيجاد جاءت آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١] فقد تكررت (جعل) ثلاث مرات -بعد جعل الأولى- وهى تعنى خلق المولى سبحانه هذا الخلق الهائل البديع من الأنهار والجبال والبحار والحواجز بين الماء العذب والماء المالح.

وكذلك قوله تعاله: ﴿وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦].

وبالمعنى الثانى: التصيير حقيقة قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل: ٦١] أى صيرها مقرًا للبشرية تعيش عليها مطمئنة وكذلك قوله سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾[طه ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] فلم يصير الله تعالى اللاتى يظاهر الأزواج منهن مثل الأمهات ولم يصير الأبناء من التبنى مثل الأبناء من النسب فى الحكم.

وبالمعنى الثالث: شرع وحكم وقرر جاءت آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] أى شرعنا وقوله سبحانه: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦] أى شرعناها وبمعنى الحكم والتقرير جاء قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩] أى حكمنا وقررنا.

(ترك)

تأتى بمعنى التخلية والانصراف قصدًا أو قهرًا، وبمعنى الإبقاء على الشىء وجعله على حاله.

فمن المعنى الأول: التخلية والانصراف قهرًا قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] الوصية فى بدء الإسلام كانت واجبة ونسخت بآية المواريث وقوله عليه الصلاة والسلام: (أن الله أعطى كل ذى حق حقه ألا لا وصية لوارث) وقيل إنها تأكيد لحق الوالدين والأقربين فى الميراث.

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١]

والترك الاختيارى مثل قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧] أى صددت وانصرفت عنها، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنين: ٩٩-١٠٠] أى فيما انصرف عنه من إيمان وعمل.

وبمعنى الإبقاء على الشىء وتخليته جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧] وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٥] أى أبقيتموها ولم تتعرضوا لها وقوله تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] أى أبقاهم.

ومن جعل الشىء على حاله قوله تعالى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] أى خل البحر منفرجًا باقيًا على حاله.

(إمام)

يقال: أممت القوم وبالقوم أؤمهم إمامًا وأمًا وإمامة تقدمتهم وكنت لهم (إمامًا) والإمام للمذكر والمؤنث من يقتدى بقوله أو فعله سواء كان محقًا أو مبطلاً.

قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤] أى يقتدى به وقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٠]

ويسمى الكتاب إمامًا لأنه يقتدى به قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢] أى فى كتاب أو هو اللوح المحفوظ ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود: ١٧] وقال سبحانه: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٢]

وجاء قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء ٧١] محتملاً للمعنى الأول -المقتدى به- وللمعنى الثانى: الكتاب، فالمعنى: ندعو كل جماعة بمن كانوا يأتمون بهم من الأئمة أو بأنبيائهم فقال: هاتوا متبعى محمد ومتبعى إبراهيم .. إلخ أو ندعوا كل أمة بكتابهم الذى أنزل عليهم فيقال: يا أهل القرآن ويا أهل الإنجيل .. الخ أو الناس بكتابهم الذى فيه أعمالهم.

ويستعمل (إمام) بمعنى الطريق كما قال سبحانه: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ٧٩] يتحدث عن قوم لوط ومن أرسل إليهم شعيب -عليهما السلام- من أصحاب الأيكة ومدين- والإمام هو الطريق الواضح فطريق هذه المدن المهلكة يرى الناس آثار هلاكهم فيها أو أن: حديث المدينتين مذكور فى اللوح المحفوظ.

(أمة)

ترد الكلمة بعدة معان فى القرآن الكريم يتبين كل منها تبعًا للسياق الواردة فيه.

فالأمة: كل جماعة تجمعهم عوامل مشتركة ومنها وحدة الدين واللغة والتقاليد ونحو ذلك وجمعها أمم وقد وردت (أمة) فى آيات كثيرة بمعنى الجماعة من الناس منها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢] وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنين: ٥٢] وجاءت (الأمة) فى موضعين فى القرآن الكريم بمعنى (الدين) فى قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف الآيتان: ٢٢، ٢٣].

وجاءت فى موضعين بمعنى (الحين) وهو الوقت فى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ [هود: ٨] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥] أى ذكر ما كان من أمر تفسير يوسف -عليه السلام- للرؤيا، وتأتى (الأمة) بمعنى القدوة ومعلم الخير كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] بمعنى قدوة ومعلم للخير لأنهم يقولون للرجل العالم الجامع لخصال الخير (أمة) وسمى إبراهيم أمة لأن قوام الأمة كان به.

●●●

(أكل)

تتنوع المعانى فى السياقات القرآنية التى يرد كل منها فيها بما يكشف عن أسرار البيان القرآنى.

فيأتى أكل الطعام يأكل أكلاً بمعنى مضغه وابتلعه كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية وقال سبحانه: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣] وقال عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]

وعلى طريق التشبيه تأتى بمعنى أفنى يقال أكلت السنون المال أفنته قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨)﴾ [يوسف: ٤٨] أى يفنين ما حصدتم وادخرتم.

ويقال: أكلت النار الحطب: التهمته كما فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣] فهو على طريق التشبيه بمعنى تلتهمه.

ويقال: أكل المال: أخذه بحق أو بغير حق فبحق كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦] أى يأخذ من مال اليتيم بقدر حاجته وهذا أخذ بحق ومن غير حق كقوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] أى لا تأخذوه.

ويقال: أكل فلان لحم فلان: اغتابه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾ [الحجرات: ١٢].

(بدأ)

تتعدد المعانى اللغوية لهذه الكلمة فى كتاب الله عز وجل ويتحدد المعنى المراد بالسياق بما يكشف عن عظمة البيان القرآنى .

يقال فى اللغة : بدأ بكذا وبدأه بمعنى فعله أولاً ومنه قوله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف : ٧٦]

وقوله سبحانه : ﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) ﴾ [التوبة : ١٣] فهم بدأوا قتالكم أولاً فاستحقوا منكم الدفاع .

وقوله عز حكمه : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : ٧] فمرحلة الطين مرحلة أولية فى خلق الإنسان ويقال بدأ الله الخلق وأبدأهم : خلقهم على غير مثال سابق وأبدع خلقه وقد جاءت كلمة البدء والإعادة فى القرآن الكريم كثيراً بمعنى الخلق بقدرة الخالق القادر وحده .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] على معنى كيف أبدعه ، وكقوله سبحانه : ﴿ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) ﴾ [الأعراف : ٢٩] أى كما خلقكم على غير مثال سابق ترجعون إليه فيجازيكم على أعمالكم ومثل ذلك قوله جل شأنه : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] وقوله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس : ٤] وقوله عز حكمه : ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ [النمل : ٤٦] ويكفى أن يقول سبحانه : ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ [القيامة : ٤].

●●●

(بدا)

(بدا) وردت فى القرآن الكريم بمعان كثيرة يحددها السياق الذى وردت فيه ويكشف أسرار البيان القرآنى.

يستعمل (بدا) بمعنى ظهر يقال: بدا يبدو بَدْوًا وبدُوًا: ظهر كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧] أى ظهر لهم وجود العذاب فى النار وكانوا قبل ذلك يكذبون به ولا يصدقون أنه واقع كما يقول سبحانه: ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) ﴾ [الرحمن: ٤٣] وقوله ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) ﴾ [الطور: ١٤] أو المراد قبائحهم التى كانوا يخفونها شركا أو غيره أو أمر البعث والنشور ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨] من الكفر والتكذيب ويقال: بدا له فى الأمر كذا أى ظهر له فيه رأى جديد، يقال: فعل كذا ثم بدا له كذا كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾ [يوسف: ٣٥] فالمعنى ظهر لهم فيه رأى جديد.

ويقال: بدا: خرج إلى البادية أو أقام بالبادية وجاء من هذا المعنى الأخير اسم الفاعل (باد) وجمعه (بادون) ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ [الحج: ٢٥] وأصل (الباد): البادى وهو الذى خرج إلى البادية أو أقام بها والمقصود -هنا- بالعاكف والباد: المقيم والطارىء على المسجد الحرام.

وبادى الرأى، ظاهره الذى لا روية فيه كقوله تعالى: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [هود: ٢٧] أى دخلوا دينك دون روية أو رأى سديد.

(أتى)

ورد الفعل (أتى) ماضيًا ومضارعًا وأمرًا بمعنى المجىء يقال فى اللغة أتى يأتى إتيانًا: جاء وأتى به: جاء به.

وورد بهذا المعنى الحقيقى فى القرآن الكريم كقوله تعالى فى سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۝١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [طه: ٩-١٢] فقوله: لعلى آتيكم أى أجىء إليكم فلما أتاها: أى جاء النار.

وكما قال تعالى فى سورة البقرة ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] أى جىء إليهم بالفواكه تشبه فواكه الدنيا لكنها مختلفة عنها طعمًا ومذاقًا وتكوينًا.

ويقال: أتى عليه: أى مرَّ به ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الأنسان: ١]

وقوله تعالى عن الريح التى عذّب بها قوم عاد: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات: ٤٢] وقوله: ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الاعراف: ١٣٨] ويقال أتى الأمر أو الذنب: إذا فعله وارتكبه كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فمعنى ما أتوا أى ما فعلوا من أشياء يفرحون بها وهى ضارة بهم ومذمومة من فعالهم ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] ويستعمل بمعنى وقوع الأمر كقوله عز حكمه: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] بمعنى قرب قيام الساعة ودنا، وكذلك قوله

تعالى : ﴿ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام : ٣٤] أى منحهم الله النصر وحدث لهم .

وكذلك ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ [الأنعام : ٤٠] أى حل وحلت بكم كما ينتقل الشىء من مكان إلى آخر .

واستعمل الفعل آتى ومشتقاته بمعنى أعطى : كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾ [البقرة : ٤٣] وكقوله سبحانه : على لسان قارون ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص : ٧٨] أى أعطيته ، وقوله سبحانه : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [القصص : ٥٤] وهكذا يتنوع استعمال اللفظ فى القرآن وتتنوع معانيه تبعًا للسياق الوارد فيه حقيقة ومجازًا وتوسعًا .

●●●

(أخذ)

ورد في القرآن الكريم بالمعنى العام وهو تناول الشيء. كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠)﴾ [النساء: ٢٠] وقوله سبحانه: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ [يوسف: ٧٩].

وقوله عز حكمه: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢]. ويأتي بمعنى الإمساك كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وقوله: ﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤] أي: لا تمسك.

وتأتي بمعنى الإخراج كما في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فقد أخرج الله تعالى الأرواح وأخذ عليها العهد والميثاق بربوبيته وعبادته وحده وهي في ظهر آدم.

وفي سياق آخر تأتي بمعنى الإهلاك كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥)﴾[البقرة: ٥٥] أي: أهلكتكم وكذلك قوله عز حكمه: ﴿وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾ [الأعراف: ٧٣] وكذلك بمعنى العقاب: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١].

وفي سياق آخر بمعنى الميثاق والعهد مثل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣] ونحو ذلك.

وقد يكون معنى الأخذ مجازًا عن الاتباع والتوجه مثل قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ ﴾ [البقرة : ٢٠٦] أى دفعته ووجهته إلى عدم الاستجابة والطاعة غطرسته وتجبره .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ [التوبه : ٥٠] أى استعددنا وتهيأنا لمواجهة النوازل فلا تحل بنا .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ [يونس : ٢٤] على معنى حسنت رؤيتها على تلك الحال من الخضرة والإنبات وإيتاء الثمار والحضارة والعمران .

ويرد الفعل آخذ بمعنى عاقب كما فى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وقوله : ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] .

●●●

(أذن)

يأتى منها الماضى والمضارع والأمر مجردًا ومزيدًا فى الثلاثى ومزيده كما تأتى المصادروالصفات وغيرها من الأسماء.

وتتنوع المعانى فى السياقات القرآنية التى يرد كل منها فيها بما يكشف عن أسرار الاستعمالات اللغوية فى القرآن الكريم.

فيأتى الإذن بمعنى الإباحة للفعل المراد تنفيذه كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه: ١٠٩] وقوله عز حكمه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [النور: ٣٦] ومن مضارعه: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي ﴾ [يوسف: ٨٠].

ومن الأمر قوله تعالى عن المنافقين الذين يريدون الاعتذار عن غزوة تبوك: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي ﴾ [التوبه: ٤٩] أى ائذن لى فى القعود عن الغزو ولا توقعنى فى الإثم بألا تأذن لى بذلك.

كما يستعمل الإذن بمعنى الاستماع والإنصات والاستجابة لما يطلب كقوله تعالى: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الأنشقاق: ٢، ٥] فالسماء استمعت وأنصتت وأطاعت واستجابت بالانشقاق كما طلب منها.

ويستعمل الإذن بمعنى العلم، والأذان بمعنى الإعلام، ومن ذلك فى الأمر قوله تعالى: ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] يعنى آكلى الربا أى فاعلموا بالحرب، من أذن بالشىء علم به.

ويأتى من المزيد (آذنه): أعلمه وأخبره، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾

[الأنبياء: ١٠٩] أى أعلمتكم، وأذَّن: أعلم ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤]

ويقال من المزيد: تأذَّن ليفعلن كذا، أى أقسم كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: ١٦٧] يعنى عزم ربك أن يفعل وهو يجرى مجرى القسم كعلم الله وشهد الله، ولذلك أجيب بما يجاب به القسم.

ويستعمل استأذن بمعنى طلب الإذن ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ [التوبه: ٨٣].

ويستعمل (الأذن) للمستمع الذى يقبل كل ما يقال ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبه: ٦١] وهذا على المجاز كأن جملته أذن سامعة والقائل هم المنافقون. وهكذا تتعدد المعانى والاستعمالات القرآنية.

●●●

لفظ الإخلاص وما تصرف منه

الخالص ما زال عنه ما يكدره وقد يقال لما لا كدرة فيه ولا شائبة وهذا يأتى بمعنى إخلاص العبادة لله وحده مع الربوبية وهو التبرى عن كل ما دون الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦].

ويشمل العبادة التى يجب أن تكون بعيدة عن كل ما يشوبها من الشرك والرياء كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩] وأن يكون العمل خالصًا من أغراض الدنيا.

وهذا يشمل أنواع الإخلاص وهى إخلاص فى القول وإخلاص فى الأفعال، وإخلاص فى العبادات، وإخلاص فى الأحوال وهى إلهامات القلب.

وقد جاء معنى التوحيد ملخصًا فى سورة الإخلاص لأنها خالصة فى صفة الله وتقديسه وهناك معنى آخر للإخلاص وهو الاختيار فالله تعالى اختار أنبياءه عناصر صافية لا شائبة فيها صالحة لحمل رسالته إلى الناس كما قال تعالى عن يوسف- عليه السلام- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] أى المختارين.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١] وقوله عز حكمه: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى الأَيْدِى وَالأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٦].

ويأتى بمعنى خلوص الشىء لصاحبه كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤].

وقد يقصد به المعنى اللغوى وهو الشيء الصافى ﴿ نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ [النحل : ٦٦].

ويأتى بمعنى الانعزال والانفراد وعدم مخالطة غيره مثل : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف : ٨٠] أى انفردوا عن الناس يتناجون فيما أهمهم.

●●●

لفظ الابتلاء

معنى الابتلاء اختبار الله تعالى لعبده، ويكون فى الخير والشر وقد استعمل الابتلاء فى مجال تكليف الله تعالى الإنسان بالأمور الشاقة ليبين من يؤديها على وجهها الصحيح كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ٧] وكقوله سبحانه: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢] فهو اختبار فى مجال عمل الطاعات وإمكانية القيام بها إذ لا يقوم بها إلا من وفقه الله وهداه.

والابتلاء يكون بالنعمة كما يكون بالنقمة.

فجعل خيرات الأرض وما فيها لينتفع يها الإنسان وليظهر عمله وتدبيره وشكره أو نسيانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧].

وقد تستعمل فيما يصيب الإنسان فى نفسه أو أهله أو ماله نفعًا أو ضرًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢- ٣].

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقد يستعمل الابتلاء فيما يعُطى لبعض الناس وما يقتر أو يمنع عن البعض الآخر، فيقول عز حكمه: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

والغنىُّ مبتلىً فيما أُعطىَ من كثرة المال فإذا شكر وأدى حق الله فيه فاز، أما إذا أغواه المال وصرفه إلى الفساد فقد باء بالخسران المبين.

والفقير إذا صبر ورضى انتصر على نفسه الأمارة بالسوء ونال الحظوة. أما إذا ضجر أو يئس أو احتال بما يضر المجتمع فقد أضر نفسه.

وشرع الحق سبحانه الدفاع عن النفس والعرض والوطن وكان بإمكانه رفع الأذى عن الناس من غير كفاح ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤] ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] وعن شكر النعم أو الكفر بها يقول عن سليمان وما أوتيه من الملك ﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

●●●

استعمالات كلمة (أرض) فى القرآن الكريم

تستعمل هذه الكلمة، ويراد منها كوكب الأرض الذى تعيش عليه البشرية كلها. وتذكره عادة فى مقابل السماء كما فى قوله تعالى: ﴿ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [البقرة: ٢٢] ومثلها: ﴿ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦] واستعملت فى القرآن الكريم بمعنى قطعة أو جزء من الأرض فى إحدى المناطق.

وقد أتت معرفة (بأل) كما فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥] فطلب يوسف- عليه السلام- من عزيز مصر أن يوليه شئونها المالية والاقتصادية فالمراد: أرض مصر وأتت معرفةً بالإضافة كقول ملأ فرعون عن موسى -عليه السلام- ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [ابراهيم: ١٣] فأقوام الرسل كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم هددوا رسولهم بإخراجه من أرضهم المعروفة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٧] فقد أورث الله المؤمنين بعد نصره لهم فى غزوة الأحزاب أرض أعدائهم من الكفار ومن ظاهروهم من أهل الكتاب كما أتت- بهذا المعنى أيضًا- وهى منكرة كقوله تعالى على لسان إخوة يوسف ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف: ٩] أى مكانًا بعيدًا عن العمران ودل على ذلك تنكير أرض وإطلاقها دون قيد من صفة أو نحوها فيقبل عليكم أبوكم بالحب والمودة لا ينازعكم فيها أخوكم يوسف.

واستعملت بمعنى أرض الجنة كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ [الزمر : ٧٤] .

وقد تكرر ذلك بكثرة فى القرآن الكريم فى المعانى السابقة .

وقد استعملت دابة الأرض لدويبة تأكل الخشب ونحوه واستعملت الأرض بمعنى الأكل تقول : أرضت الخشبة أرضًا : إذا أكلتها الأرضة ، كقوله تعالى عن سليمان : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ [سبأ : ١٤] أى عصاه .

●●●

مادة (أفك) واستعمالاتها فى القرآن الكريم

يأتى الفعل الثلاثى المجرد وتصرفاته بمعنيين :

الأول: بمعنى تحويل الإنسان عن أمر هو عليه إلى غيره .

يقال : أفَك فلانا عن كذا يأفكُه أفكًا ، صرفه عنه ومنعه ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات : ٧-٩] كانوا يقولون عن القرآن إنه شعر وسحر وأساطير الأولين وعن الرسول ﷺ إنه شاعر وساحر ومجنون ، وقد صرفوا عن الرسول و القرآن صرفًا لا صرف أشد منه و مُنعوا من الإيمان به (فالضمير للقرآن وللرسول) أو للاعتقاد بيوم القيامة والجزاء فهم منكرون للبعث منصرفون عنه .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ [الأحقاق : ٢٢] .

قالت ذلك عاد لرسولهم هود- عليه السلام- بأنه أتى إليهم ليصرفهم عن عبادة الأصنام وغيرها وقوله تعالى فى سورة فاطر ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر : ٣] وفى سورة غافر : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [غافر : ٦٢] ومعناه تصرفون عن الاعتقاد بربوبيته وعبادته وحده .

والمعنى الثانى: الكذب والافتراء ، يقال : أفَك أفْكًا ، وأفك إفكًا : كذب وافترى فهو أفاك ، والإفك : الكذب أو أشده .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ ﴾ [الفرقان : ٤] فرموا القرآن زورًا وبهتانًا بأنه كذب وافتراء وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٥١-١٥٢] .

ويستخدم المزيد من هذا الفعل لمعنى انقلاب الشيء عن الوجه الذى ينبغى أن يكون عليه أو الخير إلى الشر ومن ذلك : المؤتفكة والمؤتفكات وهى قرى قوم لوط- على الأول- أو ينضم إليها قرى هود وصالح لتغير أحوالها إلى الهلاك وذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ [النجم : ٥٣] لقرى قوم لوط التى انقلبت ورفعها جبريل إلى السماء ثم أسقطها على الأرض، وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ [الحاقة : ٩] عن قرى قوم لوط وقوله تعالى : ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ [التوبة : ٧٠].

قيل إنها لغير قوم لوط ونرجح أنها لهم فحسب والله أعلم.

●●●

مادة (ألف) واستعمالاتها فى القرآن الكريم

أتت المادة مجردة ومزيدة- بالتضعيف- ولكل منها معانيه التى وردت فى الكتاب العزيز.

يقال فى اللغة: أَلَف الشئ- يألفه إلفًا وإلافًا أنس به وأحبه، وآلفتُ فلانا الشىءَ أولفه إيلافًا: جعلتُه يأنس به، والإيلاف مصدره آلف وقد أتى هذا المصدر فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ [قريش: ١-٢] كانت لقريش رحلتان تجاريتان إحداهما فى الشتاء إلى اليمن، والثانية فى الصيف إلى الشام وقد آلفوا هاتين إيلافًا بمعنى انهم ألفوهما حبّاً للتجارة وأنسًا بالرحلتين.

ويقال فى اللغة: آلفتُ المكان أولفه إيلافًا إذا ألفْتُه، ويقال ألفْتُه إلفًاوإلافًا وقد جمعها الشاعر فقال:

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلفٌ وليس لكم إلافُ

وإيلاف قريش بالرحلتين نعمة كبرى من الله تعالى عليهم تقتضى الشكر بالإيمان وعبادة الله تعالى وحده.

وجاء الفعل المضعف (ألّف) وتصرفاته بثلاثة معان:

الأول: ألّف بين القلوب: جمعها على المحبة كقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وكذلك قوله عز حكمه: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

الثانى: استمالة القلوب إلى الإسلام ومنه سميت (المؤلفة قلوبهم) الذين كان النبى ﷺ يعطيهم نصيبًا من الزكاة تأليفًا لقلوبهم واستمالة لها ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ** ﴾[التوبه : ٦٠] .

الثالث: التأليف بين الأشياء بجمع بعضها إلى بعض كما فى قوله جل شأنه : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا** ﴾ [النور : ٤٣] فالله تعالى (يزجى) : يسوق السحب الواحدة تلو الأخرى لينضم بعضها إلى بعض فيتراكم بعضها فوق بعض ثم ينشأ عنها المطر والرزق .

●●●

مادة (ألوَ وألَى) بالواو والياء وتصرفاتها واستعمالاتها فى القرآن الكريم

وردت بعدة تصرفات واستعمالات :

فالثلاثى : (ألا) والمزيد : ائتلى قد وقعا فى القرآن الكريم بمعنيين :

الأول: معنى التقصير والإبطاء فيقال : ألا فى الأمر يألوا ألوًا وأُلُوًا وائتلى : إذا أبطأ فى الأمر وقصر فيه، وإذا أريد نفى التقصير والإبطاء أتى بأداة النفى كأن يقال : أنا لا آلوا جهدًا، وفلان لا يأتلى نصحًا أى أنه لم يبطئ. وجاء على ذلك فى الحديث الشريف فى قول الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل- حين بعثه إلى اليمن : كيف تقضى إذا لم تجد الأمر فى الكتاب والسنة قال : أجتهد رأيى ولا آلو.

المعنى الثانى: هو الحلف أو القسم ومنه الأَلْوة و الأَلْية، الحلف، وآلى يؤلى إيلاء وائتلاء : حلف أو أقسم.

ومما جاء بالمعنيين : التقصير والإبطاء، والحلف قوله تعالى : ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ**﴾ [النور : ٢٢] أى لا يقصر أهل الفضل منكم والسعة- وهو أبو بكر الصديق -أن يؤتوا أولى القربى-مسطح بن أثاثة- وهو ابن خالة أبى بكر الصديق- وكان من فقراء المهاجرين، ويجوز أن يكون معناه، لا يقسم أهل الفضل منكم والسعة على ألا يؤتوا ذوى القربى.

وبمعنى التقصير فقط ورد قوله تعالى : ﴿**لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً**﴾ [آل عمران : ١١٨] أى لا يقصرون ولا يبطئون فى العمل على إفسادكم أى لا تتخذوا لكم معاونين من الكفار، والخبال : الفساد، فهم أعداؤكم وغير حريصين على مصلحتكم والفعل هنا تعدى إلى مفعولين مثل : لا آلوك نصحًا ولا آلوك جهدًا.

وقد جاء آلى فى الشرع مختصًا بأن يحلف الزوج على ألا يقرب زوجته أربعة أشهر فأكثر يقال: آلى من زوجته يؤلى إيلاء ومنه قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٦] ومن هذه المادة تأتى الآلاء بمعنى النعم والمفرد ألْو كدلو أو ألى - كرحًى - أو إلى كمعىً ومنه قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣].

●●●

لفظ (أثر) ومعانيه

ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم فى صور أفعال وأسماء وفى كل موقع يتخذ معنى مناسبًا للسياق فيه.

يقال أثر الحديث أو العلم نقله وتتبع أماكنه. وقد حكى المولى سبحانه قول الوليد بن المغيرة عن القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤] أى ينقل فيما عرف من الخرافات والأساطير التى يتناقلها العرافون والسحرة وأشباههم وهذا قول باطل مردود عليه؛ لأن القرآن هو الحق المبين.

ويقال: بقيت منه أثاره، أى بقية تروى وتذكر وعليها جاء قوله سبحانه موجها نبيه محمداً ﷺ فى بيان أن عبادة الأصنام لا أصل لها فى شرع أو ديانة صحيحة، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاق: ٤] أى بقية من أى دليل يثبت صحة عبادتكم للأصنام وغيرها من دون ذلك.

وأثر الشيء: ما يدل على وجوده، وأثر القدم: ما يتركه من علامة له على الأرض، وكل ما يستدل به على الشيء فهو أثر وجمعه آثار وعلى ذلك استعمل الأثر فى القرآن فى بعض الآيات الكريمة لما يدل على الشيء من العلامات والدلائل.

فحين جاء جبريل إلى موسى - عليهما السلام - وهو ذاهب لميقات ربه وكان جبريل راكبًا فرسه الذى ترك بعض العلامات على الأرض فأخذ السامرى بعض التراب من تحت أرجله ورمى بها على النار التى أوقدها ليصنع العجل الذى عبده بنو إسرائيل ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦] فالرسول - هنا - جبريل، و الأثر أثر فرسه و أرجله، وحين سأل

الحق سبحانه موسى- وهو ذاهب لميقات ربه: لماذا تعجل وترك النقباء الذين كانوا يسيرون معه بحيث تأخروا عنه فأجاب ﴿ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ [طه: ٨٤] أى هم فى عقبى كأنهم يحتذون أثر سيره وهذا يدل على أنهم كانوا على مقربة منه إلا قليلاً من المسافة.

وآثار المطر هو النبات يدل عليه: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم: ٥٠].

ويقال آثره: اختاره وفضله وورد بذلك آيات كريمات مثل قوله سبحانه: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف: ٩١] ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [الأعلى: ١٦] ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

●●●

مادة (أخر) وتصرفاتها

جاءت فى القرآن الكريم بمعان بحسب نوع الكلمة ووزنها التصريفى.

فصيغة الفعل (أخّر) تأتى بمعنى لم يؤد، وبمعنى أجّل.

فبالمعنى الأول (لم يؤد) جاء قوله تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامه: ١٣] أى بما عمل وبما لم يعمل من الواجب عليه وكذلك قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الأنفطار: ٥].

وبمعنى (أجّل) جاء قوله تعالى: ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [المنافقون: ١٠] أى أجلت وفاتى مدة وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون: ١١]، وقوله عز حكمه: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ [ابراهيم: ٤٢] أى يؤجل حسابهم وعقابهم إلى يوم القيامة وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٠٣] أى أجّل الانصراف عن المشاعر أو السفر ليرمى الجمرات فى اليوم الثالث من أيام التشريق (اليوم الرابع من أيام العيد) ومثله يؤخر ويستأخر.

ويستعمل لفظ (الآخر) - بفتح الخاء- وهو اسم على وزن أفعل وفيه معنى الصفة وهو معنى المغاير ويقابل الواحد وهو غير الأول وجمعه آخرون والمؤنث أخرى وجمعها أخريات وأخَر.

يقول تعالى: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبه: ١٠٢] ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ [المائدة: ٢٧] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ

أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]

ويستعمل لفظ (الآخر)- بكسر الخاء- وهو مقابل الأول لشيء له بداية ونهاية ومنه اليوم الآخر وهو يوم القيامة وكذلك الآخرة والدار الآخرة.

والآخر من أسماء الله تعالى وهو الباقي بعد فناء خلقه.

يقول تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] ﴿رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ [المائدة: ١١٤] ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

●●●

الفصل الثالث

الألوان والأطياف والظلال فيما يظن من المترادف فى القرآن الكريم

(دنا وقرب)

الدنو: الانتقال من علو إلى سفل

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الإنعام: ٩٩] ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [النجم: ٨].

قال الفراء ثم دنا جبريل من محمد فتدلى، كأن المعنى: ثم تدلّى فدنا، والتدلى من علو إلى سفل، وكان ذلك عند حراء فى بدء النبوة وقيل هو الله تعالى، وقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ [الإنسان: ١٤] ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾ [الحاقة: ٢٣].

والدنو يكون بين طرفين يدنو أحدهما من آخر، والملحوظ فيه الطرف الأول الذى كان فى حال الارتفاع، وقد يلحظ فيه أنه كان على مسافة بعيدة من الطرف الثانى فى المكان الذى كان فيه.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ [الأنفال: ٤٢].

الأولى: الدنيا: شفير الوادى الأدنى إلى المدينة.

الثانية: القصوى: هى البُعدى من المدينة.

ومثله: (السماء الدنيا) فهى بالنسبة إلينا أدنى من السموات الأخرى الأبعد عنا.

ويكون الدنو فى الزمان ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠].

﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ﴾ [النحل: ١٢٢]

ويمكن أن يكون الدنو حكميًا لا حسيًا كقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا ﴾ [المائدة: ١٠٨] ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥١] فالشهادة على وجهها الصحيح قربت بَعد بُعد، وقرة الأعين قربت أن تتحقق لزوجات الرسول ﷺ.

ويستعمل الدنو لمعان أخرى.

منها:

التعبير عن الأقل بالأدنى فيقابل بالأكثر كقوله تعالى: ﴿ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧]

ويعبر بالأدنى عن الأرذل فيقابل بالخير كقوله تعالى: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١]

قرب: القرب والبعد يتقابلان، ويكون ذلك بين طرفين، ويلحظ فيه الطرف الثانى (المقترب منه) وأن المقترب أصبح على مسافة ضيقة منه.

ويكون بقرب الأول من الثانى فى المكان الذى وصل إليه. قال تعالى: ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة: ٢٨] ﴿ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وكما يكون القرب فى المكان يكون فى الزمان، كقوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] أى يوشك يحل العذاب بهم، فهو منهم على مقربة أو زمان يسير، ومثله: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١] ﴿ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٨٥] ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ [القمر: ١] أى منهم ومنكم.

وكذلك فى النسب ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ [النساء : ٨].

ويكون فى الحظوة والرعاية كقوله تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين : ٢٨] منهم مقربون من الله تعالى محظيون بالقرب .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢٨] ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ⑯ ﴾ [ق : ١٦] ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ [الواقعة : ٨٥] .

●●●

القلب والفؤاد

القلب: قلبُ الشىء وتقليبه: تغييره من حال الى حال كقلب الثوب، وقلب الإنسان، وتقليب الله القلوب: صرفها من رأى إلى رأى، قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾ [الأنعام: ١١٠] وهذا فى الحديث عن المشركين.

ويعبّر بالقلب عن العقل: الذى يجعل الإنسان ينتقل من الباطل إلى الحق، ويمنعه من الوقوع فى الباطل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧] - أى عقل- يؤدى به إلى العلم والفهم وهذا فى الحديث عن هلاك الأمم الماضية والاعتبار بها ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ [مريم: ٧٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأنفال: ١٠] أى تثبت به شجاعتكم، ويزول خوفكم بنزول الملائكة.

ويعبر بالقلب عن الروح كقوله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ [الأحزاب: ١٠].

الفؤاد: مادة (فأد) تدل على شدة حرارة، يقال فأد اللحم: شواه، فهو فئيد، والفؤاد كالقلب، لكن يقال له فؤاد إذا لوحظ فيه معنى التفؤد، أى: التوقد والحرارة والهمة والإحساس المرهف.

والمواضع التى ورد فها (الفؤاد) فى القرآن الكريم ملحوظ فيها التأثر، وفرط التأثير للقلب، ولذلك يقرن بالسمع والبصر أو الأبصار أو إسناد الرؤية إليه.

قال عز حكمه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ [الأسراء: ٣٦] ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل: ٧٨] ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم: ٩-١١]

لما عرفه وحققه لم يكذبه فؤاده بعد ذلك، ولو تصور بغير تلك الصورة أنه جبريل أو ربُّه عز وجلّ.

﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧) ﴾ [الهمزة: ٦-٧] ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

وفى الحديث عن الظالمين: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

●●●

المجاعة-المخمصة-المسغبة

المجاعة: الجوع: الألم الذى ينال الحيوان، من خلو المعدة من الطعام.

والمجاعة عبارة عن زمان الجدب، ويقال: رجل جائع، وجوعان إذا كثر جوعه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ [طه: ١١٨] [الغاشية: ٧] ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية: ٧] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

المخمصة: هى المجاعة التى تورث خمص البطن أى: ضموره، ويقال: مجاعة تخمص لها البطون أى: تضمر، ويخاف معها الموت، أو مبادئه.

ويقال رجل خامص: أى: ضامر، وأخمص القدم: باطنها، وذلك لضمورها.

قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

غير متجانف لإثم، أى: غير مائل ومنحرف إليه، ومختار له بأن يأكل منها زائدًا على ما يمسك رمقه، فإن ذلك حرام، وقيل يجوز أن يشبع عند الضرورة.

وقيل المراد: غير عاص، بأن يكون باغيًا أوعاديًا، بأن ينزعها من مضطر آخر، أو خارجًا فى معصية. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ لا يؤاخذه بأكله وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠].

المسغبة: السَّغب: الجوع مع التعب ، وقد قيل فى العطش مع التعب ، قال تعالى: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ⑪ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ⑫ فَكُّ رَقَبَةٍ ⑬ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ⑭ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ⑮ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ⑯﴾ [البلد: ١١-١٦]

قيل: نزلت الآيات فى بعض جبابرة قريش: الوليد بن المغيرة -أبى جهل - أسيد بن كلدة الجمحى ، لما بخلوا بنعم الله طالبهم بأعمال تحتاج إلى مشقة بشكر الله تعالى على النعم (العقبة).

وفسر ابن عباس المسغبة بالجوع من غير قيد، وفسّر ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ بيوم فيه الطعام عزيز ، ووصف اليوم بالمسغبة على حد قولهم نهار صائم أى ذو صوم.

●●●

البخل والشح

البخل: إمساك المقتنيات عما لا يجب حبسها عنه، ويقابله الجود يقال:

بخل فهو باخل، وأما البخيل: فالذى يكثر من البخل.

والبخل ضربان: بخل بمقتنيات نفسه، وبخل بمقتنيات غيره، وهو أكثرهما ذمًا.

قال تعالى: ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)** ﴾ [آل عمران: ١٨٠] ﴿ **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠)** ﴾ [الليل: ٨-١٠].

ومن المعنى الثانى: البخل بمقتنيات الغير قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧)** ﴾ [النساء: ٣٧] كان بعض أتباع كعب بن الأشرف -ومن على شاكلتهم- يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحون لهم، فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها، ولاتسارعوا فى النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون، فأنزل الله تعالى هذه الآية:

وقيل: نزلت فى الذين كتموا صفة محمد ﷺ من أهل الكتاب، وهم يجدون ذلك فى التوراة والإنجيل، فالبخل -هنا- بالعلم على سبيل الحقيقة أو المجاز.

الشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة، قال تعالى: ﴿ **وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)** ﴾ [النساء: ١٢٨].

البطش والعقاب

البطش: تناول الشيء بصولة. وبطشَ به من بابي ضرب وقتل: أخذه بعنف وشدة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان: ١٦].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾[ق: ٣٦].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ [البروج: ١٢].

العقاب: العقوبة والمعاقبة والعقاب يختص بالعذاب، وعاقبهُ بذنبه معاقبةً، وعقابًا: أخذه.

قال تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فصلت: ٤٣].

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢].

●●●

طغى وظلم

الطغيان: تجاوز الحد فى كل شىء، ومنه تجاوز الحد فى العصيان ويأتى الفعل منه واويًا أو يائيًا.

يكتب الماضى الواوى بالألف (طغا) ومضارعه يطغو كدعا يدعو وتظهر الواو عند الإسناد إلى ضمير الرفع المتحرك: طغوت كدعوت، ويكتب الماضى اليائى بالياء(طغى) ومضارعه يطغى كسعى يسعى وتظهر الياء عند الإسناد إلى ضمير الرفع المتحرك: طغيت كسعى ويقال فيه: طغى يطغَى كعلم يعلم .

والمصدر: الطغيان والطُّغوان والطّغْى.

والاسم: الطغوى ، وقد يعد مصدراً.

ويتعدى بالهمزة فيقال: أطغاه: جعله طاغيًا.

وتجاوز الحد فى المحسوس مثل: طغى الماء: ارتفع وعلا على كل شىء، كقمم الجبال ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ [الحاقة: ١١].

وفى المعنوى: قال تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [طه: ٢٤].

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النازعات: ٣٧- ٣٩] .

﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [العلق: ٦] ﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [طه: ٤٥] ﴿ خَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الكهف: ٨٠] ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [ص: ٥٥] ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ ﴾ [الشمس: ١١] ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النجم: ٥٠-٥١] .

الظلم: عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه.

يقال: ظلَم الأرضَ: حفرها في غير موضع الحفر.

ومجاوزة الحق إلى الباطل ظُلم.

ووضع الشرك أو الكفر أو النفاق مكان الإيمان ظلم قال تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان: ١٣].

والظلم ثلاثة أنواع:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال سبحانه، ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾[هود: ١٨] ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) ﴾ [الإنسان: ٣١] ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾[الزمر: ٣٢] ﴿﴾ [الأنعام: ٢١] ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) ﴾[الصف: ٧] ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الأنعام: ٨٢]

المراد بالظلم -هنا- الشرك كما فسره رسول الله ﷺ.

الثاني: ظلم بين الإنسان وبين الناس، كقوله سبحانه: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٤٢].

الثالث: ظلم بين الإنسان وبين نفسه، كقوله عز حكمه: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ [فاطر: ٣٢].

وفي غير موضع: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥٧].

وكل هذه الأنواع ظلم من الإنسان لنفسه.

غشى - غطى

الغشاء: ما يجعل فوق الشىء من لباس ونحوه.

ومعناه أن الغشاء هو الذى يستر الشىء من جميع جوانبه ويقال من ذلك:

غاشية القلب: قميصه، وهو الجلدة المحيطة به كاللباس، ويقال: انخلع فؤاده: كأنه خرج من غشائه من فزع ونحوه، والغشاوة: ما غشى القلب من الطبع.

ومما يوضح هذا المعنى بطريقة حسية قوله تعالى:

﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [طه: ٧٨] فالموج يحيط بهم كاللباس.

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ ﴾ [لقمان: ٣٢].

ومنه: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ ﴾ [الليل: ١] لأنه يحيط بالأرض التى يكون فيها.

ويقال: غشاء السيف للغمد الذى يوضع فيه.

وكذلك قوله تعالى ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: ٤١].

ومن الغشاء المعنوى: يقال: غشّى الله على بصره وأغشى.

قال تعالى: ﴿ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧] ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [الجاثية: ٢٣] فمنع عنه نور الهداية لأن الغشاء عليها حال دون ذلك وكانه أحاطها من جوانبها فلم ينفذ إليها شىء من النور ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال: ١١] كأن النوم أحاط بهم فمنع عنهم الإحساس بالفزع والخوف.

وأحداث الساعة تحيط بالناس ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ ﴾ [الغاشية : ١] فهى تغشى الخلق بأفزاعها .

ويؤكد معنى الإحاطة والشمول فى الغشاء قول العرب : الأغشى من الخيل لما ابيض رأسه كله من بين جسده .

الغطاء: مايُجعل فوق الشيء ساترًا له وعازلاً له عن غيره ويسمونه الطبق ، وقد أطبق الشيء : غطاه، ويوضحه قولهم لو انطبقت السماء على الأرض ما فعلت كذا .

وفى الحديث : حجابه النور لو كُشفَ طبقُه لأحرقت سُبُحات وجهه كل شيء أدركه بصره .

ويقال : غطّى الشيء : إذا ستره وعلاه وواراه .

وفى الحديث : (أنه ﷺ نهى أن يغطى الرجل فاه فى الصلاة) .

قال ابن الأثير : كان من عادة العرب التلثُّم بالعمائم على الأفواه فنهوا عن ذلك فى الصلاة، فإن عرض له التثاؤب جاز له أن يغطيه بثوبه أو يده لحديث ورد فيه .

فإذا استعمل الغطاء للقلب كان بمعنى الغشاء(١) .

قال تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢ ﴾ [ق : ٢٢]

ويمكن أن يكون الغطاء فى الآية بمعنى الجهل .

●●●

(١) اللسان ج ٢٠ (غطى) .

الشك والمرية

الشك: نقيض اليقين.

ويقال الشك اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما ، لوجود دليل لكل نقيض بينهما ، أو عدم وجود الدليل ، فلم يحدث عنده يقين بأحدهما مع ميل إلى أحد النقيضين أو تردد بينهما .

والشك ضرب من الجهل، وهو أخص منه، لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين معًا .

فيمكن أن يكون بحيث يميل إلى أحدهما أو يكون متحيرًا مترددًا أيهما الصواب ، فلا يجد الرأى مستقرًا يثبت فيه، ويعتمد عليه، ولا يجد مدخلاً للفهم والرأى، وهو معنى التباس الأمر واختلاطه وإشكاله .

فالشك فى الشىء: هل هو موجود أو غير موجود ؟ أو فى جنسه: من أى جنس هو ؟ أو فى بعض صفاته .

قال تعالى: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الدخان: ٨-٩]

كانو شاكين فى العقيده الصحيحة، أو فى نزول العذاب الذى يستعجلونه أو عدم نزوله .

المرية: التردد فى الأمر مع الجدل فيه، وهو أخص من الشك قال تعالى: ﴿ فَلا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ ﴾ [هود: ١٠٩] ﴿ أَلا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٤]

والامتراء والمماراة: المحاجة والمجادلة فيما فيه مرية، وطلب الحجة إذا كان غير مقتنع به شاكًا فيه .

قال تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [النجم : ١٢]

﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ [الكهف : ٢٢] ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحجر : ٦١]

وقد جمع بين اللفظين : الشك والمرية لما بينهما من الفروق كما فى قوله تعالى :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس : ٩٤]

وجاء الشك مع الريب فى قوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سبأ : ٥٤].

●●●

قنت وخشع وضرع

القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع، يقال: قنت لله: أقرّ له بالعبودية، فخضع له وأطاعه.

وقنت: أطال القيام فى الصلاة والدعاء، فهو قانت، وهى قانتة وهم قانتون.

قنتت المرأة لزوجها: أطاعته.

قال تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾ [البقرة: ٢٣٨] ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [الأحزاب: ٣١]

المراد: تخضع وتواظب على الطاعة.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]

أى: مطيعات لله ولأزواجهن، أو يطلن القيام فى الصلاة.

خشع: الخشوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح يقال: خشع: رمى ببصره نحو الأرض، وغضّه وخفض صوته، وسكنت جوارحه، فالكل ساكن من بدن وبصر وصوت، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد فى القلب ، ولذلك قيل: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح.

قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾ [الأسراء: ١٠٩].

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾ [المؤمنون: ٢] ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

الخضوع والخنوع والكنوع

الخضوع: الانقياد والمطاوعة والتواضع والتطامن

والخضع: تطامن فى العنق، ودنو من الرأس إلى الأرض. وخضع الإنسان خضعًا: أمال رأسه إلى الأرض، أو دنا منها، ،الأخضع: الذى فى عنقه خضوع وميل إلى الأرض خلقة.

ومن هنا نسب الخضوع إلى الأعناق، لأنها مظهر الخضوع. قال تعالى: ﴿**إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾ [الشعراء: ٤].

أى: فظلوا منقادين متطامنين، والأعناق إذا خضعت فأصحابها خاضعون، فجعل الفعل أولاً للأعناق، ثم جعل (خاضعين) نعتًا للرجال، كما تقول: خضْعُت لك، فتكتفى من قولك: خضَعْت لك رقبتى.

ويستعمل الخضوع فى لين الكلام.

يقال: خضع الرجل وخضعت المرأة: ألان كل منهما كلامه للآخر وتكلّما بما يُطمعُ كلاً منهما فى الآخر.

قال تعالى: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا**﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وفى الحديث أنه ﷺ نهى أن يخضع الرجل لغير امرأته أى: يلين لها فى القول بما يُطمعها فيه.

الخنوع: الخانع: الذى يدعو إلى السوأة-الأمر القبيح-.

الخنوع: الذل والوضاعة، وخنع له وإليه يخنع خنوعًا: ذل وطلب إليه، وليس بأهل أن يطلب إليه.

وأخنعتهُ الحاجة إليه: اضطرته.

وخنع فلان إلى الأمر السيّئ إذا مال إليه، والخانع الفاجر الذليل واطلعت منه على خَنْعة أى فعلة قبيحة، ووقع فى خنعة: أى فيما يستحيا منه.

وخنع به يخنع: غدر.

ويذكر الأصمعى: سمعت أعرابيًا يقول: يارب أعوذ بك من الخنوع والكنوع فسألته عنهما فقال: الخنوع: الغدر، والكانع الذى يضع رأسه للسوأة، يأتى أمرًا قبيحًا، فيرجع عاره عليه، فيستحيى منه، وينكس رأسه.

وفى الحديث: إن أخنع الأسماء إلى الله تبارك وتعالى من تسمى باسم ملك الأملاك (شاه شاه) أى: أذلها وأوضعها.

الكنوع: كنَع كُنُوعًا انضم وتقبّض وتشنج يُبْسًا.

والكنَع والكِنَاع: قصَر اليدين والرجلين من داء.

والكنيع: المكسور اليد أو مقطّعها أو مقطّع الأصابع يابسها متقبضَها.

و الكانع: الذى تدانى وتصاغر وتقارب بعضُه من بعض.

والكنوع: الجبن والهرب.

وفى الحديث: (إن المشركين يوم أحُد لما قربوا من المدينة كنَعواُ عنها، أى أحجموا عن الدخول فيها وانقبضوا).

●●●

السراط-الطريق-السبيل

السراط: يقال فيه الصراط والزراط بالمضارعة [لهجه قريش بالسين، ونفر من بلعنبر بالصاد].

هو الطريق المستسهل الذى لا التواء فيه ولا اعوجاج.

قيل: أصله من سرطت الطعام وزردته: ابتلعته، فسمى السراط لأنه يبتلعه سالكُه، أو يبتلع سالكه، وكذا سمى الطريق: اللقَم والملتقم اعتباراً بأن سالكه يلتقمه.

وقيل: إن الصراط معرب من اللاتينية أو الرومية.

ويستعمل السراط فى الخير والشر، وقيل إنه لا يكاد يُراد به الخير إلا مقترنًا بوصف أو إضافة تخلصه لذلك كما قال تعالى: ﴿**إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [آل عمران: ١٠١] وكما قال سبحانه: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفاتحه: ٧] ورد بذلك بضعًا وأربعين مرة فى القرآن الكريم.

وجاء مرتين دون وصف أو إضافه كقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ**﴾ [المؤمنون: ٧٤] وقوله سبحانه: ﴿**وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾ [الأعراف: ٨٦].

الطريق: السبيل الذى يُطرق بأرجل السالكين أى يضرب.

والطارق: السالك للطريق لكن خُصّ فى المتعارف بالآتى ليلاً، وقيل: جاءت الإبل مطاريق أى: جاءت على طريق واحد. وأطلق الطريق على المسلك الذى يسلكه الإنسان محمودًا أو مذمومًا حسيًا كان أو معنويًا.

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ**

يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٧٧] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩].

السبيل: الطريق الذى فيه يسر ووضوح.

وجمعه سبُل، وقيل لسالكه سابل، وابن السبيل: المسافر البعيد عن منزله، نسب إلى السبيل لممارسته إياه فى السير ويستعمل السبيل لكل ما يتوصل به إلى شىء خيراً كان أو شرّاً، فهو يطلق على الطريق الحسى وعلى الطريق المعنوى، وعلى طريق الهداية والخير أو طريق الضلالة والشر.

قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٥] ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه: ٥٣] ﴿ وَجَعَلْنَا فِى الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣١].

ومن المعنوى أو المجازى قوله تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِى ﴾ [آل عمران: ١٩٥] الآية.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل: ١٢٥] ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: ١٠٨] ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥].

●●●

سرى وأسرى وسار

سرى و أسرى: إذا سار ليلاً، ويقال: أسرى لأول الليل وسرى لآخره، سرى يسرى سُرًى ومَسرًى وسريةً وسِرَاية فهو سار، وأسرى يسرى إسراء. والسرَى: سير عامة الليل، وقيل: سير الليل كله.

والسِّرايةُ: سُرى الليل، وهو مصدر، ويقلّ فى المصادر أن يأتى على هذا البناء.

قال تعالى: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾ [الفجر: ٤] أى يمضى أو يُسرىَ فيه ﴿**سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الإسراء: ١].

يقال: أسراه و أسرى به وسرى به مثل أخذ الخطام وأخذ بالخطام وأسرى وسرى بمعنى.

قال أبو عبيد: ليست همزة (أسرى)، للتعدية وقال ابن عطية: الهمزة للتعدية، والمفعول محذوف، أى أسرى ملائكته بعبده.

قال أبو حيان -فى البحر-:

وإنما احتاج [ابن عطية] إلى هذه الدعوى لاعتقاد أنه إذا كان أسرى بمعنى سرى لزم من كون الباء للتعدية مشاركة الفاعل للمفعول وهذا شئ ذهب إليه المبرد، فإذا قلت: قمت بزيد يلزم منه قيامك وقيام زيد عنده، وإذا جعلت الباء كالهمزة لا يلزم ذلك كما لا يخفى.

وإيثار (العبد) لأن العبودية أشرف الصفات ولم يقل (بحبيبه)- مثلاً- خشية الغلو فيه كما وقع للنصارى فى نبيهم، ولم يعبر عن أحد بالعبد مضافًا إلى ضمير الغيبة المشار به إلى الهوية إلا النبى ﷺ. وانظر إلى قوله تعالى عن موسى- عليه

السلام- ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقد تبين مقام الحبيب، ومقام الكليم.

سار: الجمهور على أنه عام فى السير لا اختصاص له بليل أو نهار، وقيل إنه مختص بالنهار.

وليس (سار) مقلوبًا من (سرى).

●●●

المرجع والمصير

المرجع : هو : الرجوع ، وهو العود إلى ما كان منه البدء .

والمرجع والرجع : الإعادة .

ويقال : رجَع بصرَه : ردَّه على المنظور مرة بعد أخرى ، ورجع الكلام : رده .

ورجع القول : رد بعضهم قول بعض وتلاوموا .

قال تعالى : ﴿ ولَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾ [الأعراف : ١٥٠] .

معنى رجع : عاد إلى المكان الذى كان فيه قومه .

﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ [طه : ٤٠] .

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٥] .

ويدخل فيه الرجوع عن الذنب بالتوبة فهو غير ممكن بعد الموت .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

المصير : صار إلى كذا : انتهى إليه وصار زيد إلى عمرو : انتهى إليه والصير : رجوع المنتجعين إلى محاضرهم ، وصير الأمر -بالكسر وبفتح- : منتهاه وعاقبته .

والصيرورة : الانتهاء إلى حال أو إلى مكان .

والذى ورد فى القرآن الانتهاء إلى المكان لا إلى الحال .

قال تعالى : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء : ٩٧] مصيرهم إلى النار .

العطاء - الرفد - الهبة

العطاء: كل ما يعطى بعوض وبغير عوض حسيّاً أو معنوياً والعطو والتعاطى: التناول، يقال: عطا الشىء و إليه عطواً، وتعاطى: تناول، ويستعمل التعاطى فيما لا يحق تناوله، وجاءت الآيات فى القرآن الكريم بذلك كعطاء الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى: ٥].

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: ١].

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨].

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الأسراء: ٢٠] وهذا عطاء متواصل.

وفى مواضع أخرى يتحدث عن أنواع أخرى من العطاء كقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبه: ٥٨].

وقوله عز حكمه: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩].

ومما لا يصح فيه التناول ما حدث من أحيمر ثمود الذى تعاطى وسائل عقر ناقة صالح، قال تعالى: ﴿ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر: ٢٩].

الرفد: العطاء الذى يتناول شيئًا فشيئًا.

يقال: رفَدتُه: أنلته الرفد، وأرفدته: جعلت له رفدًا يتناوله شيئًا فشيئًا.

ورافد فلان فهو مُرْفَدٌ: استعير عن: أُعطِى الرئاسة.

والرَّفُود: الناقة التى تملأ المرفد [ما يجعل فيه الطعام أو اللبن من الضرع] لبنًامن كثرة لبنها. ومنه الرافدان فى العراق قال الشاعر:

فأطعمت العراق ورافديه فزارياً أحد من القميص

وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٨-٩٩].

أى: بئس العطاء المتبع عطاءً مثلَه، وسميت اللعنة هنا رفدًا تهكمًا، فيراد بئست اللعنة المتبعة لعنة أخرى.

الهبة: وهبة كذا: أعطاه إياه بلا عوض.

وهب الله لفلان مالاً وولدا- فى الأعيان- ووهب له علمًا وحكمة.

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾ [ابراهيم: ٣٩].

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ويقال: وهبت المرأة نفسها لفلان: رضيت أن ينكحها دون مهر، قال تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

والموهوبة- بالنسبه لرسول الله ﷺ تزوجها بمهر على ما هو التحقيق.

●●●

الأمنية- الرجاء

الأمنية: يقال: تمنى الشىء المحبوب: رغب فى أن يناله، وحدثته نفسه بوقوعه.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ [الحج: ٥٢].

يتمنى الرسول نشر دعوته، ويعرقل الشيطان ذلك بما يلقيه من الشبه على أتباعه وأوليائه.

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ [القصص: ٨٢].

وقد يكون ذلك بأن يرغب الإنسان فيما يشتهيه، وأكثر ما يكون ذلك فى الآمال الباطلة، كطول البقاء وعدم البعث.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: ٧٨].

أمانيهم أنهم لا يعذبون، ولا يحاسبون.

الرجاء: توقع حصول الشىء وفيه مسرة.

رجا الأمر يرجوه رجواً ورجاء: توقَّعه، وفيه مسرة.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦].

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ [الأسراء: ٢٨].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

أى: يؤمل حسن لقاء ربه، وأن يلقاه لقاء رضا، وقبول. ويأتى الرجاء بمعنى الخوف لأن الراجى يخاف ألا يتحقق أمله، ولذلك فالرجاء والخوف يتلازمان.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

يقول لهم شعيب:

افعلوا ما ترجون به العاقبة وهو الإيمان- وهو على هذا بمعنى التوقع- أوهو من الرجاء بمعنى الخوف.

ويغلب وقوع الرجاء فى القرآن الكريم بمعنى الخوف مع النفى، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ⑦ أُوْلَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس٧، ٨] أى: لا يخشون لقاء الله ولا يخافونه.

قال الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها

أرجت الناقة: دنا نتاجها، لأنها تجعل صاحبها يرجو قرب نتاجها.

●●●

الرغبة- الطمع

الرغبة: رغب في الشيء: أحبه وأراده وحرص عليه.

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧].

رغب إلى الشيء: توجه إليه ضارعًا.

قال تعالى: - في شأن المنافقين- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبه: ٥٩].

راغبون: متوجهون ضارعون سائلون؟

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الانشراح: ٨] توجه ضارعًا.

رغب عن الشيء: زهد فيه، وصرف نفسه عنه.

قال تعالى على لسان آزر: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مريم: ٤٦] أي: أأنت زاهد فيها وصارف رغبتك عنها. ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] رغب بنفسه عن الشيء: صانها.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] أي: لا يضنوا بأنفسهم عن نفسه، بل يبذلونها.

الطمع: الحرص مع الأمل والتفاؤل، وضد اليأس، ونزوع النفس إلى الشيء شهوة، وأكثر ما يكون ذلك في قريب الحصول.

قال تعالى: عن سحرة فرعون: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١].

وقال سبحانه عن بعض أهل الكتاب: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقال عز حكمه: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] وفي شأن بعض القسيسين: ﴿وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٤].

ولما كان أكثر الطمع من أجل الهوى قيل: الطمع طبع، و الطمع يدنس الإهاب.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر: ١٤، ١٥].

●●●

المأوى والمآب

المأوى: أوى المكان و إليه يأوى أويًا: نزله، وانضم إليه، والتجأ.

ويقال: آوى فلان فلانًا: ضمه إليه وأنزله.

والمأوى: اسم المكان الذى يُؤوى إليه.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٠].

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[السجدة: ١٩-٢٠].

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

المآب: آب يئوب: رجع، والأوبُ: الرجوع.

والمآب: اسم زمان واسم مكان (المكان الذى يرجع إليه).

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥].

﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٢]. أى مرجعًا ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد: ٣٦]. أى وإليه رجوعى.

ضل وغوى

أ - ضل:

١ - الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا.

والطريق المرتضى صعب جدًا، قال الله تعالى:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

وقال ﷺ: (استقيموا ولن تحصُوا) وقال بعض الحكماء: كوننا مصيبين من وجه، وكوننا ضالين من وجوه كثيرة.

يقال من الثلاثى اللازم:

(ضل)- كضرب- بفتح اللام فى الماضى، وكسرها فى المضارع. وهو الفصيح.

(ضل)-كشرب- بكسر اللام فى الماضى، وفتحها فى المضارع.

وقرئ بهما: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٤٩، ٥٠] ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

ومنهم من يقرأ كل شىء فى القرآن (ضللت)- (ضللنا) بكسر اللام.

٢ - الدليل على معنى العدول عن الطريق المستقيم قوله تعالى فى خطاب المكذبين لرسول الله ﷺ، وفى رميهم له بالجنون، وتلقى الوحى من الشياطين: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٦-٢٧].

٣- من العدول عن المنهج القويم- وهو الهداية إلى الحق -آيات كثيرة. منها قوله سبحانه: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]

وهذا هو الضلال البعيد، وهو الكفر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]

٤- ويقال: ضل الشيء: خفي وغاب، وضل الرجلُ الطريق: خفي عليه ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ [الصافات: ٦٩] ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وبمعنى النسيان والغفلة والسهو ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ [طه: ٥١، ٥٢] لا يغفل ولا يسهو.

وقال فرعون لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ١٩، ٢٠] أي فعلتها على سبيل السهو والخطأ اليسير.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] حائرًا في حال قومك.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أي في انحرافك عن الاعتدال في حب يوسف.

ب- أضل: ترد بمعنيين:

الأول: جعله ضالاً. الثاني: وجده ضالاً.

الأول: معناه أن يكون الإضلال سببًا للضلال، وهو أن يزين للإنسان الباطل ليضل كالشيطان وغيره.

قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ٦٠] ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢].

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٦].

ففعلهم ضلال لأنفسهم لا لك.

إضلال الله تعالى: على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون سببه الضلال، وهو أن يضل الإنسان فيحكم الله عليه بذلك فى الدنيا، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار فى الآخرة.

وهذا إضلال هو حق وعدل.

والثانى من إضلال الله: أن يضع الإنسان على هيئة تجعله يقبل ما يجده من الطريق المحمود أو المذموم، ويصير ذلك طبعًا له، وجبلة، وهذا من فعل الله تعالى فى خلقه، وهذا يكون فى الكافر والفاسق لإلفهما الضلال، والمؤمن بعيد عن ذلك.

وقال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]. ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٨٨] ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ [التوبه: ١١٥]

وإضلال الأعمال: إبطالها، وتضييعها، نتيجة لعدم هداية أصحابها.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١]

غوَى: جاء الفعل غوى (الثلاثى المجرد) وأغوى (المزيد بالهمزة)

يقال: غوى- بفتح الواو وكسرها- ومصدره غَواية كخسر خَسارة أو أن مصدره هو الغى، وغَوايَةٌ اسم منه.

وأغوى مصدره الإغواء

والمعنى الأصلي لهذا الفعل هو الفساد والإفساد حسياً أو معنوياً.

يقال: غوِى الصبى أو الفصيل: فسد جوفُه ويقال: غوى فلان: فسد عيشه، ويطلق بمعنى فساد الاعتقاد عن جهل، فالجهل من الاعتقاد الفاسد غَى.

والجهل كما يكون نتيجة اعتقاد فاسد يكون- أيضًا- نتيجة اعتقاد لا صالح ولا فاسد.

قال تعالى: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١] اعتقد آدم اعتقاداً فاسداً بالأكل من الشجرة ففسد عيشه.

وقد يستعمل الغى مجازًا للضلال والخيبة. فالاعتقاد الفاسد الناجم عن الجهل بالحق يؤدى إلى الضلال والانحراف عن الصواب، فالغَواية قد تكون سببًا للضلال- أحيانًا-

ويمكن أن يكون الضلال عن علم ومعرفة مع الاستكبار عنها.

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ٢] أى: هو مهتد.

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الإغواء: إفساد الاعتقاد كما يحدث ممن يزيِّن الإغواء، كالشيطان للإنسان.

والإغواء من الله تعالى بمعنى العقاب على الغَى، أو الحكم على الإنسان بذلك، لما هو عليه من جبلة الفساد أصلاً، قال تعالى: على لسان إبليس لعنه الله: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

الغى نقيض الرشد، والضلال نقيض الهدى.

الباب الثانى

لغة الحديث الشريف

• الفصل الأول

خصائص التعبير فى الحديث الشريف

• الفصل الثانى

من بدائع البيان النبوى

• الفصل الثالث

اللهجات والصيغ والتراكيب فى الحديث

الفصل الأول

خصائص التعبير فى الحديث الشريف

فصاحته وبلاغته ﷺ

لا ريب أن رسول الله ﷺ أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء، وكلامه ﷺ فى الذروة والسنام وحديثه ﷺ يلى فى الفصاحة والبلاغة- القرآن الكريم. ولا غرو فالحديث- وحى من الله تعالى- ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]. ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقبيلة قريش أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة.

وهو ﷺ أفصح الخلق قاطبة.

وقد سأله على - كرم الله وجهه- يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم العرب بما لا نعرف أكثره؟ قال: أدبنى ربى فأحسن تأديبى.

يقول الخطابى: «إن الله تعالى لما وضع رسوله ﷺ موضع البلاغ من وحيه، ونصبه منصب البيان لدينه اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها، وأبينها، ثم أيده بجوامع الكلم»!!

ويقول الجاحظ: قال يونس بن حبيب: ما جاءنا عن أحد من روائع الكلم ما جاء عن رسول الله ﷺ(١)، وقال الجاحظ عن كلام رسول الله ﷺ: «هو الكلام الذى قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف».

وخلاصة البلاغة العربية تتمحور فى حديث رسول الله ﷺ.

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٨ ط ١٩٤٨م.

يقول الزمخشرى: «ثم إن هذا البيان العربى كأن الله عزت قدرته مخضه وألقى زبدته على لسان محمد عليه أفضل صلاة وأوفر سلام»[(١)].

ويصف مصطفى صادق الرافعى بلاغته ﷺ فيقول: إنها «البلاغة الإنسانية التى سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تُصنع وهى من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها وهى- على السهولة- بعيدة ممنوعة» «وألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهى- إن لم تكن من الوحى فقد جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هى من دليله، محكمة الفصول، محذوفة الفضول، وهى فى سموها وإجادتها مظهر من خواطره»[(٢)].

كلامه ﷺ عالى الفصاحة والبلاغة فى حروفه وكلماته وتراكيبه فى هذا الطبع البلاغى الذى فطر عليه وضعًا، واشتقاقًا، وتقليبًا، ومخارج صافية رائقة وتركيبًا اجتمع له إحكام التنضيد والتنسيق.

●●●

(١) الفائق ١/ ١١

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣١٢.

[١] عن عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى لله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**(١).

قيل إن هذا الحديث يمثل ربع الدين(٢).

يقول أبو داود: «نظرت فى الحديث المسند فإذا هو أربعة آلاف حديث، ثم نظرت فإذا مدار أربعة آلاف الحديث على أربعة أحاديث: حديث النعمان بن بشير: **«الحلال بيّن والحرام بيّن»**، وحديث عمر: **«إنما الأعمال بالنيات»**، وحديث أبى هريرة: **«إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين»**، وحديث: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه»**، وذكر أن هذه الأربعة ربع العلم(٢) وذكر أحاديث أخرى تنضم إلى هذه الأربعة(٣).

وما أروع ما اختاره رسول الله ﷺ من الكلمات: إنما - الأعمال- بالنيات- امرئ- ما نوى.

«إنما» تفيد القصر والحصر- كما يقول علماء العربية.

وقوله ﷺ **«الأعمال بالنيات»** أسلوب قصر وحصر فلا تصح الأعمال ولا تقبل إلا بالنيات.

والمراد الأعمال التى تحتاج إلى نية لصحتها وقبولها كالوضوء، والصلاة والزكاة والحج والصوم والأحكام والمعاملات التى يحتاج فيها إلى النية، أما الأعمال التى لا

(١) البخارى، بدء الوحى ١-٢.

(٢) جامع العلوم والحكم.

(٣) فتح البارى ١/ ١٨.

تحتاج إلى النية فلا تشترط فيها كالأكل والشرب واللبس ونحوها وكرد الأمانات إلى أهلها، وبعض العلماء يرى أن الأفعال عامة تحتاج إلى النية.

والنيات جمع نية- بتشديد الياء وروى بتخفيفها.

والنية: القصد وهى انبعاث القلب نحو ما يراه موافقًا لغرض من جلب نفع أو دفع ضر حالاً أو مآلاً، وقيل: النية عزيمة القلب، وهى فى الشرع الإرادة المتوجهة إلى الفعل إرضاء لله وامتثالاً لحكمه.

والمراد- هنا- العزيمة على فعل ما عمومًا وجاء الحديث بتفصيل حالى المهاجر.

والتركيب هنا: «الأعمال بالنيات» فقابل الجمع «الأعمال» بالجمع «النيات» والمراد: كل عمل بنية فالنية تتعدد بتعدد الأعمال وجاءت بعض الروايات بإفراد النية وقيل فى مقابلة الجمع «الأعمال»، بالمفرد «النية» إن محل النية القلب- وهو متحد- فناسب إفرادها والأعمال متعلقة بالظواهر وهى متعددة فناسب جمعها، ولأن النية ترجع إلى الإخلاص وهو واحد للواحد الذى لا شريك له[(١)].

ولسائل أن يسأل: لماذا قال رسول الله ﷺ «إنما الأعمال» ولم يقل: «إنما الأفعال»؟

فنقول: بعض اللغويين يفرق بين العمل والفعل لكن الوارد فى اللغة ترادفهما، يقول الفيروزآبادى: العمل- محركة- المهنة والفعل وجمعه أعمال[(٢)].

واختار الرسول ﷺ التعبير بالأعمال لتكون الهمزة الشديدة والعين الناصعة والميم المذلقة والمد بعدها واللام موافقة لما عليه كلمة «النيات».

والباء فى «بالنيات» للمصاحبة أو للسببية فالنية تقوّى العمل وكأنها سبب فى حدوثه وإذا كانت مصاحبة له فهى جزء منه.

ولم يقل ﷺ «إنما الأعمال بنياتها» إذ هى لا تزيد شيئًا على «إنما الأعمال بالنيات» من

(١) فتح البارى.

(٢) القاموس «عمل».

حيث المعنى، ثم إن «إنما الأعمال بالنيات» أوفق معنى و«ال» فى «النيات» قائمة مقام الضمير.

ولسائل أن يسأل: لم عبّر بقوله «لكل امرئ» ولم يقل «لكل إنسان» ولماذا كرر «إنما»؟

لعل اختيار «امرئ» لملحظ معنوى فهو مأخوذ من المروءة يقال: مرؤ ككرم مروءة فهو مرئ أى هو متصف بهذه الصفة فالشخص يتصرف على مقتضى مروءته.

وجرس حروف «امرئ» يتناسب مع جرس حروف «نوى» التى وقعت بعدها فهو انسجام صوتى.

واستعمل هذا اللفظ فى القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿**كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾ [الطور: ٢١] فبقدر إخلاصه ومروءته يكون تصرفه فى حياته وحسابه، واستعمل الرسول ﷺ «ما» الموصولة فى قوله «ما نوى» مكان «الذى» وهى تفيد العموم فالمرء يحاسب على كل ما يأتيه خيرًا أو شرًا قليلاً أو كثيرًا. وكرر «إنما» ليؤكد أن الجزاء من جنس العمل.

ولسائل أن يسأل: جاء الشرط والجزاء متحدين فى قوله ﷺ: **«فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»** ولم يتحدا فى قوله - بعد ذلك- **«ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**.

نقول: الهجرة: الترك، يقال: هاجر إلى الشىء إذا ترك غيره وانتقل إليه والهجرة فى الشريعة: ترك ما نهى الله عنه إلى الطاعة.

والهجرة كانت إلى الحبشة وإلى المدينة المنورة.

فهى انتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام بعد أن استقر النبى ﷺ بالمدينة وكانت أولاً- انتقالاً من مكان لايأمنون فيه على أنفسهم إلى مكان آمن.

ثم أصبحت الهجرة بترك كل ما نهى الله عنه طاعة لله ورسوله.

واتحد الجزاء مع الشرط ليدل على عظم الجزاء فإذا كانت الهجرة إلى الله ورسوله فالجزاء لايقدر قدره وتذهب فيه النفس كل مذهب فالمجازى هو الواسع العطاء القادر عليه كما يقال: «من قصد حاتمًا فقد قصد حاتمًا» أى من جاءه نال الكرم الذى لا مثيل له لما هو معروف عنه من السخاء الوافر فهو أسلوب يقصد به التعظيم وهو يغنى عن الإطالة فى التعبير ويقوم اللفظ القليل مقام اللفظ الكثير.

أما الهجرة إلى الدنيا أو من أجل امرأة فهى هجرة إلى غير نفع دائم فقيمة التوجه إليها قليلة.

فالدنيا: من الدنو قيل لدنوها إلى الزوال، وقيل: لأنها قريبة منا وتقع قبل الآخرة الباقية فمن طلب هذا أو ذاك فقد طلب الحقير ما لم يكن متجهًا إلى الله ورسوله.

ويقال: كان الأولى أن تعرف «دنيا» فيقال: «الدنيا» مثل الكبرى والصغرى من الأوصاف، وقيل إنها انسلخت عن الوصفية.

ونص على «المرأة» بعد ذكر الدنيا مع أنها داخلة فى الأغراض الدنيوية قيل لسبب ورود الحديث فى مناسبة مهاجر أم قيس وقيل: هذا من ذكر الخاص بعد العام لمزيد الاهتمام بالتنبيه على التوجه لعمل ما من أجل امرأة وهو تحذير من فتنة النساء وهى فتنة ضررها شديد.

ولم يجعل الجواب متحداً مع الشرط- هنا- لأن أمور الدنيا لا تدخل تحت حصر، فإرادة العموم هدف التعبير النبوى الشريف.

[٢] عن أبى هريرة- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: **«الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»**. متفق عليه.

من كلام رسول الله ﷺ الجامع لشعب الإيمان وبعض العلماء، حاول تعداد هذه الشعب على العدد المذكور فى الحديث لكن جماعها أنها طرق للخير على اتساعها وشمولها فيكون ذلك دافعًا للمؤمن إلى المسارعة إلى فعل الخيرات.

ويوجز ابن حجر هذه الشعب فى أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن ولكن موافقتها للعدد أمر غير متعين على ما ذكروا.

والإيمان لغة: التصديق، وشرعًا: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، حلوه ومره إلى جانب العمل.

البضع- بكسر الباء وقد تفتح- عدد غير متعين من الثلاث إلى التسع وقيل من واحد إلى تسعة أو من اثنين إلى عشرة وروى غير ذلك لكن المشهور الأول.

والشعبة: الطائفة من كل شىء ومادتها اللغوية «ش ع ب» تدل على الجمع والتفريق والصدع والإصلاح والفساد.

والتعبير بـ «شعبة» أدق من التعبير بغيرها مثل قطعة أو جزء مثلاً لأن المادة «ش ع ب» ترشد إلى المعنى المراد من تعدد الجوانب فى الإيمان فلكل نوع خاص ولون معين من العبادات والأحكام والخيرات.

ولماذا خص الحياء بالذكر؟ وما معناه؟

قيل: إن الحياء شعبة لا تفارق المؤمن بحيث إذا تحققت تحقق الإيمان فلسان الإنسان وأعماله وقلبه كلها وما يصدر عنها من أعمال محتاج إلى الحياء فهو كالداعى إلى بقية الشعب واختلف فى الحياء وفى فهمه على حقيقته وفى التفرقة بينه وبين الخجل.

وحقيقة الحياء: أنه: خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير فى حق ذى الحق ونحو هذا.

والمراد بالقبيح: القبيح من الأقوال والأفعال والأخلاق فالحياء ملكة راسخة فى النفس تحملها على إيفاء الحقوق وترك القطيعة والعقوق، ويكتسب بالإيمان والتعود عليه.

قال أبو القاسم الجنيد «ت ٢٨٧هـ»:

الحياء: رؤية الآلاء، ورؤية التقصير يتولد بينهما حالة تسمى حياء.

أى أن الحياء رؤية العبد نعماء مولاه السابغة عليه بمحض فضله مع استغنائه عنه وعن سائر خلقه، مع ما يراه من تقصيره فى أداء خدمة مولاه وإعراضه عن حضرته مع كمال فاقته وفقره إليه.

وجعل الحياء بعض الإيمان لأن الإيمان يتنوع إلى:

ائتمار بما أمر الله، وانتهاء عما نهى الله عنه، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان.

ومنه الحديث: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»، المراد أنه إذا لم يستح الإنسان صنع ما شاء لأنه لا يكون له حياء «خلق» يحجزه عن المعاصى والفواحش.

قال ابن الأثير: وله تأويلان:

أحدهما: - ظاهر وهو المشهور- إذا لم تستح من العيب ولم تخش العار بما تفعله فافعل ما تحدثك به نفسك من أغراضها حسنًا كان أو قبيحًا.

ولفظ الحديث- حينئذ- أمر معناه التوبيخ والتهديد لمن لا يترك ما نهى الله عنه لا إباحة أن يصنع ماشاء. وفيه إشعار بأن الذى يردع الإنسان عن مواقعة السوء هو الحياء، فإذا انخلع منه كان كالمأمور بارتكاب كل ضلالة وتعاطى كل سيئة.

والثانى: أن يحمل الأمر على بابه، يقول: إذا كنت فى فعلك آمنًا أن تستحى منه لجريك فيه على سنن الصواب وليس من الأفعال التى يستحى منها، فاصنع منها ما شئت.

لكن الأشهر- هو الأول- صنع ما شاء على جهة الذم لترك الحياء وليس بأمره بذلك، وهو أمر بمعنى الخبر ومعنى الحديث أنه يأمر بالحياء ويحث عليه ويعيب تركه.

فالمستحى ينقطع بالحياء عن المعاصى ويفعل الخير ولذلك جاء عن عمران بن حصين- رضى الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياء لا يأتى إلا بخير**».

وفى رواية: «الحياء خير كله أو الحياء كله خير».

وعن أبى سعيد الخدرى- رضى الله عنه- قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها[1] فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه فى وجهه» متفق عليه.

وقد يخلط بعض الناس بين الحياء والخجل والصواب الفرق بينهما وأنهما مختلفان.

ففى معاجم اللغة خجل كفرح استحيا ودُهش ومضى ساكنًا لايتكلم ولا يتحرك[2].

وقيل: الخجل: الاسترخاء من الحياء والتؤبة «الانقباض» من الأبة «وأب» وهى العيب والعار والذل[3].

والخجل: أن يلتبس الأمر على الرجل فلا يدرى كيف المخرج منه، يقال: خجل فما يدرى كيف يصنع، وخجل بأمره: عىّ.

والخجل: الكسل والتوانى عن طلب الرزق وهو مأخوذ من الإنسان الخجل يبقى ساكنًا لايتحرك ولا يتكلم.

فالخجل يمنع صاحبه أن يواجه بالحق من يستحى منه فيترك إنكار المنكر عليه وأمره بالمعروف.

وقد يحمله الخجل على الإخلال ببعض الحقوق وغير ذلك مما هو معروف فى العادة.

وذلك المانع للإنسان أن يواجه بالحق ليس حياء وإنما هو عجز وخور ومهانة، وهو تعثر وانكسار يعترى الإنسان من خوف يمنعه من الجهر بالحق.

---

(١) أى من البكر حال اختلائها بزوجها الذى لم تعرفه من قبل.

(٢) القاموس ٣/ ٣٧٧.

(٣) لسان العرب ٢/ ١١، ١٣/ ٢١٣ والقاموس ١/ ١٤٠.

أما الحياء فخلافه لأنه مواجهة للنفس بالامتناع عن فعل القبيح .

وعن ابن عمر- رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء «وكأنه يقول له قد أضر بك الحياء» فقال رسول الله ﷺ : **«دعه فإن الحياء من الإيمان»**[(١)] .

[٣] عن عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- قال : **«بينا نحن جلوس عند رسول الله ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لايُرى عليه أثر السفر، ولايعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: أخبرنى عن الإيمان. قال: أن تومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت، قال: فأخبرنى عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرنى عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان، ثم انطلق فلبث مليًا، ثم قال: يا عمر أتدرى من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم»**. رواه مسلم .

أن تشهد: الأصل : الإسلام أن تشهد . . إلخ فحذف لقرينة وجوده فى السؤال . والمراد أن يقول ذلك بلسانه المتمكن من النطق فهو معتبر فى الإسلام ، فمن صدق بمضمونها ولم يأت بها مع عدم مانع من النطق فليس بمسلم ولا مؤمن ، ولا يعتبر النطق بها بالعربية على الصحيح مع التصديق القلبى بمضمونها ، ولم يأت بها مع عدم مانع من

(١) انظر فى هذه الأحاديث المروية هنا دليل الفالحين ١/ ٣٥٦، ٣/ ٥- ٦٢، ١٤٨ .

النطق فليس بمسلم ولا مؤمن، ولا يعتبر النطق بها بالعربية على الصحيح مع التصديق القلبى بمضمونها، وحكم الإسلام فى الظاهر يثبت بالشهادتين.

وتشهد أى تقرّ وتبيّن، و«أنّ» فى «أن لا إله إلا الله» هى المخففة من الثقيلة لتقدم ما يدل على العلم عليها، وبدليل العطف «وأن محمد رسول الله».

وذكر أركان الإسلام الخمسة لبيان كمال الإسلام وتمامه وإلا فإن أصل الإسلام يكفى فيه النطق بالشهادتين، ولذلك فإن بعض المعربين رفع «وتقيم الصلاة» وما بعده استئنافًا إيماء إلى أن الإسلام يكفى فى حصوله الشهادتان وحدهما.

ومعنى تقيم الصلاة: أى تعدل أركانها أو تديم إقامتها وهى الصلاة الشرعية التى هى أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

وتؤتى الزكاة: الواجبة كما هو مقرر فى كتب الفقه، والزكاة لغة: النماء والتطهير، وشرعًا، اسم للمخرج من ذلك.

وتصوم رمضان: من الصوم، وهو لغة: الإمساك، وشرعًا: إمساك مخصوص.

وسمى رمضان بهذا الاسم لأنه يرمض الذنوب أى يحرقها كما جاء ذلك فى خبر مرفوع، وقيل: لأن القلوب تحترق فيه من الموعظة.

وتحج البيت: الحج لغة القصد، وشرعًا: قصد الكعبة للنسك والبيت علم بالغلبة على الكعبة.

إن استطعت إليه سبيلاً: فسّر السبيل بالزاد والراحلة والتقييد بالاستطاعة اتباع للنظم القرآنى وإشارة إلى ما فى الحج من المشاق وعدم الاستطاعة فى الحج يسقط وجوبه من أصله بخلافه فى نحو الصلاة فإنه يسقط وجوب الأداء فقط دون أصل الوجوب.

والإيمان: لغة التصديق كأن المصدّق جعل الغير آمنًا من تكذيبه أو لأن المصدق صار ذا أمن من أن يكذبه غيره ويضمن فى الحديث معنى تعترف وتقر فيعدّى بالباء، ويعدَّى تؤمن باللام نحو: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وشرعًا : التصديق بالقلب فقط أى قبوله وإذعانه لما عُلم بالضرورة أنه من دين محمد ﷺ وهذا تعريف الأشاعرة والماتريدية، وقيل : يشترط أن ينضم إلى ذلك إقرار اللسان وعمل سائر الجوارح وهو مذهب الخوارج، وقيل : تصديق بالجنان وإقرار باللسان، واشتهر عن أصحاب أبى حنيفة وبعض محققى الأشاعرة وتصديق القلب ركن لايحتمل السقوط أما تصديق اللسان فيسقط بنحو خرس أو إكراه والإقرار باللسان شرط لإجراء الأحكام الدنيوية فحسب.

ويقول ابن حجر : إن لكل من الإسلام والإيمان حقيقة لغوية لكن كل منهما ملازم للآخر على سبيل التكميل له كما أن العامل لا يكون مسلمًا كاملاً إلا إذا اعتقد، فكذلك المعتقد لايكون مؤمنًا كاملاً إلا إذا عمل، وحيث يطلق الإيمان فى موضع الإسلام أو العكس أو يطلق أحدهما على إرادتهما معًا فهو على سبيل المجاز، ويتبين المراد بالسياق، فإن وردا معًا فى مقام السؤال حملاً على الحقيقة، وإن لم يردا معًا، أو لم يكن فى مقام السؤال أمكن الحمل على الحقيقة، أو المجاز بحسب ما يظهر من القرائن.

وذكر بعد الإيمان والإسلام السؤال عن الإحسان.

وهو العبودية لله : أى طاعته أو الخضوع والذلة له، أو معرفته أو التنسك.

كأنك تراه: قيل : أصله : كأنك تراه ويراك فحذف الثانى لدلالة الأول عليه، وهذا من جوامع كلمه ﷺ، لأنه جمع فيه مع وجازته بيان مراقبة العبد ربَّه فى إتمام الخشوع والخضوع وغيرها فى جميع الأحوال، والإخلاص له فى جميع الأعمال والحث عليهما مع بيان سببهما الحامل عليهما.

وهذا بالنسبة لمن تغلب عليه مشاهدة الحق.

فإن لم تكن تراه فإن يراك : هذا من جوامع كلمه ﷺ أيضًا : أى : فإن لم تكن تراه فلا تغفل فإنه يراك، وأما أحسن ما قيل :

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوتُ ولكن قل: علىّ رقيب

وهذا بالنسبة إلى من لا ينتهى إلى مشاهدة الحق لكن يغلب عليه أن الحق مطلع عليه، ومشاهد له.

وقوله: كأنك.. إلخ مفعول مطلق أو حال من فاعل «تعبد» قبله.

والإحسان مصدر أحسنت كذا، إذا حسّنته وكمّلته متعديًا بالهمزة. وهذا قد تكرر فى القرآن كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: الآية٦٠] وقوله سبحانه: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥] ولذلك سأل عنه جبريل ليعلم الناس عظم ثواب الإحسان وكمال رفعته، والمراد إتقان العبادة بأدائها على وجهها المأمور به مع رعاية حقوق الله تعالى ومراقبته، واستحضار عظمته وجلاله ابتداء واستمرارًا.

وأخر- فى الحديث- الإحسان عما قبله لأنه غاية كمالهما بل والمقوّم لهما إذ بعدمه يتطرق إلى الإسلام بمعنى الأعمال الظاهرة الرياء والشرك، وإلى الإيمان النفاق فيظهره رياء أو خوفًا.

أن تلد الأمة ربتها: أى سيدتها وفى رواية «ربها» أى سيدها وفى أخرى «بعلها» وهذا التعبير كناية عن كثرة التسرى اللازمة لاستيلاء المسلمين على بلاد الكفر حتى تلد السرية بنتًا أو ابنًا لسيدها فيكون ولدها سيدها كأبيه أو كناية عن كثرة بيع المستولدات لفساد الزمان حتى تشترى المرأة أمها وتسترقها جاهلة أنها أمها.

رعاء الشاء: يقصد أضعف الرعاة وهو أنسب للسياق من رعاء الإبل فإنهم أصحاب فخر وخيلاء وليسوا عالة غالبًا «فقراء» وعال: افتقر وأعال، كثرت عياله ولذلك فرعاء الشاء أبلغ مما لو أطلق الرعاء.

يتطاولون فى البنيان: كناية عن إسناد الأمر لغير أهله وصيرورة الأسافل ملوكًا أو كالملوك باتساع الدنيا عليهم بعد ضيقها إلى تشييد المبانى وهدم أركان الدين وفى الحديث: «من أشراط الساعة أن توضع الأخيار وترفع الأشرار».

واقتصر فى الحديث على بعض علامات الساعة دون جميعها مما ألف فى استقصائه كتب .

والغالب أن ما ذكر من علامات الساعة- فى الحديث- ذم لمن تنطبق عليه وقيل : لا يعد ذلك ذمًا له .

ولسائل أن يسأل : لم قال ﷺ حين سأله جبريل عن الساعة؟ ما المسئول عنها بأعلم من السائل دون أن يقول لست بأعلم بها منك؟

قال ابن حجر : عدل عن هذا إلى ذلك لأن ما عدل إليه لفظ يشعر بالتعميم تعريضًا للسامعين أى إن كل مسئول وكل سائل فهو كذلك بالنسبة لقيام الساعة .

وفى عبارة الرسول ﷺ تنوع الصيغ : مسئول- أعلم- سائل مع تكرر الهمزة والسين بما يعطى لونًا من الانسجام الصوتى .

وعبارة عمر حين قال له رسول الله ﷺ : أتدرى من السائل قال عمر : الله ورسوله أعلم .

هذه العبارة تدل على ما كان عليه الصحابة من حسن الأدب برد العلم إلى الله وإلى رسوله وأنه ينبغى لمن سئل عما لايعلم أن يقول ذلك .

وصار قول رسول الله ﷺ عن الساعة : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وقول عمر : الله ورسوله أعلم من الأقوال السائرة التى صارت مثلاً» .

وهذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ وهو أصل عظيم من أصول الدين يقول القرطبى : إن هذا الحديث يصلح أن يقال له أم السنة لما تضمنه من جمل علم السنة[(١)] .

●●●

---

(١) فتح البارى ١/ ١٥٢ .

المترادف فى الحديث

البر والإحسان

عن ابن مسعود- رضى الله عنه- قال: قلت: يارسول الله أى العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت ثم أى؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أىّ؟ قال: « الجهاد فى سبيل الله»، متفق عليه.

عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله. من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال : «أمُّك»، قال : ثم مَن؟ قال : «أمّك»، قال : ثم مَن؟ قال : «أمّك»، قال ثم مَنْ؟ قال : «أبوك»، متفق عليه.

وجاء عنه- عليه الصلاة والسلام- قال : «لو علم الله تعالى شيئًا أدنى من الأف لنهى عنه فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار».

أخرج البيهقى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليموت والداه أو أحدهما وإنه لهما لعاق، فلايزال يدعو لهما، ويستغفر لهما حتى يكتبه الله باراً».

وفيما أخرجه مسلم عن ابن عمر- رضى الله عنهما- قال : «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أبرّ البرّ صلة الولد أهل ودّ أبيه».

البر له معان كثيرة منها :

البرّ: الصدق والطاعة، قال تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة : ١٧٧].

وقال ﷺ : «ليس من البرّ الصيام فى السفر» أى ليس من الطاعة والعبادة.

ويأتى بمعنى الصلاح والخير.

قال عليه الصلاة والسلام، عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر .

وكل ما تقرّب به إلى الله عزّ وجلّ من عمل الخير .

كما قال تعالى : ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

والبرّ : الصلة والعطف والرحمة والرفق والكرم، يقال : بر رحمه : إذا وصله .

ويقال : رجل برٌّ من قوم أبرار - مثل نهر وأنهار - ورجل بار من قوم بَرَرة - مثل كاتب وكتبة .

وقال ابن عمر - رضى الله عنهما - إنما سمّاهم أبرارًا لأنهم برّوا الآباء والأبناء، وقال : كما أن لك على ولدك حقًا كذلك لولدك عليك حق .

وكان سفيان يقول : حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه وأن يزوجه إذا بلغ وأن يحُجّه ، وأن يحسن أدبه .

والإحسان من الحسن ضد القبح والحسن ضد السيئ، والحسن كل مبهج مرغوب فيه .

قال تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة : ٨٣] أى كلمة حسنة بعيدة عن شبهة القبح .

وقال تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت : ٨] أى وصيناه بما يدخل السرور عليهما مما يعد طيبًا فى الرأى والفكر المستقيم .

والإحسان يقال على وجهين :

أحدهما : الإنعام على الغير(١) يقال : أحسن إلىّ فلان .

والثانى : الإحسان فى فعل الإنسان، بأن يعمل عملاً حسنًا ومنه «الناس أبناء ما يحسنون» أى أنهم منسوبون إلى ما يعلمون وما يعملون من الأفعال الحسنة .

---

(١) لا تقول أنعمت على نفسى .

والإحسان فوق العدل كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] وذلك أن العدل هو أن يعطى ما عليه ويأخذ ما له ، والإحسان : أن يُعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقلّ مما له ، فالإحسان زائد على العدل .

فتحرى العدل واجب ، وتحرى الإحسان تطوع .

ولذلك عظم الله ثواب المحسنين فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، وقال : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة : ٩١] ، وقال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ، وقال : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ [الزمر : ١٠] .

ومن هنا يتضح أن البر الشفقة بالوالدين والعطف عليهما واعطاؤهما حقوقهما .

والبر ضد العقوق ، وهو الإساءة إلى الوالدين ، والتضييع لحقوقهما .

وهذا يتفق مع ما جاء فى قوله تعالى عن الإحسان : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

فالإحسان هنا- عدم الإساءة .

فالبرّ والإحسان يشتركان فى المعنى الأصلى وهو عدم الإساءة وإعطاء الحقوق الواجبة للوالدين ، وفى الشفقة والرحمة كما جاءت الآية .

إلا أن لكل من البر والإحسان استقلالاً بمعان أخرى .

فيزيد المعنى القرآنى فى اختيار لفظ الإحسان لأنه يشمل معنى أن يعطى الوالدين أكثر من حقهما عليه وأن يأخذ منهما أقل مما يجب عليهما «الزيادة فى حسن التعامل»

ويلمح فى الإحسان معنى إدخال السرور عليهما «من أن الإحسان يدل على كل مبهج مرغوب فيه».

أما البر فملموح فيه معنى العطف.

فالبر والإحسان يلتقيان ويفترقان ومع ذلك يجتمعان فى العناية بالوالدين حين استعمال اللفظين فى أمر الوالدين.

ولهما مجالات استعمال أخرى يتبين منها تعدد المعانى المرادة ودلالتها المتنوعة. وكلها تكشف عن مرونة اللغة وتعدد معانى الألفاظ.

ويلتقى التعبير النبوى مع تعبير القرآن الكريم فى المعنى العام وتنوع الدلالة بما يعبر عن مراد الحق سبحانه فى كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ.

●●●

العتل - الجواظ - الغليظ - الجعظرى

عن حارثة بن وهب - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جواظ مستكبر**» متفق عليه[1].

العَتْل: الدفع والإرهاق بالسوق العنيف أو العتل: أن تأخذ بتلبيب الرجل فتجره إليك وتذهب به إلى حبس أو بلية كما قال تعالى: ﴿**خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ**﴾ [الدخان: ٤٧] أى خذوه فاقصفوه كما يقصف الحطب.

وعتله يعتله: جره جراً عنيفًا، وجذبه فحمله.

والعُتُل الجافى عن المواعظ والشديد الخصومة ولديه لجاج فيها فلا يقبل الرأى الآخر ولا النصح.

جواظ: هو الجافى أو الصيَّاح الشديد وقيل: الفاجر.

الغليظ: الغلظة ضد الرقة فى الخلق والطبع والمنطق فعنده خشونة فى الكلام وشدة فى الجانب وسوء فى الخلق وشراسة.

والميثاق الغليظ: المؤكد المشدد كما فى قوله تعالى: ﴿**وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ [النساء: ٢١] قيل هو عقد المهر أو هو قوله تعالى: ﴿**فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾ [البقرة: ٢٢٩].

استكبر: فسر رسول الله ﷺ الكبر فى حديث شريف، قال رسول الله ﷺ: **لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر**، فقال رجل: يا رسول الله، الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنًا وأن تكون نعله حسنة، فقال ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**».

(١) دليل الفالحين ٣/ ٧٠.

وبطر الحق: دفعه وعدم الانقياد إليه، فالمستكبر هو الذى ينكر الحق ولايعترف به سواء كان حقًا لله تعالى أو حقًا من حقوق العباد.

و**«غمط الناس»** احتقارهم بعدم إعطائهم حقهم عليه من التقدير أو الاعتراف لهم بما عليه.

زاد فى رواية بعد «جواظ»: جعظرى.

والجعظرى: قيل هو الفظُّ الغليظ. وقيل: الذى لا عِرض له، وقيل: الذى يتمدح بما ليس عنده.

الضعيف والمتضعف:

وجاء الحديث عن حارثة بن وهب- رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو يقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتل جواظ مستكبر» متفق عليه.

ضعيف: أى كل متواضع يعترف بالحق ويخضع له ويستمسك به ويستجيب بأداء الحقوق لأصحابها، وعدم التفريط فى حقوق الله.

متضعف: روى بفتح العين وكسرها.

فعلى الكسر معناه أنه متواضع متذلل يخضع لله سبحانه ويذل له نفسه، ولا يبخل على الناس بحقوقهم.

وعلى الفتح: يستضعفه الناس ويطمعون فيه ويظنونه مجالاً للنيل منه لتواضعه لكنه فى الحقيقة ليس كذلك، لأنه لايفرط فى حق نفسه كما لا يطمع فى حق غيره.

وجاء فى رواية أخرى: كل ضعيف مستضعف.

ومعنى أبره: أنه لو حلف يمينًا طمعًا فى كرم الله بإبراره لأبره بحصول ذلك وبهذا يظهر الفرق بين أهل الجنة وأهل النار، وتتقابل الأوصاف عند الفريقين: ضعيف

متضعف - عتل جواظ جعظرى مستكبر : واختيار الألفاظ جاء معبراً عن معناها ومضمونها من الطاعة والانقياد عند أهل الجنة والتأبى والامتناع والصلافة عند أهل النار .

الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون والمتنطعون

عن جابر عن عبد الله- رضى الله عنهما- أن رسول الله، قال: «إنّ أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلىّ، وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» رواه الترمذى وقال حديث حسن.

الثرثارون: الثرثرة فى الكلام : كثرة الكلام وترديده والثرثار كثير الكلام المردد له تكلفًا وخروجًا على الحق ، فهو لا يستعمل كثرة الكلام فى الحق بل بضده وإنكاره .

المتشدقون: جمع المتشدق وهو الذى يتكلم من شدقيه تفاصحًا وتعظمًا لكلامه ، يقال : تشدّق : لوى شدقه للتفصح .

المتفيهقون: الفهقة : موصل العنق بالرأس .

وأصل الفهق : الامتلاء ، والاتساع ، يقال : أفهقت الإناء : ملأته ، وفهق الإناء : - بالكسر - امتلأ حتى يتصبب[(١)] .

الفهق : الواسع من كل شيء .

والمتفيهق : هو الذى يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه بالزائد على المطلوب بالإطناب والإسهاب ، ويغرب[(٢)] به تكبراً وارتفاعًا ، وإظهاراً لفضله على غيره .

وسئل رسول الله ﷺ : يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال : المتكبرون ومعنى ذلك أن المتفيهقين يملأون أفواهم بالكلام فى غير الحق ، والتقعر فى الكلام والتشدق فيه وتكلفه مكروه بوجه عام .

---

(١) اللسان ١٢/ ١٩٠ .

(٢) يغرب بالإتيان بالألفاظ الوحشية : أى التى لا يعرفها إلا علماء اللغة وتخفى على العامة ، ودقائق اللغة واستعمالها جائز مع غير العوام.

عن ابن مسعود- رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا: رواه مسلم.

المتنطعون: المتكلمون بعمق حلوقهم، مأخوذة من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم فيراد به المتعمقون المتطاولون فى الكلام واتسع ليشمل المتعمقين المتكلفين الخائضين فيما لا يعنيهم وما لا تبلغه عقولهم من الصواب فى الأمر، سواء فى ذلك الأقوال والأفعال.

التخلل

عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يُبغض البليغ الذى يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة» رواه أبو داود والترمذى وقال: حديث حسن.

يتخلل بلسانه: أى يلف الكلام كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفًا(١).

وبغض الله تعالى: نهاية الخذلان.

الفرك والفروك

عن أبى هريرة- رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لايفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضى منها آخر أو قال غيره». رواه مسلم.

لايفرَك:

الفرِك- بالكسر ويفتح- البغضة عامة كالفروك، أو خاص ببغضة الزوجين، فركها وفركته- كسمع فيهما- وكنصرِ شاذ- فركًا وفَركًا وفُروكًا، فهو فارك، وفَرُوك، ورجل مُفرك- كمعظم- تُبغضه النساء، ومفركَة: يُبغضها الرجال.

ومعنى لايفرك مؤمن مؤمنة: لا يبغضها على كل حال إن كره منها خلقًا «أى شيئًا من سوء الخلق» رضى منها خلقًا آخر «كالعفاف» أى لايقع من الزوج بغض تام لها.

(١) اللسان٤/ ٥٦٦، ٢٣٤.

وهو نهى : أى ينبغى ألا يبغضها .

وقد يكون نفيًا : على معنى أنه لايقع منه ذلك إذا كان يقيم حدود الله .

القراب والمغفرة

عن أنس- رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى. يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة» رواه أبو داود.

عَنان السماء: قيل : هو السحاب ، وقيل : هو ما عنّ لك منها أى : ظهر .

قراب الأرض : القُراب : مقاربة الشىء ، تقول معه ألف درهم أو قرابه ، ومعه ملء قدح أو قرابه ، وتقول : أتيته قراب العشى ، وقراب الليل ، ويقال : لو أن لى قراب هذا ذهبًا : أى ما يقارب ملأه(١) .

وقراب الأرض- بضم القاف وكسرها والضم أشهر- وهو ما يقارب ملئها . وعبر بالقراب مشاكلة ، وإلا فمغفرة الله أوسع وأعظم ، فالسبب الأعظم للمغفرة هو التوحيد .

وترادف المغفرة العفو، وفُرق بينهما بأن المغفرة لما لم يطلع عليه أحد ، والعفو لما اطلع عليه .

والمقصود ملء ما بين الأرض والسماء ، وملء طبقاتها السبع ، وهذا أبلغ فى سعة عفو الله تعالى .

المدرج- المدرجة- السبيل- السابلة

عن أبى هريرة- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ «أن رجلاً زار أخًا له فى قرية أخرى، فأرصد الله على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لى فى هذه

(١) اللسان ٢/ ١٥٨ .

القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها عليه؟ قال: لا، غير أنى أحببته فى الله تعالى، قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه» رواه مسلم.

المدرج: المسلك، الواحدة بهاء، وسلك المكان سلكًا وسلوكًا، دخل فيه والدرج- بالتحريك- الطريق.

والمدّرجة - بالضم وبالتحريك وكهمزة، وتشدد جيم هذه والأُدرجّة كأُسكُفّة: المرقاة.

واستدرجته: جعلته كأنه يدرج بنفسه[1].

السبيل: الطريق وما وضح منه، ويؤنث كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [النحل: ٩].

السابلة: من الطرق: المسلوكة، والقوم المختلفة عليها، وأسبلت الطريق: كثرت سابلتها[2].

تَرُبُّها عليه: ربَّ المعروف، والصنيعة، والنعمة يربُها ربًا وربيها: نماها، وزادها: وأتمها، وأصلحها.

والربى: الحاجة، يقال: لى عند فلان رُبى، والرّبى: النعمة، وهو الإحسان[3].

أى لك عليه نعمة تصلحها، وتحاول الوصول إليها، وتزيد فيها، وتتمها حتى تكون بصورة ترضيك، وتجعله يزيد فيها لك.

أو لأنك أسديت إليه نعمة، وتريد مقابلها، والزيادة عليها.

●●●

(١) القاموس ١/ ١٩٤, ١٩٤.
(٢) القاموس ٣/ ٤٠٣.
(٣) اللسان ١/ ٣٨٤.

الصرعة

قال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة».

الصَّرع: ويكسر: الطرح على الأرض كالمصرع، وهو موضعه أيضًا، وقد صَرَعه.

والصِّرعة- بالكسر- للفزع.

والصُّرعة- بالضم-: مَنْ يصرعه الناس كثيرًا، وكهمزة: مَنْ يصرعهم، يقال: رجل صرعة، وقوم كذلك، قاله الأزهرى فى التهذيب(١).

فقوله ﷺ: «ليس الشديد بالصُرعَة» أى: بالذى يصرع من يحاول صراعه لشدته.

يقول، فى معنى الحديث:

الحليم الذى يملك نفسه عند الغضب أقوى من هذا الذى يصرع الأقران، وأشد، إذ منع نفسه عن الغضب، وصرَفها عن استعماله عند ما يوجب عليه غضبُه.

●●●

(١) القاموس ٢/ ٣١١ والتهذيب ٢/ ٢٥.

حتف أنفه

ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «من مات حتف أنفه فى سبيل الله فقد وقع أجره على الله». فى رواية.

الحتف: الموت، وجمعه حتوف.

ومات حتف أنفه: أى بلا ضرب ولا قتل، ولا غرق، ولا حرب ونحو ذلك، وقيل: إذا مات فجأة.

قال أبو عبيد: هو أن يموت موتًا على فراشه من غير قتل ولا غرق ولا سبع ولا غيره.

قال ابن الأثير- فى النهاية- كأنه سقط لأنفه فمات، والحتف: الهلاك، قال: كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه بتتابع نفسه، فإن جُرح خرجت من جراحته.

ويقال- أيضًا- مات حتف فيه كما يقال: حتف أنفه، فنفسه تخرج بتنفسه من فيه، وأنفه، فهما مخرجا النفس.

ويقال: مات حتف- أنفيه- أيضًا.

قال:

حتفها تحمل ضأنٌ بأظلافها

كان رجل جائعًا بالصحراء، فوجد شاة، ولم يكن معه ما يذبحها به، فبحثت الشاة الأرض فظهر فيها مدية، فذبحها بها، فصار مثلاً لكل من أعان على نفسه بسوء تدبيره.

وقوله: مات حتف أنفه: نصب «حتف» على المصدر، كأنهم توهموا حتَفَ وإن لم يكن له فعل.

●●●

من المبتكر فى كلامه ﷺ

فى حديث الرسول ﷺ تراكيب جديدة لم تسمع من قبله مما يعد بديعًا فى نظمه ومعناه.

عن أبى هريرة - رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» متفق عليه.

ويفسر هذا القول الجامع على أوجه:

١- أنه خبر بمعنى الأمر.

فلكون المؤمن حازمًا حذرًا لايؤتى من جهة الغفلة فيخدع مرة بعد أخرى. وقد يكون ذلك فى أمر الدنيا، وهو أولاهما بالحذر.

٢- قيل: معناه: لاينبغى للمؤمن إذا نُكب من وجه أن يعود إليه.

٣- وقيل: من عوقب فى الدنيا بذنب لايعاقب عليه فى الآخرة.

وقيل: المراد بالمؤمن: الكامل، أى الذى وقفته معرفته على غوامض الأمور، حتى صار يحذرها.

وأما المؤمن المغفل فقد يُلدغ مرارًا.

«من جحر» زاد بعض رواة البخارى «واحد» وفى بعض النسخ «من جحر حية» وهى رواية شاذة.

وفى الحديث أدب شريف أدب به ﷺ أمته، ونبههم كيف يحذرون من سوء العواقب.

عن أبى الفضل العباس بن عبد المطلب- رضى الله عنه قال: «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين[1] فقال رسول الله ﷺ أى عباس ناد أصحاب السمُرة[2]، وكان العباس

(١) محل قرب عرفة كان فيه القتال مع هوازن سنة ثمان من الهجرة، وكان جيشه ﷺ اثنى عشر ألفًا

(٢) يقصد بيعة الرضوان، وكانت عند سَمُرة.

رجلاً صيتًا[١] فناداهم فقالوا يا لبيك، يا لبيك، فاقتتلوا هم والكفار، ثم وجهت الدعوة إلى الأنصار يقولون يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار ثم قصُرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته «البيضاء» كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: هذا حين حمى الوطيس، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: انهزموا ورب الكعبة، فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فو الله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدّهم[٢] كليلاً، وأمرهم مدبراً» رواه مسلم.

قوله ﷺ:

«هذا حين حمى الوطيس»:[٣]

وَطس الشيء: كسَره ودقه، والوطيس المعركة، لأن الخيل تطسها بحوافرها.

وقيل: الوطيس: حفرة تُحتَفَر ويختبزُ فيها ويُشوى وشبه ذلك سميت به الحرب لحرها.

وقيل: الوطيس: حجارة مدورة، فإذا حميت لم يمكن لأحد الوطء عليها.

أو أراد بالوطيس دق الناس وقتلهم بالوطء وأصله من وطء الخيل والإبل.

والوطيس: التنور.

فقوله ﷺ المذكور معناه: هذا وقت شدة الحرب.

هذا مبتدأ وحين ظرف خبر إلا أنه بنى لإضافته إلى مبنى جملة «حمى الوطيس» وفعلها ماض مبنى، ويجوز رفع «حين» وهو قليل فى العربية.

وهذا القول من رسول الله ﷺ عبّر به عن الضراب فى الحرب أى حمى الضراب فى الحرب وجدت الحرب ويضرب مثلاً للأمر إذا اشتد حمى الوطيس.

●●●

(١) أى: قوى الصوت، يُسمع صوته من نحو ثمانية أميال.

(٢) حدهم: قوتهم

(٣) لسان العرب ٨/ ١٤٢.

الفصل الثانى

من بدائع البيان النبوى

[١] عن أبى هريرة قال: قيل يارسول الله: ما يعدل الجهاد؟ قال: «إنكم لاتستطيعونه»، فردوا عليه مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه»، فقال فى الثالثة: «**مثل المجاهد فى سبيل الله مثل الصائم القائم الذى لايفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله**».

المعانى اللغوية

ما يعدل الجهاد؟:

أى أى عمل يساوى الجهاد فى الفضل والثواب.

القائم: الذى يصلى دائمًا.

لا يفتر من صلاة ولا صيام:

أى لا يسأم، ولا يمل، فلا يترك ساعة دون العبادة من صوم أو صلاة.

حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله:

أى إلى بيته أو حتى ينصرف عن جهاده.

المسائل النحوية

ما يعدل الجهاد:

«ما» استفهامية مبتدأ وجملة «يعدل» خبر.

الأسرار البلاغية

مثل المجاهد فى سبيل الله مثل الصائم القائم الذى لا يفتر:

هنا تشبيه، شبه حال المجاهد فى سبيل الله، بحال الصام القائم فى نيل الثواب، فى كل حركة وسكون، لأن المراد من الصائم القائم من لايفتر ساعة عن العبادة، فأجره مستمر وكذلك المجاهد لا تضيع ساعة من ساعاته بغير ثواب ويتضح ذلك فى قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

المعنى العام

هنا يتحدث الرسول ﷺ عن الجهاد وعظم أجره، والثواب الكبير الذى يناله صاحبه، ويبين لأصحابه- عندما سألوه عن العمل الذى يساوى الجهاد فى الأجر والثواب- أنه عمل لا يستطيعونه، ويكرر ذلك ليدلل على مشقة هذا العمل، والأجر العظيم الذى يناسبه، فعمل المجاهد يشبه عمل إنسان يصلى ويصوم، ليلاً ونهارًا، لايمل ولا يسأم حتى يرجع المجاهد إلى بيته، من جهاده، ففى ذلك- ولا شك- صعوبة بالغة، فالإنسان يصوم نهاره، ويفطر بعد إحساسه بالجوع والعطش، وبعده عن كل ما يحب من الممنوعات، فما بال من يصوم صومًا دائمًا؟!! وهو يصلى الأوقات المفروضة- مع تعب وجهد- فما بال من يصلى صلاة دائمة لا تنطقع؟ فالمجاهد فى سبيل الله، يشبه هذا الإنسان، فى نيل الثواب، فأجره مستمر، حتى يعود من جهاده، فلا تضيع ساعة من ساعات جهاده دون أجر وثواب.

[٢] عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنية وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله وإلى رسوله، فهجرته إلى الله وإلى رسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»**.

المعانى اللغوية

إنما الأعمال بالنية:

الأعمال : أعم من أن تكون أقوالاً ، أو أفعالاً ، فرضًا أو نفلاً ، قليلة أو كثيرة صادرة من المكلفين المؤمنين .

والنية : القصد ، أو انبعاث القلب نحو ما يراه موافقًا لغرض من جلب نفع أو دفع ضرر ، حالاً أو مآلاً ، وقد خصصها الشرع بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضا الله وامتثال حكمه .

والنية- فى الحديث- محمولة على المعنى اللغوى .

ووقع فى معظم الروايات إفراد النية ، ووجهه : أن محل النية القلب وهو متحد فناسب إفرادها ، بخلاف الأعمال فإنها متعلقة بالظواهر ، وهى متعددة فناسب جمعها ، ولأن النية ترجع إلى الإخلاص وهو واحد للواحد الذى لا شريك له .

ووقع فى رواية البخارى فى أول صحيحه «بالنيات» بالجمع ، وهو من مقابلة الجمع بالجمع ، أى كل عمل بنيته ، وكأنه أشار بذلك إلى أن النية تتنوع ، كما تتنوع الأعمال .

وإنما لا مرئ ما نوى:

معناها : العامل لايحصل له إلا ما نواه ، أو المعنى : أن من نوى شيئًا يحصل له إذا عمله بشرائطه ، أو حال دون عمله ما يعذر شرعًا ، وكل ما لم ينوه لم يصل له .

فمن كانت هجرته إلى الله وإلى رسوله فهجرته إلى الله وإلى رسوله :

الهجرة : الترك ، والهجرة إلى الشىء : الانتقال إليه عن غيره ، وفى الشرع : ترك ما نهى الله عنه .

وقد حدثت- فى الإسلام- هجرات إلى الحبشة وإلى المدينة ، وهاجر إلى ذلك من أمكنه من المسلمين .

ومعنى العبارة : أن من قصد وجه الله ورسوله بعمله ، من هجرة حقيقية أو ترك للمعاصى ، جازاه الله خيراً .

ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها:

الدنيا: هى كل المخلوقات من الجواهر والأعراض، الموجودة قبل الآخرة أو هى: مجموع هذا العالم المتناهى. ويطلق على كل جزء منها دنيا مجازاً، ويراد هنا شىء من الحظوظ النفسانية وغيرها، ومعنى: يصيبها: يقصد تحصيلها لنفسه.

فهجرته إلى ما هاجر إليه:

معناها: منصرفة إلى الغرض الذى هاجر إليه، فلا ثواب له على هذا الاتجاه، لأنه دنيوى بحت، يقول تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾ [الشورى: ٢٠].

المسائل النحوية

إنما الأعمال بالنية:

الجار والمجرور «بالنية» متعلق بمحذوف تقديره: تعتبر أو تحصل أو تكمل، أو تستقر أو تكون.. إلخ.

من كانت هجرته إلى الله وإلى رسوله فهجرته إلى الله وإلى رسوله:

الأصل: تغاير الشرط والجزاء، وقد وقعا هنا متحدين لفظًا لكن اختلفا معنى، وهذا قد فهم من السياق فالمعنى: فهجرته مقبولة، أى مكافأ عليها.

ومن أمثلة ما حمل على المعنى مع الاتفاق فى اللفظ قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾ [الشورى: ٢٠].

ومن أمثلة ما حمل على المعنى مع الاتفاق فى اللفظ قوله تعالى: ﴿**وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا**﴾ [الفرقان: ٧١] ومثله قولك- من قصدنى فقد قصدنى- أى فقد قصد من عرف بإنجاح قصده، وهو مؤول على إرادة المعهود المستقر فى النفس،

وهذا كقولهم أنت أنت، أى الصديق الخالص، وقولهم: هم هم أى الذين لايقدر قدرهم، وقول الشاعر:

أنا أبو النجم وشعرى شعرى

يصيبها:

حال.

الأسرار البلاغية

إنما الأعمال بالنية:

«إنما» أداة قصر يقع بعدها المقصور، ويتأخر عنها المقصور عليه.

والمراد: أن الأعمال تحتسب بنية ولا تحتسب إذا كانت بلا نية.

وإنما لا مرئ ما نوى:

قيل: إنها تفيد ما تفيده الجملة الأولى، وهو تحقيق النية، والإخلاص فى الأعمال فهى جملة مؤكدة للأولى.

وقيل: إنها جملة جديدة مغايرة لسابقتها، فالأولى نبهت على أن العمل يتبع النية، وهذه تفيد أن العامل لايحصل له إلا ما نواه على حد ما بينا فى شرح المعانى اللغوية، وهذا أقوى، وهو أسلوب قصر كسابقه.

يصيبها:

هنا استعار إصابة السهم للغرض، للحصول على الأمور الدنيوية، بالقصد إليها، ثم اشتق منه: «يصيب» بمعنى: يقصد، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

أو امرأة يتزوجها:

ذكر للخاص بعد العام، فقد خص إرادة الزواج من المرأة، وهو غرض دنيوى، بعد أن ذكر قصد الأمور الدنيوية، ومتاعها على العموم، وهذا الذكر الخاص مقصود، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

فقد روى عن ابن مسعود قال: كان فينا رجل خطب امرأة، يقال لها أم قيس، فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر، فهاجر فتزوجها، قال: فكنا نسميه مهاجر أم قيس.

المعنى العام

يتحدث الرسول الكريم عن العمل النافع، وهو الذى يكون خالصًا لوجه الله تعالى، فالإخلاص هو لب العمل، وجوهره، وعلى كل إنسان أن يتجه إلى ربه، دون هوى دنيوى، أو غرض معيشى فى هذه الحياة التى لا قيمة لها، إلا بوصلها بالعمل الأخروى، الصادق النية، وطالما تصدر من الإنسان أعمال كثيرة أقوالاً وأفعالاً، وقد يبدو منها خلاف ما يستتر، فقد تظهر على صاحبها علامات الصدق، وفى الحقيقة، لا يكون صادقًا مع نفسه، ولا مع الله سبحانه، بأن يكون فعلها رياء، أو لغرض دنيوى، بحت، فقد يصلى أو يصوم، أو يزكى، أو يخرج مجاهدًا، لأغراض مبعثها الأمل الدنيوى، والمنفعة الشخصية، كأن يقدره الناس أو ليكسب نفعًا خاصًا، بهذه الحياة الفانية.

ولقد حدثت فى صدر الأسلام، هجرات، لم يكن هدفها ابتغاء وجه الله بل كانت تختفى وراءها أطماع شخصية، وأهداف دنيوية، كما حدث للرجل الذى هاجر من أجل الزواج بإحدى النساء، ولم يستشعر المعنى الدينى فى هجرته، فكانت هجرته مردودة لا ثواب له فيها.

فكل ميسر لما خلق له، من قصد وجه الله كان ثوابه عظيمًا، ومن قصد غير ذلك رد عمله عليه، وخسر الآخرة التى هى خير وأبقى.

[٣] عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أحدثكم بأكبر الكبائر»**، قالوا: بلى يارسول الله، قال: **«الإشراك بالله وعقوق الوالدين»** قال: وجلس وكان متكئًا قال: **«وشهادة الزور وقول الزور»** فما زال رسول الله ﷺ يقولها حتى قلنا ليته سكت.

المعانى اللغوية

أكبر الكبائر:

الكبائر جمع الكبيرة وهى السيئة العظيمة التى خطيئتها فى نفسها كبيرة، وعقوبة فاعلها عظيمة بالنسبة إلى معصية ليست بكبيرة.

أو المراد بالكبر هو بالنسبة لغيرها من الذنوب، فقد يكون الذنب كبيرة بالنسبة لما دونه، صغيرة بالنسبة إلى ما فوقه، وقد يتفاوت باعتبار الأشخاص والأحوال وقيل الكبيرة ما أوعد عليه الشارع، وقيل ما عين له حد.

وليس المراد بأكبر الكبائر أن هذه الثلاثة المذكورة أكبرها على الإطلاق فهى ليست محصورة فيها وحدها بل المراد أنها من أكبر الكبائر، فالملاحظ وجود «من» مقدرة والحصر ليس على ظاهره فقد ثبت فى أشياء أخر أنها من أكبر الكبائر ووردت فى أحاديث نبوية مثل قتل النفس، واليمين الغموس، واستطالة المرء فى عرض مسلم وسوء الظن بالله ونحو ذلك.

وعقوق الوالدين:

العقوق مشتق من العق، وهو القطع يقال: عق والده يعق عقوقًا والمراد به صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل، إلا فى شرك أو معصية ما لم يتعنت الوالد.

وحدد ذلك بعض العلماء بوجوب طاعة الوالدين فى المباحات فعلاً وتركًا واستحبابها فى المندوبات وفروض الكفاية.

وجلس وكان متكئًا:

أى للاهتمام بكبيرة القول الزور، وهو يفيد تأكيدًا لتحريمه وعظم قبحه وسبب الاهتمام بذلك كون قول الزور أو شهادة الزور أسهل وقوعًا على الناس والتهاون بها أكثر، فإن الإشراك ينبو عنه قلب المسلم والعقوق يصرف عنه الطبع وأما الزور

فالحوامل عليه كثيرة كالعداوة والحسد وغيرهما فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها من الإشراك قطعًا بل لكون مفسدة الزور متعدية إلى غير الشاهد بخلاف الشرك فإن مفسدته قاصرة غالبًا .

المسائل النحوية

الإشراك بالله وما بعده:

خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره: أكبر الكبائر . . إلخ .

وكان متكئًا:

الجملة حال .

الأسرار البلاغية

تكرير شهادة الزور أكثر من مرة يقصد منه، التنبيه على خطورتها وعظم قبحها وطلب الابتعاد عنها .

المعنى العام

يحدثنا الرسول الكريم عن الذنوب العظيمة التى توجب غضب الله سبحانه وعقوبته لمرتكبها .

فقد بدأ صلوات الله عليه بالشرك بالله، فهذا جرم كبير يجب الابتعاد عنه لأنه يوجب العقاب الأليم، وثنى بعقوق الوالدين، وهو صدور ما يتأذى به الوالد من ولده، من قول أو فعل، فيجب على الإنسان أن يكون بارًا بوالديه، يطيعهما فى المباحات، اللهم إلا فى طلبهما منه الشرك أو المعصية، فعليه أن يمتنع عن الطاعة حينئذ، وثالث الكبائر- كما قال الرسول ﷺ - شهادة الزور وقول الزور، واهتم الرسول ﷺ بها فقد كان متكئًا فجلس، حتى يلفت أنظار سامعيه إلى أن ما سيقوله أمر هام، ولا شك أن قول الزور وشهادة الزور تكثر بين الناس فهى أسهل وقوعًا من الشرك بالله، وعقوق

الوالدين، وفضلاً عن ذلك فهى تفسد العلاقات بين الناس، ويتعدى ضررها إلى أكثر من شخص ويكون سببها الحسد والكراهية، لذا اهتم الرسول ﷺ بها فهو يريد لأمته الوفاق، والمحبة، ويحاول أن يبعد بهم عما يمزق وحدتهم، وما يؤدى إلى شيوع البغضاء والكراهية بينهم.

[٤] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المسلم أخو المسلم لا يخونه، ولا يكذبه، ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام، عرضه وماله ودمه، التقوى ههنا، بحسب امرئ من الشر أن يحتقر أخاه المسلم»**.

المعانى اللغوية

المسلم أخو المسلم:

دعوة إلى تعامل المسلمين ومعاشرة بعضهم لبعض، معاملة الأخوة ومعاشرتهم، بالمودة، والرفق، والشفقة، والملاطفة، والتعاون فى الخير ونحو ذلك من صفاء القلوب، والنصيحة بكل حال.

لايخونه:

من الخيانة بمعنى أن يكون أمينًا معه، فى كل شىء، حديث أو معاملة أو حفظ حقوق، أو نحو ذلك.

ولا يخذله:

من الخذلان، وهو ترك النصرة، والإعانة، فعليه أن يعينه فى دفع الظلم عنه، إذا أمكنه.

كل المسلم على المسلم حرام عرضه:

العرض: موضع المدح والذم من الإنسان، سواء كان فى نفسه أو فى سلفه، أو من يلزمه أمره وقيل: هو جانبه الذى يصونه، من نفسه، وحسبه، ويحامى عنه أن ينتقص ويثلب، وقيل: عرض الرجل: نفسه وبدنه لا غير. والأول أقوى.

التقوى ههنا:

المراد: أن محلها القلب، ولا ترى بالعين، فلا ينبغى الإساءة إلى إنسان واحتقاره، لعدم وضوح سمات التقوى عليه، فالذى يعلمها هو الله وحده.

والمعنى: أن من كان قلبه تقيًا لا يحقر مسلمًا.

يحسب امرئ من الشر أن يحتقره أخاه المسلم:

المعنى: أن احتقار الأخ المسلم، والإساءة إليه هو نهاية الشر والرذائل الخلقية.

المسائل النحوية

بحسب امرء من الشر أن يحتقر أخاه المسلم:

حسب: مبتدأ، والباء حرف جر زائد، والمصدر المؤول من «أن يحتقر» خبره، أى حسبه احتقار أخيه المسلم.

كل المسلم على المسلم حرام عرضه.. إلخ:

العرض وما بعده بدل من «كل».

الأسرار البلاغية

المسلم أخو المسلم:

تشبيه، شبه المسلم فى تعاونه مع المسلم بالأخوين الشقيقين، فى وجوب المعاملة الحسنة.

لايخونه ولا يخذله:

جملتان خبريتان لفظًا: إنشائيتان معنى، فهما فى معنى الأمر بعدم الخيانة والخذلان.

المعنى العام

إن الإسلام يدعو إلى المودة، والرحمة بين الناس، وفى هذا الحديث يوضح الرسول ﷺ، أن المسلم أخ المسلم، يعامله برفق ويعاشره معاشرة حسنة، وينصحه،

ويكون معه صافى القلب، والنفس، فلا يخونه بل يكون أمينًا معه، فى كل شىء سواء فى المعاملات وحفظ الحقوق أو غير ذلك من الأمور.

وكذا يجب أن يكون عونًا له فى دفع الظلم عنه، ونصرته ومساعدته إذا احتاج إليه، ويجب عليه أن يصون عرضه فلا يذمه فى نفسه، أو فى سلفه، ولا يغتصب ماله، ولا يعتدى عليه بقتل النفس، التى حرم الله إلا بالحق.

ثم يحذر الرسول ﷺ من الانخداع بالمظهر، وظن التقوى أو عدمها فى إنسان لمجرد مظهره، فالتقوى محلها القلب، ورب أشعث أغبر، لو استجار بالله لأجاره، فالتقوى يعلمها الله وحده، لأن اعتبار المظهر قد يتسبب عنه أن يحتقر المسلم أخاه.

نبه هنا الرسول ﷺ على أن احتقار المسلم والإساءة إليه هو نهاية الشر، وجرم كبير ورذيلة خلقية، تتنافى مع الإسلام ومبادئه التى تدعو إلى احترام الإنسان، وتقديره لأخيه المسلم.

[٥] عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا يارسول الله من لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله ﷺ: المفلس من أمتى، من يأتى يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقعد، فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرح عليه، ثم طرح فى النار».

المعانى اللغوية

أتدرون:

أى: أتعلمون؟

المفلس فينا:

أى: بيننا، ويقصدون بحسب عرف أهل الدنيا، وقد غفلوا عن أمر الآخرة وكان حقهم أن يقولوا: الله ورسوله أعلم، لأن المعنى الذى ذكروه كان واضحًا عند النبى ﷺ.

من لا درهم له ولا متاع:

من ليس عنده مال نقدى يملكه، ولا شيء يتمتع به من الأقمشة، والعقار والمواشى، وأمثال ذلك.

قال رسول الله ﷺ: المفلس

يريد ﷺ بيان المفلس الحقيقى، أو مفلس الآخرة، أما من ليس له مال ومن قل ماله، فالناس يسمونه مفلسًا، وليس هذا حقيقة المفلس لأن هذا أمر يزول، وينقطع، بموته، وربما انقطع بيسار يحصل له بعد ذلك فى حياته، بخلاف ذلك المفلس، الذى تحدث عنه الرسول ﷺ، فإنه يهلك الهلاك التام.

من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا.. إلخ:

المفلس: هو هذا الذى قد يكون غنيًا فى الدنيا، وله أعمال صالحات مقبولة، من صلاة، وصيام، وزكاة، لكنه كان قد فعل أشياء قبيحة، واعتدى على الناس.

فشتم أحد الناس، أو رماه بالزنا، ونحوه، أو أكل أموال الناس بالباطل أو أراق دم إنسان، ظلمًا أو ضربه من غيره وجه حق، اعتداء.

والمعنى: أنه جمع بين تلك العبادات وهذه السيئات.

فيقعد فيقتص هذا من حسناته:

أى: يأخذ كل إنسان مظلوم حقه من حسنات هذا الظالم، نظير ظلمه قصاصًا وهكذا.

فإن فنيت حسناته أخذ من خطاياهم فطرح عليه:

فإذا استنفدت حسناته فى مظالم الناس وانتهت قبل أن تنتهى السيئات التى فعلها مع الناس أخذ من سيئات خصومه، فوضعت عليه، ثم ألقى به فى النار، حيث لا حسنات عنده، فهو مفلس، على سبيل الحقيقة، لا يستطيع أن ينقذ نفسه من العذاب الذى حاق به.

وليس فى الحديث تعارض مع الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨].

لأنه إنما عوقب بفعله، ووزره، فقد كانت عليه حقوق، دفعت لغرمائه، من حسناته، فلما فرغت أخذ من سيئاتهم فحملت عليه، فحقيقة العقوبة مسببة لظلمه، ولم يعاقب بغير جناية منه.

المسائل النحوية

يأتى بصلاة:

الباء- هنا - للتعدية.

ويأتى قد شتم هذا:

جملة «قد شتم هذا» - وما بعدها- أحوال من فاعل «يأتى».

الأسرار البلاغية

أتدرون:

الاستفهام هنا يراد به إرشاد الصحابة، والمسلمين من بعدهم، ولا يقصد به حقيقة السؤال.

أكل مال هذا:

استعار الأكل لأخذ المال وعدم رده إلى صاحبه، ثم اشتق منه «أكل» على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

المعنى العام

ليس الإسلام أن يصلى الإنسان، ويصوم، ويزكى، ثم يرتكب ما يشاء من المعاصى، ويهدر الحقوق الإنسانية.

والرسول الكريم هنا يحدثنا عن هذا النوع من الناس الذين يأتون يوم القيامة، مفلسين على الرغم مما قدموا من أنواع الحسنات، لأنهم ارتكبوا جرائم اجتماعية أخرى أنقصت من قدر ما فعلوا، وربما أتت عليه، وبقى صاحبه من غير عمل صالح، فيلقى فى نار جهنم.

وقد وجه الرسول الكريم إلى أصحابه سؤالاً عن معنى الإفلاس، فأجابوا من واقع حياتهم، الدنيوية، فالمفلس- فى نظرهم- من لا مال معه، ولا متاع، ورد الرسول الكريم بحقيقة المفلس، وأن الأمر يتعلق بالعمل، فالمفلس هو الذى يأتى يوم القيامة، وقد عمل كثيراً من الصالحات، إلا أن سلوكه فى الدنيا كان شريراً فقد شتم بعض الناس، ونال من عرض الآخرين، وأكل الأموال بالباطل، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، فلكل هؤلاء حقوق عليه، يقتصون منه، واحداً بعد الآخر، بسلب حسناته، حتى تنتهى ولا يبقى منها شىء ويظل لبعض الناس حقوق عليه، فتؤخذ من سيئاتهم، وتلقى على كاهله، ولا حسنات له فيلقى فى النار.

ولا ينفعه- عندئذ- ما قدم من صلاة، وصيام، وزكاة، لأنه كان يجب أن تنهاه تلك الأعمال الصالحة عما ارتكب من سيئات فطوبى لعبد عمل الصالحات، ونأى بنفسه عن المنكرات.

> [٦] عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبى ﷺ فى سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه، ونحن نسير، فقلت: يارسول الله، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة، ويباعدنى عن النار. قال: «لقد

سألتنى عن عظيم، إنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل»، قال: ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [السجدة: ١٦] حتى بلغ يعملون، ثم قال: «ألا أخبركم برأس الأمر كله، وعموده، وذروة سنامه»، قلت: بلى يارسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد»، ثم قال: «ألا أخبركم بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يارسول الله، قال: «فأخذ بلسانه، قال: كف عليك هذا»، فقلت: يا نبى الله، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم، أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم».

المعانى اللغوية

كنت مع النبى ﷺ فى سفر:

ربما كان ذلك فى غزوة تبوك، فقد ورد فى رواية أخرى لهذا الحديث: بينما نحن نخرج مع رسول الله ﷺ، فى غزوة تبوك، وقد أصابنا الحر، فتفرق القوم، فإذا رسول الله ﷺ، أقربهم منى، فدنوت منه وقلت. . إلخ.

سألتنى عن عظيم:

أى: عن عمل عظيم فعله على النفوس.

إنه ليسير على من يسره الله له:

أى: إنه هين وسهل على من سهله الله له.

تعبد الله:

بمعنى: عبادتك لله.

وتقيم الصلاة:

بمعنى: إقامة الصلاة، بالمداومة عليها، والمراد الإتيان بها بشروطها وأركانها.

وتؤتى الزكاة:

بمعنى: إيتاء الزكاة، والمقصود إعطاؤها لمستحقيها بإخراج جزء من المال على وجه مخصوص.

وتصوم رمضان وتحج البيت:

بمعنى: صيام رمضان وحج البيت.

ألا أدلك على أبواب الخير:

هى الطريق الموصلة إليه.

الصوم جنة:

الجنة: الترس أو الدرع التى كان يلبسها المحارب، ويستعمل بمعنى الوقاية، فالمراد: أن الصوم مانعك من النار، أو من المعاصى، بكسر الشهوة وضعف القوة.

والصدقة تطفئ الخطيئة:

أى: تذهبها، وتمحو أثرها، فإذا كانت الخطيئة متعلقة بحق من حقوق الله، ذهبت بفعل الصدقة، وإذا كانت الخطيئة متعلقة بحق للعباد، فإن الصدقة حسنة، بثوابها المعد لها، فتدفع تلك الحسنة إلى خصمه، عوضًا عن مظلمته.

وصلاة الرجل من جوف الليل:

هى من أبواب الخير، وشعار الصالحين، وتمحو أثر الخطايا.

تتجافى جنوبهم عن المضاجع إلى يعملون:

تكملة الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

والمعنى: تتباعد جنوبهم عن المراقد، والمفارش، فهم يسهرون فى ذكر الله ودعائه خوفًا من هيبته، وطمعًا فى رضاه، ومثوبته، وكرمه، وينفقون الأموال التى أعطاها لهم فى سبيله.

ألا أخبرك برأس الأمر كله؟

أى: بأصل الأمر، والمراد: كل الأمور التى تهم الإنسان فى هذه الحياة أو المراد: أمر الدين.

وعموده:

أى: مايقوم به، ويعتمد.

وذروة سنامه:

بمعنى: أعلاه، والسنام- فى الأصل- ما ارتفع من ظهر الجمل قريب عنقه.

رأس الأمر الإسلام:

الإسلام هو أساس كل المبادئ، والقيم، فلا تصلح إلا به فهو من سائر الأعمال بمنزلة الرأس من الجسد، فى احتياجها إليه، وعدم بقائها بدونه.

وعموده الصلاة:

لا قوام للدين إلا بالصلاة، فإذا حافظ عليها الإنسان، كان دينه قويًا، ودون الصلاة لا وجود للدين، عنده، ولا قرار له فى نفسه، فهو مسلم شكلاً لا حقيقة.

وذروة سنامه الجهاد:

الجهاد قمة الإسلام التى بها تتحقق أصوله، ومبادئه، وتكمل به، وتصل إلى غايتها.

وفى هذه العبارة إشعار بصعوبة الجهاد، وعلو أمره، وتفوقه على سائر الأعمال.

ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟:

الملاك، ما به إحكام الشيء، وتقويته، وأهل اللغة يكسرون الميم و يفتحونها، والرواية- هنا- بالكسر.

واسم الإشارة «ذلك»، يعود إلى ما ذكر من العبادات من أول الحديث إلى هنا، ويؤيد ذلك التأكيد بكلمة «كله» التى تفيد الشمول.

والمراد: ألا أخبرك بما تقوم به تلك العبادات جميعها وتصير محكمة دقيقة؟

فأخذ بلسانه:

فاعل «أخذ» والضمير فى «لسانه» يعود إلى النبى ﷺ.

كف عليك هذا:

أى: امنع لسانك، والمراد: لا تتكلم بما لا يعنيك فكثرة الكلام تؤدى إلى الوقوع فى الزلات، وذلك يؤدى إلى كثرة الذنوب، ولكثرة الكلام مفاسد لا تحصى.

وإنما أخذ- عليه الصلاة والسلام- بلسانه، وأشار إليه، ولم يكتف بالقول، تنبيهًا على خطر اللسان وأن أمره صعب.

وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟:

المعنى: هل يعاقبنا الله، ويحاسبنا، بكل ما يصدر عنا من كلام؟

ثكلتك أمك:

بمعنى: فقدتك، وهو دعاء عليه بالموت، وليس بمقصود بل أراد تنبيهه من غفلته، التى وضحت من سؤاله، والتهويل لما ينجم عن اللسان.

وهل يكب الناس على وجوههم:

كبه: صرعه على وجهه، والمراد: يلقيهم ويسقطهم ويصرعهم على وجوههم.

أو على مناخرهم:

شك من الراوى، والمنخر: بفتح الميم، وكسر الخاء، وفتحها، ثقب الأنف، وخص الوجه، والأنف بالذكر دون غيرهما من أعضاء الجسم لأنهما أول الأعضاء سقوطًا.

إلا حصائد ألسنتهم:

حصائد الألسنة: كل ما يصدر عن الإنسان من الكلام حسنًا وقبيحًا، والمراد هنا: القبيح من الكلام، أى: لايكب الناس فى النار، إلا حصائد ألسنتهم، من الكفر، والقذف، والشتم، والغيبة، والنميمة، والبهتان ونحوها.

المسائل النحوية

بعمل يدخلنى الجنة:

جملة «يدخلنى» فى محل جر صفة «عمل»، وهى صفة تخصيص أو مدح.

تعبد الله:

الفعل المضارع هنا بمعنى الأمر، فالمراد: اعبد الله، ويجوز أن يكون هذا الفعل خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير هو أن تعبد الله، أى: العمل الذى يدخلك الجنة: عبادتك الله.

ويجوز أن ينزل الفعل منزلة المصدر دون تقدير «أن» معه.

ومثله «تقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» وهى الأفعال المعطوفة عليه.

وصلاة الرجل من جوف الليل:

مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: صلاة الرجل كذلك. أى تطفئ الخطيئة، أو يقدر الخبر: من أبواب الخير، أو شعار الصالحين، والأول أظهر.

فأخذ بلسانه:

الباء زائدة، و«لسان» مفعول «أخذ».

وهل يكب الناس . . إلا حصائد ألسنتهم:

الواو عاطفة على مقدر، وأصله هل تظن غير ما قلت؟ وهل يكب . . إلخ.

والاستثناء- هنا- مفرغ حيث حذف المستثنى منه، والكلام غير موجب فما بعد إلا خاضع فى إعرابه لما قبلها، فهو فاعل «يكب».

الأسرار البلاغية

عمل يدخلنى الجنة:

إسناد الإدخال إلى العمل مجاز عقلى، لأن المدخل هو الله سبحانه وتعالى، وإنما أسند الإدخال إلى العمل لأنه سببه.

تعبد الله:

عدل عن صيغة الأمر إلى الخبر، ليفيد إسراع المأمور إلى الامتثال وكأنه يخبر عنه، إظهارًا لرغبته فى التنفيذ والقيام بهذه الأعمال.

وفصل هذه الجمل عما قبلها، لكونها بيانًا له أو استئنافًا لكلام جديد.

الصوم جنة:

تشبيه بليغ، لأنه شبه الصوم بالترس أو بدرع، فى المنع، وقد حذفت الأداة، ووجه الشبه.

تتجافى جنوبهم عن المضاجع:

كناية عن صفة منع النوم من جفونهم، وسهرهم فى التضرع إلى الله.

رأس الأمر وعموده وذروة سنامه:

تصوير المعقول بالمحسوس للإيضاح :

وهنا ثلاث استعارات مكنية، فقد شبه الأمر بالإنسان، وحذفه واكتفى بجزء منه، وهو الرأس التى هى أشرف ما فيه.

وشبه الإسلام ببيت له عمود يقوم علبه بناؤه، ثم حذفه ورمز إليه، بأهم جزء منه، وهو العمود.

وشبه الإسلام- كذلك- بالجمل، ثم حذفه، ورمز بجزء هام منه وهو السنام

يكب الناس.. إلا حصائد ألسنتهم:

أسند الكب إلى حصائد الألسنة، مع أنها ليست الفاعل الحقيقى على سبيل المجاز العقلى، لأنها سببه.

وفى «حصائد ألسنتهم» استعارة فقد شبه ما يصدر عن اللسان حسنًا وقبيحًا دون تمييز، بالزرع المحصود بالمنجل، ومنه الرطب، واليابس، والجيد، والردىء، بجامع تجمع الخبيث والطيب، ثم أقام الحصائد مقام الكلام على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

المعنى العام

كان من عادة الصحابة- رضوان الله عليهم- أن يغتنموا الفرص ليسألوا النبى ﷺ، عن الأعمال الصالحة التى تقربهم إلى الله وتدخلهم الجنة، وتباعدهم عن النار، ومعاذ فى هذا الحديث يسأل والرسول ﷺ يجيب - كعادته دائمًا- وفى جواب الرسول بيان لطائفة من الصفات الحميدة التى تصل الإنسان بربه، وهى عبادة الله وحده، وأداء الصلاة فى أوقاتها وإخراج جزء من المال، للفقير عن طيب خاطر، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

فالصوم وقاية للنفس، من الشرور والآثام، والصدقة تمحو الذنوب، التى يرتكبها الإنسان، فهى كالماء الذى يلقى على النار فيخمد أوارها، ويبطل مفعولها،

وكذا صلاة الرجل فى جوف الليل، لها ثواب عظيم، حيث الناس نيام والحياة خامدة، والقلب المستيقظ متصل بالله يرقبه، ويخشاه، فيجيبه الله إلى ما يريده ويمحو عنه سيئاته، وتلك صفة المتقين الذين يسهرون ليلهم فى ذكر الله ودعائه.

والمقصود من ذلك: هو إقامة الإسلام، بمبادئه السامية، والعمل بتعاليمه، متمثلة فى الصلاة، فهى عماد الدين وفى الجهاد الذى يمثل القمة الدينية، فله ثواب عظيم، وأجر كبير، لأن الناس به يستقيمون على دين الحق، ويبقى نور الله فى الأرض، ولو كره المشركون.

ولاشك أن الوسيلة الكبرى لتأدية حقوق الله، وحفظ جانب الدين هى اللسان، الذى يختبئ الإنسان تحته، فيظهر شأنه، وحاله، فى كل كلمة يقولها، وبه يمكن أن يكون شقياً أو سعيدًا، فإذا ما استخدمه فى قول الحق، ورضا الله فاز، وإذا استخدمه فى إفشاء الباطل، والدعوة إلى المنكر، والخوض فى أعراض الناس والنيل منهم، خسر خسرانًا مبينًا، وألقى يوم القيامة على وجهه فى النار، نتيجة للسيئات التى جناها لسانه ليشقى الشقاء الأبدى.

فعلينا أن نتمسك بالإسلام، ونعمل بتعاليمه، ونجاهد فى سبيله ونحفظ لساننا، ونبتعد به عن سيئ الحديث، ونصرفه إلى ذكر الله، والتحدث بنعمه، وفضله علينا.

[٧] عن حنظلة الأسيدى- وكان من كتاب رسول الله ﷺ، أنه مر بأبى بكر- وهو يبكى فقال: «مالك يا حنظلة»، قال: « نافق حنظلة يا أبا بكر، نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيرًا»، قال: «فوالله أنا كذلك انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ»، فانطلقنا فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**مالك يا حنظلة**»، قال: نافق حنظلة يارسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأى عين فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة، ونسينا

كثيرًا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة، فى مجالسكم، وعلى فرشكم، وفى طرقكم ولكن يا حنظلة: ساعة وساعة».

المعانى اللغوية

الأسيدى:

منسوب إلى بنى أسيد، بطن من تميم.

يذكرنا بالنار والجنة:

يعظنا بعذاب النار تارة، وبنعيم الجنة تارة أخرى، ترهيبًا وترغيبًا، أو المعنى: يذكرنا الله بذكرهما أو بقربهما.

كأنا رأى عين:

أى كأننا بحال من يرى النار والجنة بعينيه، أو كأننا نراهما بعيوننا.

عافسنا الأزواج والضيعة:

عافس: مارس الشىء، واشتغل به، والضيعة معاش الرجل من مال أو حرفة أو صناعة.

والمراد: اشتغلنا بالأزواج، والأولاد، وعالجنا معايشنا وحظوظنا.

نافق حنظلة:

أصل النفاق: إظهار الإنسان ما يكتم خلافه من الشر، وقد كان حنظلة يحصل له الخوف فى مجلس النبى، ويظهر عليه ذلك مع المراقبة، والفكر، والإقبال على الآخرة، فإذا خرج اشتغل بالزوجة والأولاد، ومعاش الدنيا، فخاف أن يكون ذلك نفاقًا، فأعلمهم النبى، أنه ليس بنفاق، وأنهم لايكلفون الدوام على ذلك.

ونسينا كثيراً:

أى: نسينا كثيراً مما ذكرتنا به، أو المعنى نسينا نسياناً كثيراً كأنا ما سمعنا منك شيئاً قط.

لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وعلى فرشكم وفى طرقكم:

المعنى: لو تستمرون فى حال غيابكم عن مجلسى على الحال التى كنتم عليها معى من صفاء القلب، والخوف من الله، لصافحتكم الملائكة، علانية وبصفة دائمة.

ساعة وساعة:

أى: ساعة كذا وساعة كذا، بمعنى: أن لله ساعة تخلون إليه فيها، وتؤدون حقوقه، ولأنفسكم ساعة تفرغون فيها لقضاء حظوظكم النفسية ومعايشكم.

وليس هذا من النفاق، فى شىء، بل إن ذلك هو الاتجاه الدينى المرغوب فيه.

المسائل النحوية

كأنا رأى عين:

«رأى عين» بالرفع خبر «كأن» وبالنصب على المصدر لفعل محذوف هو الخبر، أى كأنا نراهما رأى عين.

ونسينا كثيراً:

كثيراً: مفعول به للفعل قبله، أى نسينا كثيراً مما ذكرتنا به، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف، والتقدير: نسينا نسياناً كثيراً.

ساعة وساعة:

ظرف متعلق بفعل محذوف، مفهوم من السياق، والتقدير: تؤدون حقوق الله فى ساعة، وتقضون حظوظ أنفسكم فى ساعة أخرى.

الأسرار البلاغية

مالك يا حنظلة قال: نافق حنظلة:

وضع المظهر موضع المضمر، إذ المحل للضمير بأن يقول: نافقت لتسجيل هذا الاعتراف المؤلم وإلصاقه بنفسه، من غير مواربة وبيان أنه لايليق به ذلك.

كأنا رأى عين:

تشبيه حالهم فى تأثرهم بذكر الجنة والنار بحال من يراهما بعينيه أو تصوير حالهم هذه بحال رؤيتهم لهما بالعين المجردة.

لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وعلى فرشكم وفى طرقكم:

كناية عن دوام المصافحة.

المعنى العام

إن الدين لايقضى على الإنسان أن يكون متبتلاً، طوال حياته، ووقته كله، بل وقت للعبادة، ووقت للحياة الدنيا، وقد جرت فى تلك القصة تساؤلات حول العمل الدينى، والعمل الدنيوى، فقد ظن أحد الصحابة- وهو حنظلة- أن الدين يقتضى منه أن يبقى فى ذكر ربه على الدوام، خاشعًا عابدًا، لايقر لحظة واحدة، وقد شغلت بعض المسائل الدنيوية، قلب هذا الصحابى الجليل، فخشى أن يكون لذلك أثر فى إيمانه، يجعله يخرج إلى حد إظهار خلاف ما يبطن، وذلك من أمارات النفاق، فارتاع وظن بنفسه شرًا، فحدث بذلك أبا بكر الصديق، رضى الله عنه- ثم انطلقا إلى النبى ﷺ، يسألانه فى ذلك.

ولكن نبى الدعوة الخالدة، بين لهذا الصحابى أنه فهم الدين مشددًا فيه، ومشددًا على نفسه، والأمر أيسر من تصوره، فالإسلام يدعو إلى العمل الدينى، ولكن مع مواصلة العمل الدنيوى، فللإنسان علاقة بربه وله كذلك- علاقة بمعايشه، وبأهله، وبأولاده، وبالناس، وذلك يقتضى منه أن يوازن بين هذا وذاك، فيؤدى حق الله عليه، ويؤدى مايجب عليه نحو أهله، ودنياه، بحيث لايطغى أحدهما على الآخر.

وذلك شأن المؤمن الذى يقبل عمله، ويفوز برضا خالقه، إلا أن هناك مرتبة أخرى أعلى من ذلك، وهى مرحلة الانقطاع إلى الله، والانصراف عن الدنيا، وأهوائها وزخارفها، وتصفية النفس وصقلها بالمعانى الروحية الربانية وتلك مرحلة تشبه حياة الملائكة، الذين لايعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ولو سلك الإنسان هذا الطريق لكان من عالم الملائكة لا من عالم البشر، وما خلق الله الإنسان ليكون ملكًا، وإنما خلقه ليكون بشرًا يعمر هذا الكون، ويصلحه، ويكون خليفة فيه، بالأعمال النافعة، وفى نفس الوقت، لايكون خارجًا على طاعة الله، وعبادته، فقد خلق الإنسان ليكون إنسانًا يمتزج فيه الجانبان، وتظهر فيه الصورتان، دون طغيان لأحدهما على الأخرى.

وهذه حكمة الله التى قسمت الحياة، بين الدنيا والآخرة، فنعم ذلك العبد الذى يخشى الله ويعمل لدنياه، والهلاك والخسران لذلك الذى ينصرف عن آخرته إلى دنياه، ولا ينبغى أن يقطع الإنسان نفسه للأعمال الدينية، ويحرم نفسه، ومجتمعه من الانتفاع به فى هذه الحياة.

[٨] عن جابر قال: قال النبى ﷺ: **«أغلقوا الباب، وأوكوا السقاء، واكفئوا الإناء أو خمِّروا الإناء وأطفئوا المصباح، فإن الشيطان لا يفتح غلقًا، ولا يحل وكاء، ولا يكشف آنية، فإن الفويسقة تضرم على الناس بيوتهم»**.

المعانى اللغوية

وأوكوا السقاء:

شدوا واربطوا رأس السقاء بالوكاء، وهو ما يشد به فم القربة.

واكفئوا الإناء:

أى: اقلبوه، يقال: كفأه- كمنعه- صرفه، وكبه، وقلبه.

أو خمِّروا الإناء:

أى: غطوه، ولو بعرض شىء عليه.

وأطفئوا المصباح:

المراد: إطفاء السراج.

وهذه الأفعال كلها، يجب أن تقترن باسم الله، وقد ورد ذلك فى رواية مسلم.

فإن الشيطان لا يفتح غُلُقًا:

غُلُقًا: - بضم الغين واللام- بمعنى: مغلق، والمعنى: أن الشيطان لا يقدر على فتح باب أغلق، أو على حل رباط معقود، أو على كشف آنية مع ذكر الله- لأنه غير مأذون فيها.

وربط السقاء، وتغطية الإناء لفوائد:

١- صيانتها من الشيطان.

٢- صيانتها من الوباء الذى قد يحل بها، مصداقًا لحديث مسلم: غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، فإن فى السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء، إلا نزل فيه من ذلك الوباء.

٣- صيانته من النجاسة والقاذورات.

٤- صيانته من الحشرات والهوام.

فإن الفويسقة تضرم على الناس بيوتهم:

هذا تعليل لإطفاء السراج.

والفويسقة تصغير الفاسقة، والمراد: الفأرة لخروجها من جحرها على الناس للإفساد.

ويقال: ضرِمت النار- بكسر الراء- وتضرَّمت وأضرمت بمعنى: التهبت، وأضرمتها أنا، وضَرمتها: إذا أشعلتها وألهبتها.

فالفأرة قد تجر الفتيلة، فتشعل النار فى البيت، فتحرقه- بأهله- وفى رواية البخارى: فإن الفويسقة ربما جرت الفتيلة فأحرقت أهل البيت.

المسائل النحوية

الشيطان:

«ال» فيه للجنس، فليس المراد فردًا بعينه.

غُلُقًا:

صفة لمحذوف والتقدير: شيئًا غُلُقًا، كالباب ونحوه.

الأسرار البلاغية

جمل الحديث نوعان:

أحدهما: جمل إنشائية وردت بصورة الأمر «أغلقوا- أوكوا- اكفئوا - خمِّروا- أطفئوا» فعطفت بعضها على بعض بالواو على طريق الوصل لاتحادها إنشاء.

ثانيهما: جمل خبرية وهى طائفتان:

أ- اسمية **«إن الشيطان لا يفتح- إن الفويسقة تضرم.. إلخ»**. فوصلت بإدخال الفاء- التى بمنزلة الواو- على الجملة الثانية.

ب- فعلية **«لايفتح - لا يحل- لايكشف»** فوصلت كذلك بالواو، وسبب الوصل- هنا- أن هذه الجمل خبرية.

فكل طائفة من الجمل السابقة وردت على سبيل الوصل البلاغى لا تفاقها فى النوع.

المعنى العام

نبه الرسول الكريم إلى أشياء تجب ملاحظتها، فى حياتنا وشئون معيشتنا، وهى دعوة إلى الحفاظ على حياتنا، حتى لا تتهددنا الأخطار، والأمراض.

فعلينا أن نغلق أبوابنا فى المساء، أو حين تدعونا ظروفنا إلى ذلك لأن فيه سترًا لنا ووقاية من العابثين، وكذلك علينا أن ننظف أدواتنا، التى نستخدمها فى طعامنا وشرابنا، حتى لا تنالها قاذورات تسبب لنا بعض الأمراض، التى تضر بصحتنا، فنربط سقاءنا ونمنع مياهه من الأوشاب التى قد تعلق بها، حتى تبقى صالحة للشرب، نقية،

ونغطى الأوانى الموجودة فى بيوتنا، لتكون محفوظة من الهوام، والأتربة، أو غيرها مما قد يعلق بها، ويسبب تلوثًا للطعام الموجود بها، أو الذى سوف يوضع فيها.

ويجب أن نلاحظ إطفاء المصابيح التى تضىء بيوتنا فى الوقت المناسب وعدم تركها مضيئة، ونحن مشغولون عنها، أو نائمون، فقد يتسبب عن ذلك فساد للبيت، وإحراق لمحتوياته، نتيجة فأرة تعبث بالسراج أو نتيجة تسرب ما يفسد النور ويشعل به الحريق، وكثيراً ما يحدث للمهملين آثار ضارة من جراء ذلك.

[٩] عن أبى يزيد الخولانى، أنه سمع فضالة بن عبيد يقول: سمعت عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الشهداء أربعة، رجل مؤمن جيد الإيمان، لقى العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة، هكذا- ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته، فلا أدرى: قلنسوة عمر أراد، أم قلنسوة النبى ﷺ قال: ورجل مؤمن جيد الإيمان، لقى العدو فكأنما ضرب جلده بشوك طلح من الجبن، أتاه سهم غرب فقتله، فهو فى الدرجة الثانية، ورجل مؤمن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، لقى العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك فى الدرجة الثالثة، ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقى العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك فى الدرجة الرابعة»**.

المعانى اللغوية

الشهداء: أربعة: أى أربعة أنواع

رجل مؤمن: أى خالصه أو كامله، **لقى العدو:** من الكفار.

فصدق الله:

أى صدق بشجاعته ما عاهد الله عليه، وبتشديد الدال، أى صدقه فيما وعد على الشهادة، فى سبيل الله من الأجر.

حتى قتل:

إلى أن استشهد، وهذه الفئة هي التي تقاتل، وتصابر محتسبة، كما في قوله تعالى ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فذاك الذي يرفع الناس إليه أعينهم:

أي هذا المؤمن الذي يرفع أهل الموقف إليه عيونهم.

ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته:

أي حتى سقطت طاقيته.

فلا أدري:

بمعنى: فلا أعلم، وهذا قول الراوي عن فضالة، بناء على أن قوله: «حتى وقعت.. إلخ» كلام فضالة، ومن الجائز أن يكون ذلك من كلام عمر.

قال: ورجل مؤمن جيد الإيمان:

القائل هنا: النبي ﷺ.

وهذا الرجل الثاني دون الأول في مرتبة الشهادة.

ضرب جلده بشوك طلح:

طعن جلده بشوك من هذا الشجر العظيم، من شجر العضاة، ومعنى ذلك: أنه يقشعر بدنه، وشعره من الخوف، والفزع، أو ترتعد فرائصه وأعضاؤه عند النزول إلى المعركة وقتال العدو.

من الجبن:

أي بسببه، والجبن ضد الشجاعة، وهما خصلتان جبلتان مركوزتان في الإنسان.

أتاه سهم غرب:

أي: من جهة الغرب، وهذا على سبيل التمثيل لا أنه أتاه من جهة الغرب بذاتها، والمعنى المراد: أتاه سهم لايعرف راميه.

ورجل مؤمن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا:

الواو هنا، بمعنى الباء، والمراد: أن كل واحد منهما مخلوط بالآخر، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبة: ١٠٢].

ورجل مؤمن أسرف على نفسه:

أى: بكثرة المعاصى، ويمكن أن يكون المراد أنه أسرف على نفسه بنية الغنيمة، أو الرياء، أو السمعة فى جهاده.

والأول والثانى يتصفان بالإيمان القوى، إلا أن الأول شجاع، والثانى جبان، والثالث والرابع قلت درجة إيمانهما، فقلت درجتهما، مع وصفهما بالشجاعة، ولما كان الثالث أكثر من الرابع فى الأعمال الصالحة أخذ مرتبة أسبق منه.

المسائل النحوية

هكذا:

مصدر للفعل يرفع، أى رفعا مثل رفع رأسى هكذا، كما تشاهدون.

سهم غرب:

غرب صفة لسهم، ويمكن أن يضاف إليه.

الأسرار البلاغية

كأنما ضرب بشوك طلح:

شبه حال هذا الرجل- عند النزول إلى الحرب- بحال من طعن بشوك هذا الشجر، فاقشعر جلده، ووجه الشبه: الارتعاد والفزع من الألم الشديد الذى لحقه.

أتاه سهم غرب فقتله:

نسب القتل إلى السهم، وهو من فعل الرامى على سبيل المجاز العقلى، والعلاقة السببية أو الآلية.

المعنى العام

فى هذا الحديث يبين لنا الرسول الكريم، أن الشهداء يتفاضلون وليسوا فى مرتبة واحدة، فهم أربعة أنواع:

النوع الأول: رجل كامل الإيمان، لقى الأعداء من الكفار فكان موقفه شجاعًا، وصدق ما عاهد الله عليه، بمحاربة أعداء دينه، للقضاء عليهم، وكانت نهايته الاستشهاد، ذلك الرجل يتطلع إليه الناس يوم القيامة، حتى يروا ما هو فيه من مكانة عالية فى الجنة تناسب ما قام به من التضحية والفداء، ويتمنى الناس أن لو كان لهم مثل هذا الفضل.

والنوع الثانى: دون الأول فى مرتبة الشجاعة- رجل مؤمن خالص الإيمان، مثل سابقه- ولكنه يختلف عنه، فى لقاء الأعداء فعندما نزل إلى المعركة يقشعر بدنه، وشعره من الخوف والفزع، وترتعد فرائصه من الجبن، فيأتيه سهم لايعرف راميه، فيقتله، ويستشهد، ولموقفه هذا يكون فى الدرجة الثانية.

والنوع الثالث من الشهداء: رجل مؤمن ليس خالص الإيمان، فأعماله كلها ليست صالحة، بل خالطتها أعمال أخرى سيئة، هذا الرجل قابل العدو، وصدق الله، واستشهد فهو فى الدرجة الثالثة.

والنوع الأخير من الشهداء: رجل مؤمن- أيضًا كسابقه- ولكنه ارتكب كثيرًا من المعاصى، أو كان هدفه من الجهاد شراء السمعة، أو الرياء وكسب الغنيمة، هذا الرجل لقى العدو وصدق الله، واستشهد فكان فى الدرجة الرابعة.

مما سبق نرى أن الشهيد الأول ارتقى للمكانة الأولى، بفضل إيمانه الخالص وشجاعته، أما الثانى فكان مؤمنًا خالص الإيمان، ولكن جبنه نزل به إلى الدرجة الثانية، والثالث جعلته أعماله السيئة التى ارتكبها فى هذه المنزلة، والرابع وضعه إسرافه فى ارتكاب المعاصى دون سابقيه فى علو الدرجة.

[١٠] عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: **«ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذى على الناس راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية فى بيت بعلها وهى مسئولة عنه، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»**.

المعانى اللغوية

الراعى:

هو الحافظ المؤتمن، الملتزم صلاح ما اؤتمن على حفظه فهو مطالب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه.

الرعية:

كل ما شمله حفظ الراعى ونظره. فالأمير الذى على الناس راع: يرعى من ولى عليهم، ومسئول عن رعيته أى: عن رعاية حقوقهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم: هل وفاهم حقوقهم من نفقة وكسوة، وحسن عشرة، ونحو ذلك؟

والمرأة راعية فى بيت بعلها:

البعل: هو الزوج: وفى رواية البخارى: زوجها، ورعايتها: حسن تدبيرها للمعيشة، والنصح للزوج والشفقة عليه، والأمانة وحفظها لنفسها، ولماله وأطفاله، وضيوفه، ونحو ذلك، وهى مسئولة عن ذلك هل قامت بما عليها أولاً؟

والعبد راع على مال سيده:

بحفظه، والقيام بما يستحقه عليه من حسن خدمته ونصحه.

ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته:

دخل فى هذا الخطاب العام، الشخص المنفرد الذى لا زوج له، ولا خادم، ولا ولد، فهو راع على جوارحه، حتى يعمل المأمورات ويجتنب المنهيات، فعلاً ونطقًا، واعتقادًا.

المسائل النحوية

ألا فكلكم:

«ألا» أداة استفتاح، وقد كررت فى أول الحديث وآخره وهى تستعمل للتنبيه.

والفاء واقعة فى جواب شرط محذوف، أى: إذا ثبت ذلك فكلكم راع.. إلخ، وخبر «كل» يصح إفراده وجمعه، حملاً على اللفظ وعلى المعنى.

الأسرار البلاغية

ذكر أداة التنبيه «ألا» لاقتضاء المقام لها، فالموقف يدعو إلى اليقظة والتنبيه لماسيأتى من قول يستحق الاهتمام، ثم إنه ذكر العام أولاً، وهو المسئولية لكل الناس، ثم فصل بعض هذا العام، وعاد مرة أخرى إلى الإجمال بعد التفصيل، وهذا لتأكيد الحكم، الذى أراد أن يقرره وهو المسئولية والتبعة الملقاة على عاتق كل فرد فى المجتمع.

المعنى العام

فى هذا الحديث يبين لنا الرسول الكريم أن كل إنسان وكل له أمر واؤتمن عليه، وجب عليه العدل فيه، والقيام بمصالحه، ثم يفصل بعض الأمور التى يجب القيام عليها خير قيام.

ويبدأ بالحاكم، فيجب عليه أن يرعى من ولى عليهم ويعطيهم حقوقهم وينظر دائمًا فى مصالحهم، فهو مسئول عنهم، بين يدى الله، وكذا الرجل يجب عليه أن يرعى زوجته، وأولاده، فهم مسئولون منه، ويجب عليه نفقتهم وكسوتهم، وحسن معاملتهم، وسوف يحاسب على أى تقصير فى حقوقهم.

وليس الزوج- فقط- مسئولاً بل المرأة- أيضًا- عليها واجبات فهى مسئولة أمام الله عما ائتمنها عليه من حسن تدبيرها لمعيشتها، وعدم إسرافها ومن نصحها لزوجها، وحفظها لنفسها، ولماله، وأطفاله، ونحو ذلك من الأمور التى يطلب منها الحفاظ

عليها، وكذا الخادم يجب أن يكون أمينًا، فيحافظ على مال سيده، ويرعاه، فهو مسئول عنه، يحاسب على الإهمال فيه . .

وليس هؤلاء- فقط- هم المطالبين بحفظ ورعاية ما ائتمنوا عيه، فكل إنسان ليس له زوج ولا ولد ولا خادم- مثلاً- فجوارحه مسئولة منه عليه أن يرعاها ويبعد بها عما نهاه الله عنه، فهى مسئولة منه وسوف يحاسب إذا قصر، ودفع بها إلى المنكرات، وعاد الرسول الكريم مرة أخرى إلى الإجمال، حتى يؤكد أن كل فرد فى المجتمع عليه مسئولية، ويجب أن يكون أهلاً لتحملها، والقيام بها، على خير وجه، حتى ينال رضا الله ورسوله.

[١١] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، ومايزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، ومايزال العبد يكذب، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**».

المعانى اللغوية

عليكم بالصدق:

استمسكوا بالصدق، وهو الإخبار على وفق ما فى الواقع.

فإن الصدق يهدى إلى البر:

أصل البر: التوسع فى فعل الخير، وهو اسم جامع للخيرات، من اكتساب الحسنات، واجتناب السيئات ويطلق على العمل الخالص، الدائم المستمر إلى الموت.

والمراد: أن الصدق الذى يدوم مع الإنسان ويلازمه يوجهه إلى فعل الخير دائمًا.

وإن البر يهدى إلى الجنة:

فعل الخير يوصل الإنسان إلى الجنة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**﴾ [الانفطار: ١٣].

وما يزال الرجل يصدق:

يتبع الصدق فى قوله وفعله.

ويتحرى الصدق:

يبالغ ويجتهد فيه.

حتى يكتب عند الله صديقًا:

يكتب: يثبت، والمراد: يجعل فى عداد الصديقين، والصديق: من يتكرر منه الصدق، حتى يستحق اسم المبالغة.

وفى هذا إشعار بحسن خاتمته، وأنه مأمون العاقبة.

وإياكم والكذب:

اجتنبوا الكذب، واحذروه.

فإن الكذب يهدى إلى الفجور:

أصل الفجر: الشق، فالفجور: شق ستر الديانة ويقال: فجر بمعنى: فسق، وكذب، وعصى، وخالف.

حتى يكتب عند الله كذابًا:

المراد بكتابته: الحكم عليه بذلك، وإظهاره للمخلوقين من الملأ الأعلى، وإلقاء ذلك فى قلوب أهل الأرض.

المسائل النحوية

عليكم بالصدق:

«عليكم»: اسم فعل أمر بمعنى، استمسكوا، وفاعله ضمير مستتر

تقديره: أنتم، والجار والمجرور «بالصدق» متعلق به، لأنه يعمل عمل الفعل.

وإياكم والكذب:

أسلوب تحذير، وإعرابه «إيا» فى محل نصب مفعول بفعل محذوف وجوبًا تقديره: «احذر ونحوه»، والكاف حرف خطاب والميم علامة الجمع، و«الكذب» معطوف على «إيا»، وقيل: منصوب بفعل آخر مضمر، ويكون من عطف الجمل.

الأسرار البلاغية

المراد بالهداية فى الحديث:

الإيصال إلى الخير، أو إلى الجنة، وكذلك إلى الفجور أو إلى النار. وهذا على سبيل الاستعارة، فقد شبه الإيصال بالهداية، بجامع تحقيق الهدف المنشود بالوسيلة الصحيحة، ثم اشتق يهدى بمعنى: يوصل استعارة تبعية أو استعارة مكنية، حيث شبه الصدق والبر وكذا الكذب والفجور، بإنسان يبصرك بالطريق، ثم حذف ورمز بشىء من لوازمه، وهو الهداية.

والتعبير بالهداية مع الكذب، والفجور، على سبيل المشاكلة، لورود هذه الكلمة مع الصدق قبل ذلك وإلا فإن الكذب لايهدى وإنما يضل الإنسان ويوقعه فى المعاصى الفاجرة التى تقذف به فى نار جهنم، وأسلوب الحديث يكثر فيه التأكيد بـ «إن» للترغيب والترهيب.

المعنى العام

الصدق منجاة، والكذب مهواة، لذا أمرنا رسول الله ﷺ أن نكون صادقين فى أفعالنا، وأقوالنا، فالصدق يوجه الإنسان إلى الخير دائمًا، وهو مفتاح الجنة، والإنسان الذى يصدق فى قوله وفعله ويبالغ ويجتهد فى ذلك يكتبه الله فى سجل الصديقين، لاستحقاقه هذه المكانة الرفيعة.

والسبب فى إعطاء الصادق هذه المنزلة أن الصدق به يصلح المجتمع، ويخلو من الرياء، والفسق اللذين يفسدان الحياة، ويضعيان الحقوق، فإذا انتشر الصدق بين الناس أمنوا على أنفسهم وأموالهم، وحقوقهم، وإذا تفشى الكذب على لسان إنسان ما، فإنه يضر بالصالح العام، ويشيع الفسق والفجور، وعدم الثقة بين من وقعوا فريسة لهذه الخصلة الذميمة، وهذا الإنسان الذى يحترف الكذب خوان أثيم، وجرثومة يجب استئصالها من المجتمع، ولذلك مقته الله تعالى أشد المقت، وكتبه من الأفاكين وأعدّ له جهنم وبئس المصير.

وإنما خص الرسول الكريم هاتين الخصلتين بالذكر لأن بهما قوام المجتمع أو هلاكه، حيث مع الصدق الفضيلة، ومع الكذب الرذيلة.

[١٢] عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: **مثل القائم على حدود الله، والمدهن فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فى البحر، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين فى البحر أسفلها، يصعدون فيستقون الماء، فيمرون على الذين فى أعلاها، فقال الذين فى أعلاها: لا ندعكم تصعدون، فتؤذوننا، فقال الذين فى أسفلها فإننا ننقبها فى أسفلها، فنستقى، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعًا، وإن تركوهم غرقوا جميعًا.**

المعانى اللغوية

القائم على حدود الله:

الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر.

والمدهن فيها:

من يرائى ويضيع الحقوق، ولا يغير المنكر والمداهنة فى الشريعة، أن يرى منكرًا، ويقدر على دفعه. ولم يدفعه حفظًا لجانب مرتكبه، أو جانب غيره، لخوف أو طمع أو لاستحياء منه أو قلة مبالاة فى الدين.

أما المداراة فهى: أن يوافق الإنسان على شيء يؤدى إلى حرمانه من حفظ نفسه، أو حق يتعلق بماله، أو عرضه، فيسكت دفعًا للشر، ووقوع الضرر.

استهموا على سفينة:

اقتسموا محلها، ومنازلها بالقرعة.

فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها:

أى: أنه كان مكان بعضهم أعلاها، ومكان بعضهم أسفلها، وفى رواية البخارى: فصار بعضهم فى أسفلها، وصاربعضهم فى أعلاها.

لا ندعكم:

لا نترككم.

فإننا ننقبها:

أى: نخرقها.

فإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا، وإن تركوهم غرقوا جميعًا:

أى: إنهم إن أمسكوا أيديهم، ومنعوهم مما يريدون فعله، نجا ركاب السفينة كلهم، وإن تركوهم بحسب أهوائهم غرق كل من فيها.

والمعنى المقصود من ضرب المثل: أن الناس إن منعوا الفاسق عن الفسق نجا، ونجوا من عذاب الله تعالى، وإن تركوه على فعل المعصية، ولم يقيموا عليه الحد، حل بهم العذاب وهلكوا بشؤمه وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥] فالإصابة هنا عامة، بسبب السكوت على المعصية من الظالمين.

المسائل النحوية

مثل القائم على حدود الله.. كمثل:

(مثل) مبتدأ. والخبر (كمثل)

فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا:

جملة شرطية، أداتها (إن) وفعل الشرط (أخذوا)، و (منعوا) معطوف بالفاء على الشرط، والجواب (نجوا) وكلها في محل جزم لأنها أفعال ماضية.

الأسرار البلاغية

القائم على حدود الله:

هنا استعار القيام الذى هو الحراسة، والحفاظ على الأشياء الحسية، للأمر بالمعروف، والنهى عن النكر، باعتباره مشتملاً على الحفاظ على المبادئ السليمة، ومنع المبادىء الهدامة، من أن تدخل عليها.

والجامع هو المحافظة، والاهتمام، والرعاية، ثم اشتق منه اسم الفاعل (القائم) بمعنى الآمر بالمعروف، والناهى عن المنكر، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

مثل القائم... كمثل قوم استهموا.. إلخ:

شبه حال الأمة الإسلامية فى انقسامها إلى فريق محافظ على مبادئها السليمة، وآخر خارج عليها، وما يجب على القائمين على الأمر، بالأخذ على يد العصاة، حتى تظل الحياة سائرة فى طريقها الصحيح، وإلا هلكت الأمة وانهارت، بحال قوم نزلوا سفينة فى عرض البحر، فسكن بعضهم فى أماكنها العليا، وبعضهم فى أماكنها السفلى، واحتاج من فى أسفلها إلى الشرب، فمنعهم من فوقهم من الصعود للحصول على الماء أو لمن يمنعوهم فحاولوا أن يحصلوا على الماء بثقب السفينة، من أسفلها ليستريحوا، ولكن ذلك سيؤدى بها إلى الغرق، فإن تركهم من بأعلى السفينة كما يشاؤون، هلك الجميع، وإن منعوهم نجا ركاب السفينة جميعًا، والمطلوب - إذًا- المنع لأن فيه الصالح العام. والجامع هو: أن الأخذ يؤدى إلى السلامة فى كل، وعدمه يؤدى إلى النهاية الأليمة. وهو تصوير للمعقول بالمحسوس، وهى صورة دقيقة ورائعة.

المعنى العام

من رأى منكم منكرًا فليغيره، ففى السكوت على المنكر فساد للمجتمع، وهدم للقيم السامية، وهذا ما أراده الرسول ﷺ عندما عرض لنا صورة من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ومن يرى المنكر، ويقدر على دفعه، ثم لا يفعل، استحياء، أو خوفًا، أو لعدم المبالاة بالدين والمبادئ.

فمثلهم -فى ذلك- كقوم اعتلوا ظهر سفينة، فكان بعضهم فى أعلاها، وبعضهم فى أسفلها، وأراد من بأسفلها الحصول على الماء من مكانهم، الذى هم فيه سواء منعهم من فوقهم من الصعود للحصول على الماء أو أنهم أرادوا الحصول على الماء، دون تحمل مشقة الصعود إلى أعلى السفينة، واقترحوا أن يثقبوا السفينة من أسفلها، ويأخذوا ما يشاءون من الماء، ولم يبالوا بأن فى ذلك هلاكًا لكل ركابها، فلو تركهم رفاقهم الساكنون بأعلاها ليفعلوا ما يريدون -مع علمهم بضرر ذلك- هلكوا جميعًا، وإذا منعوهم مما عزموا عليه وأفهموهم عاقبة تصرفهم الوخيم نجوا جميعًا.

لذا يجب على كل إنسان، إذا رأى عملاً خارجًا على مبادئ الدين أو تقاليد المجتمع السليمة، أن يقاوم هذا العمل ويحاول القضاء عليه، ومنعه من الانتشار، وإفهام القائمين به من الخارجين على القيم والأهداف المرعية سوء تصرفهم، وعاقبته الهدامة، وماسيحل بالمجتمع وبهم من آثار ضارة مفسدة.

فإنهم لو سكتوا على هذه المفاسد، فسوف تنتشر الرذيلة بين أفراد المجتمع، وتعم الفوضى والفساد، وتضيع الحقوق والدين وفى ذلك البلاء المبين.

[١٣] عن أبى هريرة، أو عن أبى سعيد، أن رسول الله ﷺ قال:

«سبعة يظلهم الله فى ظله، يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل كان قلبه معلقًا بالمسجد، إذا خرج حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل

ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته ذات حسب وجمال، فقال إنى أخاف الله عز وجل، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

المعانى اللغوية

سبعة:

العدد لا مفهوم له، فإن غيرهم من ذوى الخصال الحميدة، يدخل فى ظل الله، فقد وقع فى صحيح مسلم من حديث شريف أن من أنظر معسرًا أو وضع له أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

يظلهم الله:

يدخلهم.

فى ظله:

الظل: حقيقى، وأضيف إلى الله تعالى إضافة ملك، فكل ظل ملكه، وإضافة تشريف ليحصل امتياز هذا الظل على غيره، كما قيل للكعبة بيت الله، مع أن المساجد كلها ملكه، وقيل: المراد بظله: كرامته، وحمايته، كما يقال: فلان فى ظل الرئيس، وقيل: المراد: ظل عرشه، ويدل عليه رواية أخرى: سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه، وإذا كان المراد ظل العرش، استلزم ما ذكر من كونهم فى كنف الله وكرامته، وليس المراد: ظل الجنة لأن ذلك يكون بعد الاستقرار فى الجنة، ثم إنه مشترك لجميع من يدخلها، والسياق يدل على امتياز أصحاب الخصال المذكورة، فيرجح أن المراد: ما تقدم قبل.

إمام عادل:

المراد به: صاحب الولاية العظمى، ويلتحق به كل من ولى شيئًا من أمور المسلمين فعدل فيه، والعدل: اتباع أمر الله بوضع كل شىء فى موضعه من غير إفراط ولا تفريط.

وشاب نشأ بعبادة الله:

المراد : شاب نما وتربى فى العبادة لله ، والبعد عن معصيته .

وخص الشاب بالذكر لكونه مظنة غلبة الشهوة لما فيه من قوة الباعث على متابعة الهوى ، فإن ملازمة العبادة مع ذلك أسد وأدل على غلبة التقوى .

ورجل كان قلبه معلقًا بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه:

فى رواية الشيخين : ورجل قلبه معلق فى المساجد ، أى أن قلبه ملازم للمسجد لا يفارقه فى العبادة ، حتى يعود إليه من جديد ، فهو كالقنديل المعلق فى الملازمة ، أو أنه شديد الحب للمسجد ، فلا يكاد يخرج حتى يعود لفرط وجده وتأثره بالتعبد والإخلاص لله وبيته ، والمعنى الأول مأخوذ من التعليق للأشياء . والثانى من العلاقة وهى الحب أو شدته .

ورجلان تحابا فى الله عز وجل، اجتمعا على ذلك وتفرقا:

أى : أن كلاً منهما أحب الآخر حبًا خالصًا لله تعالى وفى سبيل مرضاته ، وحافظا على هذا الحب فى الحضور والغيبة .

وقيل : المراد : أنهما داوما على المحبة الدينية ، ولم يقطعاها بعارض دنيوى ، حتى فرق بينهما الموت . وقد عد الاثنان هنا بمنزلة شخص واحد ، لأن المحبة لا تتم إلا باثنين ، أو تعبيرًا عن الإخلاص الذى يجعل منهما رجلاً واحدًا ، أو أن المراد هنا عد الخصال التى يدخل أصحابها فى ظل الله ، والخصلة هنا هى الحب فى الله ، بقطع النظر عن عدد من اتصف بها .

ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه:

المراد : أنه ذكر الله بقلبه أو لسانه ، فى خلوة من الناس ، أو فى خلوة مع نفسه وقلبه ، بعيدًا عن كل ما يشغله ، سوى الله تعالى ، وإن كان موجودًا فى ملأ من الناس ، أو بعيدًا عن الرياء وإظهار الصلاح ، بمعنى : أنه أخلص فى هذا الذكر ، وأراد به

الخشوع المطلق، المجرد من الهوى، والزيف والنفاق، وقد ذرف الدموع من عينيه خشية لله بذكر جبروته وقوته وأنه مالك الملك فى الدنيا والآخرة، وصاحب الجزاء للمطيع والعاصى، وغير ذلك مما أثار كوامن الدموع والشجن.

ورجل دعته ذات حسب وجمال فقال: إنى أخاف الله عز وجل:

الدعوة هنا: قصد بها الدعوة إلى الزنا، والحسب ما يعده الإنسان من مفاخر آبائه. وقيل: الخصال الحميدة له ولآبائه. والمراد: أن هذا الرجل دعته إلى الزنا بها امرأة لها شرف الأصل، تنتسب إلى أسرة كريمة المحتد، ولها جمال فاتن، مما يدعو إلى الإغراء بها، ولكنه قال: إنى أخاف الله تعالى، فرجع عن ذلك، وامتنع. والقول هنا باللسان لزجر الداعية عن الفاحشة، أو للاعتذار إليها.

ويحتمل أن يكون بالقلب، وذلك إنما يصدر عن تقوى وحياء من الله عز وجل.

ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه:

المراد: أن هذا الرجل يخرج صدقاته فى خفاء تام لا يعلم بها أحد.

والمراد بالصدقة ما يتصدق به من قليل أو كثير. والظاهر أن عملية الإخفاء شاملة للمندوبة والمفروضة لكن نقل عن العلماء أن إظهار المفروضة أولى من إخفائها.

ومعنى حتى لا تعلم شماله.. إلخ: أن تلك اليد لو كانت لها طبيعة العلم -بأن كانت إنسانًا- لما درت بما فعل صاحبها، أو لو أن إنسانًا يقف بجانبه، أو يسير معه ما درى عن ذلك شيئًا، وهذا يعطينا صورة عن مدى مبالغته فى إخفاء الصدقة عند إخراجها.

المسائل النحوية

إمام عادل..إلخ:

خبر لمبتدأ محذوف على تقدير: هم...

فى الله:

(فى) بمعنى اللام، أو الكلام على حذف مضاف، والتقدير فى مرضاة الله.

ذات حسب وجمال:

أقام الصفة مقام الموصوف، والأصل امرأة ذات حسب وجمال.

الأسرار البلاغية

يظلهم الله فى ظله:

إذا كان المراد: كرم الله، وحمايته، فالكلام على الاستعارة.

رجل كان قلبه معلقًا بالمسجد:

إذا كان اسم المفعول (معلقًا) مشتقًا من (التعليق) كان الكلام على التشبيه، فلقد شبه قلبه- فى طول ملازمته للمسجد وإن كان جسده خارجًا عنه -بالشىء المعلق فيه- على سبيل الدوام- كالقناديل مثلاً. وإن كان (معلقًا) مأخوذًا من العلاقة، وهى شدة الحب فلا تشبيه.

ففاضت عيناه:

أسند الفيض إلى العين، مع أنه للدموع، مجازًا عقليًا، لإفادة المبالغة، وكأن العين هى التى فاضت لكثرة ما سال من دموعها.

حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه:

فى (لا تعلم شماله) مجاز بالحذف، أى لا يعلم من بشماله.

ويحتمل أن يكون فى الكلام استعارة مكنية، شبه الشمال بإنسان يعلم، ثم حذفه ورمز له بالعلم، والمراد بذلك المبالغة فى إخفاء الصدقة.

المعنى العام

إن الله تعالى يكافئ كل العاملين للصالحات، الذين يبغون رضاه عز وجل، وقد خص الرسول ﷺ فى هذا الحديث سبعة، سلكوا طريق الخير والنجاة، فاستحقوا أن يرعاهم الله، ويحميهم من هول يوم القيامة أولهم: إمام عادل وهو كل من ولى أمرًا من أمور المسلمين اتبع فيه حدود الله تعالى. وثانيهم: شاب -على الرغم من عنفوان

الشباب وهواه- ابتعد عن طريق الغواية، ونما وتربى فى عبادة الله، واجتناب معصيته، وثالثهم: رجل حريص على الصلاة، مقبل عليها، فهو يدخل المسجد الذى هو بيت الله ليقضى الصلاة، فإذاخرج يظل قلبه فى شغف للعودة إليه، من جديد، ليناجى ربه، ويستمر فى المناجاة.

ورابعهم: رجلان أحب كل منهما الآخر، حبًا خالصًا لله، وفى سبيل مرضاته. ولا يقصد من وراء صلته بأخيه غرضًا دنيوياً، أو هوى شخصياً.

وخامسهم: رجل يخاف ربه من أعماقه، فهو يذكره ذكرًا متصفًا بالخضوع المطلق المبرأ من الهوى، والزيف سواء بينه وبين نفسه، أو فى ملأ من الناس، وفى ذكره الله تذرف عيناه الدموع، خوفًا من عقابه، وطمعًا فى رحمته.

وسادسهم: رجل لا يرضى الفحشاء أو الزنا، مع وجود البواعث كالجاه والجمال والمال، وهى من أقوى الدواعى لارتكاب المعصية، إلا أنه خاف ربه وخشى عذابه، فامتنع من ذلك.

وسابعهم: هذا المنفق لأمواله، ابتغاء مرضاة الله من غير رياء ولا سمعة، ولا حب للظهور، فهو يخفى صدقاته، لئلا يراها الآخرون، ويبالغ فى ذلك إلى حد الإنكار.

هؤلاء السبعة نماذج حية للنفس التقية، التى عرفت خالقها، فعملت لمرضاته، وسوف يظلها الله تعالى بعطفه ورحمته وعنايته، يوم القيامة.

[١٤] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة، غرلا -كما خلقوا- ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وأول من يُكسى من الخلائق إبراهيم، ويؤخذ من أصحابى رجال ذات اليمين، وذات الشمال، فأقول: يارب أصحابى فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، إنهم لم يزالوا مرتدين، على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول -كما قال العبد الصالح ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة: ١١٨]

المعانى اللغوية

يحشر الناس:

أى : يبعثون

حفاة:

جمع حاف وهو الذى لا نعل له .

عراة:

جمع عار وهو من لا ستر له . وحشر الناس عراة ، يعارضه قول النبى ﷺ (إن الميت يبعث فى ثيابه التى يموت فيها) . وقد جمع بعض العلماء بين الحديثين :

١- بأن البعث فى الثياب خاص بالشهداء لأنهم الذين أُمِرَ أن يزملوا فى ثيابهم ويدفنوا فيها ، تمييزاً لهم عن غيرهم ، أما غيرهم فيحشرون عراة .

٢-أو بأن الناس كلهم يحشرون عراة ، ثم يكسون ، وأول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

٣- أو يخرج الناس من القبور بالثياب التى ماتوا فيها ، ثم تتناثر عنهم عند ابتداء الحشر ، فيحشرون عراة ، ثم يكسون بعد ذلك .

غرلاً:

جمع أغرل ، (الأقلف) وهو من بقيت غرلته ، وهى الجلدة التى يقطعها الخاتن من الذكور .

كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين:

المعنى : بدأناهم فى بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلاً ، وكذلك نعيدهم يوم القيامة ، ووعدنا لا يتخلف ، وهذه الآية الكريمة أوردها الرسول ﷺ لتأكيد ما ذكره من الحشر ، على هذه الصفة .

وأول من يكسى من الخلائق إبراهيم:

قيل : الحكمة فى كون إبراهيم بأنه أول من يكسى : أنه جرد حين ألقى فى النار.

ولا يلزم من تخصيص إبراهيم بأنه أول من يكسى أن يكون أفضل من نبينا عليه الصلاه والسلام، وقد ورد فى الحديث أن النبى ﷺ يكسى من بعده.

ويؤخذ من أصحابى رجال ذات اليمين وذات الشمال:

المعنى أنهم يذادون عن حوض النبى ﷺ، كما يذاد البعير الضال.

فأقول: يارب أصحابى فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم.

ربما تبدو عليهم بعض السمات التى تجعل الرسول ﷺ يتشبث بهم، ويناديهم كالغرة والتحجيل، من آثار الوضوء، أو لما كان النبى ﷺيعرفه من إسلامهم وبما يبدو عليهم من سمات كهذه. ولكن الأمر على حقيقته خلاف الظاهر، فقد ارتكبوا ما يبعدهم عن الإيمان، وينأى بهم عن الشفاعة ودخول الجنة، وقد اختلف فى المراد بهؤلاء الذين يناديهم النبى ﷺ.

فقيل : هم

١- أصحاب المعاصى الكبائر الذين ماتوا على التوحيد ، وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام. وهؤلاء ربما يذادون عقوبة لهم، ولا يقطع بدخولهم النار ،بل يجوز أن يرحمهم الله سبحانه وتعالى، فيدخلهم الجنة، ولا يمتنع أن يكون لهم غرة وتحجيل.

٢-المنافقون، والمرتدون، فهم لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم، فيناديهم النبى ﷺ، فيقال له: إنهم بدلوا بعدك.

المسائل النحوية

حفاة عراة غرلاً:

أحوال من نائب فاعل (يحشر) وهو (الناس).

كما بدأنا أول خلق نعيده:

الكاف جاره، و (ما) تؤول مع الفعل بعدها بمصدر، مجرور بالكاف، والجار والمجرور متعلق بفعل محذوف دل عليه (نعيده) والتقدير: نعيد الخلق إعادة مثل بدئه.

الأسرار البلاغية

إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم:

التعبير بالارتداد على العقب -وهو الرجوع إلى الخلف- كناية عن صفة وهى تركهم مبادىء الدين واتباعهم طريق المعاصى.

المعنى العام

إن الله تعالى يحيى الموتى، ويبعث من فى القبور، ويجمعهم يوم القيامة حفاة عراة، كما بدأ خلقهم، وتلك قدرته وهو على كل شىء قدير.

وعندما يجمع الله الخلائق على هذه الصورة، يبدأ كسوتهم مرة أخرى وأول من يكسى إبراهيم الخليل عليه السلام، تكريمًا له، ويجلس نبينا ﷺ ليشفع فى الناس، وينظر إليهم فيجد فيهم من تظهر عليه علامات التقوى، والصلاح أو من كان يعرفهم فى الدنيا، وكانوا يجالسونه، أو اشتهر إسلامهم ولكنه يفاجأ بأخذهم إلى النار.

هنا: ينادى الرسول ربه قائلاً: إنهم أصحابى، فكيف يفعل بهم ذلك؟ ويأتى الرد بأنهم لم يستمروا على طريقك، وسنتك، بل انحرفوا بدينهم فى طريق الغواية والضلال، وبقوا على ذلك حتى ماتوا، فاستحقوا لغضب ونار جهنم.

عندئذ يقول الرسول الكريم لربه القدير: إنهم عبادك تفعل بهم ما تشاء من عفو أو عقاب، كل على حسب عمله، وما قدمت يداه، وإنك أنت العزيز الذى لا يغلب الحكيم الذى يضع الأمر فى نصابه.

ومن الحديث يتبين، أن كل إنسان يجب عليه أن يعلم أن له نهاية محتومة، سوف يرد بعدها إلى الله تعالى فيحاسبه على عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما يجب أن يجعل الإنسان ظاهره كباطنه، لأن الله يعلم ما يخفيه من حاله، فهو ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر: ١٩] والجزاء من جنس العمل.

[١٥] عن ابن عباس قال: كنت خلف النبى ﷺ فقال: ياغلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء، لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف.

المعانى اللغوية

كنت خلف النبى ﷺ:

المعنى: كنت رديفًا له على ظهر بعير.

احفظ الله يحفظك:

المراد: نفذ أوامره ونواهيه يمنع عنك الآفات، والمكروهات فى الدنيا ويبعدك عن العقاب فى الآخرة.

احفظ الله تجده تجاهك:

المعنى: راع حقوق الله تعالى فإنه يرعاك بعنايته، ويمنع عنك المكاره.

إذا سألت فاسأل الله:

ليكن طلبك متجهًا إلى الله، دون غيره، فهو القادر -وحده- على الإعطاء والمنع والنفع والضرر.

وإذا استعنت فاستعن بالله:

إذا أردت الاستعانة فى أمورك الدنيوية والأخروية، فلتتوجه إلى الله، تستمد منه العون، فإنه وحده الذى يمد خلقه بها، ولا يملك غيره معونة أو نصراً.

رفعت الأقلام وجفت الصحف:

ما قدر لكل إنسان قد انتهى أزلاً، وأصبح فى علم الله، لا يملك أحد تغييره، فاطمئن، على حياتك، ومستقبلك، فالأمر بيد الله وحده.

وقد عبر بالكتابة لأن كل شىء قد سطر فى اللوح المحفوظ، وأصبح واقعًا لا زيادة فيه ولا نقصان.

المسائل النحوية

ياغلام:

منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف، وفى حركة الميم وجوه، منها: الكسر، مراعاة للياء المحذوفة، والضم على عدم مراعاتها، واعتبار الميم آخر الكلمة.

تجاهك:

التاء بدل من الواو، والأصل وجاهك، أى مقابلك وفى مواجهتك وبعض الجمل جاءت فى صيغة الأمر وجوابه وبعضها من قبيل الشرط والجزاء وقد وقعت الفاء فى بعض الجزاءات لأنها جمل طلبية.

الأسرار البلاغية

احفظ الله:

مجاز بالحذف أى أوامره، ونواهيه.

احفظ الله تجده تجاهك:

وجود الله فى مواجهة الإنسان كناية عن رعايته له من الشرور والكوارث.

رفعت الأقلام وجفت الصحف:

كناية عن عدم إمكان التغيير فى حظوظ الناس، وما قدر لهم فى الدنيا والآخرة.

المعنى العام

يخطئ الإنسان عندما ينصرف عن ربه، ويتجه إلى غيره، ليطلب منه العون، والمنفعة، فإن الأمر بيد الله، وإن الطاعة هى أساس الإجابة، فإذا اتجه العبد إلى ربه بالعمل الصالح، وبحفظه لحقوقه، وما كلف به، فإن الله تعالى يكافئه، بقضاء حاجاته، ويفتح له أبواب الخير والسعادة، فى الدنيا والآخرة.

وهنا يطلب رسول الله ﷺ من الإنسان أن يولى وجهة إلى خالقه متضرعًا، سائلاً بعد العمل الجاد، فإذا خشى ربه وعمل له أكرمه ووجده معينًا له فى كل وقت، ومجيبًا لسؤاله أيا كان، وإن الله هو الذى يستحق أن يسأل وأن يتجه إليه يطلب العون، والمنفعة، فهو النافع الضار، وإن الناس جميعًا لا يملكون نفعًا ولا ضرًا لأى أحد، ولو اجتمعوا على قلب رجل واحد.

ومهما يقفوا فى سبيل الخير أو الشر، فلن يستطيعوا ذلك إلا إذا كانت مشيئة الله قد أرادت أن يصل إلى هذا الإنسان أو ذاك.

وقد قدر الله الأعمال والأرزاق، والأمور المتعلقة بالبشرية، منذ الأزل السحيق، ولا يملك إنسان مهما يكن أن يغير من أمرها شيئًا، لأن حكمة الله اقتضت ما قرر وقوعه، والله هو الفاعل، وهو على ما يشاء قدير، وليس لغيره شىء من ذلك.

فعلينا أن نتوكل على الله، وأن نعبده حق عبادته، ونتأكد أن أى إنسان لا يملك نفعًا ولا ضرًا لنا، فلتهدأ نفوسنا، وتستقر لأن ما قدر لها سوف يكون ولا راد لقضاء الله.

[١٦] عن أنس بن ماللك أن رسول الله ﷺ قال: ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف فى النار.

المعانى اللغوية

ثلاث:

أى خصال ثلاث.

وجد بهن طعم الإيمان:

وفى رواية لمسلم: حلاوة الإيمان، والمراد: لذة الإيمان وهى استلذاذ الطاعات، وتحمله المشاق، فى رضا الله ورسوله، وإيثار ذلك على عرض الدنيا.

من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما:

الخصلة الأولى: هى محبة الله ورسوله، أكثر من غيرهما من الناس، ومن المال والجاه، وسائر الشهوات. ومحبة العبد لله سبحانه وتعالى، بفعل طاعته، وترك مخالفته، وكذا محبة رسوله ﷺ.

وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله:

الخصلة الثانية: حب الإنسان لأخيه الإنسان حبًا خالصًا، لوجه الله تعالى لا لغرض ولا لحظ دنيوى، فيكون متصفًا بالحب فى الله وداخلاً فى المتحابين لله.

وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار:

الخصلة الثالثة: أن يكره الرجوع إلى الكفر، أو التحول إليه، وهذا بالنسبة لمن أكرمه الله بالايمان، أو أن يصير كافراً، بعد اتصافه بالاسلام، وهذا لمن ولد مسلمًا، ولم يسبق له كفر.

وقد أنقذ الله هذا وذاك من وهدة الكفر وشره، فقد أخرج الكافر من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، وحفظ المسلم ابتداء من أن يتردى فى أعماق الضلال بولادته ابتداء على الإسلام.

وكل من الفعلين (يعود- أنقذ) يحتمل ما ذكرنا من المعنيين، فيمن انتقل من الكفر إلى الإيمان، ومن ولد ابتداء على الإيمان.

فالعودة تكون بمعنى الرجوع، أو التحول بمعنى الصيرورة وقد عدى الفعل (يعود) هنا بـ(فى) التى تختص بالمعنى الثانى، والإنقاذ يكون بمعنى الإخراج من شىء إلى آخر. وبمعنى الحفظ والعصمة من الوقوع فى الشىء.

المسائل النحوية

ثلاث:

مبتدأ: وجاز مع كونه نكرة لأنه -فى الحقيقة- صفة للمبتدأ المحذوف والتقدير: خصال ثلاث.

والخبر هو الجملة الشرطية بعده (من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان) ويجوز أن يكون (ثلاث) مبتدأ وصف بالجملة الشرطية ويكون الخبر (أن يكون الله ورسوله إلخ) وعلى الإعراب الأول يعرب (أن يكون الله ورسوله إلخ) خبراً لمبتدأ محذوف أو بدلاً من (ثلاث).

من كان:

هذا على تقدير مضاف محذوف، فأصل الكلام: محبة من كان، وهو بدل أو بيان لقوله (ثلاث)، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف والتقدير هو أو هى أو هن أو إحداها محبة من كان.. إلخ.

ولفظ الجلالة اسم كان، و(رسوله) معطوف عليه، و(أحب) خبرها.

الأسرار البلاغية

طعم الإيمان:

هنا استعارة، فقد شبه الإيمان بشىء حسى يذاق لما فى كلٍّ مما يستمتع به، ثم حذفه، ورمز إليه بشىء من لوازمه، فهى استعارة مكنية.

أو شبه لذة الطاعات المدركة بالحواس النفسية، بحلاوة الطعام الحسية، بجامع الاستمتاع في كلٍّ، ثم أقام الثانى مقام الأول على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية.

وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار:

هنا تشبيه كراهيته للعودة في الكفر بكراهيته القذف به فى النار، ووجه الشبه توقى الهلاك والشر الأليم فى كل.

المعنى العام

للإيمان علامات واضحة، وآثار جلية، يحسها الإنسان إذا عمل بمقتضاها، وأهم تلك العلامات والآثار، حب الله ورسوله. فلا تطغى عليه أهواؤه، ولا دنياه، ولا من له صلة به من أهله وعشيرته، وذلك الحب يكون بالطاعه لله. والعمل بما بلغه الرسول الكريم عن ربه، غير مبال بما يقف فى طريقه، من عرض هذه الدنيا الزائل.

وكذلك حب الإنسان لأخيه الإنسان، فلا يفضل نفسه عليه، ولا يتقرب منه لغرض دنيوى، يجعل صلتهما معرضة للانقطاع والتفرق بل يجب أن يكون الاتصال بينه وبين أخيه خالصًا لله عز وجل.

وكذلك ذكر الإنسان لنعمة الله عليه بالإيمان فقد هداه وأخرجه من ظلمات الشرك والجهالة إلى نور اليقين والهدى، وتلك نعمة كبرى من الله بها عليه فتجب المحافظة عليها، والنفور من الكفر والفسوق والعصيان، وكراهية الرجوع إلى تلك الوهدة التى كان متربًا فيها.

وعلى كل مؤمن فى كل زمان ومكان، أن يذكر تلك النعمة، فلولا أن الإيمان وقر فى قلبه، ووصل إليه بهداية الله، لكان ضالاً مضلاً، وذلك هو الخسران المبين.

وإذا ما توافرت لدى أحد الناس هذه الخصال الثلاث أحس بحلاوة الإيمان، وبشاشته فى قلبه، وعاش سعيدًا هانئًا فى دنياه وأخراه.

●●●

الفصل الثالث

اللهجات والصيغ والتراكيب فى الحديث

إجراء المثنى على لغة إلزامه الألف

روى البخارى عن ابن عمر- رضى الله عنهما- عن النبى ﷺ قال: «إن المتبايعان بالخيار فى بيعهما ما لم يتفرقا» هذا فى رواية القابسى.

ورواية الأكثرين(إن المتبايعين)(١).

قوله ﷺ (لا وتران فى ليلة) (٢).

هى لغة بنى الحارث بن كعب بإلزام المثنى وما جرى مجراه الألف فى أحوال الإعراب كلها لأنه عندهم بمنزلة الاسم المقصور(٣).

وعلى هذه اللهجة جاءت يعض القراءات فى قوله تعالى ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: ٦٣] قرأ ابن كثير وحفص (إن) باسكان النون والباقون بتشديدها، وقرأ أبو عمرو بالياء، والباقون (هذان) بالألف (٤).

وأطلق ابن مالك على هذه اللهجة اسم اللهجة الحارثية، ولكنه يشرك معهم غيرهم مثل بنى العنبر وبنى الهجيم، وبطون من ربيعة وغيرهم ولها نظائر فى الشعر العربى.

كقول أبى النجم العجلى:

إن أباها وأبا أباها ... قد بلغا فى المجد غايتاها

---

(١) البخارى-البيوع ٣/ ٨٢.

(٢) مسند أحمد١/ ١٤٦

(٣)شواهد التوضيح ص١٥٧ ومعانى القرآن للفراء٢/ ١٨٤

(٤) التيسير للدانى والبحر المحيط٦/ ٢٥٥

وقول المتلمس الضبعى (من ربيعة)

فأطرق إطراق الشجاع ولو رأى   مساغًا لناباه الشجاع لصمما [(١)]

ويقول ابن جنى: من العرب من لا يخاف اللبس ويجرى الباب على أصل قياسه، فيدع الألف ثابتة فى جميع الأحوال، فيقول: قام الزيدان وضربت الزيدان ومررت بالزيدان.

ويذكر أن أبا الحسن الأخفش أجاز أن يكون العرب قديمًا كانت تقول: مررت بأخويك و أخواك جميعًا إلا أن الياء كانت أقيس للفرق فكثر استعمالها، وأقام الآخرون على الألف[(٢)].

إجراء القول مجرى الظن

عن أبى هريرة- رضى الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا ما تقول ذلك يُبقى من درنه؟ قالوا: لا يُبقى من درنه شيئًا، قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا[(٣)].

قال ابن مالك: أما قول ﷺ : ما تقول ذلك يُبقى من درنه؟ ففيه شاهد على إجراء فعل القول مجرى فعل الظن على اللغة المشهورة، والشرط فيه أن يكون فعلاً مضارعًا مسندًا إلى المخاطب متصلاً باستفهام نحو:

متى تقول القُلُص الرواسما   يدنين أم قاسم وقاسما

وفى رواية (يحملن) مكان (يدنين)

ومنه الحديث المذكور، لأنه قد تقدم فيه (ما) الاستفهامية ووليها فعل القول مضارعًا مسندًا إلى المخاطب فاستحق أن يعمل عمل فعل الظن فـ (ذلك) فى موضع نصب مفعول أول وجملة (يبقى) فى موضع نصب مفعول ثان، و (ما) الاستفهامية فى موضع نصب بـ (يبقى) وقُدم لأن الاستفهام له صدر الكلام، والتقدير: أى شىء تظن ذلك الاغتسال مبقيًا من (درنه)؟.

---

(١) المقاييس(طرق) وبنو الحارث من الأزد قبيلة يمنية وبنو العنبر وبنو الهجيم من تميم.
(٢) انظر كتابنا: اللهجات العربية نشأة وتطورًا ص ٣٩، ٣٤٣، ٤٣٣ والخصائص ٢/ ١٤ - ١٦.
(٣) البخارى. مواقيت الصلاة ١/ ١٤١.

المستثنى فى الحديث

إذا كان الكلام تامًا موجبًا والاستثناء متصل فالمستثنى حينئذ واجب النصب .

لكن وردت بعض الأحاديث التى تشتمل على هذا النوع ورفع فيها المستثنى .

قال ﷺ فيما أخرجه البخارى فى صحيحه :

(كل أمتى معافًى إلا المجاهرون)

فالنحاة يؤولون الحديث بتقدير أن ما بعد إلا مبتدأ وخبر على أن المحذوف المبتدأ أو الخبر ، وعند الكوفيين تعرب (إلا) حرف عطف وما بعدها معطوف على ما قبلها .

ووردت على ذلك بعض القراءات فى مثل قوله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة : ٢٤٩][1] وخرج (قليل) بالرفع على الصفة .

لكن حمل ذلك على اللهجات العربية أوفق ، ففى حاشية الصبان (الإتباع جائز فى لغة حكاها أبو حيان ، وخرج عليها قراءة بعضهم شذوذًا ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ برفع (قليل) [2] .

●●●

(١) انظر معانى القرآن للأخفش ٢/ ٤٠٤ .

(٢) الصبان على الأشمونى ٢/ ١٤٢ .

تثنية الفعل وجمعه مع الفاعل المثنى والمجموع

عن عبد الرحمن بن جبير- رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (ما اغبرتا قدما عبد فى سبيل الله فتمسَّه النار)(١).

وعن أبى هريرة- رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر) (٢).

وعن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته قالت: كنَّ نساءُ المؤمنات يشهدن مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن) (٣).

وقد تعسف النحاة بتخريج هذا التركيب على أن الألف أو الواو أو نون النسوة هى الفاعل والاسم الظاهر بعدها بدل، وخرجوا على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١] وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء: ٣] وكذلك ما جاء على هذا النمط من الشواهد الشعرية.

ووصفوا هذه اللغة بالقلة أو عدم الفصاحة أو الشذوذ (٤).

وقال ابن مالك: (اللغة المشهورة تجريد الفعل من علامة تثنية وجمع عند تقديمه على ما هو مسند إليه استغناء بما فى المسند إليه من العلامات نحو: حضر أخواك، انطلق عبيدك وتبعهم إماؤك، ومن العرب من يقول: حضرا أخواك، وانطلقوا عبيدك، وتبعنهم إماؤك، والسبب فى هذا الاستعمال أن الفاعل قد يكون غير قابل لعلامة تثنية ولا جمع كـ (مَن) فإذا قصدت تثنيته أو جمعه والفعل مجرد لم يعلم القصد، فأراد

(١) البخارى. الجهاد٤/ ٢٥.

(٢) البخارى: مواقيت الصلاة١/ ١٤٥، ١٤٦.

(٣) البخارى: مواقيت الصلاة ١/ ١٥١ رواه مسلم والنسائى والإمام مالك فى الموطأ.

(٤) الكتاب٢/ ٤٠والبحر ٦/ ٢١٧.

أصحاب هذه اللغة تمييز فعل الواحد من غيره، فوصلوا عند قصد التثنية والجمع بعلامتيهما، و جردوه عند قصد الإفراد، فرفعوا اللبس، ثم التزموا ذلك فيما لا لبس فيه ليجرى الباب على سنن واحد[(١)].

وذكر ابن حجر أن الواو فى (يتعاقبون) علامة الفاعل المذكر المجموع على لغة بلحارث وهم يقولون (أكلونى البراغيث)، وقد أتت على هذه اللهجة شواهد شعرية كثيرة منها قول محمد بن أمية:

رأين الغوانى الشيب لاح بعارضى فأعرضن عنى بالخدود النواضر

وقول عبد الله بن قيس الرقيات فى رثاء مصعب بن الزبير:

تولى قتال المارقين بنفسه وقد أسلماه مبعد وحميم

ولا ينبغى وصف اللهجات بالرداءة أو الشذوذ لأنها من كلام العرب وطرائقهم الفصيحة، وربما كان ذلك فى قديم اللغة، ثم استغنت عنها اللغة العامة، وبقيت متمثلة فى بعض اللهجات، وفى فقه اللغة للثعالبى (ت٤٢٩هـ) قوله: (ربما تفعل العرب ذلك لأنه الأصل فتقول: جاءونى بنو فلان وأكلونى البراغيث)[(٢)].

●●●

(١) شواهد التوضيح ص٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) فقه اللغة للثعالبى ص ٤٨٨ ط. الاستقامة.

الفعل المضعف الثلاثى
بين الفك والإدغام

مضعف الثلاثى: هو ما كانت عينه ولامه من جنس واحد مثل : شدَّ ومدَّ.

وهناك الفعل المضعف العين مثل : كسَّر .

والفعل المضعف اللام مثل ابيضَّ واقشعرَّ واطمأنَّ واستعَدَّ.

ويعامل مضعف اللام معاملة المضعف الثلاثى .

أما مضعف العين فلا يحدث فيه تغيير عند إسناده إلى الضمائر والاسم الظاهر .

ومضعف الفعل الثلاثى له أحوال : عند إسناده .

١ - حالة التزام الفك

إذا أسند الماضى والمضارع والأمر إلى ضمائر الرفع المتحركة

الماضى : صددْتُ- صددنا- ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ﴾ [سبأ : ٣٢]

المضارع : يصْدُدن- ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ [النور : ٦٠]

الأمر : اصددْن

وهذه عند جميع العرب حجازيين ، تميميين .

ما عدا قبيلة بكر بن وائل فيدغمون ما لزم فكه فيقولون فى رددْت : ردَّتُ- رددنْا : ردَّنا

صددْتُ : صدّتُ- صددْنا . . صدّنا

يرددْن : يردّنَ

يصدُدْن : يصدَّنَ

قال تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ﴾ [ق : ١٥]

قرأها بالإدغام بتشديد ياء (أفعيّنا) أبو جعفر ونافع- فى بعض الروايات عنه- وغيرهما .

ووجه ابن خالويه هذه القراءة- فى الشواذ- فقال : هى من (عَيَّ) الماضى ، ثم ألحقه ضمير جماعة المتكلمين .

ومنه فى الحديث : (حتى إذا رأينا جُدُرَ المدينة هششنا إليها) .

جاء فى راوية ، (هشّنا)- بإدغام الشين فى الشين ونقل حركة الشين الأولى إلى الشين الثانية ، وحل محلها السكون ثم أدغم .

وهذا الإدغام مخالف للمعهود فى اللغة ، وقد وصفه بعض شراح الحديث بأنه صحيح (النووى على شرح مسلم) وقيل : إنه شاذ قليل (الرضى على الشافية) أو تركيب قبيح فى العربية (اللسان) .

لأن الإدغام يكون مع سكون الأول ، وتحريك الثانى ، وعند الإسناد إلى ضمير الرفع المتحرك يلزم الفك ، لأن ما قبل الضمير المتحرك يسكن لتوالى أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة فيلتقى ساكنان (الحرف الأول من المدغم والمدغم فيه بعد التسكين) فيتحرك الأول بفك الإدغام .

٢- حالة التزام الإدغام: (إدغام العين واللام)

عند إسناد المضعف الثلاثى بأنواعه الثلاثة : الماضى والمضارع والأمر إلى ضمائر الرفع الساكنة .

كألف الاثنين وواو الجماعة وياء المخاطبة .

الماضى : الرجلان صدَّا- الرجال صدُّوا- ﴿ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [محمد : ١] .

المضارع : يصدَّان- يصدُّون- تصدِّين يا هند

الأمر : صُدَّا- صُدُّوا

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [هود: ١٩].

وقبيلة بكر بن وائل تفك الإدغام فى الماضى المسند إلى ضمائر الرفع الساكنة ومن ذلك قول الشاعر:

مهلاً أعاذل قد جربت من خلقى   أنى أجود لأقوام وإن ضننوا

وكذلك يفكون الإدغام فى الأمر المسند إلى ضمائر الرفع الساكنة ومن ذلك قول البوصيرى:

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا   وما لقلبك إن قلت استفق يهم

وكذلك يجب إدغام العين فى اللام عند إسناد المضعف الثلاثى إلى الاسم الظاهر أو الضمير المستتر وذلك يكون فى الفعل الماضى:

مثال : جدَّ خالد- جدَّت آلاء

خالد جدّ- آلاء جدّت

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ [يوسف: ٢٥]

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧]. ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ [غافر: ٥] ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ١].

كذلك يجب الإدغام فى الفعل المضارع- فى حالتى الرفع والنصب- يشب الطفلُ- لن يشب الطفل، الطفل يشب على الجد ولن يشب على غيره.

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج : ٥]

﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٤]

وهذا عند جميع العرب حجازيين وتميميين

وجاء الفك فى الفعل الماضى المسند إلى الاسم الظاهر أو الضمير المستتر ففى كتب اللغة : عَيَّ بأمره وعَيِيَ والإدغام أكثر نقله الأزهرى، ويقال : عَيِيَ من باب تعِب عند بعض العرب : قبيلة بكر بن وائل وأضرابهم .

٣- حالات يجوز فيها الفك و الإدغام

أ - عند إسناد الفعل المضارع إلى الاسم الظاهر أو الضمير المستتر فى حالة الجزم لا غير .

مثال إسناده إلى الاسم الظاهر :

﴿ لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣]

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبان عَن عاصم (لا تضارُّ) - بالرفع - أى بضم الراء المشددة على الإخبار .

وقرأ باقى السبعة : (لا تضارَّ) - بفتح الراء - على الجزم جعلوه نهياً والتخلص من التقاء الساكنين بالفتح على المشهور .

وقرأ الحسن - بكسر الراء المشددة - على النهى والجزم والتخلص من التقاء الساكنين بالكسر وهذا الكسر على لهجة بعض العرب مثل كعب وغنى ونمير وتميم وكثير من قيس .

أما بقية العرب فيفتحون كل مضاعف مدغم مجزوم وقد يضم بعض العرب ذلك فى التخلص من التقاء الساكنين كقوله :

فغضَّ الطرف إنك من نمير ... فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

وفى هذه الحالات الثلاث التى جاءت فيها الراء مشددة مضمومة أو مفتوحة أو مكسورة يجوز أن يكون الفعل مبنيًا للمعلوم، وأصله (تضارر)- بكسر الراء الأولى- أو مبنيًا للمفعول، وأصله (تضارر)- بفتح الراء الأولى.

ورُوى عن ابن عباس: (لا تضارِرْ والدة) بفك الإدغام وكسر الراء الأولى وسكون الثانية وقرأ ابن مسعود كذلك بفك الإدغام لكن بفتح الراء الأولى وسكون الثانية وكلا القراءتين على الجزم والنهى على لهجة أهل الحجاز.

كذلك من إسناد المضارع إلى الظاهر- حال الجزم- قوله تعالى: ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ [غافر: ٤].

قرأ الجمهور(فلا يغررك)- بالفك- وهى لهجة أهل الحجاز.

وقرأ زيد بن على وعبيد بن عمر: (فلا يغرك) بالإدغام مفتوح الراء.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

اختلف فى ضمة الراء أهى حركة إعراب؟ فالفعل مرفوع- على التقديم والتأخير- والأصل: لايضركم إنْ تصبروا.

وعلى هذا فالجواب محذوف دل عليه المذكور

أو أن (لا) فى (لايضركم) بمعنى (ليس) مع إضمار الفاء فى الجواب، أى: فليس يضركم.

وقرأ الكوفيون وابن عامر بالإدغام (لا يضركم)

وقرأ عاصم- فى رواية عنه- (لا يضركم)-بفتح الراء المشددة-للتخلص من التقاء الساكنين- والفعل مجزوم فى جواب الشرط.

وقرأ أبى: (لا يضرركم) بفك الإدغام.

والإدغام لهجة وسط الجزيرة وشرقيها- تميم ومن جاورهم- والفك لهجة غربى الجزيرة- أهل الحجاز ومن تابعهم-

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

قرئ بالفك والإدغام.

ومثال إسناد المضارع المضعف إلى الضمير المستتر حالة الجزم قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤]

قرأ نافع وابن عامر: (من يرتدد)- بالفك- والباقون بالإدغام.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٤]

قرأ الجمهور- هنا- بالإدغام، وقرأ طلحة بالفك.

وقد جاء المضارع مسندًا إلى الضمير المستتر على الفك موافقًا لرسم المصحف.

مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٧]ولم يقرأ بالإدغام

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [النساء: ١١٥]

ولم يقرأ - أيضاً - بالإدغام- موافقة لرسم المصحف.

ب - من حالات جواز الفك والإدغام:

عند إسناد فعل الأمر إلى ضمير الواحد (الضمير المستتر) وهو فعل الأمر المبنى على السكون.

مثل كُفَّ واكْفُفْ

ومنه فى القرآن الكريم : ﴿ وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان : ١٩]

وفى الحديث : (اللهم اشدد وطأتك على مضر) .

وقال الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

وكل المخالفات التى نسبت إلى قبيلة بكر بن وائل أو أناس منهم لهجة ضعيفة كما ذكر الخليل وسيبويه .

●●●

الإعجاز اللغوى في القرآن والسنة

الجزء الثانى

أ.د. عبد الغفار حامد هلال
أستاذ ورئيس قسم أصول اللغة
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

وبعد

فالانتصار للفظ أو المعنى قضية عرض لها دارسو الأدب وناقدوه، والباحثون عن العناصر الأساسية فى النص الأدبى، والخصائص التى يتميز بها، ويقوم على أساس الإجادة فيها[١].

ولم تظهر هذه المشكلة فى العصر الجاهلى أو فى صدر الإسلام، بحكم أمية العرب، وتلقيهم اللغة بالسماع والممارسة، لا بالتعلم والمدارسة[٢]، فلما ظهر النحويون واللغويون فى أواخر القرن الأول، وأخذوا يجمعون اللغة، ويضعون لها القواعد، لخدمة القرآن الكريم، حينئذ بدأ التفكير فى الألفاظ باعتبارها شيئًا منفصلاً عن المعنى، أو فى المعنى مجردًا عن اللفظ[٣].

ثم وضح هذا الانفصال عندما ظهر المتكلمون، واشتد النزاع حول حقيقة الإعجاز أهو فى القرآن الكريم بنفسه أم أن سببه صرفهم عن قول مثله؟ ثم كانت محنة خلق القرآن التى أثارها المعتزلة إبان سيطرتهم مبنية على اللفظ والمعنى، وهل هما معًا كلام الله القديم أم القديم المعنى فقط واللفظ حادث؟[٤]، وقد كان للفقهاء اشتراك أيضًا فى

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى. د. طبانة، ص ١٣٠.

(٢) قضية الأدب بين اللفظ والمعنى. ص ١٦.

(٣) المصدر السابق. ص ١٧.

(٤) المصدر السابق. ص ١٨.

هذه المشكلة، فمنهم الذين يأخذون باللفظ، أو بالظاهر وطريقة المتصوفة الذين يأخذون بالمعنى أو بالروح، وقد كان كذلك للفسلفة اليونانية والترجمة أثر فى مجالات هذا البحث(١).

والأدباء من قديم الزمن مختلفون فى الأخذ باللفظ والمعنى، فمن الأدباء من يُعنى بجرس الكلمات والعبارات، ويهتم بانسجامها وبرنينها الموسيقى ويكون (بالموسيقار) أشبه، ومنهم من يتجه اهتمامه إلى حسن التصوير، وروعة التنسيق الشكلى، والتناسب بين المعانى والعبارات، ويكون إلى المصوّر أقرب، ومنهم من يسيطر عليه الوجدان وتغمره العواطف، فتجيش نفسه بمختلف الانفعالات، وتكون المعانى أشبه بتيار كهربائى يجرى فى الأعضاء، وفى فجاج العقل، ومنهم من يأخذ بنصيب من كل هذا، ولعل ذلك راجع إلى اختلاف الميول الإنسانية، وإلى ما فى المواهب النفسية من تعادل وتوازن، أو رجحان ناحية منها(٢).

ولا ريب أن أكثر الشعراء العرب كانوا يعنون باللفظ والمعنى، سواء منهم المطبوعون كامرئ القيس وجرير وأمثالهما، أو أصحاب الصنعة الطبيعية البدوية، كزهير والحطيئة، أو أصحاب الصنعة الطبيعية الحضرية كبشار وأبى نواس والبحترى، أو المغالون فى الصنعة كأبى تمام وابن المعتز والمتنبى(٣)، لاشك أن أغلبهم كانوا يفكرون فى معان قيمة ويعرضونها فى ألفاظ وعبارات توافقها فى معظم الأحيان، أو تقصر عن تجلية مرادهم فى أحيان أخرى(٤).

وعندما تقدم الزمن، واضمحلت الحضارة، وتفككت الدولة ظهر أثر كل ذلك فى جفاف الأدب، ودورانه على ألفاظ، تستعار فى معان ليس أصيلة لأصحابها مما هو واضح فى معارض المقامات اللغوية والطريقة الفاضلية(٥)، وتبعًا للظروف التى مرت

(١) المصدر السابق، ص ١٧، ١٨ بتصرف.

(٢) الأصول الفنية للأدب، ص ١٨٧.

(٣) التقسيم للدكتور شوقى ضيف فى كتابه «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»، وانظر قضية الأدب بين اللفظ والمعنى، ص ٢٩. ٣٠.

(٤) قضية الأدب بين اللفظ والمعنى، ص ٢٩، ٣٠.

(٥) دراسات فى نقد الأدب العربى. ص ١٣١.

بها الدولة العربية من الناحية السياسية والاجتماعية، والأدبية على مر العصور التاريخية، والانتقال من البداوة إلى الحضارة، وقوة اللغة وضعفها كان اختلاف نقاد الأدب حول اللفظ والمعنى، ولم يكن حكم العلماء والنقاد متجهًا إلى ذات اللغة وطبيعتها ومادتها وأصولها اللغوية التى وهبها الله للعرب، وإنما كان حكمهم مائلاً إلى الظرف اللغوى الخاص الذى تتأثر به تلك الجماعة، أو تختلف عنه أخرى، فى هذا التاريخ اللغوى الدقيق.

فعلماء الأدب والنقد الأدبى ينقسمون بين قائل بأن للفظ والإبداع فى الصياغة الشأن الأول فى تقدير القيمة الفنية للنص الأدبى، ومعارض يذهب إلى عكس ذلك، فيجعل المعنى كل شىء، ويحط من شأن الأسلوب، ويزعم أنه طلاء لايقدر إلا بقدر مكانة البناء، وذاهب مذهبًا وسطًا يرى أن المعانى والألفاظ توأم لا انفصال لأحدهما عن الآخر، وأن الألفاظ أوعية للمعانى، وقوالب لها، وشبهها بالروح والجسد لاتعرف الروح إلا بتميزها فى أشكالها، ولايقدر الجسد إلا بما استودع من سمو الروح ولطافة الحس[1].

ويشير «ابن رشيق» إلى هذه النظرات الثلاث فيذكر أن من الناس من يؤثر اللفظ على المعنى، فيجعله غايته ووكده، وهم فرق: قوم يذهبون إلى فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب من غير تصنع كقول بشار:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ... ذرا منبر صلى علينا وسلما

وهذا النوع أدل على القوة، وأشبه بما وقع فيه من موضع الافتخار، وكذلك ما مدح به من الملوك يجب أن يكون من هذا النحو، وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر، كأبى القاسم بن هانئ ومن جرى مجراه فإنه يقول أول مذهبته:

---

(١) المصدر السابق.

أصاخت فقالت: وقع أجرد شيظم وشامت فقالت: لمع أبيض مخذم
وما ذعرت إلا لجرس حليها ولا رمقت إلا برى فى مُخَدَّم[١]

وليس تحت هذا كله إلا الفساد، وخلاف المراد، من الذى يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها لبست حليها، فتوهمته بعد الإصاخة والرمق وقع فرس أو لمع سيف؟، غير أنها مغزوة فى دارها، أو جاهلة بما حملت من زينتها، ولم يخف عنا مراده أنها كانت تترقبه فى هذا كله، ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته، ولايبالى حيث وقع هجنة اللفظ وقبحه وخشونته، كابن الرومى وأبى الطيب ومن شاكلهما، هؤلاء المطبوعون، ثم يقول: وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى[٢].

وهذا الانقسام إلى الطوائف الثلاث كما قال به القدماء قال به المحدثون، فقد أجرى الأستاذ «أحمد محمد عنبر» سنة ١٩٥١م استفتاء حول قضية الأدب بين اللفظ والمعنى وجهه إلى حوالى مائة من المشتغلين بالأدب أو الفن فى المعاهد العليا والكليات الجامعية والمدارس الثانوية، ومنهم علماء مؤلفون، وأصحاب صحف ومحررون صحفيون، ومنهم مشتغلون بفن القصة الحديثة، ومنهم شعراء، وقد تجمع لديه خمسة وأربعون ردًا موزعة بين النظريات الثلاث، فيرى الجمال فى العبارات أو يقدمها على المعانى، أو يراها أكثر إثارة للشعور خمسة من الأدباء والمدرسين، أو المدرسين الأوائل للغة العربية فى المدارس الثانوية، وبعضهم شاعر، ويرى الجمال فى المعانى والدلالات لأنه يفضلها أو لأنها خالدة، والعبارة ينتهى جمالها فى عصرها ثمانية، ويرى الجمال فى الناحيتين معًا واحد وثلاثون[٣].

والمعتنقون لأحد هذه المذاهب من الأدباء إنما يعبرون عن اتجاههم الأدبى وتمكنهم اللغوى فى إنتاجهم الفنى، فالشاعر الذى تتوافر لديه عناصر الشاعرية، ولكنه لا يملك

(١) الأجرد: أراد به الفرس القصير الشعر، وشيظم: أى طويل الجسم، مخذم: أراد به السيف القاطع، المخدم: محل الخلخال.
(٢) العمدة لابن رشيق ص ١٠٤- ١٠٦.
(٣) قضية الأدب بين اللفظ والمعنى، ص ١٠-١٢.

أداة التعبير لضيق ذات يده، أو ذات عقله من الثروة اللغوية، ولا طاقة له على التزام قيود الفن مثل هذا الشاعر يحاول أن يغطى عجزه، وقصوره فى الأداء بتلفيق مذهب أعجمى البيان مهلهل الأوزان، ويسرف فى اصطناع هذا المذهب والدعوة إليه وتسفيه ما عداه أيما إسراف، والشاعر الذى يملك أداته من لغة وأوزان، ولكنه ضحل المشاعر محدود التجربة يحاول أن يغطى هذا القصور فى عناصر شاعريته لضيق ذات نفسه بالإسراف فى العناية بالشكل والإطار، والزعم القديم بأن المعانى ملقاة على جوانب الطريق يلتقطها من يشاء، ولكن اختيار الألفاظ وفق الصياغة هو مقياس البلاغة وعنوان الإبداع[١].

وحين يوجد هذا التكامل بين عناصر الشاعرية، وأداة البيان لايقصر لفظ عن معناه، ولا يستعجم معنى على مخارج حروفه، ولا تضيق قافية بعاطفة وإنما هو الشعر فى صورته الفنية الكاملة إحساس صادق، وعبارة نابضة، ونسق مؤتلف وإيقاع جميل[٢].

وقد خاض نقاد الأدب ودارسوه- منذ نمو العلم العربى وآداب اللغة العربية- فى الانتصار للفظ أو المعنى، واتفقت كلمة كثير منهم على تلك النظرية الأخيرة، وقد اتهم بعض المحدثين الجاحظ وأبا هلال العسكرى وضياء الدين بن الأثير وعبد القاهر الجرجانى والعلوى صاحب الطراز، اتهم بعض المحدثين هؤلاء النقاد العرب بأنهم من أنصار اللفظ، وأن العرب قد اهتموا به أكثر من المعنى، وهم يعتمدون فى تلك التهمة على نصوص اقتبسوها- مبتورة- من مؤلفات هؤلاء العلماء العرب، فبعضهم ينقل ما رواه الجاحظ فى كتاب الحيوان من أن أبا عمرو الشيبانى كان يستحسن قول الشاعر:

لا تحسبن الموت موت البلى ... وإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكنّ ذا ... أفظع من ذاك لذل السؤال

(١) انظر (دفاع عن البلاغة) للزيات، ٦٤.

(٢) الشاعر هاشم الرفاعى لمحمد كامل، سلسلة اقرأ، دار المعارف، بمصر، ص ٦٨، ٦٩.

وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين أنه وهو فى المسجد يوم الجمعة كلف رجلاً إحضار دواة وقرطاس حتى كتبهما له وكان إعجاب أبى عمرو بالبيتين قائمًا على استحسان ما تضمناه من المعنى، أما الجاحظ فإنه يرفضهما ويزعم أن صاحبهما لا يقول شعرًا أبدًا [(١)]، ولا عبرة باستحسان أبى عمرو لمعانيهما، لأن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وفى صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج وجنس من التصوير، وقد قيل للخليل بن أحمد: مالك لا تقول الشعر؟ قال: الذى يجيئنى لا أرضاه، والذى أرضاه لا يجيئنى [(٢)].

ويستنتج بعض الباحثين من ذلك أن غاية البيان الحقيقية عند الجاحظ هى التأنق فى رسم الصورة، وإبراز الفكرة الأدبية مصطبغة بالصبغة الفنية [(٣)]، وأن النظرة إلى الأدب ينبغى أن تكون إلى مقدار ما حوى من آثار الصنعة، من جودة التشبيه، وحسن الاستعارة، وابتكار الصور التى يتميز صاحبها على غيره من الأدباء بمقدار ما تأنق فيها [(٤)].

ومنهم من ينقل عن أبى هلال العسكرى قوله: ليس الشأن فى إيراد المعانى؛ لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى، وإنما هو فى جودة اللفظ وصفاته وحسنه وبهائه [(٥)]، والواقع أن هذين الناقدين ومن لفَّ لفهما اتجهوا فى نقدهم إلى الاهتمام باللفظ والمعنى معًا بما يجعلهما توأمًا لا ينفصلان، أو روحًا وجسدًا لكل منهما صلة قوية بصاحبه، فإذا انفك أحدهما عن الآخر مات الحى وفسد الكائن [(٦)]، ويكاد هؤلاء يجرون على منهج العلماء المحدثين حين يشرحون وجهًا من مسألة، أو يجلّون ناحية من رأى فيصرفون النظر عن غيرها، ثم يعرضون للوجوه الأخرى من

(١) الحيوان ٣/ ١٣١.
(٢) الحيوان ٣/ ١٣١، ١٣٢ ط، الحلبى.
(٣) دراسات فى نقد الأدب العربى ص ١٣٦.
(٤) المصدر السابق. ص ١٣٣.
(٥) الصناعتين ص ٥٥.
(٦) دفاع عن البلاغة ص ٦٠.

المسألة أو الرأى فى فصل تال، فيكادون يصرفون النظر عما ذكروه أولاً، وإنصافهم يكون بالحكم على مجموع كَلامهم لا على شقٍّ منه، فالجاحظ تبدو عنايته باللفظ فى نصوص من كتبه كنص الحيوان السابق، وكنصوص أخرى من كتابه «البيان والتبيين» فهو يقول: اعلم- حفظك الله- أن حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ، لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعانى مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة. ويقول: ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ولا ألذ فى الأسماع ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويمًا للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء(١).

وإذا كان لنا أن ننقده فى أن المعانى مطروحة فى الطريق بما وجهه إليه بعض المحدثين من أن أحدًا لا يقره على هذا الذى ذهب إليه من أن المعانى يعرفها الحضرى كما يعرفها البدوى، ويعرفها العربى معرفة العجمى، فإن التفاوت بين طبقات الناس هو القاعدة، ومن ذا الذى يجحد تفاوتهم فى المواهب وتفاوتهم فى الاستعداد وعوامل الوراثة؟ بل من ذا الذى يستطيع أن يتنكر لأثر التجربة، وأثر البيئة، وأثر الثقافة فى بناء العقليات، وإرهاف الملكات، وهى لا تتهيأ لجميع الناس بدرجة واحدة، وما المعانى إلا أثر من آثار هذه المقومات(٢) إذا كان لنا أن نوافق هذا الناقد على هذا النقد، فإننا لا نوافقه على أن هذا من الشطط الذى لم يقده إليه إلا تعلقه بمذهب الصنعة هذا التعلق الذى أعماه عن تقدير المعنى(٣)، فلو بحثنا فى فصول كتبه لتبين صحة ما ذهب إليه، فالجاحظ كما يعير اللفظ اهتمامًا كبيرًا، كذلك يعير المعنى نفس الاهتمام، وهذا استنتاج يصل إليه من يتأمل فى هذه النصوص التى نقتبسها من كلام الجاحظ، فهو يقول: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك، ويقول: ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ويوازن

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٧٦، ١٤٥.

(٢) دراسات فى نقد الأدب العربى ص ١٣٩.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٨.

بينها، وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ويقول: ومن أراد معنى كريمًا فليلتمس له لفظًا كريمًا، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما، ويهجنهما[(١)].

وهذا يدل على أن للمعانى نصيبًا من اهتمام المتكلم العربى، فلم يقتصر اهتمامه على الألفاظ فقط، بل يهتم بهما، ويتخير للمعنى الشريف اللفظ الشريف، وهو لايهتم باللفظ إلا من أجل شرف المعنى، وإذا كان أبو هلال العسكرى قد اهتم أيضًا باللفظ- كما يظهر من النص المنقول عنه- وكذلك من قوله: «ومن أدل الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائقة، والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعانى فقط لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام، وإحكام صناعته ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مباديه وغريب مبانيه على فضل قائله وفهم منشيه، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعانى»[(٢)]- هذا النص- كذلك- يفهم منه اهتمام أبى هلال بالألفاظ باعتبارها أساسًا لتقويم النص الأدبى، ولكننى ألمح منه ومن غيره ما يدل على أن النص الأدبى يجب أن يكون مشتملاً على معنى نال حظًا من الاهتمام كاللفظ تمامًا، ففى النص السابق قوله: «لإفهام المعنى فقط» يدل على أنه لا يغفل جانب المعنى، وإنما يريد ألا ينصرف الاهتمام إليه فقط، بل ينضم إليه الاهتمام باللفظ كذلك.

ويدل لهذا الاتجاه نص ثان يغفله من ينسب العسكرى إلى أدب اللفظ وحده هو قوله: «إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها، ويعبر عنها فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأن المدار بعد على إصابة المعنى، ولأن المعانى تحل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجرى منها مجرى الكسوة، ومزية إحداهما على الأخرى معروفه»[(٣)]، فلا يصح حينئذ أن نرميه بأنه من أنصار اللفظ

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٥، ١٣٦، ١٣٨.
(٢) الصناعتين ص٥٥، ٥٦.
(٣) الصناعتين ص ٦٦.

وعندنا دليل آخر حين قال ومن عرف ترتيب المعانى، واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات، ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له من صنعة الكلام مثلما تهيأ له فى الأولى. . ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى، فحولها إلى اللسان العربى، فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال(١) والآداب التى تترجم هى آداب المعانى لا آداب الألفاظ وابن رشيق يقول فى تعريف البلاغة: «البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى، أو هى إصابة المعنى وحسن الإيجاز»(٢)، ويقول كذلك كما قال الجاحظ: لا يكون الكلام يستوجب اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولايكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك(٣).

وابن الأثير وإن قال عن اللفظ: «والفصيح من الألفاظ هو الظاهر البيّن وإنما كان ظاهرًا بينًا لأنه مألوف الاستعمال وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه، وحسنه مدرك بالسمع، والذى يدرك بالسمع إنما هو اللفظ، لأنه صوت يأتلف من مخارج الحروف، فما استلذه منه فهو الحسن، وما كرهه فهو القبيح، والحسن هو الموصوف بالفصاحة، والقبيح غير موصوف بفصاحة. . فلفظا «مزنة» و«ديمة» فصيحتان دون لفظ «بعاق» وهى كلها من صفة المطر، ولو كانت الفصاحة فى المعنى لتساوت الكلمات الثلاث فهى تخص اللفظ دون المعنى(٤)، إذا كان قال ذلك فإنه لايقدح فى اهتمامه بالمعنى فقد خص اللفظ بهذا الجانب من الفصاحة، وذلك لا يخل بشرف المعنى والاهتمام به، ونبهنا ابن الأثير بنفسه على ذلك إذ يقول: وليس لقائل أن يقول: لا لفظ إلا بمعنى، فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى؟ فإننى لم أفصل بينهما، وإنما خصصت اللفظ بصفة هى له، والمعنى يجىء فيه ضمنًا وتبعًا(٥)، ثم هو يعود إلى هذه

(١) الصناعتين ص ٦٦، ٦٧.
(٢) العمدة ١/ ٢١٣.
(٣) المصدر السابق ١/ ٢١٦.
(٤) المثل السائر، ص ٢٧.
(٥) المصدر السابق ص ١٤٠.

المسألة ليرد على من ادعى أن العرب أرباب الفصاحة كانت تعنى بالألفاظ فقط دون المعانى- نقلاً عن ابن جنى فى كتابه الخصائص- : اعلم أن العرب كما كانت تعنى بالألفاظ فتصلحها، وتهذبها فإن المعانى أقوى عندها، وأكرم عليها، وأشرفها قدرًا فى نفوسها، وأول ذلك عنايتها بألفاظها، لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحوها وزينوها وبالغوا فى تحسينها، ليكون ذلك أوقع لها فى النفس، وأذهب بها فى الدلالة على المعنى، ولذة السامع به أتم، فإذا رأينا العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ورققوا حواشيها، وصقلوا أطرافها فلا نظن أن العناية إذ ذاك إنما هى باللفظ فقط بل هى خدمة منهم للمعانى، فإنا قد نجد من المعانى الفاخرة ما يشوه حسنه بذاءة لفظه وسوء العبارة عنه[(١)].

ويقول صاحب الطراز: «إن البلاغة عبارة عن الوصول إلى المعانى البديعة بالألفاظ الحسنة، أو هى عبارة عن حسن السبك مع جودة المعانى، والمقصود من البلاغة هو وصول الإنسان بعبارته إلى كنه ما فى قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل بالمعانى، وعن الإطالة المملة للخواطر»[(٢)]، ويقول الإمام عبد القاهر: «إن مزية الكلام الذى يتحقق فيه الإعجاز من حيز المعانى دون الألفاظ، وإنها ليست لك من حيث تسمع بأذنك بل من حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك وتعمل برويتك».

وكان العرب يملكون من أساليب البيان ناصيته شعرًا ونثرًا.

وجاء القرآن الكريم فتحدى بلاغتهم وفصاحتهم، وأعجزهم، بل أعجز الخلائق كلها فرادى ومجتمعين ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] مع أنه نزل باللسان العربى ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣] ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٢٤].

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٠

(٢) الطراز ١/ ١٢٢.

فأتى الإعجاز القرآنى من أنه مؤلف من الحروف التى يؤلف العرب منها كلامهم، وكما يستطيع ناقد الدراهم والدنانير الصيرفى أن يميز الصحيح من الزائف كذلك يستطيع العرب التمييز بين المعجز وغيره لمعرفتهم ما يخفى على غيرهم(١)، والعالمون يعرفون- عند سماع القرآن وتلاوته- ضربًا من المعرفة لا يمكن تحديده من حيث الفخامة والسلاسة، والجزالة والرصانة، هو- بألفاظه ومعانيه- متلائم متناسق متشاكل، فهو كامل المبنى، كامل المعنى يدرك ذلك أصحاب العقول الراجحة والنفوس التى تعود إلى الفطرة.

وإعجاز القرآن الكريم فى حروفه وفى كلماته وفى تراكيبه، وليس فيه حوشى أو غريب مستكره، مع سهولة المأخذ، وامتناعه على المحاكاة، انظر وتأمل فى كلماته الجامعة ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩] و ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠] و ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨](٢) و﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٢]، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ [الروم: ٤٢] و﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤]، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] إنها عبارات جلية فى بيان معانيها مع طلاوة الألفاظ وحلاوتها.

ونجد الكلمات الشديدة أحيانًا تقع فى القرآن الكريم ولكنها تقع فى موقعها المناسب لها كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٠].

وتأمل فى استخدام كلمة «الصبح» فى موقع معين، وكلمة «الفجر» فى موقع آخر لا تحل إحداهما محل الأخرى ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير: ١٨] ﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ [الفجر: ١، ٢] انظر إلى الاشتقاق كالتعبير عن المفعول بلفظ الفاعل فى قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ [القصص: ٥٧] أى: مأمونًا فيه وقوله

(١) إعجاز القرآن للباقلانى، ص ١١٣.

(٢) والصبغة هى الدين.

تعالى: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [القارعة: ٧] أى مرضية، وانظر فى مخاطبة الواحد بلفظ الجمع: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، وتأمل فى استعمال الجمع والواحد والإخبار عنهما بلفظ الاثنين: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] ونسبة الفعل إلى واحد من اثنين قد ذكرا ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وذلك يخرج من أحدهما لا منهما، وهو الملح لا العذب، ونسبة الفعل إلى الجماعة وهو لواحد منهم: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢] والقاتل واحد، والإخبار عن المستقبل بلفظ الماضى ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]، وعكسه بالإخبار عن الماضى بالمستقبل ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والجزاء عن الفعل بمثل لفظه ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وتنزيل غير العاقل منزلة العاقل ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

واستخدم القرآن الكريم كلمات من نوع واحد فى سياق واحد لتفيد فى كل موقع المعنى المقصود كقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] واستعمل القرآن الكريم الفعل «أسرى» ولم يستعمل الفعل «سرى» مع أنه موجود فى اللغة وذلك فى قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١]، لعل ذلك يتعلق باختلاف اللهجات العربية، وقد جاء «فعل» و«أفعل» لهجتين عربيتين على حد قول الشاعر:

سقى قومى بنى مجد وأسقى   نميرًا والقبائل من هلال

ولك أن تتأمل- أيها القارئ الكريم- كيف عبّر سبحانه بالعبد عن الرسول ﷺ، ومقام العبودية مقام تشريف جعله سبحانه يختار هذا اللفظ، ولماذا قال: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾

ولم يقل : «باركنا فيه»؟ وقال ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ فاستخدم «من» دون الإطلاق، وبراعة التعبير على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم، ثم إلى الغيبة مرة أخرى.

وتتنوع الكلمات والأساليب فى موضوع واحد فى القرآن الكريم من غير أن تظهر عليه سيما التكلف أو إعياء التنقل، قال تعالى: ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] وقال سبحانه: ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

إلى جوانب أخرى كثيرة تتعلق بالأسرار اللغوية الكامنة وراء النواحى الصوتية وأثرها فى المعنى مثل: ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، ﴿الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٤]، واستعمال الجامد مكان المشتق «هدى» مكان «هاد» و«الغيب» مكان «الغائب»، والخاص موضع العام والعكس كقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]، ذلك وغيره كثير تكشف عنه دراسة لغة القرآن الكريم.

أما حديث رسول الله ﷺ فهو يلى القرآن الكريم فى فصاحته وبلاغته، ونرى فيه اختيار الألفاظ على نحو بارع لا يتأتى لسواه من البلغاء والفصحاء، وقد كان على- كرم الله وجهه- يقول له: يارسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم العرب بما لا نفهم أكثره فقال له ﷺ: **«أدبنى ربى فأحسن تأديبى»**.

ولو رجعنا إلى كتب الحديث الصحاح كالبخارى ومسلم وباقى الكتب الستة، وغيرها فإننا نجد البلاغة فى أعلى صورها، فعن أبى هريرة- رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: **«أوتيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب فبينا أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت فى يدى»** فقوله «جوامع الكلم» تعنى أنه أعطى ما قلّ لفظه وغزر معناه من القرآن والحديث، ووضع مفاتيح خزائن الأرض فى يد رسول الله ﷺ كناية عن فتح الله تعالى للمسلمين وانتشار الإسلام.

وهذا الحديث يؤكد بلاغة القرآن الكريم، وبلاغة رسول الله ﷺ وهى معجزته ﷺ التى تحدى بها العرب، وكان فصيحًا بليغًا لينشر دين الله فى الأرض، على نحو واضح جلى، والرسول ﷺ محاط بالعناية الإلهية، يفزع منه عدوه وهو فى عقر داره، وهذا معناه نصر الله تعالى له دون إراقة الدماء، وما أجمل هذا الإيجاز فى قوله ﷺ فيما روى ابن عباس- رضى الله عنهما- **«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»**.

تأمل فى لفظ «نعمتان»- والنعمة إحسان بلا مقابل- و«مغبون» مأخوذ من الغبن- وهو الخداع فى البيع: غبنه يغبنه غبنًا مثل ضرب يضرب ضربًا إذا خدعه، ويقال: غبن الشىء، وفيه لازمًا ومتعديًا، والمصدر «غبن» - بسكون الباء وفتحها- بمعنى النسيان والإهمال أو الخطأ، ويقال: غبن رأيه: ضعف.

فإضاعة فرصة الصحة، وفرصة الفراغ، وعدم استغلالهما الاستغلال الأمثل يعنى خسارة كبيرة لصاحبهما، كالبائع الذى لا يحسن التجارة وكأنه مثل من خُدع فى بيعه وظُلم، وهذا على سبيل الاستعارة أو المجاز المرسل بالتعبير بالغبن عن عدم إحسان التصرف، أو بالتعبير عن وقوع الضرر بالخداع، وضعف الرأى خطل كبير.

وعن أبى هريرة- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: **«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»** هذا أسلوب خبر أريد به الطلب، وهو النهى عن الوقوع فى الضرر بسعى الإنسان دون يقظة وتنبه.

وفى الحديث الشريف عبارات التواضع، واللياقة اللغوية والخلقية، فعن أبى هريرة- رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيًا أوحى الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»** لاحظ أيها القارئ الكريم استخدام الكلمات المنتقاة الواضحة الجزلة: الآيات- الوحى- مثل- التابع... إلخ، وفى الحديث تقديم وتأخير «ما من الأنبياء» مقدّم على «من نبى» وأصل الكلام: ما من نبى من الأنبياء إلا أعطى.. إلخ، واستخدم «على» بمعنى اللام، أى آمن لأجله البشر، وهو يريد المعجزات الدالة على النبوة وأتى بـ «من» الزائدة فى قوله «من نبى» ليفيد معنى

العموم، وجاء التعبير بالمثل لأن المعجزات تختلف من نبى إلى آخر، وليست هى بذاتها بل مثلها، وجاء بحرف الجر «على» الذى يفيد معنى الاستعلاء مكان اللام، ليدل على دخول من يدخل فى الدين لقوة تأثير المعجزات، وإن كان بعضهم يجحد المعجزة بعد التسليم بصحتها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وجاء بأسلوب القصر مرتين: الأولى «إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر»، ويستفاد منه أن كل نبى أيد بالمعجزة يؤمن بها من يعرفها، فيعترف بنبوة النبى، وطريق القصر هنا «ما» و«إلا» وأسلوب القصر الثانى هو: «وإنما كان الذى أوتيت وحيًا» ويقصد به القرآن الكريم فهو المعجزة العظمى لرسول الله ﷺ إلى جانب معجزاته الأخرى الكثيرة واستخدم «إنما» للدلالة على أن ذلك القرآن الكريم معجزة واضحة لايجوز إنكارها، لأنها من الأمر المتعالم المشهور على حد قول الشاعر:

أنا الذائد الحامى الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

فهو من باب القصر الإضافى.

وهكذا نجد الألفاظ والعبارات والأساليب النبوية التى تمتاز بها لغة الحديث الشريف فى طبقته العليا التى تصل إلى الذروة من طبقات الفصاحة والبلاغة بعد القرآن الكريم.

ويمكن أن نستعرض حصيلة اللغة فى حديثه ﷺ فنجد سموها وبراعتها، ولا ينتهى العجب والدهشة كيف يأتى بها ﷺ!

وسوف نعالج ذلك- بالتفصيل- فى أثناء حديثنا عن لغة الحديث الشريف.

وقد كانت لنا جولات سابقة فى لغة القرآن الكريم والحديث الشريف، فيما صدر من الجزء الأول من «الإعجاز اللغوى فى القرآن والسنة»، وهنا نكمل المسيرة على هدى الكتاب والسنة، ومن منطلقات الوقوف على أسرار لغة القرآن الكريم والحديث الشريف.

وأعرض - فى هذا الجزء الثانى- جوانب كثيرة لم أتحدث عنها من قبل، فنمضى شوطًا لغويًا فى سورة البقرة، وتحليلها تحليلاً لغويًا، ونعرض صورًا من ألفاظ المشترك

والمترادف فى القرآن الكريم، كما نعرض جوانب مهمة فى حديث رسول الله ﷺ من ناحية فصاحته وبلاغته فى جوانب تطبيقية من الحديث النبوى نستبين منها أسرار المصدر الثانى من مصادر التشريع، وبدائع بيانه اللغوى الأخاذ فيما نطق به ﷺ من حروف وكلمات وجمل وعبارات إن لم تكن من الوحى فقد كانت من سبيله كما يقول الرافعى.

وقد جاء هذا الكتاب- على نهج سابقه- مشتملاً على بابين يضم كل منهما عدة فصول.

- **الباب الأول: لغة القرآن الكريم.**

ويشمل ثلاثة فصول:

- **الفصل الأول:** خصائص التعبير فى القرآن الكريم.
- **الفصل الثانى:** كثرة المعانى وجدتها وطرافتها فى المشترك اللفظى فى القرآن الكريم.
- **الفصل الثالث:** الألوان والأطياف والظلال فيما يظن من المترادف فى القرآن الكريم.

- **الباب الثانى: لغة الحديث الشريف.**

- **الفصل الأول:** خصائص التعبير فى الحديث الشريف.
- **الفصل الثانى:** من بدائع البيان النبوى.
- **الفصل الثالث:** الصيغ والتراكيب فى الحديث الشريف.

وأرجو الله تعالى أن يعيننى على إبراز معالم الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم، والبراعة فى الحديث الشريف وأنال شرف هذا المقصد بهذا العمل الخالص لوجه الله تعالى.

والله الموفق والهادى سواء السبيل.

الباب الأول

لغة القرآن الكريم

• الفصل الأول

خصائص التعبير فى القرآن الكريم

• الفصل الثانى

كثرة المعانى وجدتها وطرافتها فى المشترك اللفظى فى القرآن الكريم

• الفصل الثالث

الألوان والأطياف والظلال فيما يظن من المترادف فى القرآن الكريم

الفصل الأول

خصائص التعبير فى القرآن الكريم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبى البشرية محمد ﷺ وعلى آله وصحابته أجمعين.

وبعد...

فهذا تفسير للربع الثالث إلى الخامس من الجزء الأول من سورة البقرة وهو «التفسير اللغوى للقرآن الكريم» وقد سبق أن نشر الربعان الأول والثانى من الجزء الأول من هذه السورة فى الجزء الأول من كتابنا «الإعجاز اللغوى فى القرآن والسنة»، وهذا الذى نقدمه للقراء والباحثين من المهتمين بالدراسات القرآنية يرشد إلى هذا العمل الكبير الذى أبتغى به وجه الله تعالى وهو استخدام خصائص اللغة العربية للكشف عن خصائص التعبير القرآنى ونسقه الفريد المعجز الذى ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت: ٤٢]

ولأن العربية هى وعاء الوحى فإنها مفتاح الدخول إلى هذا الكتاب العزيز.

وتكشف طاقات اللغة عن دلائل كثيرة على جوانب الإعجاز اللغوى والبيانى فى القرآن الكريم.

وقد قضيت السنوات الطوال فى مطالعة كتب التفسير والحديث وأمهات كتب الشريعة واللغة وما دار حول القرآن الكريم من دراسات، وضممت إلى ذلك ما أفدته فى مجال الدراسات اللغوية طوال حياتى العلمية لخدمة كتاب الله العزيز.

وأرجو من الله العلى القدير أن يتقبل عملى هذا وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم وأن يعيننى على إكمال التفسير لكتابه لأنال شرف المقصد ورعاية مُنَزِّله على أفضل الرسل صلوات الله وسلامه عليه.

خصائص التعبير القرآنى فى سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

[٢٠] قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [٤٤- ٤٦].

فى هذه الآيات الكريمة يخاطب الحق سبحانه اليهود وأحبارهم منكرًا عليهم أن يكونوا أهل كتاب يتظاهرون بدعوة المشركين من العرب إلى الإيمان وهم أنفسهم يصدون قومهم عن الإسلام والإيمان بمحمد ﷺ والقرآن الكريم، مع أنه مصدق لما بين أيديهم من التوراة كتابهم الذى يتلونه، وهذا التناقض بين أقوالهم وأفعالهم لا يصدر عن عاقل.

وبيّن الحق سبحانه أن خوفهم من الدخول فى الإسلام لما يفقدون من الزعامة والرئاسة ومتاع الدنيا الفانى يمكن التغلب عليه بالاستعانة بالصبر والصلاة والخوف من لقاء الله تعالى الذى يحاسب الذين يقولون ما لا يفعلون حسابًا عسيرًا.

وفى هذه الآيات الكريمة توجيه للناس والدعاة جميعًا إلى تصديق أفعالهم لأقوالهم وكبح جماح شهواتهم والتغلب على أهوائهم التى تصرفهم عن الحق بالاستعانة بالصبر والصلاة، وفيها- كذلك- بيان الفئة التى تتمكن من تهذيب نفوسها وقهر رغباتها الرخيصة فى مقابل عظائم الأمور.

ففى الآية الأولى يقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

فى هذه الآية ينعى الحق سبحانه على اليهود عدم تطابق أقوالهم مع أفعالهم حيث يظهرون دعوة بعض الناس إلى الإيمان فى الوقت الذى ينصرفون عنه .

وفى التعبير القرآنى أسرار لغوية :

فقوله : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ﴾ : صدر بهمزة الاستفهام التى تفيد التوبيخ والتقريع ، فالآية ناعية على من يعظ غيره ولا يعظ نفسه بسوء صنعه ، وخبث نفسه .

والبر : اسم جامع لكل أنواع الخير والطاعات والعمل الصالح .

وقيل البر - بالكسر - التوسع فى الخير ، مأخوذ من البر - بالفتح - وهو الفضاء الواسع .

والبر ثلاثة أنواع ، بر فى عبادة الله ، وبر فى مراعاة الأقارب ، وبر فى معاملة بقية الناس .

والبر - بفتح الباء - الإجلال والتعظيم ، ومنه ولد بر وبار أى : يعظم والديه ويكرمهما ، والفعل منه بر يبر كعلم يعلم ، والله تعالى بر بعباده لسعة خيره على خلقه .

والمراد بالبر فى قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ : الإيمان ، فالقرآن الكريم هنا ينكر موقف اليهود منه بتظاهرهم بالدعوة إلى الإيمان وهم على النقيض من ذلك يصدون عن الإيمان الحقيقى بمحمد ﷺ ودينه .

﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ : هذا تعبير عن الخسارة الفادحة بحرمان أنفسهم من الإيمان بما يعرفونه فى التوراة من صحة الإسلام وصدق نبيه .

والنسيان : - فى الأصل - خلاف الذكر والحفظ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه : ١١٥] .

ومنه الحديث «نسى آدم فنسيت ذريته» .

والفعل منه : «نسى» ويقال : نسيت الشىء نسيانًا - بكسر النون - ولا تقل نسيانًا - بالتحريك كما ينتشر على ألسنة العامة - فالنسيان مثنى مفرده : نسا العرق .

ويقال: رجل نسيان- إذا كان كثير النسيان، وليس المراد بالنسيان فى قوله تعالى: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ خلاف الذكر والحفظ، بل المراد الترك لوعظ النفس وأمرها بالإيمان.

ولسائل أن يسأل: لِمَ قال إذن ﴿تَنسَوْنَ﴾ ولم يقل «تتركون» مكانه؟.

والجواب: أنه عبر عن الترك بالنسيان لأن نسيان الشىء يلزمه تركه فهو من استعمال الملزوم فى اللازم أو السبب فى المسبب، وسر هذا التجوز الإشارة إلى أن نصح الغير بالخير مع ترك إلزام النفس وعدم التوجه إليه لا ينبغى أن يضدر عن العاقل إلا نسيانًا.

وقوله تعالى- بعد ذلك-: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾: المقصود بالكتاب- هنا- التوراة، وتتلون معناه: تقرءون، وأصل التلاوة الاتباع، يقال: تلوت الرجل تلوًا: إذا اتبعته، وتلوته: إذا خذلته، وتليت حقك إذا تتبعته حتى تستوفيه.

ويقال: تلوت القرآن تلاوة، وإنما استعملت التلاوة فى القرآن لأن القارئ يتبع بعض الكلام ببعض فى حروفه حتى يأتى على نسقه.

والمقصود- هنا- توبيخ اليهود وتبكيتهم لعلمهم صدق النبى ﷺ، وصحة ما جاء به من عند الله مع انصرافهم عنه، وعدم عملهم بمقتضاه، وهذا منتهى الجهالة والغباء، والتعاسة والشقاء، وهو توبيخ- أيضًا- لكل من يعلم أمرًا ولا يعمل بموجبه، ولذا جاء ختام الآية مجهلاً لهم يقول تعالى: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾؟ فالهمزة - هنا- للإنكار التوبيخى.

والعقل- فى الأصل- المنع والإمساك، ومنه عقال البعير الذى يشد به وظيف البعير إلى ذراعه لحبسه عن الحركة، ومنه يقال للحصن معقل.

وقد أطلق العقل على ما تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية، لأنه يحبسها عن تعاطى ما يقبح ويعقلها على ما يحسن.

ولعلنا ندرك أن المعانى فى العربية نقلت من المحسوسات إلى الأمور الكلية- غير المحسوسة- وهذا يرشد إلى التطور اللغوى وارتقاء تدرج المعانى.

ويقول اللغويون: إن ذلك يتجلى بالاشتقاق الذى يكشف عن عادات الأمة وتقاليدها، وتتبين منه حضارتها وتاريخها.

ومن هنا ندرك أن العرب سموا العقل عقلاً لأنه يعقل ويمنع عن المنكر من الأمور.

والعقل من الخصائص التى كرم الله بها الإنسان، ومازه من سائر الحيوان، فإذا انتفى عنه العقل صار فى عداد البهائم.

والمعنى المراد هنا: لاينبغى أن تنتفى عنكم ثمرات العقل فإن الجامع بين العلم والعقل تأبى نفسه أن يكون واعظًا غير متعظ، بل عليه تزكية نفسه والإقبال عليها بتكميلها ليقوّم نفسه فيقوّم غيره.

والقرآن الكريم هنا يبين الجهل الفادح الذى وقع فيه اليهود وأحبارهم من سوء هذا الصنيع الذى إن دل على شىء فإنما يدل على الحمق الخالى من العقل.

وهو تحذير لكل داعية فى كل زمان ومكان من التناقض بين القول والعمل، يحذرهم أن يقولوا بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، فالداعية يجب أن يكون قدوة حسنة باهتدائه والتزامه بالعمل الصالح قبل أن يأمر الناس ويحثهم على الالتزام به، حتى لا يمتنعوا من الاستجابة لما يسمعون منه.

وفى الآية الثانية قال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾. محدثًا أصحاب المآرب الشخصية من علماء اليهود وأحبارهم ليتغلبوا على متاع الدنيا الفانى فقد كانوا يخافون من الدخول فى الإسلام لما يترتب عليه من فقدهم الزعامة والرياسة فى قومهم إلى جانب ما يفقدونه من الإتاوات التى كانوا يفرضونها عليهم مقابل هذه الزعامة والرياسة.

ولمعرفة المولى «جل وعز» بطبائع اليهود وشرههم فى حب المال وضع لهم العلاج الناجع- وهو الطبيب الحكيم- ذلك العلاج هو دعوتهم إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فهما مفتاح الإيمان والهداية، ومغلاق الكفر والضلالة التى هم عليها.

وهما سنام الخير.. وطريق السعادة الدنيوية والأخروية على سواء.

ولقد عبر المولى سبحانه عن ذلك بقوله:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾: الصبر- فى اللغة- الحبس، ويقال: صبرت نفسى على الشيء: حبستها.

قال عنترة العبسى:

فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

وهو أنواع:

- **أحدها:** الصبر على الأذى والمصيبة، وذلك يتمثل فى كظم الغيظ والحلم والإحسان إلى المسيء، ومقابلة الرزايا التى تحل بالإنسان بالرضا، والهدوء النفسى.

- **وثانيها:** الصبر على الاجتهاد فى العبادة والطاعة، وهذا بتعويدها وتدريبها على العمل لما يقرب العبد من ربه وخالقه، فتطبع على الخير، والتطلع إلى ما عند الله لتحقيق ما خلقت له كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولاشك أن أمانة هذا العمل ثقيلة على النفس وهى التى قال عنها الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

- **وثالثها:** الصبر على فعل المعاصى بالامتناع عنها، وخشية عقاب الله عليها.

ولاشك أن هذا النوع أشد من النوعين الأولين وثوابه أكبر منهما.

ولما كـان الصبر بهذه المنزلة، يكلف النفس جهد طاقتها ويحرمها من ممارسات طباعها التى جبلت عليها كان جزاؤه عند الله كبيراً، وما أعظم ما ذكره القرآن عن جزاء الصابرين، ومن مضاعفته بغير حدود فلا يصل إلى مثله جزاء أى عمل آخر، فقد وصف الله تعالى جزاء الأعمال الأخرى، وجعل لها نهاية واحدة فقال: ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا** ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وجعل جزاء الصدقة فى سبيل الله فوق هذا فقال: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ** ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وجعل أجر الصابرين بغير حساب ومدح أهله فقال: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر: ١٠].

ويرى بعض اللغويين: أن من الجوانب اللغوية التى ينبغى التنبه لها أن كلمة «صابر» إذا أطلقت انصرفت إلى الشخص الذى يحبس نفسه على الطاعة، ويبعدها عن المعاصى، ولا تنصرف إلى الصابر على الأذى أو الشدائد مثلاً، فإذا أريد أنه صابر على أذى جاره وجب التصريح بها كأن يقول: صابر على أذى جاره- صابر على فقد ولده- مثلاً.. إلخ وهذا عكس ما يجرى على ألسنتنا الآن من إطلاق لفظ «صابر» على الصبر على الأذى والمشقات دون ملاحظة ربطه بالعبادات، ولعلنا ندرك هذا المفهوم الأعلى من الاستعمال اللغوى فى حبس النفس على الطاعات وإبعادها عن المعاصى ليكون ذلك فاتحة الخير للتمكين لديننا والعمل به.

الأمر الثانى: الذى يجب الاستعانة به للتغلب على شهوات النفس ونزواتها: الصلاة فهى الناهية عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ولسائل أن يسأل: لِمَ قدم الصبر على الصلاة فى الذكر دون العكس مثلاً؟

فالجواب: أن الصبر مقدمة للصلاة فإن من لا صبر له لا يقدر على إمساك النفس حتى تؤديها كاملة بتؤدة وأناة، ودون إهمال أو تقصير.

ولسائل أن يسأل أيضًا: لِمَ اكتفى بذكر الصلاة دون سواها من سائر العبادات؟

فنقول وبالله التوفيق:

اكتفى بذكر الصلاة لما لها من شأن رفيع بين العبادات الأخرى، ففيها إخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحق، وقراءة القرآن والخشوع بالجوارح ولها تقدم الطهارة البدنية.

وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة أى إذا أهمه أمر ونزل به لجأ إليها.

وقال ﷺ: **«وجعلت قرة عينى فى الصلاة»**.

ثم تحدث الحق سبحانه فى عجز الآية عن إحدى صفات الفئة التى تتمكن من كبح جماح نزواتها ورغباتها فى مقابل عظائم الأمور بالاستعانة بالصبر والصلاة وهى الخشوع فقال عز حكمه:

﴿ **وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾: كبيرة: صيغة مبالغة من كبر بمعنى: ثقيلة وشاقة كقوله تعالى: ﴿ **كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ** ﴾ [الشورى: ١٣].

وقد اختلف العلماء فيما يعود عليه الضمير فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾ ليتحدد هذا الأمر الصعب الذى يشق على النفوس.

فقال بعض العلماء: إنه يعود إلى الصلاة لأنها أقرب مذكور.

ولعل ما قاله بعض العلماء من كون الضمير يعود إلى الاستعانة المفهومة من الفعل «استعينوا» أقرب إلى الصواب فمحاولات تغيير طباع النفس وردها عن هواها أمر صعب وشاق على الكفار والمنافقين والمرائين والغافلين المقصرين، وهى مع ذلك تخف وتسهل على من عنده الأهلية لذلك من خشوع وخوف من لقاء الله تعالى والتعرض لعقابه.

والخشوع: حضور القلب وهيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع، وفرّق بعضهم بين الخشوع والخضوع، فجعل الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب، ولكن الراجح هو الأول.

ويتحقق الخشوع - لدى أصحابه- فى كل فرض افترضه الله على الناس، لأن الخوف إذا سكن فى القلب أوجب خشوع الظاهر، فلا يملك صاحبه دفعه، فتراه مطرقًا متأدبًا، أما من يظهر للناس خشوعًا يتكلفه ويتباكى ويطأطئ الرأس كما يفعل الجهال ليُروا بعين البر والإجلال فذلك من خدع الشيطان وتسويل من نفس الإنسان.

وفى الآية الثالثة- وهى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾: يعبر الحق سبحانه عن صفة أخرى لمن يكبح جماح نفسه وهى الاعتقاد فى لقاء الله تعالى والرجوع إليه بالبعث والنشور والخوف منه.

وأصل الظن فى كلام العرب: الشك باعتقاد أمرين يرجح أحدهما، ويكون ذلك فى الأمور المغيبة التى لم تتضح بعد فلا يستعمل فى الأمور التى تتحقق للحس، إذ لا تقول العرب فى رجل مرئى حاضر: أظن هذا إنسانًا.

وقد يستعمل الظن بمعنى اليقين- مجازًا- بما شابه العلم فى الرجحان فاستعمل فيه لتضمين معنى التوقع، وقد ورد عليه قول الشاعر العربى:

فقلت لهم: ظنوا بألفى مدجج ... سراتهم فى الفارسى المسرد

أى: اعلموا بذلك

وجاءت بعض آيات القرآن الكريم باستعمال الظن فى الأمر المتيقن المعلوم كما قال الله تعالى عن حال المجرمين يوم القيامة وقد رأوا النار وتحققوا من دخولها: ﴿ **وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا** ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال سبحانه عن أخذ الإنسان كتابه يوم القيامة للحساب وقد أصبح حقيقة واقعة ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ** ﴾ [الحاقة: ١٩، ٢٠].

وكذلك فى الآية التى معنا قد استعمل الظن فى الأمر اليقينى ﴿ **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ** ﴾.

فالذين يتغلبون على نزواتهم ويقبلون على الاعتراف بالحق والإيمان الصحيح هم من يتصفون بصفة الاعتقاد الجازم بلقاء ربهم، فيخافون هذا اللقاء ويعملون له.

وقد يستعمل العلم في كلام العرب بمعنى الظن مجازًا أيضًا، وورد ذلك في قوله تعالى عن المهاجرات من نساء الكفار الداخلات في الإسلام واللاجئات إلى المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

فالمراد بقوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ ظن إيمانهم وترجيحه على الكفر لأن الذي يعلم الإيمان- على وجه الحقيقة- هو الله تعالى كما يصرح به في الآية.

وقوله تعالى: ﴿مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ الملاقاة واللقاء: الرؤية.

وترد الملاقاة بمعنى الاجتماع والمصير كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: ٧] أي لا يخافون المصير إلينا، وكما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] على معنى مجتمع معكم وصائر إليكم.

والفعل «لاقى» على وزن فاعل، ومصدره: الملاقاة- وهي مفاعلة- لا تكون إلا بين طرفين غالبًا.

ويرى بعض العلماء أنها من جانب واحد فقط على معنى يلقون ربهم، مثل: عافاه الله فالمعافاة مختصة بالله تعالى وحده وليس له مشارك فيها.

ولا مانع أن يكون المعنى على المفاعلة، وفيه من التأثير ما فيه، فالله تعالى سيلقى عباده كما يلقونه وفي ذلك كرامة أو إهانة للإنسان على حسب ما قدمت يداه، من إيمان أو كفر، وطاعة أو عصيان.

ولسائل أن يسأل: ما فائدة ذكر قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ بعد قوله سبحانه ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ مع أن الظاهر إغناء هذا عن ذاك؟

فنقول: إن المعنيين مختلفان، فاللقاء أمر والرجوع من الرحلة الدنيوية إلى الحياة الأخروية أمر آخر، وإن التقيا في الفكرة العامة، وهي الاعتراف بالبعث والنشور، فاللقاء لنيل ما عند الله من المثوبات، والرجوع للحشر والجزاء.

وهذا وذاك عاملان إلى دفع من يعتقدهما إلى النزوع إلى الحق، والاعتراف به والعمل له رغبة ورهبة.

ولسائل أن يسأل -أيضًا-: لِمَ قال: ﴿مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ فذكر الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتحدث عنهم دون أن يقول ملاقو الله- مثلاً؟

فنقول: إن التعرض لعنوان الربوبية مع إضافتها إلى ضمير المتحدث عنهم للإشعار بفيضان إحسان الله تعالى إليهم؛ لأنه خالقهم ومربيهم ثم هو المالك لهم وصاحب الحكم فيهم، واعترافهم بكل ذلك دليل على استجابتهم وحسن عملهم.

[٢١] قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٧-٤٩].

في هذه الآيات الكريمة خطاب آخر لبني إسرائيل، وتذكير جديد لهم بالنعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وكان قد فضلهم بها على معاصريهم ثم لما لم يشكروها حل بهم غضب الله وعقابه، وضربت عليهم الذلة والمسكنة لأنهم لا يستحقون التكريم أو التشريف.

ثم أخذ المولى «سبحانه» يخوفهم- بعد أن كان يذكرهم بالنعم- اتباعًا لمسالك الترغيب والترهيب لعلهم يهتدون، ولكنهم ضلوا ضلالاً بعيداً، خوفهم من أهوال يوم القيامة الذي يتحملون فيه- كغيرهم من الناس- نتائج كفرهم، ولن يغني عنهم أحد من الله شيئًا.

وفى الآية الثالثة نعمة تنجية بنى إسرائيل- فى عهد موسى عليه السلام- من بطش فرعون وقومه بهم، وسومهم سوء العذاب بذبح الأبناء واستحياء النساء.

ولنا وقفات لغوية مع أسرار التعبير القرآنى فى هذه الآيات:

فالآية الأولى- وهى قوله تعالى: ﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾- إعادة لخطاب اليهود المعاصرين للنبى ﷺ وتجديد لتذكيرهم بنعم الله «تعالى» عليهم لعلهم يعودون إلى صوابهم فى الإيمان بالله ورسوله- وهو مصدق لمن جاء قبله من رسل الله- وهذا على سبيل الترغيب وكرر التذكير للتأكيد لأنهم حتى بعد ورود التذكير السابق لم يمتثلوا ولم يقوموا بحقوق نعم الله عليهم- فقد قال لهم فيما سبق- ﴿يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون﴾ وكرر طلب الطاعة لهذه النعم السابقة فإن لم يشكروها فعليهم أن يطيعوا خوف نزول أهوال يوم القيامة بهم وحسابهم حسابًا شديداً، وكان عليهم أن يذكروا تفضل الله «تعالى» عليهم بفضائل لم يمنحها غيرهم أيام آبائهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢].

وكلمة «بنى إسرائيل» بنى جمع ابن وهو فى أصل اللغة خاصة بالذكور من الأولاد، ويقول اللغويون: «إنه إذا أضيف عمَّ- فى العرف- الذكور والإناث فيكون بمعنى الأولاد- وهو المراد هنا».

و«ابن» محذوف اللام، واختلف فى كونها ياء أو واو فيرى ابن درستويه أنه من البناء -لأن الابن فرع الأب ومبنى عليه- فأصل اللام المحذوفة ياءٌ.

ويرى الأخفش أنه من البنوة فأصل اللام المحذوفة واو ونظير ذلك: أب وأخ فأصلهما «أبو»، و«أخو» وبه قال الجوهرى، وبعضهم يرجح الأصل اليائى بدليل قولهم الفتوة فأصلها يائى.

و«إسرائيل» مركب من كلمتين: «إسرا» ومن معانيه: العبد أو الصفوة، و«إيل» بمعنى الله فهو اسم من أسمائه فمعناه «عبد الله» وهو لقب سيدنا يعقوب- عليه السلام.

ولم يقل «يا بنى يعقوب» لأن الخطاب بقوله: «يا بنى إسرائيل» أدعى إلى الاستجابة فقولك لإنسان يا ابن الصالح أطع الله أدعى إلى استجابته مما لو قلت له: يا ابن زيد- مثلاً- أطع الله لأن الإنسان يميل إلى اقتفاء أثر أبيه ولو لم يكن سلوكه محموداً فكيف إذا كان؟ وهذا يعد حسنًا هنا لأن المقام مقام دعوة إلى الخير وترغيب فيه وترهيب وتخويف من عدم الاستجابة إليه، فالحسنة- فى نفسها- طيبة، وهى من بيت النبوة أطيب، والسيئة فى نفسها خبيثة، وهى من بيت النبوة أقبح.

و«اذكروا» طلب على سبيل الأمر، ومصدره الذكر- بكسر الذال وضمها- بمعنى واحد، ويكون الذكر باللسان أو بالقلب، وينقل الكسائى التفريق فمكسور الذال للسان، وضده: الصمت، ومضموم الذال للقلب وضده: النسيان، وعلى كل فهو من باب المشترك اللفظى.

وليس المقصود حقيقة الذكر باللسان أو القلب بل ما يتبع ذلك من شكر هذه النعمة وأداء حقوقها.

وإضافة النعمة إلى الله تعالى من باب التشريف والتعظيم لها، وأن الشكر عليها لا يكون إلا لله تعالى، وهى مع ذلك نعم كثيرة لا تحصى، ولذلك قيل: إن الإضافة للاستغراق ومع تعدد النعم على الآباء الماضين، فإن نعمه على المعاصرين للنبى ﷺ كثيرة أيضًا.

وقد عطف الخاص على العام لأن تفضيل الله تعالى لهم من بين النعم التى منحهم الله تعالى إياها، واختصت الواو بهذا النوع من العطف كما يذكر أبو حيان فى البحر المحيط، وتخصيص تفضيلهم على العالمين بالذكر- من بين النعم- للعناية بأمر هذا التفضيل، وليس المراد تفضيلهم على جميع العالمين بل على عالمى زمانهم المعاصرين

لهم فلا يلزم من الآية تفضيلهم على النبى ﷺ ولا على أمته الذين هم «خير أمة أخرجت للناس».

والآية الثانية وهى قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. إلخ** ﴾ جاءت واضحة فى أن كل شخص مسئول عن أعماله مسئولية مباشرة فلا يسأل غيره عنها وجاء هذا المعنى فى أربعة مبادئ أساسية.

الأول: عدم تحمل نفس لما جنته نفس أخرى.

الثانى: عدم قبول شفاعة الشافعين للنفس الكافرة.

الثالث: عدم قبول الفدية منها.

الرابع: إخفاق أى سعى لها بالنصرة أو المساعدة.

فالمبدأ الأول- وهو عدم تحمل نفس لما جنته نفس أخرى- صيغ صياغة حكيمة فى قول الله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا** ﴾ المراد باليوم: يوم القيامة، والجزاء والإجزاء بمعنى واحد هو الإغناء والكفاية، يقال: جزانى وأجزأنى أى كفانى، وتقول: جزى عنى هذا الأمر يجزى كما يقول: قضى عنى، واجتزأت بالشىء اجتزاءً إذا اكتفيت.

فالمادة اللغوية تدور حول معنى واحد وهذا هو ما جعل اللغويين يهتمون بالكشف عن سر الترابط المعنوى فى مواد اللغة العربية، وعليه يمكن تفسير بعض قراءات القرآن الكريم التى لا يختلف معناها باختلاف تركيب الكلمات وهيئاتها من مادة لغوية واحدة أو من مواد متقاربة مثل تجزى وتجزئ ونحو ذلك.

فقوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا** ﴾ أى: لا تغنى عنها ولا تتحمل شيئًا من تبعاتها.

وإيراد النفس منكرة مع تنكير الشىء لإفادة التعميم وأن المراد كل نفس وكل شىء، دون استثناء لأحد عظيمًا كان أو حقيراً ودون نظر إلى نوع الذنب صغيراً كان أو كبيراً.

وما أعظم هذا المبدأ الإسلامى الحميد أن تتحمل كل نفس تبعاتها بعد تحقق الإرادة لها والتمييز، وهذا هو مبدأ العدالة المطلقة وهو نعمة من نعم الله على الإنسان الذى ميزه الله بالعقل، وهو مظهر من مظاهر تكريمه بين مخلوقات الله، ويسقط من وراء ذلك كل مبدأ مضلل يقوم على تحميل الإنسان غير ما جنت يداه.

ونجىء بك إلى المبدأ الثانى، وهو: عدم قبول شفاعة الشافعين للنفس الكافرة، وقد عبر عنه الحق سبحانه بقوله- تبارك وتعالى-، ﴿ **وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ** ﴾ الشفاعة- مأخوذة من الشفع- وهما الاثنان، تقول: كان وترًا فشفعته شفعًا، وشفعت الناقة شفعًا، وناقة شافع: إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها، ويقال: ناقة شفوع- أيضًا- وهى التى تجمع بين محلبين فى حلبة واحدة.

وأخذت الشفاعة للنفس الإنسانية من معنى الجمع بين اثنين فالمستشفع يضم غيره إليه فى طلب النصرة، أو المساعدة، يقال: استشفعته إلى فلان: إذا سألته أن يشفع لى إليه، وتشفعت إليه فى فلان فشفعنى فيه: أى قبل الشفاعة منى.

وعموم النفى فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ** ﴾ مخصص بالنفس الكافرة- بإجماع المفسرين- بدليل قوله تعالى فى وصف الكافرين: ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾ [المدثر: ٤٨] أما النفس المؤمنة فتنالها شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين.

والمبدأ الثالث- وهو عدم قبول الفدية- قد عبر عنه بقوله سبحانه: ﴿ **وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ** ﴾ ورد فى كتب اللغة: «العدل» مضبوطًا بفتح العين وكسرها فيقال: عَدل، وعِدل، ويفرق بالحركة بين معنى كل منهما على حسب الوارد عن العرب.

فالعَدل- بفتح العين- هو الفداء. و«العِدل» بكسر العين: المثل، وهو الذى يماثل الشىء فى الوزن، والقدر، وورد عنهم استعمال العدَل والعدل فى الكيل للذى يساويه قيمة وقدرًا سواء كان من جنسه أو من غير جنسه، ويقال عِدل الشىء- بالكسر- للذى

يساويه فى جرمه إذا كان من جنسه فقط ، كما ورد- قليلاً- استعمال العِدل- بالكسر- فى معنى الفداء والأكثر استعماله مع الفداء بفتح العين «العَدل» .

ولعلنا ندرك بذلك أن التفريق بين المعانى بالحركات من خصائص اللغة العربية، وينبغى على المتحدث العربى أن يلحظها ولا يخلط بينها .

والمراد من الآية : عدم قبول تقديم أى شىء عوضًا عما جناه الإنسان أو فداءً ينقذه من المؤاخذة والجزاء .

والمبدأ الرابع : هو إخفاق كل سعى لإنقاذ النفس الجانية بالنصرة أو المساعدة وقد عبر عنه بقوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ النصر والعون يلتقيان على معنى واحد هو المساعدة إلا أن العون عام والنصر على الإطلاق فلا مخلص لهما مما سيحل يوم القيامة من عقاب على ما اكتسبت . ولسائل أن يسأل لِمَ قال : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ - بالجملة الاسمية مصدرة بالمبتدأ مخبرًا عنه بالفعل المضارعِ دون أن يقول : «ولا ينصرون» بالجملة الفعلية المناسبة لنوع الجمل السابقة المعطوفة عليها فى قوله ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾؟ .

فنقول : إن التعبير القرآنى له دلالته القوية فتقديم الضمير «هم» وجعل الفعل المضارع المبنى للمجهول «ينصر» مستندًا إليه وإلى ضمير الجماعة «الواو» يؤدى إلى تكرار الإسناد مرتين، وهذا يفيد التكرار فى نفى النصر ، أيضًا ، فكأنه قال : «ولاينصرون ولا ينصرون» وفى ذلك من المبالغة والتأكيد ما لايتحقق بالتعبير بالجملة الفعلية الواحدة «ولاينصرون»، وما أبرع القرآن الكريم فى تلك الدقة اللغوية!

ولك- أيها القارئ- أن تسأل : إلى أية نفس تعود الضمائر فى «منها» من قوله ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا ﴾ ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ﴾! وفى قوله : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ؟

فنقول- وبالله التوفيق- : لقد جاءت هذه الضمائر فى صورة تجعل المعنى قابلاً للتنوع والتجدد، فيمكن أن نربطها بالنفس الجانية فهى التى تبذل المحاولات والمساعى بوساطة الشفعاء أو بتقديم الفدية أو طلب النصرة والعون، ويمكن أن نربط الضمير فى ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ بالنفس التى تتصدى للدفاع والنصرة ، فالنفس الجازية تتدخل بالشفاعة للنفس الجانية فلا تقبل شفاعتها .

ونربط الضميرين الآخرين فى ﴿ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ بالنفس الجانية، لأنها تحاول تقديم الفداء فلا يقبل وتطلب النصرة فلا تنصر.

وهكذا يرجع كل ضمير إلى ما يناسبه.

ولسائل أن يسأل: لِمَ جاء الضمير «هم» فى قوله تعالى: ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ جمعًا مع أن النفس الجانية التى يعود عليها مفردة فى الآية؟ ولِمَ أتى به ضميرًا للمذكر مع أن النفس مؤنثة؟.

فنقول: جىء بضمير الجمع لأن كلمة «نفس» الواردة فى الآية نكرة وقعت فى سياق النفى فتعم، فالمراد بها جنس الأنفس فصح عود الضمير عليها جمعًا.

وجاء الضمير «هم» مذكرًا- وإن كانت النفس مؤنثة- لأن المراد بها بنو الإنسان ذكورًا وإناثًا، ومن عادة اللغة العربية تغليب المذكر على المؤنث إذا اجتمعا.

وترى- أيها القارئ الكريم- أن العبارة القرآنية صورت مواقف ومشاهد متعددة الأشكال والأحوال، وبينت المحاولات التى حكم عليها أن تبوء بالفشل فى الدفاع عن الجانى، وهى بذلك تكشف عن خطورة ما تقع فيه النفس الجانية من هلاك محقق ودمار مؤكد لاشك فيه، لفداحة كفرها وسيئ أعمالها.

ثم قال الحق سبحانه: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾.

فى هذه الآية الكريمة وما بعدها بدأ القرآن الكريم يسوق بعض النعم التى أنعم الله تعالى بها على اليهود السابقين، وتلك النعم سيقت فى إجمال لمجرد التذكير بها فقط، فقد حوت السور المكية التى نزلت قبل سورة البقرة تفصيلات كثيرة لهذه النعم.

والخطاب القرآنى- هنا- لليهود المعاصرين للنبى ﷺ لتذكيرهم بما أنعم به على من سلف من آبائهم فى العصور الماضية لعلهم يجدون فيها عبرة لهم فى الاهتداء إلى الإيمان بمحمد ﷺ.

وإذا قيل: كيف يخاطب الله «تعالى» غير من أنعم عليهم؟ فنقول إن ذلك لاتصال أجيالهم بعضها ببعض، وصفات أولهم هى صفات آخرهم، فطباعهم واحدة فى كل عصر وزمان، ولا عهد لهم ولا ذمة، وهم بذلك عبرة للناس - بعامة- والمسلمين - بخاصة- حتى لا يسلكوا ما سلكوا من طرق معوجة فيهلكوا.

وخطاب الموجود بما أنعم به على من سلف له نظائر فى القرآن الكريم، فقد ذَكَّر الله تعالى البشرية بنجاة نوح- عليه السلام- والمؤمنين معه من الغرق بالطوفان، إذ هى نجاة لذريتهم من البشر فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] أى حملنا آباءكم.

والآية التى معنا- وإذا نجيناكم من آل فرعون.. إلخ- تتحدث عن أمرين:

- **الأول:** تذكير اليهود المعاصرين للنبى ﷺ - ومن بعدهم- بتنجية من سلف من آبائهم- فى عهد موسى عليه السلام- من بطش فرعون وقومه بهم وسومهم سوء العذاب على تلك الهيئة التى فصلتها الآية من ذبح الأبناء واستحياء النساء.

- **الثانى:** بيان ما فى هذا البطش وتلك التنجية من الابتلاء والاختبار لعلهم يؤمنون.

فالأمر الأول- وهو التنجية- عُبر عنه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أصل التنجية: الإلقاء على نجوة من الأرض - وهى ما ارتفع منها- ليسلم المنجى من الآفات، ثم أطلقت التنجية على كل فوز وخروج من ضيق إلى سعة، وإن لم يلق الفائز بالنجاة على نجوة.

والآل: أصله الأهل فأبدلت الهاء همزة لقربها منها فى المخرج، ثم أبدلت الهمزة ألفًا لسكونها وانفتاح الهمزة قبلها، بيد أن الآل تختص بالاستعمال فى مجال التشريف والسيادة للأشخاص كالأنبياء والملوك وغيرهم من ذوى القدر فى قومهم، فيقال: آل النبى - اللهم صل على محمد وعلى آل محمد-.

وكما تضاف آل إلى الأشخاص تضاف إلى البلدان فيقال: آل مكة، وآل المدينة، وتضاف إلى الظاهر والضمير فيقال: آل محمد، وصلى الله على آله.

وقيل: آل فرعون لأنه رئيسهم فى الضلالة والغواية، وفرعون: اسم ذلك الملك الجبار العاتى ممن ولى حكم مصر، قيل إن فرعون لايعرف له تفسير بالعربية، وظاهر كلام الجوهرى فى الصحاح أنه مشتق من معنى العتو فإنه قال: كل عاتٍ فرعون والعتاة: الفراعنة، وقد تفرعن وهو ذو فرعنة أى دهاء ومكر.

والمراد من آل فرعون: قومه وأتباعه.

ومعنى: نجيناكم من آل فرعون: أخرجناكم وخلصناكم مما نزل بكم من بطش فرعون وقومه.

ثم شرحت الآية مظاهر هذا البطش باليهود بالتعبير عن:

١- سومهم سوء العذاب.

٢- وذبح الأبناء.

٣- واستحياء النساء.

فى قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فسومهم سوء العذاب يقول عنه الحق تبارك وتعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ السوم له ثلاثة معانٍ:

- **الأول:** طلب الشىء وإرادته، يقال: سام السلعة إذا طلبها وأقبل على شرائها.

- **الثانى:** الإيقاع والإنزال والإلزام بالشىء يقال: سامه الخسف: إذا أنزله به، وألزمه إياه وخصه بويله وثبوره، وعليه قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفًا أبينا أن نقر الظلم فينا

- **الثالث:** الديمومة فى الأعمال الشاقة أى يسخرونكم على سبيل الدوام فيها.

وبكل من هذه المعانى -وبها مجتمعة- يمكن تفسير الفعل «يسومون» فى الآية، ففرعون وملؤه كانوا يريدون إيذاء اليهود ويتعمدونه ويقبلون عليه عن رغبة جامحة

فى التنكيل بهم، ففرعون وملؤه أوقعوا باليهود الويلات والآلام والخسف دون هوادة أو رحمة.

ولم يكفوا عن تعذيبهم بل استمروا عليه زمنًا طويلاً حتى كادوا يقضون عليهم أو يفنونهم وهذا لكثرة ما أعملوا القتل فى ذكورهم.

فهذا الفعل «يسومون» - كما ترى- أيها القارئ الكريم- على اختصاره يقوم مقام حديث طويل عن قصة بطش فرعون وقومه باليهود وهو يغنى عن ذكر هذه المقالة العريضة التى تستغرق فى أدائها وقتًا طويلاً.

وهذا دليل واضح على إعجاز القرآن اللغوى المتمثل فى هذا الإيجاز الجامع للمعانى الكثيرة فى اللفظ القليل، وهو جانب تكشف عن أسراره معرفة الاشتقاق اللغوى، وتجلية صلته بحياة العرب أصحاب تلك اللغة العريقة الدقيقة.

و﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ مفعول ثان للفعل «يسومون» والسوء: ما يغم الإنسان من أمر دينوى أو أخروى، وهو فى الأصل مصدر مؤنثه: «السوأى» كما فى قوله تعالى: ﴿ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ ﴾ [الروم: ١٠].

ولسائل أن يسأل: لِمَ ذكر السوء فى الآية مع أن العذاب كله سيئ؟.

فنقول: المراد بالسوء- هنا- ما يفيد شدة الشناعة والفظاعة للعذاب الذى نزل باليهود، فهو نوع خاص من العذاب أقبح وأشد من سائر أنواعه الأخرى التى تحل بغيرهم.

والعذاب الذى نزل بهم من فرعون وملئه كان - بلاريب- شديدًا إلى تلك الدرجة التى عبر عنها النص القرآنى بقوله تعالى: ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ فقد سُخر أقوياؤهم فى الأعمال الشاقة مثل قطع الأحجار وبناء القصور وطرق الحديد ونحو ذلك، كما امتهنت نساؤهم فيما يشق عليهن ويستذل من أعمال، أما ضعفاؤهم فكانت تضرب عليهم الجزية.

ومما يتصل بأمر التنجية- أيضًا- قوله تعالى: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ قيل: إن فرعون أخبر أن مولودًا من بني إسرائيل ينشأ فيكون على يديه خراب ملكه، وقيل: كان يخشى أن يستفحل أمر بني إسرائيل وزيادة رجالهم وذلك يمثل خطرًا على فرعون وقومه، فشرع- لذلك- في قتل الصغار من الذكور وكل غلام يولد في بني إسرائيل، واستبقى الصغيرات والمولودات من البنات حتى كاد ذلك يؤدي إلى فنائهم والقضاء عليهم.

والذبح- في الأصل- الشق، فإذا جاء السيل وفخد في الأرض ما كان كالشبر ونحوه سمي مذبحًا.

والمراد هنا بذبح الأبناء: إراقة دمائهم وإزهاق أرواحهم.

ويذبحون - بتشديد الباء المكسورة- هي قراءة الجماعة وهي أقوى من «يذبحون»- بفتح الياء وتخفيف الباء- فتضعيف عين الفعل يفيد التكثير، وهو هنا يدل على كثرة ما كان يحدث من قتل الأطفال.

وقد يسأل سائل: لِمَ قال «يذبحون» من غير حرف عطف يربط هذه الجملة بما قبلها مع أن مثل ذلك العطف ورد في مثل هذا المقام في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام- في سورة إبراهيم-: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٦]؟.

فنقول- وبالله التوفيق-: جاز الإتيان- هنا- بالفعل «يذبحون» دون عاطف على ما قبله «يسومونكم» لأنه تفسير لبعض ألوان العذاب التي حلت بهم على حد قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

ويجوز الإتيان بحرف العطف- كما ورد في سورة إبراهيم- من باب تعداد المحن التي حلت باليهود استجابة لقوله تعالى لموسى - قبل ذلك- ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾

[إبراهيم : ٥] على أن يكون من باب عطف الخاص على العام فسوم العذاب عام والذبح خاص، فقد مسهم- دون ريب- صنوف أخرى من العذاب غير الذبح لا الذبح وحده فصح العطف.

واستحياء النساء معناه: استبقاؤهن على الحياة، وذلك وإن بدا أنه عفو عنهن ونجاة من القتل فإنه كان محنة لهن وعذابًا، فاستبقاؤهن كان من أجل امتهانهن فى الأعمال الشاقة.

وعبر بالنساء عن البنات الصغيرات، باعتبار المآل وأنهن يكبرن فيصرن نساء.

والأمر الثانى: الذى تناولته الآية هو الابتلاء والاختبار بما حل باليهود من بطش فرعون وإنقاذهم منه.

وعبر عنه بقوله تعالى: ﴿**وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾ البلاء والإبلاء والابتلاء مصادر أفعال ثلاثة استعملت كلها فى الخير والشر، يقال: بلاه يبلوه، وأبلاه يبليه وابتلاه يبتليه.

لكن الأرجح استعمال «بلاه» فى الشر كما قال تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**﴾ [الأنبياء: ٣٥]- فقدم البلاء بالشر على البلاء بالخير- واستعمال «أبلاه» فى الخير أكثر كما قال تعالى: ﴿**وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا**﴾ [الأنفال: ١٧].

وكما قال الشاعر:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

واستعمال «ابتلاه» فى الاختبار والامتحان كما قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

والله تعالى يبلو عبده بالبلوى التى يكرهها ليمتحن صبره وبالصنع الجميل ليمتحن شكره.

والبلاء- فى الآية التى معنا- يحتمل الأمرين معًا: النعمة والمحنة، فإذا أريد به تسليط فرعون وقومه عليهم بألوان العذاب والذبح والامتهان- فهو المحنة، وإذا أريد به تنجيتهم ببعث موسى- عليه السلام- وتوفيقه لتخليصهم من فرعون وقومه فهو النعمة.

والأرجح إرادتهما معًا، وعلى هذا فالإشارة فى «ذلكم» يمكن أن ترجع إلى الذبح ونحوه وهو شر مكروه ويمكن أن ترجع إلى التنجية وهى خير محبوب، ويمكن أن ترجع إلى مجموع الأمرين من الذبح والتنجية.

وهذا يكشف عن سر دقيق من أسرار التعبير القرآنى الذى يستعمل اللفظ الواحد الشامل لأكثر من معنى حتى يؤدى المقصود بكل شموله واتساعه، فالعبرة- حقًا- متمثلة فيما حل بهم من ألوان العذاب التى كانت اختبارًا لهم وفيما ترتب عليها من تنجية الله تعالى لهم من هذه الشرور.

وجاءت كلمة «بلاء» نكرة لتفيد التفخيم وتبين أن هذا الابتلاء بقسميه كان عظيمًا وأمرًا كبيرًا ينبغى التنبه له والاعتبار به، مما كان يقتضى شكر النعم باهتدائهم إلى الاستجابة والاتجاه إلى صراط الله المستقيم وإن كانوا لم يوفقوا لذلك لطبيعتهم الكافرة وسلوكهم المشين.

وفى هذا تنبيه للناس جميعًا- والمسلمين بخاصة- ألا يسلكوا مثل ما سلك اليهود من عدم الاستجابة والشكر، فكل من تصيبه سراء أو ضراء عليه شكرها فهى اختبار وابتلاء ينبغى أن يستجيب له من تنزل به أو تصيبه.

[٢٢] قال تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٠-٥٢].

يتحدث الحق «سبحانه» فى هذه الآيات الكريمة عن نعمة أخرى من نعم الله تعالى على بنى إسرائيل، وهى شق البحر لهم حين تبعهم فرعون وقومه وكادوا يدركونهم،

فعبروا سالمين، ثم تبعهم فرعون وقومه فأغرقهم الله «تعالى» بأن أطبق عليهم مياه البحر، وهو نعمة كبرى رآها أتباع موسى بعيونهم حقيقة واقعة- جريًا على سوء أخلاقهم المعهود عنهم- لم يلجأوا إلى الطاعة والاستجابة.

ثم ذكرهم المولى سبحانه بنعمة أخرى هى كلام الله «تعالى» لـ «موسى» عليه السلام- على جبل الطور- وإنزاله التوراة عليه ليبلغها إليهم ليهتدوا بها لكنهم بدلاً من اتجاههم إلى الهدى اتجهوا إلى عجل صنعوه وعبدوه من دون الله، وهذا خروج على مقتضى العقل، والتفكير السليم والعمل المستقيم وإهمال لحواسهم وإيقاع لأنفسهم فى الضلال بهذه الجريمة التى ارتكبوها ولم يوقعهم أحد فيها غير اعوجاج تفكيرهم وسلوكهم ومع ما ارتكبوا فيه من الضلالة عفا الله عنهم حين تابوا عن عبادة العجل بعد أن رجع إليهم نبيهم موسى وبيّن لهم خطأ ما فعلوه، وكانت التوبة أملاً فى أن يثوبوا إلى رشدهم مستقبلاً ويتجهوا إلى الله بالعبادة والشكر على نعمه الكثيرة التى ذكر هذا بعضها.

ونفصل الحديث عن ذلك، ونبين الأسرار اللغوية فى التعبير القرآنى فى هذه الآيات البينات:

فنقول

إن القرآن الكريم يذكر اليهود المعاصرين للنبى ﷺ بالنعم التى أنعم الله تعالى بها على أسلافهم وهى نعم تشملهم أيضًا.

ففى الآية الأولى يتحدث المولى «عز وجل» عن نعمتى إنجائهم من الغرق، وإهلاك عدوهم فرعون وقومه.

وتبين الآية الكريمة عظم هاتين النعمتين بيانًا يؤكد قدرة الله «جل وعلا».

فالآية الكريمة تصور قصة متابعة فرعون وجنوده لموسى- عليه السلام- وبنى إسرائيل، حين أمر الله تعالى موسى أن يخرج بهم من مصر خفية ليلاً، وكانت هذه المتابعة مع شروق الشمس، كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠].

ولما وصل فرعون وجنوده إلى شاطئ البحر اعترى الفزع والهول أصحاب موسى- كما قال تعالى فى سورة الشعراء- ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** ﴾ [الشعراء: ٦١].

ويجيء الاطمئنان على لسان موسى فى قوله تعالى: ﴿ **فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ** ﴾ [طه: ٧٨]، وانجلى الموقف عن غرق العاتى الجبار فرعون وآله ليكونوا عبرة لكل ضال ومفترٍ وكذاب.

وعلى هذا فالآية تتضمن ثلاثة أمور:

- **الأول:** فرق البحر.

- **الثانى:** إنجاء قوم موسى وإهلاك فرعون وآله.

- **الثالث:** المشهد المؤثر الذى رآه أتباع موسى.

وقد عبّر القرآن الكريم عن الأمر الأول- وهو فرق البحر- بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ** ﴾ أصل الفرق: الفصل والتمييز، يقال فرق الشيء إذا فصل أجزاءه بعضها عن بعض، ميّز بينها، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ** ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أى فصلناه وميزناه بالبيان وأحكمناه.

وفرق بين الحق والباطل: أى فصل بينهما، ومنه «الفرقان» لأنه يفرق بين الحق والباطل أى يفصل، وسمى يوم بدر: يوم الفرقان لما حدث فى هذه الغزوة من انتصار الإسلام وأهله وخذلان الشرك ومن ضل به فتحقق الفصل بين الحق والباطل.

ومضارع فرق يأتى على وزن «يفعُل» فيقال: يفرُق مثل ينصر وهى اللغة العالية، وقد أتى مضارع فرق- أيضًا- على وزن «يفعِل» مثل يضرِب فيقال يفرِق وهى لهجة لبعض العرب لكن الأولى أقوى وأرجح.

وجاء- فى اللغة- الفلق بمعنى الفصل والتمييز- أيضًا- يقال: فلقه يفلقه فلقًا من باب ضرب: شقه فانفلق.

وعلى هذا يلتقى معنى الفعلين: فرق وفلق لاتفاقهما فى معظم الحروف وتنوع اللفظين بالراء واللام فى وسطهما وهذا ما يسميه اللغويون بالإبدال.

ولما بين الفعلين وتصرفاتهما من مناسبة معنوية جمع القرآن الكريم بينهما فى قوله تعالى: ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى: ﴿ **فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ** ﴾ أى فصلنا بعضه عن بعض حتى حصلت فيه مسالك وطرق يابسة بلغت اثنى عشر طريقًا، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ** ﴾ [طه: ٧٧] وكان بعضهم يرى بعضًا من خلال فتحات فى الماء.

والبحر يطلق على الماء الملح، كما قال الشاعر:

وقد عاد ماء الأرض بحرًا فزادنى إلى مرضى أن أبحر المشرب العذب

والنهر هو الماء العذب.

كما يطلق البحر على الماء الكثير ملحًا كان أو عذبًا، وفى ذلك دلالة على اتساعه، وجمع البحر بحور وبحار وأبحر.

والراجح من آراء العلماء أن البحر المقصود - هنا- هو بحر القلزم الذى هو البحر الأحمر فكانت المعجزة الكبرى لموسى بأن شق له هذا البحر بضربة من عصاه.

والباء فى قوله تعالى «بكم» من قوله: ﴿ **فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ** ﴾ تفيد معنى السببية أو بمعنى اللام فهى تفيد أن الله «سبحانه» فرق البحر بسببهم ومن أجلهم فيسر لهم سلوكه وعبوره ثم أهلك عدوهم الذين انطلقوا من ورائهم.

ويرى بعض العلماء أن الباء فى «بكم» تفيد معنى الآلية فهم لما صاروا بين الماءين حدث الفرق بهم فكانوا يسلكون ويتفرق الماء عند سلوكهم فكأنه فرق بهم.

ولكن المعنى الأول أقوى وأقرب إلى المراد، لأن تفرق الماء كان سابقًا على سلوكهم وفى ذلك بيان وتأكيد للنعمة الكبرى عليهم.

ولسائل أن يسأل: إذا كانت الباء بمعنى اللام فلماذا قال «بكم» ولم يقل «لكم»؟

فالجواب- وبالله التوفيق- أن لذلك حكمة لغوية بارعة فالعرب تقول: غضبت لزيد- إذا كان الغضب من أجله وهو حى، وتقول: غضبت بزيد- إذا كان الغضب من أجله وهو ميت، فأفادت الباء فى قوله تعالى: ﴿ فَرَقْنَا بِكُمُ ﴾ أن الذين فرق لهم البحر أسلاف اليهود دون المعاصرين الذين يخاطبهم القرآن الكريم، فالنجاة خاصة بآبائهم السابقين وذلك يجرى مجرى الدقة فى التعبير اللغوى ومراعاة خصائص الحروف ومعانيها التى تستعمل لها.

وقد أغنى ذلك الإيجاز البارع عن التصريح بأن الفرق كان لأسلافهم، وما أروع القرآن الكريم فى ذلك..!

والأمر الثانى: وهو إنجاء قوم موسى، وإهلاك فرعون وقومه- عبر عنه المولى عز وجل بقوله: ﴿ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ يلاحظ أن القرآن الكريم غير صيغة الفعل المعبر عن النجاة هنا بعد أن أورد التخليص من فرعون فى الآية السابقة: ﴿إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ بصيغة التفعيل فعدل- فى إخراجهم إلى الساحل- إلى صيغة الإفعال هنا فقال: ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾.

وهذا تنويع فى التعبير له دلالته ومغزاه وأثره النفسى، وقد حذف ما يتعلق بالفعل من ألوان النجاة كقوله: من الغرق أو من فرعون أو مما تكرهون مثلاً وترك النفس تفكر فيه ليشمل كل ألوان النجاة.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾: الغرق: الرسوب فى الماء، ويقال: غرق

فهو غارق وغرق، وأغرقه وغرّقه، ويستعمل للإماتة عن طريق الرسوب فى الماء وهو من أعسر الموتات وأفظعها شدة، ولذا جعله الله تعالى نكالاً لمن ادعى الربوبية.

واقتصر- هنا- على ذكر الآل دون التصريح بغرق فرعون معهم لعلمه من السياق، فالآل إذا عُذبوا بالإغراق كان فرعون الذى هو رأس الضلال والعناد من باب أولى كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] فدخول آدم فى التكريم معلوم من باب أولى.

وللقرآن الكريم طرائقه الأسلوبية فى الاختصار وترك بعض الأمور لفهمها من السياق أو لذكرها فى مواطن أخرى من القرآن الكريم، إذ يقتضى قوله ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ﴾ أن يكون مساق العبارات هكذا: «**وإذ فرقنا بكم البحر وتبعكم فرعون وجنوده فأنجيناكم من الغرق أو من بطش فرعون أو مما تكرهون**»، وهذه الإطالة استغنى عنها القرآن الكريم لفهمها من السياق، ولورودها فى مواضع أخرى كقوله تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه٧٨].

والأمر الثالث: وهو المشهد المؤثر عبّر عنه المولى «سبحانه» بقوله: «وأنتم تنظرون»: والنظر هذا بالأبصار، وهم ينظرون أمرين:

١- انفلاق البحر عن طريق يابسة تستدعى الدهشة نجوا بسلوكها.

٢- إطباق البحر على فرعون وآله وقذف جثثهم إلى الساحل طافية على الماء وذلك هلاك وتدمير لهم، وهلاك العدو نقمة كبرى ومشاهدته نقمة أخرى كذلك تستحق الشكر والثناء.

لكن اليهود- لضلالهم وإفكهم- لم يعتبروا بهذه المشاهد والنعم ولم ينظروا نظرة اعتبار وتدبر ولذا نزلهم القرآن الكريم منزلة من لو نظر لاعتبر وتأثر تأثرًا كبيرًا لما

شاهد من هذا الإعجاز الإلهى، وكم من نعمة كبرى لم يعتد بها اليهود فحقت عليهم لعنة الله وغضبه.

والآيتان الثانية والثالثة تعبران عن سوء أخلاق اليهود وسوء معاملتهم وسيرتهم مع دينهم وهى سيرة معوجة.

ويتحدث فيهما الحق سبحانه عن ذهاب موسى إلى طور سيناء ليكلمه ربه وذلك بمواعدة الله تعالى لموسى - عليه السلام- كى يعطيه التوراة لهداية بنى إسرائيل.

وعن عبادة بنى إسرائيل العجل فى أثناء غيبة موسى وقبول الله تعالى توبتهم وسببه.

فالأمر الأول وهو المواعدة عبّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قرأ- واعدنا- بالألف: ابن كثير ونافع وحمزة والكسائى والأعمش وعاصم وابن عامر ومجاهد وغيرهم.

والمواعدة: الميعاد والوقت والموضع مأخوذة من قولك: موعدك يوم الجمعة، وموعدك موضع كذا، والفصيح فى هذا أن يقال: واعدته. مفاعلة وأصلها أن تكون بين اثنين كما نعلم فالله تعالى وعد موسى أن يعطيه التوراة وضرب له ميقاتًا «ذا القعدة وعشر ذى الحجة» وقد حدث من موسى قبول واتباع لأمر ربه يقوم مقام الوعد؛ لأن الطاعة فى القبول بمنزلة المواعدة فتصح المفاعلة.

وجعل بعض العلماء المواعدة «مفاعلة» من جانب واحد جريًا على عادة العرب فالمفاعلة قد تأتى فى كلامهم من جانب واحد قالوا: داويت العليل، وعاقبت اللص، والفعل من واحد، فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين كل واحد منهما يعد صاحبه.

وعلى هذا وردت قراءة أخرى فى الآية هى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ (وعدنا) بغير ألف وهى قراءة أبى عمرو والحسن وأبى رجاء وأبى جعفر وشيبة وعيسى بن عمر وقتادة وابن أبى إسحاق.

بيد أن قراءة «واعدنا» - على المفاعلة- أجود وأحسن كما قال النحاس، والمفاعلة على بابها لتؤكد الموعد وقبوله.

وكانت المواعدة ثلاثين ليلة، ثم تمت بعشر كما في سورة الأعراف: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ولسائل أن يسأل: لِمَ عبّر بالليالي دون الأيام؟

فالجواب: إن افتتاح الميقات كان من الليل، ولأن الليالي غرر الشهور لأنها وضعت على سير القمر والهلال إنما يهل بالليل، فالليالي أول الشهور والأيام تبع لها لأن الليلة أسبق من اليوم فهي قبله في الرتبة، قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، ولذا وقع التأريخ بالليالي عكس ما هو شائع الآن، وعلينا أن نعود إلى الوضع الصحيح من الملاحظة للأيام ولياليها.

والأمر الثاني- وهو اتخاذ بني إسرائيل العجل- عبّر عنه بقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾: الاتخاذ: افتعال من الأخذ، وأصل اتخذ افتعل منه، ومذهب أبي علي الفارسي أن اتخذ افتعل من تخذ لا من أخذ.

والفعل اتخذ يتعدى لمفعولين إذا كان معناه «جعل» كما تقول: اتخذت محمداً صديقًا أي جعلته، ويتعدى لمفعول واحد إذا كان معناه «عمل أو صنع» كقولك اتخذت بيتًا أي، صنعته وعملته.

واتخذ في قوله تعالى: «اتخذتم العجل» يمكن أن يكون متعديًا لمفعولين، الأول هو العجل والثاني محذوف لشناعة التصريح به أي اتخذتم العجل إلهًا، ويجوز أن يكون معنى «اتخذتم» ابتدأتم صنع العجل فيكتفي بمفعول واحد، لكن الأول أرجح.

والعجل: ولد البقرة، والأنثى عجلة.

وقصة عبادة العجل مفصلة في سورة طه سابقة النزول في مكة وهنا فقط يذكرهم بها.

وكان المنافق السامرى قد صنع لبنى إسرائيل العجل فعبدوه بعد ذهاب موسى لتكليم ربه واستخلافه هارون أخاه عليهم فنهاهم هارون عن عبادته ودعاهم إلى عبادة الله الخالق جل وعلا قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩٠، ٩١]، فلما رجع موسى أحرق العجل، ووقع بهم بعض العذاب الذى لم يرفع إلا بقتلهم أنفسهم، كما سيأتى فى بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

أما الأمر الثالث: وهو قبول الله تعالى توبتهم والعفو عنهم فقد عبّر عنه سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ العفو: من ألفاظ الأضداد التى تدل على معنيين أحدهما ضد الآخر، فالعفو له معنيان: أحدهما: المحو والإزالة من قولهم، عفت الريح الأثر: أى أذهبته وأزالته.

والمعنى الثانى: الكثرة والزيادة من قولهم: عفا الشىء: كثر وزاد ومنه «حتى عفوا» فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

والعفو- هنا- بالمعنى الأول: وهو محو الجريمة وقبول التوبة، والمراد: قبول التوبة من عبدة العجل والأمر برفع السيف عنهم فى قوله تعالى: بعد ذلك- ﴿**فاقتلوا أنفسكم**﴾. والفرق بين العفو والمغفرة أن العفو يجوز أن يكون بعد العقوبة فيجتمع معها، وأما المغفرة فتكون قبل العقوبة لا بعدها.

ومن الدقة اللغوية أن يعبّر القرآن الكريم بحرف العطف «ثم» فى الآية فهى تدل على التفاوت ما بين فعلهم القبيح ولطفه تعالى بهم، فالله تعالى قد واعد موسى- عليه السلام- كى يعطيه التوراة لتكون هاديًا لبنى إسرائيل وقد قابلوا ذلك بعبادة العجل- هذا العمل المشين- عكس ما كان يجب عليهم أن يفعلوا من إجلال الخالق وعبادته وحده.

وقد أصدر الله تعالى عفوه عنهم وقبل توبتهم، فقابل عملهم السيئ- وهو عبادة العجل- بالصفح والمجاوزة وشتان بين هذه الرحمة الإلهية وبين ظلمهم أنفسهم بالضلال والكفر.

والإشارة - فى قوله سبحانه- ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ موجهة إلى نكرانهم الجميل وظلمهم أنفسهم بعبادة العجل واقتران اسم الإسارة «ذا» بلام البعد دليل على فظاعة هذا الصنيع الذى ارتكبوه، وأصبح واضحًا للمشاهد كأنه شيء محسوس.

وترى- أيها القارئ الكريم- أن حرف العطف «ثم» له معناه الجليل الإفادة وقوله «من بعد ذلك» له- أيضًا- فائدة أخرى جليلة فلا تكرار بينهما كما قد يتوهم متوهم.

ثم بين الله تعالى سبب هذا العفو الشامل والرحمة الواسعة بقوله سبحانه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

فالمقصود من عفو الله تعالى: التجاوز عن سيئاتهم حتى يشكروا الخالق ويتجهوا إليه بالعبارة مخلصين، ومع ذلك لم يفعلوا.

والشكر: الثناء على الإنسان بمعروف يقدمه إليك، وهو مأخوذ من الشكر بمعنى الظهور، يقال دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تُعطَى من العلف.

والشكر المناسب للمعنى القرآنى هنا: هو الاجتهاد فى بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية فى السر والعلانية.

والفعل «شكر» يتعدى بنفسه فيقال: شكرته، ويتعدى باللام فيقال: شكرت له، وتعديته باللام أفصح.

وللشكر صلة بالحمد، فالحمد الثناء الكامل- وهو نقيض الذم- تقول: حمدت الرجل أحمده حمدًا فهو حميد ومحمود، والمحمد الذى كثرت خصاله المحمودة وبه سمى رسول الله ﷺ.

ويجعل بعض العلماء الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، فالحمد لله معناه: الشكر لله وروى عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة كل شاكر فقد قال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] وقال أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]. فهى كلمة كل شاكر.

والصحيح أن الحمد أعم من الشكر فالحمد ثناء على الممدوح بصفاته سواء سبق الإحسان أو لا والشكر ثناء على الممدوح بما أولى من الإحسان.

فالأول عام والثانى خاص بمن أولاك معروفًا فصار الحمد أعم لأنه يزيد على الشكر.

والحرف «لعل» يفيد الترجى والتوقع وهذا لا يكون فى جانب الله تعالى بل يكون فى جانب البشر فيفسر على أن المعنى موجه إلى البشر، أى افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تشكروا وتستمروا بعد ذلك على الطاعة.

ويجوز أن تكون «لعل» تعليلية بمعنى اللام، فالمعنى «لتشكروا عفو الله عنكم».

ومع ذلك ضاعت الفرصة منهم بعدم الشكر والتمادى فى الباطل.

[٢٣] قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[البقرة: ٥٣-٥٦].

يتحدث المولى سبحانه فى الآيتين الأوليين عن ثلاثة أمور :

- **الأول**: نعمة إعطاء موسى التوراة لهداية بنى إسرائيل فى تلك المواعدة التى سبق الحديث عنها .

- **الثانى**: طلب موسى من بنى إسرائيل التوبة من الجرم المشين الذى ارتكبوه فى أثناء ذهابه لتكليم ربه- وهو عبادة العجل .

- **الثالث**: قبول الله تعالى توبتهم بعد إعمال السيوف فى رقابهم .

ويلاحظ فى هاتين الآيتين أن القرآن الكريم استعمل الألفاظ اللغوية المعبرة باشتقاقها وتصرف معانيها عن المراد فى صورة دقيقة تبرز المرامى القرآنية إبرازًا عجيبًا محيطًا بالمعانى إحاطة تامة ، ومبينًا الغرض الذى وردت فيه بيانًا شافيًا .

فالأمر الأول- وهو نعمة إعطاء موسى التوراة- عبّر عنه الله سبحانه بقوله : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ : فنلاحظ أن كلمتى «الكتاب والفرقان» تعبران عن التوراة .

ويرى بعض العلماء أنهما بمعنى واحد عطف أحدهما على الآخر عطف ترادف للتأكيد كما قال الشاعر :

وألفى قولها كذبًا ومينا

فالمين هو الكذب عطف أحدهما على الآخر وهما مترادفان على معنى واحد تأكيدًا ومبالغة .

ولكن العطف- فى معظم صوره- يقتضى المغايرة ، ويتضح للغوى أن لفظ «الكتاب» يختلف عن لفظ «الفرقان» ففى كل منهما معنى ليس فى صاحبه ، فالكتاب تعبير عن السفر الذى أنزله الله على موسى ، والفرقان هو الفارق بين الحق والباطل والحلال والحرام ، وتلك صفة جليلة أضيفت إلى هذا الكتاب فالتوراة التى أعطيت

لموسى كانت جامعة بين كونها كتابًا منزلاً وفرقانًا- وهذا قبل تحريفها وتغييرها على يد اليهود من بعد- فدخلت الواو بين الصفتين للإعلام باستقلال كل منهما .

وتأمل معى أيها القارئ الكريم- فى استعمال القرآن الكريم للفعل «تهتدون» فى قوله تعالى : ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ إنه يلفت نظرنا إلى ما يستعمل فيه الهدى والاهتداء من معان يحددها الاشتقاق اللغوى .

وقد استعملهما القرآن الكريم فى عدة معان :

١- هدى الرسل لأقوامهم- وهو بمعنى الدعوة والتنبيه والدلالة على الحق والخير- كما قال تعالى : ﴿ **وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴾ [الرعد : ٧] ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الشورى : ٥٢] .

٢- هدى الله تعالى لخلقه- وهو بمعنى التأييد والتوفيق إلى الإيمان وإلى أعماله، وكما قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [القصص : ٥٦] .

٣- هدى الله عز وجل للمؤمنين إلى الجنة بإرشادهم إلى مسالكها والطرق المفضية إليها كقوله تعالى فى صفة المجاهدين : ﴿ **وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** ﴾ [محمد : ٤-٦]، والذهاب بالكفار إلى مسالك الجحيم كما قال تعالى : ﴿ **فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ** ﴾ [الصافات : ٢٣] .

والأمر الثانى: وهو طلب موسى من بنى إسرائيل التوبة كما أمره ربه عبّر عنه المولى سبحانه بقوله : ﴿ **يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ** ﴾ وفى الآية كلمات تستحق النظر من الباحث اللغوى .

ففى أولها تقع كلمة «قوم» فى أسلوب النداء الذى يفيد رقة موسى وإشفاقه على قومه أن يحل بهم العقاب الرادع على الجرم الذى تردوا فيه بعبادتهم العجل.

وكلمة «قوم» - فى كلام العرب- تطلق على الرجال خاصة دون النساء، ولذلك قوبلت بالنساء فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

وقول زهير:

وما أدرى ولست إخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

فقابل بين القوم والنساء مما يدل على أن القوم خاص بالرجال وقد يطلق القوم على الرجال والنساء جميعًا من باب تغليب الذكور على الإناث، وعليه استعمل فى بعض آيات القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [القمر: ٩] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١] فدعوة الرسل موجهة إلى الصنفين معًا- الذكور والإناث- ولا يجوز أن يطلق لفظ «قوم» على النساء وحدهن.

وقد استعملت كلمة قوم- فى الآية التى معنا- بمعناها الحقيقى للرجال خاصة، ومنها فهمنا أن طلب قتل بعضهم بعضًا فى قوله تعالى- بعد ذلك: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] فهمنا أن ذلك خاص بالذكور من بنى إسرائيل فقط دون الإناث، وما أبرع القرآن الكريم فى ملاحظة الدقة والإيجاز المفيد فى ألفاظه التى يستعملها.

وقوله تعالى: ﴿ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ أصل الظلم: وضع الشىء فى غير موضعه.

ويقال لكل من فعل فعلاً يعود عليه ضرره إنما أسأت إلى نفسك وهم قد أساءوا إلى أنفسهم بعبادة غير الله على هذه الصورة المنكرة.

ولقد طلب موسى من قومه أن يسرعوا إلى التوبة- كما أمره الله تعالى- وكان مشروع التوبة قاسيًا، وهو أن يقتل بعضهم بعضًا فيقتل البرىء المجرم والطائع العاصى، وقد

ينعكس الأمر من باب عموم النقمة كما فى قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥] ولأنهم لم يغيروا المنكر المطلوب تغييره من عبادة العجل بالنسبة لمن عبدوه وهذه المذبحة جُعلت تطهيرًا لنفوسهم مما وقعوا فيه من عبادة غير الله.

وتلك هى الكفارة العنيفة، وإنه لتكليف مرهق شاق أن يقتل الأخ أخاه فكأنما يقتل نفسه برضاه، وهذا كان مناسبًا لحالهم ومكابرتهم وجريمتهم الشنعاء.

وجملة ﴿ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ عُطفت على جملة ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ عطف تفسير، فالثانية بيان وتفصيل لإجمال الأولى كأنه لما قيل: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ قالوا: كيف؟ ﴿فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ والفاء فاء التفسير والتفصيل لما فى مضمونها من بيان الإجمال فيما قبلها.

وقد جاء وصف المولى- عز وجل- بالبارئ مرتين فى الآية فى قوله سبحانه: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ وفى قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾.

والبارئ والخالق من مادتين لغويتين لكل منهما اشتقاقها ومعناها، فالدقة اللغوية تقتضى التفريق بينهما.

فمادة «خلق» تفيد معنى التقدير فخلق بمعنى قدر يقال: خلقت الأديم للسقاء- إذا قدرته قبل القطع كما تفيد- أيضًا- الإنشاء والاختراع كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١]، وعلى هذا فالخالق بمعنى المقدر الناقل للشىء من حال إلى حال، والمنشئ والمبدع. أما مادة «برأ» فهى أخص من «خلق» فهى تعنى الخلق المؤتلف المتناسق الذى يخلو خلوًا تامًا من التفاوت أو الاعوجاج فالبارئ هو الذى يجعل مخلوقه متناسبًا تتلاحم أجزاؤه ويخلو خلوًا تامًا من العيوب، فقد خلق الإنسان سويًا فى أحسن تقويم كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]، كما خلق سبع سموات طباقًا لا عوج فيها ولا

تفاوت ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣]. كما تعنى انفصال شيء عن شيء وتميزه منه يقال: برأ المريض من مرضه إذا زال عنه المرض وانفصل، وبرأ المدين من دينه إذا زال عنه الدين وسقط عنه، وبرأ الله آدم أى خلقه ابتداء متميزًا من لوث الطين، وبرأ الله الخلق أى أخرجهم من العدم وفصلهم عنه إلى الوجود.

ويلاحظ أن الحجازيين والتميميين يختلفون فى صياغة الفعل ومصدره عند استعماله فى المرض.

يقول الحجازيون: برأت من المرض برأ «بالفتح» والتميميون يقولون «برئت من المرض برءًا» «بالضم».

ويقولون فى الدين: برئت منك ومن الديون براءة أما فى الخلق فيتفق الجميع على أن يقال: برأ الله الخلق برءًا من باب قطع لا غير.

ومن الاشتقاق اللغوى نفهم سر اختيار لفظ البارئ هنا- دون الخالق- فهو خالق اليهود وغيرهم من الناس- خلقًا سويًا متميزًا بالإحسان والإبداع مما يقتضى رجوعهم إلى صوابهم وإنابتهم وتنفيذ ما طلب منهم من توبة شكرًا للمبدع لهم على أحسن وجه وأكمله.

وهذا تقريع لهم لترك عبادته بعدما ركب من خلقهم السوى.

ثم جاء التعقيب القرآنى بقبول التوبة فى قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ لقد نزلت بهم رحمة الله تعالى بعد إعمال السيوف فى رقابهم تربية لطبيعتهم التى لا ترعوى عن اقتراف الجرائم والآثام ومخالفة التعاليم الإلهية.

وقد جاء وصف الله تعالى بالتواب الرحيم، ووصف التواب تكرر فى القرآن الكريم معرفًا ومنكرًا واسمًا وفعلاً ولا يجوز أن يقال فى حق الله تعالى: «تائب» اسم فاعل من تاب يتوب لأنه ليس لنا أن نطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه

أو جاءنا على لسان نبيه وحيًا وتوجيهًا قال تعالى: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ [التوبة: ١١٧] وقال عز حكمه: ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى: ٢٥].

وإنما قيل لله عز وجل: «تواب» لمبالغة الفعل ولكثرة قبوله توبة عباده، وكثرة من يتوب إليه.

وقد يوصف العبد- أيضًا- بأنه تواب كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

أما الوصف الثانى- وهو الرحيم- فهو وصف الله تعالى بالرحمة - وصفًا خاصًا- لمن تاب وآمن وعمل صالحًا فهو خاص بالمؤمنين فى الهداية لهم واللطف بهم، ويصلح وصفًا للمخلوقين فقد نعت به ﷺ كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ويوصف المولى عز وجل- كذلك- بالرحمن- وهو مشتق من الرحمة أيضًا.

والفرق بين الرحمن والرحيم أن الرحمن معناه ذو الرحمة التى لا نظير لها وهو اسم عام فى جميع أنواع الرحمة، فالله تعالى عون لكل من آمن به، وهو العاطف على البر والفاجر من خلقه يرزقه بأنواع الرزق والنعم العامة كالصحة والمال وشئون الحياة الدنيوية، ويختص الرحمن بالله «عز وجل» فلا يجوز أن يسمى به غيره قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ [الإسراء: ١١٠] فعادل وصف الرحمن لفظ الجلالة وهو الاسم الذى لا يشاركه فيه غيره، وقال سبحانه ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥] فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة- جل وعز.

فما أكرم المولى سبحانه بهم، وما أرحمه على عصاتهم إذا تابوا إليه وأنابوا ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]. وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك أصدق تعبير.

وفي الآيتين الأخريين: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

يتحدث الحق سبحانه عن طلب جماعة من بني إسرائيل رؤية الله جهرة، وهذه جرأة وغلظة لا تليق بإنسان ظهرت أمامه معجزات النبوة وخصه الله تعالى بنعم كثيرة من أمثال هؤلاء المعاندين المتجبرين، وما حل بهم من جراء ذلك من عقوبة الموت ثم بعثهم لعلهم يثوبون إلى الحق.

وعلى هذا فالآيتان تتناولان أمورًا هي:

- **الأول:** حديثهم عن طلب الرؤية حتى يؤمنوا.

- **الثاني:** إماتتهم بالصيحة عقوبة لهم على طلبهم الذي لايليق بعاقل.

- **الثالث:** إحياء الله تعالى لهم لعلهم يثوبون إلى رشدهم.

فالأمر الأول- وهو طلبهم رؤية الله تعالى- عبّر عنه بقوله سبحانه: ﴿ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ الإيمان: التصديق، والمؤمن به: ما أنزله الله من آيات بينات وردت بها التوراة وما كلفوا به من عبادة الله وتوحيده وترك عبادة العجل.

والمراد: لن نصدقك فيما تنقله عن ربك من التوراة وما تطلبه منا حتى نرى الله عيانًا.

ولسائل أن يسأل: لماذا عُدي الفعل «نؤمن» باللام مع أنه يتعدى بالباء فيقال: نؤمن بك لا نؤمن لك؟

والجواب: أن اللام وضعت مكان الباء فى تعدية الفعل «نؤمن» لتضمنه معنى «نقرّ ونستجيب» أى لن نقر لك ولن نستجيب لك فيما تطلبه منا من التصديق بما ورد فى التوراة وعبادة الله وتوحيده حتى ترينا الله.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ كلمة «جهرة» معناها: علانية أو عيانًا، يقال رأيت الأمير جهارًا وجهرة أى غير مستتر بشىء.

ونرى أن كلمة جهرة وقعت فى النسق القرآنى منصوبة على الحال محتملة لمعنيين على حسب بيان صاحب الحال الذى ترتبط به.

فيمكن أن ترتبط بخطاب بنى إسرائيل لموسى فى قوله تعالى «قلتم» فتجعل جهرة حالاً من ضمير الفاعل «التاء والميم» وعليه ففى الكلام تقديم وتأخير والتقدير: وإذ قلتم جهرة يا موسى.. إلخ وهى- حينئذ- تعبّر عن طلبهم الجافى بإعلانهم هذا الطلب على الملأ دون استحياء أو خجل من طبيعة هذا الطلب المنكرة.

ويمكن أن ترتبط بسؤالهم رؤية الله تعالى فتجعل حالاً من اسم الله، ويكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير، وهى حينئذ تعبّر عن نوع الرؤية المطلوبة وأنها رؤية الله تعالى عيانًا لا رؤيته فى المنام فهم يتشددون لا يرضون بغير الرؤية الحقيقية لله تعالى ظاهرًا غير مستور ولايكتفون أن تكون الرؤية منامًا.

وفى كلا الحالين تكون كلمة «جهرة» قد وقعت موقعًا له حسنه ودقته فى التعبير عن موقف اليهود المتسم بالخروج على التقاليد المرعية فى خطاب الأنبياء وخروجهم على الذوق الأدبى، وطلبهم ما لايليق بالعقلاء من رؤية الله علانية فى الدنيا بهذه الصورة التى تدعو إلى الدهشة والعجب من تصرفهم القبيح.

وما أروع القرآن الكريم فى وضع كلمة واحدة توحى بهذين المعنيين، وتترك نفس القارئ والسامع تذهب بها كيفما تشاء.

والأمر الثانى: إماتتهم بالصيحة عقوبة لهم عبّر عنه بقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ الصاعقة: قيل: هى الواقعة الشديدة من صوت الرعد يكون معها أحيانًا نار تحرق ما تأتى عليه، أو هى نار تسقط من السماء فى رعد شديد، ويقال: صعقتهم السماء، إذا ألقت عليهم الصاعقة.

والصاعقة- أيضًا- صيحة العذاب كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾ [فصلت: ١٧] والصاعقة والصعقة: صيحة الموت كما فى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] أى مات ومنه الآية التى معنا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أى متم بالصيحة وهى صوت هائل سمعوه من جهة السماء فماتوا، وقيل الصاعقة التى أخذتهم نار نزلت من السماء فأحرقتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أى ترون هذه العقوبة التى حلت بكم فى قرع وألم شديد، وهذا ما يوحى به قوله تعالى- فى سورة الأعراف- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٩١] وهى الزلزلة التى اعترتهم ومزقت نفوسهم من الهلع والخوف فماتوا على تلك الصورة التى تليق بتصرفهم المشين.

والأمر الثالث: هو بعثهم وقد عبّر عنه بقول المولى عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أصل البعث: الإرسال وقيل بل أصله: إثارة الشىء أى حركته يقال: بعثت الناقة: أثرتها أى حركتها.

قال عنترة:

وصحابة شُم الأنوف بعثتهم ليلاً وقد مال الكرى بطُلاها

وقد كان موت هذه الجماعة من بنى إسرائيل عقوبة لهم على طلبهم الذى لايليق، ثم ردوا إلى الحياة مرة أخرى ليستوفوا آجالهم فى الدنيا، وليكون ذلك لهم درسًا قاسيًا لعله يفيدهم فى معرفة قدرة الخالق الذى يستحق العبادة والشكر وحده.

وفى هذه الآية دليل على صحة البعث والنشور يوم القيامة ودحض لزعم المنكرين الجاحدين له فى كل زمان ومكان، فهذا مثال من أمثلة البعث والقدرة عليه وقد تحقق أمام أعين الناظرين من هذه الأمم السالفة.

[٢٤] قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٥٧-٦٠].

إن طبيعة بنى إسرائيل لا تقبل النصح أو الإرشاد أو العمل بأمر الله، فكم من نعمة أنزلها الله تعالى عليهم فكفروا بها.

وفى الآية الأولى يتحدث القرآن الكريم عن بعض النعم التى أنزلها الله عليهم فى التيه من حماية لهم من هجير الصحراء وإنزال الطعام والشراب لهم فى هذا المكان المقفر لكنهم لم يشكروها.

وهذه النعمة هى: تظليل الغمام وإنزال المن والسلوى، **فالنعمة الأولى**، عُبر عنها بقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ الغمام: اسم جنس يفرق بينه وبين واحدة بالتاء، وواحدة غمامة كسحاب وسحابة وسميت الغمامة بذلك لأنها تغم السماء أى تسترها وكل مغطى فهو مغموم، وكان الغمام يسير بسيرهم نهاراً ليقيهم حرارة الجو وينجلى الغمام فى آخر النهار ليستضيئوا بالقمر ليلاً.

وقد عوقبوا بالتيه أربعين سنة فكانوا يمشون النهار كله وينزلون للمبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس.

والنعمة الثانية- وهى إنزال المن والسلوى عليهم- عُبر عنها بقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ المن: ندى شبيه بالعسل جامد متحبب، وقيل شراب حلو، فكان المن ينزل عليهم مثل الثلج من الفجر إلى طلوع الشمس، والسلوى: الأرجح أنه طائر السمانى فكانوا يجدونه بوفرة قريب المنال.

ولسائل أن يسأل: لِمَ قدم المن مع أنه حلوى على السلوى مع أنه غذاء والعادة تقديم الغذاء على الحلو؟.

فيقال: إن نزول المن بهذه الصورة أمر مخالف للعادة فَقُدِّم لاستعظامه بخلاف الطيور المأكولة فهى أمر مألوف لا غرابة فيه فأخِر.

ثم عبّر القرآن الكريم عن إعراض اليهود عن شكر هذه النعم وما ارتكبوه من مآثم بقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فى هذه العبارة إيجاز بليغ وأصل الكلام: وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر فظلموا أنفسهم لمقابلتهم النعم بالمعاصى والإحسان بالكفران ولا يتخطاهم ضرر ذلك.

وما أبرع العبارة القرآنية فى اختيار الألفاظ الموجزة المعبرة عن كل ذلك فى دقة وشمول مع جزالة الألفاظ وفخامتها.

ولسائل أن يسأل: لماذ عُدل عن نهج الخطاب السابق فى صدر الآية إلى أسلوب الغيبة؟ فنقول: إن فى ذلك دليلاً على إعراض المولى «عز وجل» عنهم لفداحة جناياتهم وتعدد قبائحهم.

وإذا قيل: لِمَ قدم المفعول «أنفسهم» على فعله «يظلمون»؟

فيقال: إن ذلك لإفادة القصر الذى يقتضيه النفى السابق فى قوله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فضرر جرائمهم يعود عليهم وحدهم دون غيرهم، وفى ذلك ضرب تهكم بهم وبيان خسرانهم.

وقد يقول قائل أيضًا: لـمَ جاء بفعل الظلم مرة بصيغة الماضى وأخرى بصيغة المضارع فقال ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ ثم قال: ﴿ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾؟.

فالجواب: أن الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تورطهم فى الظلم واستمرارهم عليه، فالماضى يسجل عليهم وقوع الظلم منهم بكفرهم وعنادهم وعدم شكرهم النعم والمضارع يفيد تماديهم فى ذلك واستمرارهم عليه.

والفعل «كانوا» هنا يبين أن المتحدث عنهم وعن كفرهم وضلالهم هم أسلاف اليهود الذين انقرضوا حتى يحذر المعاصرون المخاطبون أن يحل بهم ما حل بأسلافهم.

وفى الآية الثانية: حديث عن أمر الله تعالى لبنى إسرائيل بدخول بيت المقدس فقد أمر الله تعالى بنى إسرائيل- على لسان موسى- أن يدخلوا بيت المقدس ويقاتلوا الجبارين من أهلها فعصوا أمر خالقهم وبارئهم وتقاعسوا وقالوا لموسى ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] فعاقبهم المولى «عز سلطانه» بالتيه فى الصحراء أربعين سنة، وبعدها عفا الله عنهم، فأزال عنهم التيه وأمرهم بالتوجه إلى بيت المقدس للتمتع بخيراتها، ووجههم إلى طلب المغفرة من الله تعالى، والتوجه إليه حتى ينالهم عفوه وإحسانه، ولكنهم- كما ستذكر الآية القادمة- نكصوا على أعقابهم وخرقوا الأمر الموجه إليهم فعمهم الله بعقاب من عنده جزاء كفرهم وضلالهم.

والآية التى معنا تدل على أمرين:

- **الأول:** الأمر بدخول القرية والتمع بخيراتها وكان هذا بعد أن أزال عنهم التيه.

- **الثانى:** الخشوع لله، والتوبة إليه من ذنوبهم حتى يغفرها لهم، ويزيدهم خيرًا.

فالأمر الأول عُبر عنه المولى سبحانه بقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ هنا نسب الله تعالى القول والأمر بدخول القرية إلى نفسه على سبيل التعظيم اللائق بجلاله، فهو صاحب الأمر بتوجيههم إليها وفى سورة المائدة ورد القول والأمر على لسان موسى فى قوله: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ

لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] الآية ولا تعارض بين هذا وذاك، فموسى رسول يبلغ مايوحى إليه من ربه جل وعلا وما يأمرهم به كان وحيًا من عند الله.

والقرية: مشتقة من قريت أى جمعت لجمعها لأهلها، تقول: قريت الماء فى الحوض أى جمعته، والقرية فى الأصل اسم للمكان الذى يجتمع فيه القوم، ويقصد بها مدينة «بيت المقدس» عند جمهور العلماء، وهى أرض مباركة عظيمة الغلة.

«وكلوا»: أمر للإباحة، ورغدًا: واسعًا كثيرًا، وهذا من الله تعالى إباحة لدخول القرية، والتمتع بخيراتها.

والأمر الثانى: وهو خشوعهم وتوبتهم عبّر عنه سبحانه بقوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: المقصود بالباب الذى أمروا بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف بباب حطة، وسجدًا: جمع ساجد وهو أبلغ من جمعه على سجود لأن صيغة فعّل لها من القوة ما ليس لصيغة فعول فى الجمع، والمراد: ادخلوا منحنين ركوعًا أو متواضعين خضوعًا.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: المراد: طلب المغفرة أى قولوا شيئًا يحط ذنوبكم وقد قرئت حطة بالرفع والنصب فالرفع قراءة الجمهور على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى سؤالنا حط ذنوبنا.

وقرئت حطة بالنصب على أنها مصدر مفعول مطلق أى احطط عنا ذنوبنا حطة وهذا بالاستغفار والتوبة وعلى هذا المعنى قال الشاعر:

فاز بالحطة التى جعل الله بها ذنب عبده مغفوراً

والأئمة من القراء على الرفع وهو أولى فى اللغة.

وقوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾: الفعل «نغفر» مجزوم فى جواب الأمر ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ .. إلخ والجمهور من القراء على إظهار الراء عند اللام فلا تدغم فيها وقد أدغمها قوم وهو ضعيف لأن الراء حرف مكرر فهى فى تقدير حرفين فإذا أدغمت ذهب

أحدهما، واللام القائم مقام حرف، وهذا الإظهار ليعطى الناطق كل حرف حقه من المجهود العضلى بوضوح كامل.

وفى الآية الثالثة بيان تحريفهم للأمر الموجه إليهم وعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾: لقد أمروا بطلب المغفرة حتى ينالهم عفو الله وإحسانه لكنهم نكصوا على أعقابهم وحرفوا الأمر الموجه إليهم فمسهم الله بعقاب من عنده.

وبدل وأبدل بمعنى واحد، يقال: أبدلت الشيء بغيره وتبديل الشيء أيضًا: تغييره وإن لم يأت ببدل واستبدل الشيء بغيره وتبدله به: إذا أخذه مكانه.

وبدل يتعدى إلى مفعولين واحد بنفسه ويتعدى إلى المفعول الثانى بالباء والباء تدخل على المتروك وعلى هذا فقد حذف المفعول الذى دخلت عليه الباء هنا وأصل الكلام: فبدل الذين ظلموا بالذى قيل لهم قولاً غير الذى قيل لهم، وكانوا قد استبدلوا بطلب الاستغفار بقولهم حطة التى أمروا بها قولاً آخر يدل على تمردهم واستهزائهم بقولهم حنطة، فالذى قيل لهم هو أن يقولوا «حطة» فبدلوا بهذا القول قولاً جديداً هو «حنطة» مكان «حطة» وقد بدلوا- أيضًا- مع القول الفعل فدخلوا الباب يزحفون بدلاً من أن يدخلوا سجداً فكان ذلك مستحقًا لغضب الله تعالى عليهم وعقابهم.

ولعل المتحدث العربى الآن يتبع الأسلوب القرآنى فى إدخال الباء على المتروك فكثير من المتحدثين بالعربية اليوم يدخلها على المأخوذ لا على المتروك فيقولون بدّل الجهل بالعلم وبدّل الضلال بالهدى ونحو ذلك، ولو أنهم سلكوا المسلك القرآنى السليم فى التعبير لقالوا: بدّل العلم بالجهل والهدى بالضلال بإدخال الباء على المتروك لا على المرغوب فيه.

وعقاب تحريفهم الأمر الموجه إليهم عُبر عنه بقوله سبحانه: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾: الظلم- كما عرفنا- وضع الشيء فى غير

موضعه، وقد وضعوا الباطل مكان الحق والاستهزاء، والتمرد مكان الاستجابة والطاعة، وتقديم التوبة، والرجز- بكسر الراء فى آخرها زاى: العذاب أما الرجس بالسين فهو النتن والقذر ومنه قوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] أى نتنًا إلى نتنهم.

وقال الفراء: الرجز والرجس بمعنى واحد فالسين والزاى يتبادلان لتقاربهما فى المخرج والصفات.

والرأى الأول أقوى فالعربى ينوع المعنى بالسين والزاى. ويفسقون، فعل مضارع من قولهم: فسق الرجل يفسق ويفسق فسقًا وفسوقًا أى فجر، والفسق- فى عرف الاستعمال الشرعى: الخروج عن طاعة الله عز وجل وهو يصدق على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان، وأصل الفسق فى كلام العرب: الخروج عن الشىء يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت عن قشرها.

وقد اجتمع عليهم وصفهم بالظلم والفسق معًا وذلك كله كفر وضلال بعد طول دعوتهم إلى الهدى والطاعة فاستحقوا بذلك غضب الله وعقابه.

ولسائل أن يسأل: لمَ عبّر بالظاهر «الاسم الموصول وصلته» مرتين فى الآية فقال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ثم قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مع أنه كان يمكن التعبير فى الثانى بالضمير فيقال فأنزلنا «عليهم»؟.

فالجواب: إن ذلك جاء تعظيمًا لأثر ظلمهم وتغليظًا لفعلهم المشين ولبيان أنه هو السبب الذى أدى إلى حلول العقاب بهم.

ومن عادة العرب تكرير الظاهر ووضعه موضع المضمر لتعظيم الأمر وتفخيمه ويأتى ذلك على ضربين.

أحدهما: بعد تمام الكلام كما فى هذه الآية فقد انتهت الجملة فى قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ ثم جاءت جملة أخرى معطوفة عليها وضع فيها الظاهر موضع المضمر فى قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا... إلخ﴾.

وقد جاء مثل ذلك فى آيات من القران الكريم كقوله تعالى : ﴿ **أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [المجادلة : ٢٢] وهذا للتعظيم للمولى سبحانه وقوله سبحانه : ﴿ **أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [المجادلة : ١٩] وهذا لتحقير الشيطان وحزبه .

وقد جاء مثل ذلك فى كلام العرب كقول عدى بن زيد :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء ... نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فكرر لفظ «الموت» ثلاثًا لعظم هذا المنغص الذى لايعادله منغص آخر .

وثانيهما : وضع الظاهر موضع المضمر قبل تمام الكلام كقوله تعالى : ﴿ **الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ** ﴾ [الحاقة : ١-٢]، ﴿ **الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ** ﴾ [القارعة : ١ ، ٢] فكان مساق العبارة هكذا : الحاقة ماهى - القارعة ماهى وقد أريد بذلك التعظيم والتفخيم لأهوال يوم القيامة ومثله : ﴿ **فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ** ﴾ [الواقعة : ٨ ، ٩] فكرر ﴿**أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ**﴾ تفخيمًا لما ينيلهم من جزيل الثواب وكرر ﴿ **أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ** ﴾ لما ينالهم من من أليم العذاب .

ولسائل أن يسأل أيضًا : لمَ قال هنا ﴿ **بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ وقال فى سورة الأعراف : ﴿ **بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٦٢] فيقال : إن الفعلين (يفسقون ويظلمون) يعبران عن سبب عقاب الله تعالى لهم وهذا تنبيه على أنهم جامعون بين هذين الوصفين القبيحين الفسق والظلم معًا .

وفى الآية الرابعة : ﴿ **وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾ يتحدث المولى عز حكمه عن نعمة كبرى على بنى إسرائيل، فقد فجر لهم الله تعالى ينابيع الماء عيونًا من الحجر - وهم فى التيه - فشربوا وارتوت نفوسهم وكان عليهم أن يشكروا هذه النعمة التى تتوقف عليها حياتهم إلى جانب نعم

الطعام والشراب التى يتلذذون بها- وقد تحدث عنها القرآن الكريم قبل ذلك- وهى نعم جليلة القدر كفيلة بتوجههم إلى عبادة الله القادر على منح هذه النعم فى صحراء جرداء لا نبات فيها ولا طير ولا ماء وكانت طريقًا إلى استقامتهم على الخير ونبذ الفساد فى الأرض، لكنهم عثوا فى الأرض فساداً فحق عليهم العذاب جزاء كفرهم وإفسادهم.

والآية تشتمل على أمرين:

- **الأول:** طلب موسى السقيا لقومه من الله تعالى وتفجير الماء لهم من الحجر الذى أمر موسى أن يضربه بعصاه إلى جانب النعم السابقة من طعام وشراب.

- **الثانى:** نهى بنى إسرائيل عن اقتراف الشرور والآثام.

فالأمر الأول- وهو طلب السقيا- عبّر عنه بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا** ﴾: السقيا: اسم مصدر بمعنى تحصيل الماء، ويقال فى الفعل سقى وأسقى كما قال الشاعر:

سقى قومى بنى مجد وأسقى نميرًا والقبائل من هلال

والفعل استسقى أصله سقى زيدت فى أوله الهمزة والسين والتاء لتفيد طلب السقيا على وجه الدعاء.

ويدل ذلك على أن موسى سأل ربه السقيا لبنى إسرائيل حين كانوا بالصحراء لايجدون ماء يروى غلتهم أو يقيم حياتهم، وأظهر فى ذلك خشوعه وتضرعه .

ونفهم من هذا أن الاستسقاء يكون عند عدم الماء وحبس المطر، ويكون بإظهار العبودية والخشوع لله جل وعلا وشرعت لذلك- فى الإسلام- صلاة الاستسقاء، وقد استسقى نبينا محمد ﷺ فخرج إلى المُصلى وتضرع إلى ربه أن ينزل المطر وحسبنا به قدوة لنا فى ذلك.

والفعل «انفجرت» معناه: انشقت وتفتحت، والانفجار: هو الانشقاق والتفتح، والفجر مأخوذ من الانفجار لانشقاقه بالضوء، والمراد هنا: تدفق الماء من الحجر.

ولسائل أن يسأل: لِمَ عبّر القرآن الكريم- هنا- بالفعل «انفجرت» وفى سورة الأعراف بالفعل «انبجست» فى قوله تعالى: ﴿ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فالجواب: أن كلا الفعلين يمثل مرحلة من مراحل خروج الماء من الحجر، فالانبجاس يكون رشحًا والانفجار يكون تدفقًا، ومعنى هذا أن موسى حينما ضرب الحجر خرج الماء ثم سال بقوة.

وقيل: إن معنى الفعلين «انفجر وانبجس» واحد فهو تنويع فى التعبير ودلالة على استعمال كلمات مترادفة على معنى واحد تشهد بغزارة المادة اللغوية التى استعملها القرآن الكريم.

وقد اقترن الفعل «انفجرت» بالفاء التى يسمونها فاء الفصيحة.

وعلى عادة القرآن الكريم حذفت بعض الجمل التى يمكن فهمها من السياق فلا حاجة إلى ذكرها، وأصل الكلام: «فقلنا اضرب بعصاك الحجر فامتثل الأمر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا» فحذف الجمل «فامتثل الأمر فضربه» لوضوح ذلك للسامع والقارئ دون ذكر.

وهذا من الدقة اللغوية بمكان إذ يحرص القرآن الكريم على ترك ما لا حاجة إلى ذكره لفهمه من السياق.

والحجر قيل: إنه حجر غير معين فكان موسى يضرب بعصاه أى حجر من أحجار الأرض فى أى مكان عند حاجة بنى إسرائيل إلى الماء فتتفجر منه العيون فيشربون كما يشاءون، وقيل: إنه حجر معين كان مع موسى.

ويرى بعض العلماء أن عدم تعيين الحجر أقوى فى الإعجاز الإلهى والدلالة على قدرة الله تعالى.

وكان الماء يجرى فى اثنتى عشرة عينًا تسقى كل عين طائفة من بنى إسرائيل.

وتفجير الماء من الحجر من المعجزات التى أيد الله بها نبيه موسى عليه السلام، ولنبينا محمد ﷺ معجزة نبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وهى أقوى فى الإعجاز، فتفجير العيون من الحجارة مألوف مشاهد فى كل زمان ومكان، أما نبع الماء من بين الأصابع فأمر لا مثيل له، فكيف يخرج الماء من بين لحم ودم؟ ولم تكن هذه المعجزة قبل نبينا محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أى كلوا المن والسلوى واشربوا الماء المتفجر من الحجر.

وفى قوله تعالى: ﴿مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ - بإضافة الرزق- ما يفيد أن النعم التى غمر الله تعالى بها بنى إسرائيل من المن والسلوى والماء يسرت لهم من عند الله دون تعب أو كد، وهذا يدل على عظم فضل الله عليهم ويوجب التوجه إليه سبحانه بالإيمان والعمل الصالح والاستقامة على طريق الخير.

أما الأمر الثانى- وهو نهى بنى إسرائيل عن اقتراف السيئات بالإفساد فى الأرض- فقد عبّر عنه سبحانه بقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: العُثُوُّ: شدة الفساد، وصيغة المضارع منه مع المفرد «يعثُو» وماضيه «عثا» بمعنى أفسد إفساداً شديداً.

وقد وردت صور أخرى لهذا الفعل هى: عثىَ يعثىَ عِثيًا- بجعل لام الفعل ياء- وهو لغة القرآن فالفعل (يعثوا) فى الآية مضارع (عثى) مسند إلى ضمير جماعة بنى إسرائيل- وورد- أيضًا-: عاث يَعيث عَيْثًا وعُيُوثًا ومَعَانًا بالقلب المكانى أى بتقديم الحرف الأخير على الحرف الذى قبله وأتى أيضًا الفعل: «عثَّ يُعثُّ» مضاعفًا بمعنى أفسد أيضًا ومنه العُثَّة التى تفسد الصوف.

وعثَّ وعاثَ فعلان تبادلت فيهما الثاء والألف فيما يسميه علماء اللغة بأسلوب المخالفة، ولكن هل عثَّ المضعف هو الأصل أوعاثَ هو الأصل؟ خلاف بين اللغويين فى نشأة أحدهما عن الآخر، ولذلك صلة بنشأة كلمات اللغة العربية.

و«مفسدين» حال مؤكدة لعاملها وهو «تَعثَوا» لأن معناهما واحد، وقد وقعت موقعًا حسنًا لاختلاف لفظ الحال عن لفظ الفعل وذلك له نظائر كثيرة فى القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. ومجيء الحال وعاملها بمعنى واحد تكرار يزيد المعنى تأكيدًا ومبالغة فهو وصم لبنى إسرائيل بكثرة إفسادهم ونهى لهم من الاستمرار عليه نهيًا مؤكدًا.

[٢٥] قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فى الآية الأولى يبين الحق سبحانه عاقبة عدم شكر النعم وارتكاب الجرائم.

لقد تعددت جنايات بنى إسرائيل فلم يشكروا النعم التى أعطاها لهم المولى سبحانه- وهى المن والسلوى وتفجير الماء- بل طلبوا تغييرها إلى العدس والبصل والثوم والقثاء، ولم يكتفوا بذلك بل نشروا الفساد فى الأرض وقتلوا الأنبياء فحول الله تعالى حياتهم من نعيم إلى شقاء ومن عزة إلى ذلة ومن إعطاء إلى حرمان وأنزل عليهم العقاب الأليم.

والآية- على هذا- تتضمن عدة أمور هى :

- **الأول**: إعراض بنى إسرائيل عن نعم الله تعالى عليهم كالمن والسلوى .

- **والثانى**: طلبهم أنواعًا من الطعام أقل قيمة من المن والسلوى كالعدس والبصل والثوم والقثاء كما كانوا أيام تعاستهم وشقاوتهم وهوانهم فى مصر .

- **والثالث**: بيان سوء هذا الطلب وحقارته .

- **والرابع**: إذلال الله تعالى لهم وغضبه عليهم بسبب جرائمهم المتنوعة .

فالأمر الأول- وهو إعراضهم عن نعم الله تعالى عليهم بالمن والسلوى عبّر عنه بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ** ﴾ : الطعام : كل ما يؤكل ويشرب ويذاق ، وفعله : طعم يطعَم فهو طاعم : إذا أكل أو شرب أو ذاق ، قال تعالى : ﴿ **فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا** ﴾ [الأحزاب : ٥٣] أى أكلتم ، وقال- على لسان طالوت- ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي** ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ، أى من لم يشرب منه ولم يذقه .

والمقصود بالطعام الواحد- هنا- المن والسلوى فقد أرادوا تركهما واستبدال ما طلبوا من الطعام بهما .

ولسائل أن يسأل : لم عبّر عن المن والسلوى بطعام واحد مع أنهما اثنان؟ .

والجواب : أنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر أو لما كان الطعام يتكرر بهما- على سبيل المداومة- فكأنهما شيء واحد أو عادة واحدة يداومون عليها كما تقول لمن يداوم على الصوم والصلاة والقراءة : هو على أمر واحد مع أنها ثلاثة أشياء وصح التعبير عنها بالأمر الواحد لملازمة القائم بها ومداومته عليها .

والأمر الثانى- طلبهم أنواعًا من الطعام قليلة القيمة جاء التعبير عنه بقوله تعالى : ﴿ **فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا**

وَبَصَلِهَا﴾: البقل: كل نبات اخضرت به الأرض وليس له ساق كالحشائش والرجلة والكراث ونحوها، ويقال: ابتقل القوم: رعت ماشيتهم البقل.

والقثاء: - بكسر القاف وضمها- اسم جنس لما يسميه الناس بالخيار وما يشبهه، والواحدة قثاءة ويقال: أقثأ المكان: كثر به القثاء، وأقثأ القوم: كثر عندهم.

والفوم: له أكثر من معنى. فمن معانيه: الثوم وقد وقعت الفاء موقع الثاء على سبيل الإبدال فى بعض لهجات العرب التى تستعمل لفظ «الفوم» مكان لفظ «الثوم»، وقرأ ابن مسعود «وثومها»، وقد جاء استعمال الفوم بمعنى الثوم فى قول حسان فى الهجاء:

وأنتم أناس لئام الأصول طعامكم الفوم والحوقل

يعنى: الثوم والبصل.

ومن معانى الفوم- أيضًا- الحنطة، وروى عن ابن عباس وأكثر المفسرين، وقد ورد الفوم بمعنى الحنطة فى قول الشاعر- أحيحة بن الجلاح:

قد كنت أغنى الناس شخصًا واحدًا ورد المدينة عن زراعة فوم

يعنى: الحنطة.

وقال بعض اللغويين: الفوم كل حب يختبز.

ولا بأس من إرادة هذه المعانى جميعها هنا فقد طلبوا أنواعًا من الطعام بعضها كريه الرائحة كالبصل والثوم كما طلبوا أكل الخبز والعدس تلك الأشياء التى تقل فى لذتها واستطابتها وقيمتها عن اللحوم الشهية والحلوى التى اختارها الله تعالى لهم طعامًا فريدًا يأتيهم بلا تعب أو عناء.

والأمر الثالث- وهو بيان سوء طلبهم وحقارته- عبّر عنه المولى سبحانه بقوله: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾: هذا إنكار لسوء اختيارهم

وطلبهم، والهمزة للإنكار والتوبيخ، أى لاينبغى منكم ولايليق، والاستبدال، وضع الشيء مكان الآخر.

وأدنى: اسم تفضيل له عدة معان يؤديها الاشتقاق اللغوى، فيمكن أن يكون «أدنى» مأخوذًا من الدنو بمعنى القرب فى القيمة من قولهم: ثوب مقارب أى قليل الثمن.

وبعضهم جعل «أدنى» مأخوذًا من الدناءة وأصله «أدنأ» فخففت الهمزة بقلبها ألفًا.

وكل هذه الاشتقاقات تلتقى عند معنى الحط من قيمة ما طلبوه من الطعام.

وما أبدع القرآن الكريم حين عبّر عما طلبوه بقوله: ﴿هُوَ أَدْنَىٰ﴾ وعن المن والسلوى بقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ مما يدل على أن ما اختاره لهم الله تعالى أعلى مما اختاروه وهذا مقياس الجودة والرداءة جاء من عند الله تعالى، ويوافق عليه أصحاب العقول الراجحة.

وقد دخلت الباء فى قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ على المتروك- وهو المن والسلوى- وهذا أسلوب عربى دقيق قلما يلحظه المتكلمون الآن، إذ الشائع على لسان المتحدثين بالعربية اليوم أن يدخلوا الباء على المأخوذ لا على المتروك ولنا جميعًا فى أسلوب القرآن الكريم المثل الذى ينبغى أن يحتذى وقد تكرر ذلك كثيرًا فى سورة البقرة من مثل قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦] وقوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] أى بدلوا بالذى قيل لهم قولاً غير الذى قيل لهم، وقد أشرنا إلى ذلك فى مواضع سابقة وهى دروس عملية لنا جميعًا.

وقد وجه المولى سبحانه الأمر لهم بالهبوط إلى مصر لتحقيق مطلبهم فى قوله عز حكمه ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾: ليس المراد - هنا- الهبوط بالمعنى الشائع- وهو النزول من فوق إلى أسفل بل المراد: الانتقال من مكان إلى آخر.

يقال- فى اللغة- هبط الوادى: نزله.

فالمراد هنا: انتقلوا من هذا المكان- وهو صحراء التيه- إلى مكان آخر- وهو مصر.

والمصر: البلد العظيمة، وجاءت «مصرًا» منكرة- فى قراءة الجمهور- وهى تعنى أى مصر أى أية مدينة من مدن الشام التى وصلوا إليها بعد التيه، وقرئت «مصر» دون تنوين «اهبطوا مصر» وفسرت على أنها مصر قلب العالم العربى، والإسلامى وفسرت- أيضًا- مع تنوينها على أنها مصر هذه، وصرفت لخفتها كما يرى ذلك بعض النحاة.

وقد أمروا بهذا الانتقال، لأنهم تذكروا عيشتهم الأولى بمصر واشتاقت طباعهم إلى ما كانت عليه عادتهم من كراث وأبصال وأعداس.

أما الأمر الرابع- وهو إذلال الله تعالى لهم- فقد عبّر عنه بقوله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: الذلة: مأخوذة من السكون لأن المسكين قليل الحركة والنهوض لما به من الفقر ومعنى ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أنهم أحيطوا بها فشملتهم على طريق الإلزام والقضاء الذى لا مهرب لهم منه مأخوذ من ضرب القباب وقد قال الفرزدق فى جرير:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها ... وقضى عليك به الكتاب المنزل

والغضب: شدة الخُلق، ومنه رجل غضوب أى شديد الخلق، وقد غضب الله تعالى على اليهود فذمهم فى الدنيا وأعد لهم العقوبة الشديدة فى الآخرة، وللازمة غضب الله تعالى لهم عبّر عنهم بالمغضوب عليهم فى سورة الفاتحة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: استحقوه ولازموه، مأخوذ من باء: إذا رجع، يقال فى اللغة: باء بكذا: أى رجع به، والمباءة: المنزل، ويقال: هم فى هذا الأمر بواء أى: سواء يرجعون فيه إلى معنى واحد.

ويستعمل بمعنى الإلزام والحمل على الشىء كما قال عليه الصلاة والسلام فى مناجاته ربه «أبوء بنعمتك علىّ» أى أقر بها وألزمها نفسى.

والحديث هنا حديث عام عن اليهود فى كل زمان ومكان، فقد اجتمع عليهم الهوان والفقر- مهما يجمعوا من أموال- وغضب الله تعالى عليهم فى الدنيا والآخرة.

ولاريب أن استعمال الفعلين «ضرب» و«باءوا» يُوحى بصور حسية لحياتهم الكئيبة ونهايتهم الأليمة.

ولايرقى إلى ذلك التعبير القرآنى أى تعبير بشرى من حيث اختيار الألفاظ ودقة المعانى التى تؤديها.

أما جرائم اليهود المتنوعة فيعبر عنها بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ إنها جرائم كثيرة، منها كفرهم بآيات الله فما أتى رسول إلا كذبوه وأنكروا معجزاته كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ومنها قتلهم الأنبياء، وقد تفشى فيهم حتى قيل إنهم قتلوا سبعين نبيًا.

وهذه جرائم تحمل الدلالة على سوء أخلاقهم وسوء معاملاتهم واختلال مقاييس الإنسانية عندهم، وهذه هى طبيعتهم التى جبلت على العصيان والعدوان وتجاوزت حدود القيم والمثل.

ولسائل أن يسأل: لِمَ قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مع أنه لم يأت نبى قط بشىء يبيح قتله لأنه معصومون أن يصدر منهم ما يقتلون به؟.

فالجواب: أن قوله «بغير الحق» لتعظيم هذه الجريمة وشناعتها وأن ارتكابهم ذلك من الذنوب الواضحة الشناعة لأنه ظلم صراح.

والإشارة فى قوله ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ ترجع إلى الأمرين معًا الكفر وقتل الأنبياء فكلاهما صدر من بنى إسرائيل لطبيعتهم التى جبلت على اقتراف الجرائم والآثام..

وقد أطلق العصيان والاعتداء دون ذكر لنوع العصيان والاعتداء ليعم كل أنواع المعاصى والآثام التى تذهب فيها النفس كل مذهب، وتدل على تفشى ذلك فى بنى إسرائيل واستحقاقهم العقاب الشديد عليها.

وفى الآية الثانية وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢، ٦٣].

يتحدث الحق سبحانه عما أعده من الثواب الجزيل للمصدقين من الذين يعلنون التوحيد بلسانهم وتصدقه قلوبهم، ويعتقدون فى صدق الأنبياء الذين بلغوا عن ربهم، وخاتمهم محمد ﷺ فيما بلغ به عن ربه من دين الإسلام الذى هو دين الأنبياء جميعًا، فمن عاصره ﷺ من كل من بلغه دعوته من أهل الشرك أو أهل الكتاب من اليهود والنصارى أو من ضلوا طريق الإيمان الصحيح وهم الصابئون عبدة الكواكب أو عبدة الملائكة أو سواهم من ذى عقيدة غير صحيحة كل هؤلاء إذا دخلوا حظيرة الإسلام واستجابوا لدعوة محمد ﷺ واعتقدوا ما جاء به عن اليوم الآخر- وهو يوم القيامة وما فيه من الجزاء على الأعمال ثوابًا أو عقابًا- واستجابوا لله ورسوله بالأعمال الصالحة التى كلفوا بها، ودعو إليها استحقوا ما أعده لهم مولاهم من الثواب الجزيل.

وللتعبر القرآنى فى هذه الآية معان يحتملها السياق، واختيار الألفاظ فيها يخضع لمعايير دقيقة، مرنة فى تضمن كثير من المعانى وأوجه الدلالة، عميقة فى تراكيبها التى نسجت عليها.

فالذين آمنوا يمكن أن يراد بهم المنافقون الذين أعلنوا الإيمان بألسنتهم مع إبطانهم الكفر والشرك، وقيل: ظاهر التعبير يدل على أهل الإيمان مطلقًا سواء منهم المخلصون فى إيمانهم الصادقون فيه أو المظهرون بألسنتهم خلاف ما يبطنونه فيشمل خالصى الإيمان والمنافقين، وبعضهم يذهب إلى أبعد من ذلك فيدعى أنه يشمل من آمن من قبل من أهل وأقوام الرسل السابقين كنوح وموسى وعيسى وإبراهيم -عليهم السلام- ممن كانوا يسمون بالحنيفيين.

والراجح المقبول أن المراد أهل الإيمان فى زمن محمد ﷺ ويكون المراد بقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.. إلخ﴾ من ثبت على إيمانه وإخلاصه، بالنسبة

للمخلصين، ومن تحول عن الكفر إلى الإيمان من المنافقين وأضرابهم، وعطف عليه ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم من كان على ديانة اليهودية فى زمن النبى ﷺ، وهاد وتهوّد: دخل فى الديانة اليهودية، ومعنى هاد يهود: تاب يتوب، ويشير ذلك إلى توبتهم عن عبادة العجل وكانت قوية شاقة عليهم بقتل أنفسهم- كما مضى فى الآيات- وقيل: هادوا مأخوذ من «يهوذا»- بالذال المعجمة- وهو اسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام.

وعطف عليه «والنصارى» وهم أتباع عيسى- عليه السلام- فى زمن النبى ﷺ، وهو جمع «نصران» كندمان وندامى. يقال: رجل نصران، وامرأة نصرانة، وقد زيدت الياء فى «نصرانى» للمبالغة قال ذلك سيبويه وقال الخليل بن أحمد- رحمه الله- إن نصارى جمع نصرى كمهارى جمع مهرى. وسموا نصارى لأنهم نصروا عيسى- عليه السلام- ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]. وقيل سموا بذلك لنصر بعضهم لبعض، أو نسبة إلى قرية تسمى الناصرة أو نصرانة وكانت أم السيد المسيح قد أتت به إليها وأقامت بها بعد عودتها به إلى الشام.

وعطف عليه: «والصابئين» وهم عبدة الكواكب أو عبدة الملائكة، وقيل كانوا على دين نوح أو غير ذلك من الأقوال وهذا الوصف مأخوذ من الفعل: صبأ- بالهمز- إذا خرج من دين إلى آخر، أو من الفعل: صبا- المعتل اللام- بمعنى مال لخروجهم عن الدين الحق، واتجاههم نحو الباطل واعتناقه وعليه قراءة نافع «والصابيين» - بالياء- والمراد بهم تلك الجماعة التى كانت على هذا الاعتقاد وتلك العبادة فى زمن النبى ﷺ.

وهذه الفرق التى تخالف دين الإسلام إذا آمن أهلها بالدين الحق الذى جاء به رسول الله ﷺ وعملوا بمبادئه وأحكامه فازوا.

كما قال سبحانه: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

وفى هذا التعبير عدة آراء لغوية :

فيمكن إعراب «من آمن» . . إلخ بدلاً من اسم «إن» وما عطف عليه، ويكون خبر «إن» قوله سبحانه: «فلهم أجرهم» ويمكن إعراب «من» مبتدأ خبره ما بعده، وجملة المبتدأ والخبر خبر «إن» واختار الأول أبو حيان .

وعلى الإعراب الثانى يكون «من» مفردًا فى اللفظ مقصودًا به الجمع فجاء فى الاية معاملاً بحسب اللفظ فأفرد «آمن- وعمل» وجاء أيضًا مقصودًا به الجمع فجمع الضمائر فى «لهم- عليهم- يحزنون » وأما على الإعراب الأول- وهو البدلية- فهو محمول على اللفظ فحسب .

وعلى كلا الإعرابين دخلت الفاء فى الخبر لتضمن الاسم الموصول «الذين» أو «من» معنى الشرط كما جاء فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] وإذا جعلت «من» شرطية- فى الآية- فالفاء فى جواب الشرط .

وقيل إن العائد- على الاسم الموصول- محذوف تقديره «منهم» ويستغنى عنه حال جعل «من» شرطية اكتفاء بالعموم المفهوم من جملة الشرط .

ولسائل أن يسأل: لماذا أضاف الأجر إليهم فى قوله ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وجعله ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؟

فنقول: إن الإضافة تعنى اختصاص هذا الأجر بهم دون غيرهم كأنه فى مقابل ما هم عليه من الإيمان والعمل الصالح وهو مضمون محفوظ عند خالقهم ومربيهم لايضيع ولايفوت، وهذا وعد الله الذى لايتخلف، وإن كان ذلك بمحض الفضل لا على أساس الوجوب .

ثم نفى عن المؤمنين الصالحين الخوف والحزن فقال: ﴿ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الخوف: الفزع فى المستقبل، وقد يكون فيما مضى- لكن فيما هو آت أكثر فالخوف لفوت مطلوب.

والحزن: ضد السرور مأخوذ من الحزن وهو ما غلظ من الأرض، فكأنه ما عظم واشتد من الهم، ولايكون الحزن إلا فى الماضى- على المتعالم من الآراء- وقيل يكون الحزن على المستقبل كذلك، وهو استشعار غم لفوت مرغوب.

وما الذى يعنيه الحق سبحانه بنفى الخوف والحزن؟

إن المعنى بذلك نفى العقاب أو نزول أى مكروه بهم وعدم فوت الثواب أو أى أمر محبوب يرغبون فيه ولذلك لا يحزنون، هذا كله من باب الكناية فعدم الخوف معناه أنهم آمنون من حلول المكروه بهم، وعدم الحزن معناه ألا يفوتهم ما يحبون حتى يحزنوا عليه، والكناية أبلغ من التصريح ولما كان الخوف- غالبًا- يكون على الأمور المستقبلة ذكره أولاً- والحزن يكون على ما يفوت فى الماضى- أكثر فأخره لتحقيق وعد الله لهم.

وقدم الضمير فى قوله تعالى: ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لإفادة القصر وأن نفى الحزن خاص بهم أما غيرهم فيحزن.

ونفى الخوف عليهم ليدل على أمانهم من أى مكروه فهم محاطون بعناية الله ورعايته، ولم يقل: لا خوف لهم أو عندهم ليخص خوف العقاب والمكروه النازل بهم، أما رؤيتهم لأهوال الحشر ونحوه فهو عام يقيهم الله منها.

والفعل «يحزنون» مضارع المراد به الدوام والاستمرار لا الحدوث فلايدل على انقطاع ماهم فيه من أمن بل نفى الحزن دائم فلا يفهم منه انتفاء الدوام بل دوام الانتفاء.

وهاتان الجملتان ﴿ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ معطوفتان على جملة الخبر ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ .

وفى الآية الثالثة وهى قوله عز حكمه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بيان وتذكير لبنى إسرائيل بنعمة جليلة من نعم الله تعالى عليهم، وهى مجئ موسى- عليه السلام- إليهم بالتوراة وقد عرضها عليهم، وبين لهم ما فيها من التكاليف والأحكام فكبرت عليهم وأبوا ما فيها، ولم ينقادوا له ولم يستجيبوا، وهذا جرم منهم فظيع استحق أن يأمر الله تعالى بعقابهم عليه فقلع جبريل جبل الطور- بأمره سبحانه- وجعله فوقهم يظللهم، وينذرهم بالخطر بوقوعه عليهم وإهلاكهم إن لم يؤمنوا، ويأخذوا أحكام كتابهم المنزل على نبيهم ويعملوا بها ويحافظوا عليها لأنها جاءت لهدايتهم إلى طريق الله واستقامتهم على عبادته وتقواه، وقد عبّر عن إنزال التوراة على موسى ومجيئه بها إليهم بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ والمراد بالميثاق العهد، وكان المطلوب من كل واحد منهم أن ينفذ ما جاء فى التوراة، ولم يقل «مواثيقكم» لأن العهد واحد فى مضمونه الذى طولبوا به وكان بعد تكليم الله تعالى له ومجيئه بالألواح.

وقد بدر منهم العناد وعدم الطاعة، ونقضوا العهد الذى أعطوه، حينئذ أنذرهم الله بالعذاب العاجل ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ والمقصود بالطور: الجبل مطلقًا، أو جبل الطور الذى كلم الله عليه موسى.

وكان الرفع بجعله فوق رؤوسهم ومواطن سكنهم وإقامتهم ليسوى بيوتهم بالأرض إن استمروا على عصيانهم ونقضهم العهد.

وقد أسند الفعل إلى نون العظمة دلالة على ما يقتضيه رفع جبل بهذه الضخامة من قدرة الله سبحانه التى لا تتأتى لغيره ولا يستطيعها كائن من الكائنات أيًا كان نوعه أو قوته أو جبروته.

وكان هذا دعوة لهم إلى تنفيذ ما أمرهم به الله وهكذا كان شأن الله تعالى مع المكذبين للرسل قبل محمد ﷺ أن يهلك الطغاة المعاندين لرسول الله الناكصين للعهود.

ولذلك لايلزم على هذا أن يقال: هل تكون الدعوة إلى الله بالاختيار أو بالإكراه؟.

فالدعوة تكون بالاختيار كما قال سبحانه: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقال عز حكمه: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] لكن بعد أن يوضح الرسل حقيقة ماجاءوا به وأن يتركوا للناس الاختيار ينذرونهم بالوعيد لمن أبى أو نكص.

وكانت سنة الله أن يحل العذاب بالناكصين وعوفيت من ذلك أمة محمد ﷺ فترك الناكصون إلى ميقات يوم معلوم.

وفى كلتا الحالين ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر: ٦١].

من هنا جاء تحذير قوم موسى لنكوصهم فإما أن يؤمن الناكصون وإما أن يحل بهم العذاب بنزول الجبل فوق رؤوسهم ومساكنهم ومحوهم من الوجود.

فلما رأوا الجبل يظلهم عرفوا سوء مصيرهم وجاء معه الإنذار ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ والمراد بالقوة: الجد والاجتهاد فى العمل بما أنزل إليهم وعدم التكاسل عنه أو التغافل.

وقال لهم ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ المراد بالذكر: العمل بعد القراءة والتأمل والتفكير فيما أنزل إليهم، وعدم نسيان الشىء منه والعناية بما تحويه التوراة حفظًا ومدارسة وتوجيهًا للنشء والشعب كله.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الهدف من إنزال الكتاب عليهم تعليمهم وتوجيههم ليعرفوا الله تعالى حق معرفته، ويعبدوه حق عبادته، فغاية خلقهم إنما هو عبادة الله وتقواه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والحرف «لعل» موضوع لإنشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول، إما محبوب فيسمى ترجيًا أو مكروه فيسمى إشفاقًا، ويتحقق هذا بالفعل من جهة المتكلم مثل: لعل الله يرحمنى- وهذا هو الأصل الشائع فى الاستعمال، ويتحقق

من جهة المخاطب بتنزيله منزلة المتكلم كقوله تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وقد يعبر به عن الأمر المتوقع الحصول دون ارتباط بمتكلم أو مخاطب.

وعملية التوقع والتردد هذه مستحيلة فى حق الله تعالى لامتناع ذلك من عالم الغيب والشهادة.

وقد حاول المفسرون شرح استعمال «لعل» من الله تعالى بوجوه متعددة.

وأقرب ذلك إلى القبول اللغوى هو استعمال أداة الترجى «لعل» لمعنى التعليل فإنه طلب منهم الأخذ بالقوة والذكر لأجل التقوى أى طلب منكم ذلك لتتقوا أو كى تتقوا، ويمكن تعليل فعل الله تعالى بأغراض وأسباب راجعة إلى العباد بناء على ما ذهب إليه أكثر أهل السنة، أو لأن المراد تحقق الغاية المترتبة على ما هى ثمرة له، من الأمر بالأخذ والذكر من باب أن أفعال الله تعالى تستتبع غايات ومصالح جليلة، من غير أن تكون هذه الغايات علة وسببًا لها ترتبط به وجودًا وعدمًا، وهذا التأكيد المأمور به، وهذا يكون تنزيلاً لترتب الغاية على ماهى ثمرة له منزلة ترتب المسبب على السبب.

[٢٦] قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٤-٦٦]

أمر الحق سبحانه اليهود بالوفاء بالعهد والميثاق- الذى هوالتوراة- حين جاء إليهم موسى- عليه السلام- بها ولما أنكروها وهموا بمخالفتها حذرهم الله تعالى من إهلاكهم برفع الجبل وإسقاطه عليهم، فامتثلوا خوفًا أن يحل بهم العقاب، ثم لما رفع عنهم العذاب أعرضوا ونقضوا العهد، واستمر نقض اليهود للعهد عند من عاصروا النبى ﷺ، ويذكرهم الحق سبحانه بأنهم قد ارتكبوا المعاصى وكان يمكن أن يهلكهم الله

ويستأصلهم لكنه فضلاً منه قبل توبة التائبين من أسلافهم، وتفضل على المعاصرين منهم بإدراكهم رسالة محمد ﷺ فامتنع عنهم الهلاك والدمار.

ثم يذكر الحق سبحانه سوء تمرد فريق منهم ممن سبق وخروجهم على أوامر الله تعالى، فقد طلبوا أن يكون لهم يوم لطاعة الله فاختاروا يوم السبت، وأمروا أن يتركوا العمل فيه وحرم عليهم فيه صيد الحيتان ولكنهم لم يلتزموا بالأوامر فيما بعد، فجاء عليهم زمن- يقال إنه زمن داود عليه السلام- كانوا فيه يتحايلون على صيد الحيتان، فجعلوا لها حياضًا كانت تدخل فيها يوم السبت، ثم يصطادونها يوم الأحد، ثم تجرأوا وخالفوا الأوامر فكانوا يصطادون يوم السبت علانية ويبيعون فى الأسواق، فلما ثبت خروجهم على أوامر الله ونواهيه عاقبهم الله تعالى، بأن مسخهم قردة أذلاء محقرين، وكان مسخهم على هذا النحو شائعًا بين الناس يقرأ فى زبر الأولين، مما جعل الأقوام يخافون مخالفة الأوامر الإلهية حتى لايصيروا إلى ما يصير إليه هؤلاء اليهود الممسوخون قردة، واتعظ بذلك من يأتى بعدهم من الأمم، وشاع ما صاروا إليه من قريتهم- التى كانت تسمى أيلة- إلى جميع القرى والبلاد من حولها وهكذا صاروا عبرة للمعتبرين.

وفى الآيات تعبيرات تقتضى الوقوف عندها من الجانب اللغوى:

فالآية الأولى تتحدث عن توليهم ونكوصهم عن العهد وفضل الله ورحمته بعدم هلاكهم وعبّر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ أصل التولى: الإعراض المحسوس بمعنى أن يدبر الإنسان حيث هو مقبل ثم استعمل فى الإعراض المعنوى بعدم قبوله للأمر، ويهود الماضى امتنعوا عن الوفاء بما أخذه الله عليهم من العمل بالتوراة، وأعرضوا عنها بعد أن كانوا قد استجابوا خوفًا من إسقاط الجبل عليهم بعد أن رفعه جبريل فوق رؤوسهم، فالإشارة بقوله تعالى: ﴿**مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ**﴾ إلى ما ذكر فى الآية السابقة مما أخذ عليهم.

والمراد بفضل الله ورحمته متنوع، فهو بالنسبة لليهود السابقين قبول توبتهم وامتثالهم بالأخذ بالميثاق، وبالنسبة للمعاصرين مجىء رسول البشرية إليهم وهو محمد ﷺ فمنع عنهم حلول الخسران بهم.

وأصل الخسران: ذهاب رأس المال أو نقصه- فى الثمار ونحوها- ويراد به- هنا- هلاكهم برجوعهم إلى المعاصى ووقوعهم فى الضلالة بعد تخليهم عن العمل بالكتاب المنزل عليهم.

فتوبة أسلافهم، ووجود الرسول بينهم واستجابة من يستجيب منهم لدعوته تمنع عنهم السوء والشقاء.

و«لولا» تفيد امتناع الشىء لوجود غيره وهى بسيطة أو مركبة من «لو» وأداة النفى «لا» و«لو» تفيد امتناع الشىء لامتناع غيره، والشيئان إذا ركبا حدث لهما معنى جديد لم يكن من قبل كما يقول علماء اللغة.

والاسم الواقع بعد «لولا» يعرب- عند سيبويه- مبتدأ خبره محذوف وجوبًا لدلالة الحال عليه وسد الجواب مسده والتقدير: لولا فضل الله ورحمته حاصلان، وعند الكوفيين يعرب الاسم الواقع بعدها فاعلاً لفعل محذوف والتقدير: لولا ثبت فضل الله عليكم ورحمته.

واللام فى قوله: ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ داخلة على جواب لولا وجواب لولا المثبت لم يأت فى القرآن إلا مقترنًا باللام، أما فى كلام العرب فقد اقترن كثيراً باللام وجاء فى الضرورة خاليًا من اللام مثل قول الشاعر:

لولا الحياء ولولا الدين «عبتكما» ... ببعض ما فيكما إذ عبتما عورى

وجاء فى كلام العرب «قد» بعد اللام كقول الشاعر:

لولا الأمير ولولا خوف طاعته ... لقد شربت وما أحلى من العسل

وجاء- أيضًا- حذف اللام وإبقاء «قد» نحو «لولا زيد قد أكرمتك».

والآية الثانية تتحدث عن مخالفة اليهود أمر الله بالطاعة وعدم العمل والصيد يوم السبت وغير ذلك وقد عبّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ابتدئت الآية باللام الموطئة للقسم المقدر والأصل: والله لقد علمتم.

والفعل «علم» - هنا- بمعنى عرف ولذلك تعدى إلى مفعول واحد، فقد عرف واشتهر أمر طائفة اليهود الذين خالفوا الأوامر وعملوا واصطادوا يوم السبت.

والمراد بالسبت اليوم الذين حددوه للعبادة والانقطاع لها والامتناع عن الأعمال وهو آخر الأسبوع وقيل إنه سمى بالسبت من معنى الانقطاع لأنه سبت فيه خلق كل شيء وعمله أو من السبوت وهو الراحة والدعة.

وجعل الأحد للنصارى وهو أول الأسبوع والجمعة للمسلمين وهو يوم الجمع والختم ولما خالفت اليهود ما ألزمها به الله تعالى من اختصاص اليوم بالعبادة وعملوا فيه، واصطادوا الحيتان وباعوا واشتروا قال الله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وفعل الأمر «كونوا» ليس طلبًا منهم للتحول إلى أشكال القردة بل هو تعبير عن سرعة صيرورتهم إلى ذلك بعلمه سبحانه.

والخسوء والخساء: الصغار والذلة وهو مصدر: خسأ الكلب: بعد وهو الطرد أيضًا والخاسيء: الصاغر المبعد المطرود.

وظاهر النص القرآنى أنهم مسخوا قردة على الحقيقة وهو رأى جمهور المفسرين، وهو الصحيح وقد هلكوا عقب ذلك، وادعى بعضهم أنهم بعد مسخهم استمروا ومنهم القردة التى نسلت إلى اليوم لكن ذلك ليس بصحيح بدليل ما رواه مسلم عن ابن مسعود - رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال لمن سأله عن القردة والخنازير أهى مما مسخ؟ إن الله تعالى لم يهلك قومًا أو يعذب قومًا فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك».

وهناك رأى آخر لمجاهد أنه «ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فلا تقبل وعظًا ولا تعى زجرًا».

ويكون الأمر «كونوا» أمرًا مجازًا عن تركهم وخذلانهم فكأنه قال لهم: اصنعوا ما شئتم من المخالفة فأنتم لستم أهلاً للوعظ أو الاعتبار كما مثلوا بالحمار فى إهمالهم للعمل بالتوراة فى قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ [الجمعة: ٥].

وهذه الجملة تشتمل على فعل الكينونة واسمه وهو واو الجماعة- وخبره- وهو قردة- أما «خاسئين» فقيل: إنه خبر ثان، وقيل: حال من الاسم عند من يجيز عمل كان فى الظروف والحال ويجوز أن يكون صفة لـ «قردة» ولم يقل خاسئة على تشبيههم بالعقلاء مثل: ﴿ **وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ** ﴾ [يوسف: ٤]. أو على أن المسخ للقلوب لا للصورة.

وجاءت الآية الثالثة تعبيرًا عن صيرورتهم عبرة للمعتبرين فقال سبحانه: ﴿ **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ الضمير فى قوله «فجعلناها» عائد على العقوبة التى نزلت بهم، أو المسخة أو الصيرورة التى أصبحوا عليها أو إلى القرية التى كانوا فيها أو للحيتان.

والنكال والنكل: القيد، ويقال: نكل به: إذا فعل به ما يعتبر به غيره فيمتنع عن مثله.

والمراد بما بين يديها وما خلفها الأجيال التى علمت بها من السابقين على هؤلاء المنكل بهم واللاحقين، أو المراد من علم بها من المعاصرين لهم، ومن يأتى بعدهم فما بين يديها- على الأول- للاحقين وما خلفها للسابقين، وعلى الثانى ما بين يديها للمعاصرين وما خلفها لمن يأتى بعد حين.

واستعلمت «ما»- فى الحالتين- للعقلاء فأقيمت مقام «من» وفى ذلك تعظيم وتكثير للعدد كقوله «سبحان ما سخركن» على اعتبار استعمال «ما» للعقلاء تعظيمًا وقيل غير ذلك.

ويكون الظرفان بين وخلف مستعارين للزمان وقيل المراد: القرى التى حولها، قريبًا أو بعيدًا عنها فيكون الظرفان مستعملين للمكان.

واللام- على هذا- هى الجارة. وقيل المراد بما بين يديها ذنوبهم السابقة على أخذ السمك وما خلفها ذنوبهم التى بعدها، واللام فى «لما» بمعنى لأجل، والنكال: بمعنى العقوبة.

ويكون المراد: جعلنا المسخ عقوبة لأجل ذنوبهم المتقدمة على المسخة والمتأخرة عنها.

وهذا يكون على أن المسخ ليس للصورة كما هو قول مجاهد.

وقوله تعالى- فى ختام الآية-: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ المراد بالموعظة: ما يلين القلب ثوابًا كان أو عقابًا فما جرى من مسخ هذه الفئة الضالة من اليهود يمنع غيرهم من اقتراف ما وقعوا فيه وأمثاله من المخالفة لأوامر الله ونواهيه، ويبين لهم فداحة ما ارتكبوه واستحقوا عليه هذا العقاب، وبذلك ينأون عن إتيان مخالفة ما يؤمرون به أو ينهون عنه.

والمراد بالمتقين: كل من يخاف الله تعالى ويخشاه من كل أمة فى كل زمن، أو من اليهود المعاصرين الذين يعلمون عواقب مخالفة أسلافهم وما حل بهم فيرتدعون عن المخالفة ويؤمنون بمحمد ﷺ.

وكذلك من يتعظ من أمة محمد ﷺ ممن يتأملون ويتدبرون فى أمثال ما وقع لهؤلاء العصاة من اليهود السابقين.

ولاشك أن فى هذه الآيات ما يشير إلى أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، وتعهدهم

بالتوجيه والنصح فلو تركوا وشأنهم لتوغلوا فى العصيان والملذات التى نهوا عن مقارفتها، ولاشك أن العبادات صوارف عن الشرور والآثام فيما لو اجتهد الإنسان فى عملها وواظب عليها، لأنها تغلب الطباع والشهوات النفسية والدنيوية، ومن لم يراقب الله زال عنه النور وربما مسخ هؤلاء مثل هؤلاء أو غلب عليه الوصف الحيوانى الذى يصرفه عما خلق له، وكيف يريد إنسان ذهاب إنسانيته عنه.

قال البوصيرى:

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وقال آخر:

هى النفس إن تهمل تلازم خساسة وإن تنبعث نحو الفضائل تلهج

[٢٧] قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [الأيتان: ٦٧-٦٨].

يحكى المولى سبحانه فى هاتين الآيتين- وما بعدهما- قصة البقرة مفصلة، لأنها لم ترد من قبل فى السور المكية، ولم ترد فى أى موضع آخر من القرآن الكريم، وقد سميت بها سورة البقرة، وهى ترسم سمة اللجاجة والتعنت والتلكؤ فى الاستجابة، وتمحل المعاذير التى يتسم بها بنو إسرائيل.

وأصل القصة أن رجلاً من بنى إسرائيل قُتل ووُجد فى مكان تعيش فيه جماعة من أسباطهم، ولم يعرف قاتله، فاتهم بعضهم بعضًا بقتله فادعى هؤلاء على هؤلاء وهؤلاء على هؤلاء، فلما أشكل الأمر عليهم ذهبوا إلى موسى يختصمون إليه فى أمر هذا القتيل وطلبوا منه أن يدعو الله ليبين لهم القاتل، فدعاه، فأمرهم الله تعالى بذبح

بقرة يضربونه ببعضها ليحيا ويخبر بقاتله لكنهم أطالوا فى الأسئلة حول صفات هذه البقرة فى صور من التعللات التى لايفهم منها إلا تثبيطهم وقلة مبادرتهم إلى التنفيذ والاستجابة لأوامر المولى عز وجل .

وقد جرت أحداث هذه القصة فى شكل حوار بين موسى وبنى إسرائيل فهم يسألونه وهو يجيبهم بوحى الله إليه .

وتنتهى الأسئلة باستجابتهم- بعد التلكؤ- بذبح البقرة وتنفيذ الأمر بضرب القتيل ببعض جسدها فحيى وأخبر بقاتله ثم مات .

وقد غُير سياق القصة فقدّم فى أول الحديث عرض تفصيلى لأسئلتهم ثم ذكر بعدها خلافهم حول القاتل بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ وحق ترتيبها أن يقال : وإذ قتلتم نفسًا . . إلخ ثم يذكر بعده ما ذكر فى أول القصة وهو ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ إلخ الأسئلة ثم يأتى قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ .

ولسائل أن يسأل : إذا كان حق الترتيب هكذا فما وجه عدول القرآن الكريم عنه؟ .

فيقال : إن للقرآن الكريم فى ذلك حكمة جليلة وهى : تقديم مظاهر تعنتهم على موسى تعديدًا لمساوئهم ليكون أبلغ فى توبيخهم على القتل ، ولأن الآيات قبل هذه القصة ورد فيها كثير من حياتهم وجناياتهم فناسب أن يقدم فى أول القصة ماهو من قبائحهم ليتصل بعضها ببعض .

والعدول عن ترتيب الأحداث فى القصة له نظائر أخرى فى القرآن الكريم تبعًا للأسباب الداعية إليه ، ومن ذلك فى قصة نوح- تقديم الحديث عن الطوفان وذكر إهلاك من هلك ونجاة من نجا فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

[هود: ٤٠] ثم ذكر بعد ذلك ركوب السفينة فى قوله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١] مع أن ركوبها كان قبل الهلاك.

وسياق القصة لايقول: «إن موسى سأل ربه ولا إن ربه أجابه بل يبدأ بقوله، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً... إلخ﴾.

إن هذا السكوت هو اللائق بعظمة الله التى لايجوز أن تكون فى طريق اللجاجة التى يزاولها بنو إسرائيل.

ومن ثم يلتقى جمال الأداء التعبيرى بحكمة السياق الموضوعية فى قصة قصيرة من القصص القرآنى الجميل.

وقد بدئت الآيات الكريمة- بحوار بين موسى وقومه فى أمر ذبح البقرة وقد عبّر عنه بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾: المراد هنا ذبح بقرة مبهمة فكانوا يخرجون من العهدة بذبح أية بقرة كانت، فيحصل بها المقصود، لكنهم شددوا على أنفسهم فقيد هذا الأمر المطلق، وخصص شيئًا فشيئًا بناء على الأسئلة التى صدرت منهم بعد ذلك.

وفى الكلام هنا اختصار وأصله: أن تذبحوا بقرة وتأخذوا بعضها وتضربوا به القتيل فيحيا ويخبركم بقاتله، فاكتفى بالجملة الأولى، وحذف الباقى لدلالة ما يأتى من قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.. إلخ.

والبقرة: واحدة البقر- وهو اسم جنس لهذا النوع من البهائم- قيل: إن البقرة اسم للأنثى خاصة أما الذكر من هذا الجنس فيسمى الثور، ونظير ذلك قولهم: ناقة وجمل وأتان وحمار، وامرأة ورجل، وقال بعض اللغويين: إن البقرة تقع على الذكر والأنثى، والصفة هى التى تميز أحدهما من الآخر تقول: بقرة ذكر وبقرة أنثى.

والبقر مأخوذ من بقر الشىء يبقره بقرًا: شقه أو فتحه فالبقر يبقر الأرض، أى يشقها ويثيرها بالحرث.

وقد قرأ أبو عمرو- من السبعة- «يأمرْكم» بإسكان الراء وحذف الضمة لثقلها، وأنكر سيبويه والمبرد الإسكان لأن الضمة حركة الإعراب على الراء ولا يجوز حذفها وادعيا أن الصحيح عن أبى عمرو أنه كان يختلس الحركة ولكن الراوى عن أبى عمرو لم يضبط لأنه اختلس الحركة فظن أنه سكن.

والواقع أن الطعن على الراوى بأنه لم يضبط غير مقبول فإن من يزعم أن أئمة القراء ينقلون حروف القرآن من غير تحقيق ولا بصيرة ولا توقيف فقد ظن بهم ما هم منه مبرءون وعنه منزهون، وكيف يقبل أن الراوى يسىء السمع فى موضع ولا يسيئه فى موضع آخر مثله؟

وإسكان الراء فى «يأمركم» عربى جيد وعزا الفراء ذلك إلى بعض العرب كتميم وأسد فقد كانوا يفضلون ذلك لكراهة توالى الحركات فى الكلمة الواحدة وفى الكلمتين تخفيفًا مثل «يأمركم ويعلمهم» وهذا نوع من الاقتصاد فى الجهد العضلى ومعنى ذلك أننا أمام لهجة عربية لا غبار عليها إلى جانب اللهجة الثانية بنطق حركة الإعراب «يأمرُكم» وهى لهجة الحجازيين الذين يفضلون توفية كل حرف حقه من الإعراب ونطق الحركات مع بذل ما يقتضيه ذلك من الجهد العضلى.

وعلى ذلك توجه القراءتان بنطق الحركة- وهى الضمة فى الراء- والإسكان فى «يأمركم» والاعتراض على الثانية اعتراض غير مقبول، لصحة روايتها- لأنها قراءة سبعية- ولصلتها- كما رأينا- ببعض اللهجات العربية.

وقد ذكر سبحانه رد بنى إسرائيل على الأمر بذبح البقرة ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ معناه: أنك يا موسى تجعلنا محلاً للاستهزاء والسخرية، وقد فهموا الاستهزاء من إجابته لهم لأن سؤالهم عن أمر القتيل وهو يأمرهم بذبح بقرة، وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين، فى الظاهر، ولم يعلموا أن الحكمة هى حياته بضربه ببعضها فيخبر بقاتله.

وفى معجمات اللغة، هزئت به وهزأت أهزأ هزءًا بمعنى: سخرت منه.

وفى «هزواً» ثلاث لهجات، الهمز وضم الزاى: هزءًا- والهمز وسكون الزاى - هزْءًا- وقلب الهمزة واواً مع ضم الزاى «هزُواً» - وربما سكنت الزاى أيضًا «هزْواً».

وقد قرأ حمزة وإسماعيل عن نافع- هُزْوًا- ساكنة الزاى وقرأ الباقون بضمها، وجعلت الهمزة واواً مفتوحة لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهى تجرى على البدل.

ويجوز حذف الضمة من الزاى وتسكينها، فكل اسم على ثلاثة أحرف أوَّله مضموم مثل عُنق وأكلُ وهزُؤ- وكذلك كل جمع على «فُعُل» يثقله بعض العرب- بإبقاء ضمة الحرف الوسط- فيقولون: عنُق وأكُل ورسُل وكتُب، وبعض العرب يخففه بتسكين الحرف الوسط لاستثقال حركتين من جنس واحد وعلى هذا فمن سكن زاى «هزوا» طلب التخفيف لأنه استثقل ضمتين فى كلمة واحدة وذلك معروف عند قاطنى البادية وعلى التخفيف جاءت بعض القراءات فى آيات من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]- قرأ أكْلها- بتسكين الكاف- نافع وابن كثير وأبو عمرو وقرأ الباقون بضم الكاف - وكقوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ [سبأ: ١٦]- قرأ «أكْل» - بسكون الكاف- نافع وابن كثير وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى وغيرهم بضم الكاف.

وجاء جواب الاستفهام بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فى قول موسى- كما عبّر القرآن الكريم- ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى امتنع بالله أن أنتظم فى سلك قوم اتصفوا بالجهل.

ولسائل أن يسأل: لم قال فى جوابهم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ولم يجب صراحة بقوله: لا أهزأ؟ وقال: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ دون أن يقول: أن أكون جاهلاً؟

فنقول- وبالله التوفيق: إن لذلك سراً تعبيرياً دقيقًا، فما أجاب به يحمل الدليل على براءته مما وجهوه إليه من تهمة الاستهزاء بهم كأنه قال: إن الهازئ جاهل وأنا أبعد ما يكون عن هذا الصنف من الناس.

والسؤال الأول الذى وجهوه لموسى عن بعض صفات البقرة عُبر عنه بقوله تعالى: ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ «ما» فى قوله «ماهى»: استفهامية. و«ما» الاستفهامية يسأل بها عن الجنس والحقيقة غالبًا فتقول: ما عندك؟ أى أىّ أجناس الأشياء عندك؟ وجوابه: كتاب- مكتب- قلم مثلاً!

ويُسأل بها- كذلك- عن الوصف: تقول: ما محمد؟ أى: ما صفته التى هو عليها؟ فيقال فى الجواب: فاضل، أو كريم ونحو ذلك.

والمراد- هنا- بقولهم: ماهى؟ السؤال عن صفة البقرة لا عن حقيقتها، فلا يسأل عنها لأن حقيقة البقرة معروفة ولذلك جاء الجواب ببيان سن البقرة ليبين حالها وشأنها من حيث الكبر والصغر والضعف والقوة فقال سبحانه فى الجواب: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾: فهو يريد تحديد سنوات عمرها التى تبين قوتها وصلابتها.

والفارض: هى التى طعنت فى السن أو المسنة جداً يقال فى اللغة: فرضت البقرة تفرض وتفرُض فروضًا وفراضة: طعنت فى السن أى أسنتْ، كأنها سميت بذلك لأنها فرضت سنها أى: قطعته وبلغت آخره، وقيل: الفارض هى التى ولدت بطونًا كثيرة مأخوذة من الفرض بمعنى الواسع، فالتى ولدت بطونًا كثيرة يتسع جوفها بكثرة الولادة.

والبكر: هى الصغيرة لم تحمل- والبكر- فى إناث البهائم وبنى آدم- مالم يفتحله الفحل، والبكر الصغيرة جداً بحيث لا تلد.

والعوان: هى النصف فى السن من النساء والبهائم، ويطلق العوان- كما يقول بعض أهل اللغة- على البقرة التى ولدت بطنين أو مرتين، ويقال: حرب عوان: إذا كانت تالية لحرب أخرى سبقتها قال زهير:

إذا لقحت حرب عوان مضرة ضروس تهر الناس أنيابها عصل

والمراد أن البقرة المطلوبة لا صغيرة ولا مُسنة بل هى بين هذا وذاك فى غاية القوة والحسن.

وقوله تعالى: ﴿ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ ﴾ كلها صفات للبقرة أو أخبار لمبتدآت محذوفة والتقدير، لا هى فارض ولا هى بكر هى عوان.. إلخ، ودخلت «لا» النافية على «فارض» وتكررت مع «بكر» لأن «لا» النافية متى وقعت قبل نعت أو خبر أو حال وجب تكريرها فتقول: -فى وقوعه قبل النعت- مررت برجل لا طويل ولا قصير، وتقول- فى الخبر- محمد لا مسرف ولا مقتر، وفى الحال- قدم القائد لا منتصراً ولا منهزمًا ولايجوز عدم تكرار «لا» إلا فى الضرورة.

ولسائل أن يسأل: كيف جاز دخول «بين» على اسم الإشارة «ذلك» فى قوله تعالى: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ مع أنه مفرد و«بين» لاتدخل إلا على شيئين فصاعدًا كقولك جلست بين محمد وعلى ومحمد فذّ بين الرجال؟

فالجواب: أن «ذلك» يشار به إلى المفرد والمثنى والمجموع كقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] فأشير به إلى الفضل والرحمة- وهما شيئان- وقوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤] فأشير بذلك إلى مجموع هذه الأشياء التى حببت إلى الناس وزينت لهم.

وقد أشير بذلك فى الآية التى معنا إلى الفارض والبكر فى قوله تعالى: ﴿لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ﴾ أى وسط بين الكبر جدًا والصغر جدًا.

ثم عقب القرآن الكريم على الإجابة على سؤالهم عن صفة البقرة بتجديد الأمر لهم بذبحها قائلاً: ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ وهذا الأمر للوجوب على الفور وهو تأكيد وتنبيه على ترك التعنت، ومع ذلك فإن بنى إسرائيل لم يتركوا تعنتهم وتباطؤهم فسألوا أسئلة أخرى سنتناولها.

[٢٨] قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٩-٧٤].

تضمنت آيات قصة البقرة أسئلة اليهود لموسى عن صفات البقرة المأمور بذبحها في قضية القتيل الذى جهل قاتله، وقد شددوا فى الأسئلة فشدد الله عليهم، وقد عرضنا- فى الآية السابقة- السؤال الأول، وفى هذه الآيات حديث عن السؤالين الثانى والثالث وما يتعلق بالقتيل ومعرفة قاتله ونهاية القصة.

فالسؤال الثانى: هو سؤالهم عن لون البقرة، وقد عُبر عنه بقوله تعالى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾؟ اللون واحد الألوان- وهو هيئة كالسواد والبياض والصفرة والحمرة، واللون: النوع: وفلان متلون: إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد.

و«ما» اسم استفهام مبتدأ، ولونها خبر، والجملة فى موضع نصب بالفعل «يبين» أى يبين لنا لونها.

وجاء جواب السؤال بقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾:

يقال - فى اللغة- فقَع لونها يفـقَع ويفقُع : إذا خلصت صفرته، والفقوع : الصفرة وخلوصها فالفاقع : شديد الصفرة، ويقال فى التأكيد : أصفر فاقع أى شديد الصفرة، وأبيض ناصع أى شديد البياض وأحمر قان- أو قانئ.

وفاقع صفة للبقرة ولونها فاعل به أو فاقع خبر مقدم ولونها مبتدأ مؤخر والجملة صفة للبقرة.

وقوله تعالى: ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ : صفة للبقرة- أيضًا- والسرور: لذة تحدث فى القلب عن حصول نفع أو توقعه والمراد: أن البقرة خالصة الصفرة وأن لهذا اللون بهاء ورواء يخلب لباب الناظرين إليها ويحملهم على الدهشة والتعجب من شدة صفرتها لغرابتها وخروجها عن المعتاد.

والسؤال الثالث: جاء نتيجة لعدم امتثالهم الأمر بعد البيان السابق- وهو عن أوصاف أخر تعين البقرة لبنى إسرائيل فقالوا- كما عبّر القرآن الكريم- **﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾**.

قد يسأل سائل: هل يعد قولهم: ماهى تكرير للسؤال الأول؟

فنقول: لا، لأن السؤال هنا عن نوع آخر من الصفات لم يُبلغوا به من قبل وقد وضحت من إجابة السؤال بقوله تعالى- بعد ذلك- **﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ ... إلخ ﴾** طبيعة هذه الصفات الجديدة كما سيأتى بيان ذلك.

ولفظ «البقر» - اسم جنس يُذكّره فريق من العرب ويؤنثه فريق آخر وبتذكيره وردت قراءة الجمهور **﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾** بتخفيف شين «تشابه» وفتح هائه وهو فعل ماض فاعله ضمير مستتر تقديره هو يعود على البقر- باعتباره مذكرًا- ويقرأ «تشابه» بضم الهاء مع تخفيف الشين وهو فعل مضارع حذفت إحدى تاءيه وأصله «تتشابه» وفاعله ضمير مستتر تقديره «هى»- على ملاحظة تأنيث البقر، وكل منهما يجرى على لهجة عربية.

وقالوا: إن البقر تشابه علينا لأن وجوه البقر تتشابه ومنه حديث حذيفة بن اليمان عن النبى ﷺ أنه ذكر «فتنا كقطع الليل تأتى كوجوه البقر» يريد أنها يشبه بعضها بعضًا ووجوه البقر تتشابه.

ولسائل أن يسأل: لماذا قدم المشيئة على الاهتداء فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ مع أن أصل الكلام «وإنا لمهتدون إن شاء الله»؟.

فالجواب: أن تقديم المشيئة للاهتمام بها وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لو لم يستثنوا ما اهتدوا إليها» وهذا دليل على أن المشيئة مطلوبة فى حياة المؤمن لأن الفاعل للأمور هو الله تعالى مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤].

وجاء جواب هذا السؤال بقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾: تضمن هذا النص القرآنى عدة صفات أخرى للبقرة التى يراد ذبحها.

فالصفة الأولى- أنها «لاذلول» وذلول: وصف على فعول- وهى التى ذللت بالعمل، مأخوذ من الذل- بكسر الذال- وهو السهولة واللين والإرهاق والتعب- ضد الصعوبة والخشونة والقوة والفتوة: يقال: بقرة ذلول ومذللة: بينة الذل- بالكسر- أى هينة سهلة الانقياد لإرهاقها واستخدامها فى كل صنوف العمل من حرث الأرض وسقى الزرع ونحوهما.

والذل- بالكسر- غير الذل- بالضم- وهو الهوان والضعف والانكسار وهو ضد العز وذلك خاص ببنى آدم والوصف منه على فعيل فيقال رجل ذليل أى بين الذل- بضم الذال.

والمراد هنا- أن البقرة ليست مذللة بالعمل فتقديم «لا» النافية على «ذلول» يحدد أن المراد بقرة غير عاملة تتمتع بالقوة التى لم تستعمل فى عمل ما.

ولسائل أن يسأل: لِمَ خلا هذا الوصف «ذلول» من هاء التأنيث فلم يقل ذلولة؟

فالجواب: أن «ذلول»- وإن ورد فى اللغة تأنيثها- أحيانًا- بالهاء لأنها بمعنى مفعول فيقال: ذلولة بمعنى مذللة فإن القرآن الكريم جرى على عدم إلحاقها لهذا الوصف بناء على القاعدة العامة التى تمنع إلحاق وصف «فعول» هاء التأنيث لأنه من أبنية المبالغة التى يستوى فيها المذكر والمؤنث.

وقد أوضح القرآن الكريم الوصف بعدم التذليل بقوله عز حكمه:

﴿تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾: إثارة الأرض: تحريكها وبحثها وقلبها للزراعة، منه الفعل الماضى «أثار» كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ [الروم: ٩] أى: قلبوها للزراعة، والمضارع «يثير» ومنه قوله سبحانه: ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾.

والحرث: الأرض المهيأة للزراعة ويطلق على ما حُرث وزُرع والفعل منه حرث يحرث.

وقد وصف المولى سبحانه البقرة بأنها تثير الأرض ولا تسقى الحرث فهى قوية صعبة الانقياد لعدم إرهاقها بالعمل فى حرث الأرض وأعمال الزرع والسقى.

فالنفى بـ «لا» مسلط على إثارة الأرض وسقى الزرع معًا فكأنه قال هى بقرة لا ذلول صفتها أنها لا تثير ولا تسقى، فقوله: ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ وإن كان مثبتًا لفظًا فهو منفى فى المعنى بـ «لا» المقدرة والأصل «لا تثير الأرض» لأنه عطف عليه «ولاتسقى الحرث» - وهو منفى بلا- وإذا نفى المعطوف وجب أن ينفى المعطوف عليه كذلك لأنهما فى معنى واحد، ولو كان يريد إثبات، إثارة الأرض، ونفى الحرث لقال: تثير الأرض لا تسقى الحرث بحذف واو العطف إذ لايجوز- فى لغة العرب- أن يقول قائل: مررت برجل قائم ولا قاعد- وهو يريد إثبات القيام للرجل ونفى القعود عنه- بل عليه أن يقول: مررت برجل قائم لا قاعد بحذف الواو.

ويدل المعنى المقصود فى الآية كذلك على نفى الحرث أيضًا- فلو كانت البقرة تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذللتها، والله تعالى قد نفى عنها التذليل بقوله: ﴿ لاَّ ذَلُولٌ ﴾ وهو يقتضى نفى العمل عنها بشتى أشكاله وصوره.

وفى إجابة السؤال الثالث- أيضًا- صفتان أخريان للبقرة هما خلوها من العيوب واختلاط الألوان وقد عبّر عنهما بقوله تعالى: ﴿ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾: المسلمة هى الخالية من العيوب التى تشينها كالعرج ونحوه فهى سليمة الجسم والقوائم.

والشية- فى الأصل- مصدر وشى يشى وشيًا وشية إذا خلط لونًا بلون آخر وهى مأخوذة من وشى الثوب وهو نسجه على لونين مختلفين أو أكثر، ومنه يقال للنمام: واش لأنه يزين الكلام ويلونه فيجعله ضروبًا متعددة ويزين منه ما شاء حتى يفسد العلاقات بين الناس.

والمراد هنا: أن البقرة خالية من أى لون آخر غير الصفرة فلا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد.

ثم تنتهى الأسئلة باستجابة اليهود بعد التلكؤ والتباطؤ وقد عبّر عن ذلك المولى سبحانه بقوله: ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

ولسائل أن يسأل: لم قالوا: ﴿ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ مع أن كل ما جاء قبل ذلك من أوصاف البقرة حق لاريب فيه؟.

فيقال: ليس المراد بالحق هنا معناه الشائع من الصواب والأمر الصحيح وإلا لكفروا بهذا القول أو لو كان المراد ذلك لاقتضى أن ما ذكر من أوصاف البقرة فى المرتين الأولىين كان زيفًا وباطلاً وهذا المعنى يؤدى إلى الكفر والعياذ بالله تعالى.

لكن المراد بالحق- والله أعلم- بيان حقيقة وصف البقرة بحيث ميزها من جميع ما عداها ولم يبق لهم فى شأنها اشتباه أصلاً بخلاف ماحدث فى المرتين الأوليين، فإنهم لم يفهموا المراد فهمًا واضحًا فيهما.

وفى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ دليل على طبيعتهم التى جبلت على التعنت والتأخير فى الطاعة والقبول، يعنى أنهم لجأوا إلى ذلك كالمضطر الملجأ إلى الفعل ولو تركوا على طبيعتهم لم يفعلوا.

وقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ مرتب على كلام سابق محذوف لفهمه من السياق والأصل، فطلبوا البقرة فوجدوها فذبحوها.. إلخ.

وهذا من الإيجاز القرآنى الذى يقع موقعه من الدقة اللغوية.

ثم عاد القرآن الكريم إلى ذكر خلاف اليهود حول القتيل ومعرفة قاتله بقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

هذه الآية هى أول القصة لكنها وقعت هنا بعد حكاية أسئلتهم التى تكشف خبث طباعهم وقبيح مقالهم.

والفعل «ادارأتم» أصله تدارأتم، من الدرء وهو الدفع والخصومة والتنازع وقد اجتمعت التاء مع الدال وهما من مخرج واحد- هو طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا- فأريد الإدغام فقلبت دالاً وسكنت لأجل الإدغام ولايمكن الابتداء بالساكن فأدخلت همزة الوصل ليبتدأ بها.

وقد وقع هذا الفعل «ادارأتم» موقعه من التعبير عن المعنى المراد «فالتدارؤ» تفاعل يكون عادة بين طرفين، وهكذا كان حال اليهود حينما وجدوا القتيل بينهم فكان كل منهم يدفع التهمة عن نفسه وينسبها إلى صاحبه ويحيلها على خصمه.

وجاء تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ بيانًا لإظهار ما أخفوه من أمر القتيل بذبح البقرة وضرب القتيل بجزء منها لمعرفة القاتل لتظهر قدرة الله وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

بعض البقرة هو عضو من أعضائها ضرب به القتيل فحيي وأخبر بقاتله ثم عاد ميتًا كما كان .

وذلك دليل من أدلة البعث موجه إلى المنكرين له من اليهود والعرب وغيرهم من الناس فى كل زمان ومكان .

فالله تعالى قادر على إحياء الموتى وهو عليه هيّن كإحياء هذا القتيل الشاهد فى الدنيا .

ثم ختم القصة بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

نهاية قصة البقرة التى طلب ذبحها فى قضية قتيل بنى إسرائيل لمعرفة قاتله ، وقد جاءت بعد أسئلة أوردوها ليُبطئوا فى تنفيذ أمر الله تعالى ، وبعد عناد وتلكؤ ذبحوا البقرة وضربوا القتيل بجزء منها فأحياه الله تعالى وأرشد إلى قاتله ، ومع ذلك لم يعتبروا ولم يتعظوا ولم يأخذوا من هذا الإعجاز الإلهى دليلاً على قدرة الخالق سبحانه فظلوا على عصيانهم وفسادهم .

وجاءت هذه الآية ترسم هذه النهاية وتدل على طبيعة قلوب بنى إسرائيل التى لم تتأثر بأيات الله التى رأوها عيانًا كفلق البحر وانفجار العيون من الحجر وما حدث من إحياء القتيل بضربه بجزء من بقرة بكماء ، إنها قلوب مفطورة على القسوة التى رانت عليها وحجبت عنها الإقرار بالربوبية والاعتراف بالقدرة الإلهية .

وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ .

القسوة : الصلابة والشدة واليبس ، والمراد هنا : خلو قلوبهم من الاتعاظ والاعتبار والإنابة والإذعان لآيات الله تعالى .

والإشارة في قوله ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ إلى الآيات البينات السابقة كفلق البحر وانفجار العيون من الحجر وإحياء القتيل وغير ذلك.

فبعد كل هذه الآيات البينات لم تلن قلوبهم للحق ولم تذعن ولم تستجب.

ولسائل أن يسأل: لم عبّر بثم الموضوعة للتراخي في الزمان- في قوله تعالى- ﴿ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ مع أن قسوة قلوبهم كانت في الحال لا بعد زمان؟

فالجواب: أن التعبير بثم لإفادة معنى الاستبعاد أي يبعد من العاقل القسوة بعد تلك الآيات، وقوله: ﴿ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ يؤكد الاستبعاد أشد تأكيد.

واختلف علماء اللغة في «أو» في قوله تعالى: ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ فقيل: إنها بمعنى «بل» كقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧] فالمعنى: بل يزيدون وكما قال الشاعر:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى وصورتها أو أنت في العين أملح

على معنى: بل أنت.

وقيل: إن «أو» تفيد معنى التحقير بالنسبة للمخاطبين من البشر أي شبهوها بالحجارة تصيبوا أو بأشد من الحجارة تصيبوا.

وقيل: معنى «أو» الإبهام كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤] فقلوبهم أقسى من الحجارة لا تلين.

وقد علل الأشدية بقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾.

التفجر: التفتح بالسعة والكثرة، والتشقق: خروج العيون الصغار، والهبوط: النزول من مكان عال إلى آخر منخفض وهذه ثلاث صور من لين الحجارة وهي تفجر

الأنهار وتشقق العيون الصغار منها ونزولها وسقوطها من أعالي الجبال إلى أسافلها.

وخشية الحجارة لله تعالى عبارة عن انقيادها له سبحانه ولله تعالى فى الجمادات والحيوانات علم وحكمة لا يقف عليها غيره فلها صلاة وتسبيح وخشية كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله سبحانه: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] وقد قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] وقد خر جبل الطور دكًا من هيبة الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وكل هذه المعانى تتضافر على مبلغ القسوة التى بلغتها قلوب بنى إسرائيل فهى على أشد ما يكون ولن تعدلها شدة الحجارة وصلابتها لأن الحجارة تلين وتخشع فتؤثر فيها أوامر الله تعالى وتنقاد، وقلوبهم لا تؤثر فيها دلائل القدرة الإلهية فلا تخضع ولا تنقاد لأوامر المنعم سبحانه بما أفاء عليهم وأوضح أمام عيونهم من آثار قدرته الباهرة.

والحجارة التى تقاس قلوبهم بها حجارة لهم بها عهد بتدفق المياه منها والجبل الذى اندك حين تجلى عليه الله تعالى وخر موسى صعقًا.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهو تهديد ووعيد لهؤلاء القاسية قلوبهم والله تعالى لهم بالمرصاد يحصى أعمالهم ويجازيهم عليها فى الآخرة، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

[٢٩] قال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥-٧٧] .

كان الرسول ﷺ والمؤمنون معه يتطلعون إلى أن يؤمن اليهود وينخرطوا فى سلك المسلمين ، فنبه المولى سبحانه إلى أن هذه الأمنية بعيدة المنال لأنهم لن يقلوا عن أسلافهم ضلالاً وتحريفًا وفسادًا ، فقد نزلت التوراة على أسلافهم وكلم الله موسى- عليه السلام- موحيًا إليه ، وأخذ معه سبعين رجلاً إلى الميقات على جبل الطور حين المناجاة ، وبعد أن علمت اليهود بالوحى وما تضمنه الكتاب المنزل عليهم حرفوه وبدلوه من تلقاء أنفسهم وهم يعلمون أن هذا كذب على الله وبهتان وعاقبته وخيمة ، ومع ذلك لم يرتدعوا لأنهم جبلوا على الضلال والفساد ، ولاشك أن يهود اليوم كيهود الأمس ، والدليل على ذلك أن اليهود المعاصرين للنبى ﷺ كانوا يلتقون به فينافق فريق حين يستمعون إليه ويصدقونه ، ويعلنون أن الإسلام دين الحق ، وأن التوراة ذكرت بعض صفات النبى ، وتسكت طائفة فلا تعلن عما فى ضمائرها من الكفر والضلال فإذا انصرفوا عن مجلس الرسول والمؤمنين ، وخلوا إلى أنفسهم عاتب الساكتون منهم فريقهم المنافق على ما أعلنوه من تصديق الرسول وفق ما جاء فى كتابهم التوراة ولاموهم على إعلان ذلك للمؤمنين لأنه يؤدى إلى إلزامهم الحجة وتبكيتهم وأن هذا ليس من الحصافة والعقل ، ونسى هؤلاء اليهود المعاصرون- وغيرهم- أن الله سبحانه يعلم دخائل نفوسهم وما يضمرون من الكفر وكذبهم فيما يعلنون من الإيمان الذى لا تصدقه قلوبهم ، وأن الله يعلم ما تخفى نفوسهم ، وما تعلن فيحاسبهم على ذلك حسابًا عسيرًا ، مع حماية المؤمنين من شرهم وإعلامهم بما يحيك اليهود من الدسائس والفتن والخداع .

والآيات التى معنا تحمل ثلاثة أمور:

الأول: طمع المؤمنين فى إيمان اليهود مع عدم توافر الوسائل الموصلة إليه لفسادهم من حرفوا الكتاب منهم وعبّر عن ذلك بقوله سبحانه:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

الطمع: تعلق النفس بإدراك الشىء تعلقًا شديدًا وهو أقوى - فى التعلق - من الرجاء، فالرغبة فى الطمع أقوى وأشد من الرغبة فى الرجاء.

والذين خاطبهم المولى سبحانه ونسب إليهم الطمع هم الرسول ﷺ والمؤمنون معه فأنفسهم كانت ترغب رغبة ملحة أن يهدى الله سبحانه اليهود إلى الإسلام.

والهمزة للاستفهام الإنكارى تفيد استبعاد أمر لم يقع أن يتحقق له الوقوع كقولك أأضرب أبى؟ لا لاستبعاد الوقوع بالفعل كقولك: أتضرب أباك؟.

والفاء عاطفة للفعل المضارع على معطوف عليه مقدر مناسب للمقام، ونظم الكلام، ويكون على قصد توجيه الإنكار إلى المعطوفين كأن يقال: التقدير: أتحسبون أن قلوبهم صالحة للإيمان فتطمعون كما فى قوله تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١] على تقدير: ألا تنظرون فلا تبصرون، ويمكن أن يكون الإنكار موجهًا إلى ترتب الثانى على الأول كأن يقال: التقدير: أتسمعون أخبارهم وتعلمون أحوالهم فتطمعون، أى أبعد أن علمتم فساد سلوكهم تطمعون، فالواجب أن يترتب على الأول نقيض الثانى أى عدم الطبع الناشئ عن معرفة أحوالهم، وهذا كما نقدر فى قوله تعالى: ﴿ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ أتنظرون فلا تبصرون فالمنكر ترتب عدم الإبصار على النظر، والواجب أن يترتب على النظر الإبصار وهو نقيض الثانى.

وواو الجماعة فاعل «تطمع» يعود إلى الرسول ﷺ والمؤمنين.

والإيمان هنا يمكن أن يكون بالمعنى اللغوى وهو التصديق وعداه باللام لتضمنه معنى الاستجابة أى: تريدون أن يصدقوا ماجاء به محمد ﷺ مستجيبين لكم.

ويمكن أن يكون الإيمان بالمعنى الشرعى واللام فى لكم للتعليل بمعنى لأجل ويكون الفعل «يؤمنوا»- كالفعل اللازم- أى أن يعتقدوا العقيدة الصحيحة من أجل دعوتكم لهم.

وأن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر حذف الجار الداخل عليه وتقديره «فى إيمانهم لكم» وهو معمول «تطمعون» فى محل جر عند الخليل والكسائى، وفى محل نصب عند سيبويه، وفاعل «يؤمن» الذى هو واو الجماعة يراد به اليهود المعاصرون للنبى ﷺ.

وفريق اليهود الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه هم أحبار اليهود من أسلافهم العلماء بما فى التوراة، فحرفوها وغيروا فيها ما يشير إلى رسالة محمد ﷺ.

ويطلق على التوراة أنها كلام الله تعالى الذى سمعوه ويسمعونه، وقيل: إن الذين حرفوا هم جماعة من السبعين رجلاً الذين اختيروا للميقات سمعوا كلام الله تعالى لموسى على الطور وحرفوه - بعد سماعهم بالوساطة من موسى عليه السلام على الرأى الراجح- وقيل إن المحرفين جماعة الأحبار فى زمن النبى ﷺ، وعلى أية حال فإن المحرفين من هذه الفرق اليهودية فرق ضالة تدل على خلال السوء التى كانوا يتسمون بها، وإذا كان هذه شأن الأسلاف فما بال اليهود المعاصرين؟ إنهم مثل أسلافهم وعلى طريقهم لن يؤمنوا ولن يستجيبوا لكم، فأريحوا أنفسكم من عناء الطمع فى إيمانهم.

وهذا على أن التحريف كان خاصًا بما أنزل على موسى- عليه السلام-.

وقيل: إن الجماعة المحرفة هى من اليهود المعاصرين حرفوا الوحى المنزل على محمد ﷺ فيما يسمعون منه قصدًا لإدخال ما ليس من الدين فيه.

والفريق: اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم، وهو اسم كان و«منهم» متعلق بمحذوف صفة لاسم كان وجملة «يسمعون» خبر كان وجملة ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ

﴿مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ﴾ حال من فاعل ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ فكيف يستجيبون والحال أن هذا الفريق من سابقيهم حرّف وبدّل فى الوحى المنزل.

والمراد بقوله ﴿كَلامَ اللَّهِ﴾ التوراة التى حرفوها أو ما أنزل على موسى ليلة كلمه مولاه على الطور أو القرآن الكريم والمراد بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾ أى يؤولونه تأويلاً فاسدًا أو يغيرون المكتوب النازل بالوحى، أو يزيدون عليه كما قيل إنهم زادوا على ما سمعوا من موسى- من كلام رب العالمين- ليلة التكليم مثل ما نقل من أنهم قالوا: «سمعنا الله تعالى يقول فى آخر كلامه إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس» وهو كذب منهم وافتراء على الله، ومعنى ﴿عَقَلُوهُ﴾ فهموه وضبطوه وعلموه دون نسيان، فالأحبار حرّفوا وبدّلوا وهم على يقين بأنهم يغيرون كلام الله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذه الجملة -أيضًا- حال من فاعل «يحرفونه» وحذف مفعول «يعلمون» لتذهب فيه النفس مذاهبها أى يعلمون كذبهم على الله، أو يعلمون عاقبة تحريفهم وعقابه الوخيم، أو يعلمون حقيقة الوحى دون جهل أو نسيان إلى غير ذلك.

ولا تكرار بين قوله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ لتأكيد شناعة ما كانوا عليه من التحريف، لأنه لم يكن عن نسيان لما عقلوه أو عدم استيعاب لمضمونه.

ولسائل أن يسأل: لم عطف «يحرّفونه» بـ«ثم»؟

فنقول: إن «ثم» العاطفة تفيد معنى التراخى فى حدوث ما بعدها فيحتمل أن التحريف وضع بعد زمان من نزول التوراة والوحى، أو هو تراخ فى المرتبة، فجريمة التحريف بعد السماع شنيعة، إذ لايليق بمن سمع كلام الله أن يحرفه ويغيره، فالتحريف مرحلة بلغت من القبح مبلغًا كبيرًا.

الأمر الثانى: ما حكاه القرآن عن فعال اليهود المعاصرين أنفسهم فى لقائهم بالرسول والمؤمنين وسماع الوحى وتصديق بعضهم له علانية مع إبطان الكفر ولوم بعضهم

لبعض على ذلك، وقد عبّر عنه الحق سبحانه بقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

كان فريق من اليهود يلاقى الرسول والمؤمنين ويجالسونهم ويسمعون الوحى، فيعلن بعضهم تصديق الوحى ويذكرون بعض صفات النبى فى التوراة وتصديقها للقرآن، ويسكت فريق منهم فلا يتحدث بشىء وبعد الانصراف والخلوة يلوم الساكتون الذين تحدثوا من منافقى اليهود ويعاتبونهم على ما أعلنوه مما يمكن أن يكون حجة عليهم للمؤمنين.

ويذكر اللغويون أن الواو فى «لقوا» لليهود اللاقين وفى «قالوا» لهم - أيضًا- وإن صدر القول من بعضهم دون البعض الآخر من باب إسناد ما للبعض إلى الكل، وهذا مثل أن تقول: بنو فلان قتلوا فلانًا والقاتل بعضهم لا كلهم.

وسر إسناد الفعل «قالوا» إلى الجميع من الذين تكلموا أو سكتوا للدلالة على شدة قبح سلوك الساكتين لخلاف ظاهرهم لباطنهم على نحو أكثر قبحًا ولؤمًا ونفاقًا.

وقال بعض اللغويين إن الواو فى «لقوا» للجميع، والواو فى «قالوا» للبعض دون الجميع أى قال المنافقون منهم، والفعلان «لقوا» و«قالوا» فعلا الشرط الجزاء لاسم الشرط «إذا».

وقال «آمنا» وترك علة هذا الإيمان ثم دل عليها بما جرى من الجدال بين فريق المتحدثين منهم وفريق الساكتين فى قولهم: ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ومعنى بما فتح الله عليكم أى بما أوضحه وبينه لكم فى التوراة من صحة الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ فكأنهم ذكروا أنهم آمنوا لما علموه من ذلك فى التوراة ولم يذكره بعد «آمنّا» اعتمادًا على ذلك والتعبير بالفتح دليل أن ذلك- عندهم- سر مكتوم لايعرفه إلا من يقرأ التوراة من علمائهم.

و«ما» موصولة والعائد محذوف.

وجملة ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ جملة مستأنفة لبيان حال اليهود المعاصرين وسوء فعالهم وسلوكهم مما يشهد لعدم الطمع فى إيمانهم وهو سبب آخر لذلك بعدما علم عن أسلافهم من التحريف والتبديل.

وقيل: إنها جملة معطوفة على الجملة الحالية السابقة وهى: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ الآية.

وجملة ﴿ وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ... ﴾ حالية أو معطوفة على سابقتها.

وقوله ﴿ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ بيان لسبب التوبيخ للقائلين من الساكتين سواء كان هذا فى حسبان القائلين أم لم يكن فهو استنتاج ليؤكدوا خوفهم من خطورة حديث القائلين وكشفهم عما فى التوراة مما يصدق الإيمان بمحمد ﷺ واللام فى ليحاجوكم لام كى التعليلية والفعل منصوب بعدها.

والمحاجة- مفاعلة- قيل: إنها غير مرادة فالمعنى ليحتجوا به عليكم، وأتى بصيغة المفاعلة للمبالغة فى الاحتجاج.

ويرى بعض اللغويين جواز أن تكون المفاعلة- هنا- على بابها وأن فريق المؤمنين يحتج- من جانب- وفريق المنافقين يستمع إلى الحجاج من جانب آخر وقد ألزم الحجة وأفحم.

ومعنى ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ أى كما نزل فى كتاب التوراة الذى آمنتم به وجعل المحاجة بما فى الكتاب محاجة عند الله من باب التوسع وهذا كما يقال: هو عند الله كذا أى فى كتابه وشرعه.

والمحاجة- على هذا- فى الدنيا وهذا ظاهر.

وقيل: إن معنى ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ ليس على سبيل التوسع بل على سبيل الحقيقة وهذا يعنى أن المحاجة ستكون عند الله يوم القيامة.

وضعف هذا الوجه بأن كل خفى سينكشف يوم القيامة ولا يستطيع أحد الإنكار فى هذا اليوم والله تعالى عالم بكل شىء اعترف به الواقف أو أنكر فما كان هناك داع إذًا إلى لوم المتحدثين على الإعلان والدعوة إلى السرية .

ووجه بعضهم المراد بجعل المحاجة يوم القيامة على أساس أن الحجاج يوم القيامة يزيد فى ظهور فضيحة اليهود وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد ، فإذا ظهر شىء مما كتموه فى الدنيا زاد أمرهم سوءًا فى الآخرة .

وأجيب عن ذلك بأن التعبير بقوله ﴿ **بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ** ﴾ ينقيه وإلا فالإخفاء لايفيد يوم القيامة إلا فى دفع الاحتجاج بالإقرار لا بما فتح الله به عليهم .

وقوله سبحانه ﴿ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ من تمام كلام الموبخين لزملائهم المنافقين وهى جملة مؤكدة لإنكار التحديث معطوفة على جملة ﴿ **أَتُحَدِّثُونَهُم** ﴾ وجىء بالتاء لتفيد ترتب عدم عقلهم على تحديثهم .

وقيل : المفعول محذوف أى لا تعقلون هذا الخطأ الفاحش أو شيئًا مما هذه سبيله فأنتم بتحديثكم لم تدركوا الأثر الفادح لما وقعتم فيه وعاقبة ذلك عليكم وعلى اليهود الآتين من بعدكم .

والأمر الثالث : تجهيل المعترضين على التحديث الداعين إلى الاحتفاظ بالأسرار التى جاءت فى التوراة وعدم الإعلان عما فيها من تصديق الإسلام ، وبيان أن الله تعالى يكشف سرهم المخفى وعلنهم الظاهر وعبّر عنه بقوله تعالى : ﴿ **أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾ : والهمزة فى قوله : ﴿ **أَوَلا يَعْلَمُونَ** ﴾ للإنكار والتوبيخ كالتى قبلها ، والواو- بعدها- عاطفة لجملة ﴿ **يَعْلَمُونَ** ﴾ على مقدر يفهم من السياق أى : أيلوم الساكتون المتحدثين على التحديث المذكور خوفًا من المحاجة ولايعلمون . .

وجملة ﴿ **أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾ مفعول يعلم فالله تعالى يعلم جميع ما يسرون وما يعلنون ، ومن ذلك إسرارهم الكفر وإظهارهم الإيمان ، وإخفاء ما فتح الله عليهم ، وإظهار غيره ، وكتم أمر الله وإظهار ما أظهروه افتراء .

والضمير الفاعل صالح للمنافقين والموبخين، ولأسلافهم المحرفين والشمول أولى.

وتقديم الإسرار على الإعلان فى قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لبيان أن علم الله شامل، وعلمه بما هو سر أقدم من علمه ما هوعلن، والمراد استواء الأمرين فى مقياس علمه تعالى فلا يختلف الحال بين ماهو كامن خفى أو بارز ظاهر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٢٩] بخلاف قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فقدم الظاهر على الخفى لأن المسألة تتعلق بالحساب، وإنما تتعلق المحاسبة بالأمور الظاهرة دون الخفية.

وأيضًا فإن السر سابق على العلن فما من شيء ظاهر إلا سبقه سريته من قبل وإضماره فى القلب، وهذا التقديم يكشف أمرهم ولو كان سرًا دفينًا فيكون هذا إيذانًا بافتضاحهم على كلا الحالين، ومن أول التفكير فى الباطل والكذب والافتراء وقبل إعلانه على الناس.

[٣٠] قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٨، ٧٩].

فى إطار حديث المولى سبحانه عن الأسباب التى تدعو إلى عدم الطمع فى إيمان اليهود يذكر سبحانه طائفة منهم جاهلة لا تعلم من التوراة شيئًا ولاتعرف إلا ما يلقنه لها المحرفون من علمائهم من الأكاذيب والضلالات، ولا تعرف إلا اعتمادها على أن الله سيرحمهم بشفاعة الشافعين فيتجاوز عن خطاياهم ويعفو عنهم، وذلك هو رجاؤهم، ويعتمد هؤلاء الجهلة على ما يلقنه لهم أحبارهم الضالون من أن اليهود أحباء الله، وأنه لن يعذبهم إلا أيامًا معدودة تمسهم فيها النار، وهذه الفئة لا تبشر بخير، ولايعتمد عليها

فى فهم الإيمان الصحيح، ولا أمل يرجى منها لدخولها إلى الإسلام، لعدم إعمال عقولها وإلقائها التبعة على غيرها من المضلين الذين يجعلونها تتمسك بالزيف والأكاذيب، ولا تريد فراقه بل دونه خرط القتاد.

ثم بيّن عز وجل ما أعد من العقاب لطائفة من الأحبار وعلماء اليهود الذين يحرفون التوراة ويبدلون فيها، ويمحون منها ما يشير إلى حقية دين الإسلام وصفة نبيه محمد ﷺ ويموهون تفسير نصوص التوراة على العامة إذ لا يظهر للعوام ما تتضمنه النصوص من معان وتفسيرات ترشد إلى الحق وتدل عليه، ويفهم منها صدق ما جاء به محمد ﷺ، وقد أعد الله تعالى للمحرفين الويلات والثبور، بسبب كتاباتهم بأيديهم مايحرف الكتاب الأصلى، وما جره هذا التحريف من نشر الحرام والباطل وعدم إظهار الحق والحلال، وكل ما ترتب على ذلك من خداع الناس، وكان الهدف من ذلك احتفاظهم بسلطانهم والحصول على قليل من المال من أرباب السلطان من الرؤساء الذين خافوا أن يزلزل الإيمان عروشهم فرضى المحرفون بالقليل من مناصب الدنيا وأموالها وضاع عليهم الثواب الجزيل- لو أنهم بينوا الحق وصانوه- وسيحل بهم من العذاب الشيء الكثير.

فأما جماعة الجهلة من اليهود وأمنياتهم التى صرفتهم عن الحق إلى الضلال فقد عبّر الله تعالى عنها بقوله: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾.

والأميون: جمع أمى، وهو فى معناه القريب: من لايكتب ولايقرأ نسبة إلى أمة العرب فإنهم كانوا لايكتبون ولا يقرأون أو نسبة إلى الأم بمعنى أن الواحد منهم يعيش على حالته التى ولدته أمه عليها من عدم العلم ووسائله من الكتابة ونحوها، والمراد بالأميين هم الجهلة الذين لايعلمون إذ فقدوا وسائل العلم والمعرفة.

والمراد بالكتاب: التوراة فاللام فيه للعهد، والأمانى، جمع أمنية وأصلها: أمنوية على وزن أفعولة والمراد بها ما يتمناه الإنسان لنفسه أن يفوز به على سبيل التقدير، وتشدد الياء وقد تخفف، وقرأ أبو جعفر وغيره عن نافع، وهارون عن أبى عمرو

«أمانى»- بالتخفيف- وأمانى هذه الطائفة الجهلة- من اليهود- تتعلق بما تلقوه عن أحبارهم من الأكاذيب التى لا علم لهم بها، وما كانوا يمنونهم به من مغفرة الله لهم ورحمته إياهم ببركة الأنبياء السابقين وشفاعتهم، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة ونحو ذلك من الأضاليل.

والاستثناء ﴿إلا أَمَانِيَّ﴾ على هذه المعانى- منقطع- إذ لا صلة بين التوراة «الكتاب» وبين هذه الأباطيل والأكاذيب .

وقيل المراد بالأمانى: قراءتهم للتوراة قراءة عارية عن الفهم والعلم ومعرفة المعنى وتدبره وهى قراءة العوام الذين لايستطيعون التفسير للنصوص ويعتمدون على غيرهم فى تفسيرها.

والاستثناء ﴿إلا أَمَانِيَّ﴾ حينئذ متصل.

ثم حصر المولى سبحانه معرفتهم بأنها ليست إلا مجرد الظن الذى لايوصل إلى العلم المبنى على الدليل والبرهان فقال: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ فهى معرفة محدودة ليس لها أساس من دقة العلم أو أدلته، ولذلك لايرجى منهم إيمان أو خير.

وقد حذف المستثنى وأقيمت صفته مقامه وأصل التعبير: ما هم إلا قوم يعتمدون على الظن لا على العلم ويكفى هذا دليلاً على جهالتهم وسوء حالتهم وعقيدتهم.

وأما حديث الحق سبحانه عن عقوبة من غيروا التوراة وسوء جريمتهم فقد جاء فى قوله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ .

الجريمة أنهم كتبوا بأيديهم مبدلين ومغيرين لما فى التوراة ونسبوا ما ارتكبوه إلى أنه من عند الله وأخفوا الكتاب الصحيح النازل من عند الله حتى يموهوا على أتباعهم الأميين.

والعقاب المعد لهم هو «الويل» والويل مصدر ليس له فعل من لفظه، ومثله ويح، وويب وويس فكلها- ونحوها- مصادر لا أفعال لها من لفظها.

والويل- وأشباهه- إذا أضيف فالأحسن فيه النصب وقيل يجب النصب مثل : ويلك وويحك ، وإذا أفرد- بفصله عن الإضافة- اختير الرفع ، وقيل يجب رفعه نحو : ويل له .

والويل : كما قال الخليل- شدة الشر ، وقال الأصمعى : هى كلمة تفجع وقد تكون ترحمًا ، وقيل : الويل : الحزن أو الفضيحة والحسرة أو الهلاك والأخير نقله سيبويه ، وروى- صحيحها فى بعض الطرق- عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**الويل واد فى جهنم يهوى به الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره**» وعن ابن عباس- رضى الله عنهما- أن الويل هو العذاب الأليم وروى غير ذلك مما ينسب إلى نار جهنم والعذاب فيها .

ولعل ما يتصل منها بعذاب النار مجاز لغوى من إطلاق لفظ الحال على المحل ، لأن العرب قد تكلمت به قبل الإسلام فى النظم والنثر ولم تكن تعنى به ما فى نار جهنم .

والويح والويس والويب بمعنى الويل- عند بعضهم- وقيل الويح وما بعده للترحم على من نسب إليه .

«وويل» - فى النص الكريم- مبتدأ خبره ﴿**لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ**﴾ وصح الابتداء به لكونه دعاء أو لأنه نكرة خصصت بالداعى كأنه قال : دعائى عليهم بالهلاك ثابت لهم مثل قول المسلم : سلام عليك أى سلامى عليك .

ولسائل أن يسأل : لماذا ذكر الأيدى مع أن الكتابة لا تكون إلا بها؟

نقول : ذكرها للتأكيد لدفع توهم المجاز كأن يكونوا أمروا بكتابتها ونحو ذلك كقولك : كتبت بيمينى لتؤكد أنك كتبت بنفسك لا أن غيرك تولاها بأمرك له مثلاً .

وقد نسبوا المحرف إلى الله فى قولهم ﴿**هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ والقائلون إما المحرفون من علمائهم ورؤسائهم وأحبارهم ، أو هم وغيرهم من الأميين من اليهود ، وسواهم من سائر الطوائف .

ولماذا عطف بثم فى قوله : ﴿**ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ**﴾؟ .

فعل ذلك باختيار «ثم» دون غيرها من حروف العطف للدلالة على التراخى الرتبى فقد ارتكبوا جرمين : الأول التحريف والتبديل، والثانى نسبة المحرف المبدل إلى الله وقد جاءت الإشارة إليهما بقوله : «هذا» لكن شناعة الجرم الثانى أكبر من شناعة الجرم الأول مما اقتضى استخدام حرف العطف «ثم».

وعبّر المولى سبحانه عن هدفهم من التغيير والتبديل بقوله : ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ فالمكافأة التى يأخذونها على ذلك هى المناصب الباقية لهم والرياسة والرشوة كل ذلك ثمن لجهلهم فكأنهم باعوا الحق الصحيح فى التوراة وطمسوه بالتغيير والتبديل فى مقابل الثمن القليل.

وعبّر عن المشترى بالثمن مع أن الثمن يكون وسيلة للحصو ل على الشىء المشترى الذى هو المقصود الأصلى فى عملية المبادلة على طريق العكس ليبين أنهم جعلوا الوسيلة- وهى الثمن- مقصوداً بالذات، والمقصود بالذات- وهو المشترى- وسيلة وهذا دليل على تنازلهم عما يستحق القصد- وهو الحق النازل من عند الله- إلى الوسيلة التى جعلوها هدفًا لهم أصيلاً وهى الرشوة نظير التحريف وجعل الثمن الذى رغبوا فيه قليلاً مهما يكن من الكثرة لأن الذى باعوه هو جالب الثواب الجزيل، وبيعهم للحق مستوجب للعذاب الدائم وبئس الثمن الذى فضلوه على ضياع جزيل الثواب، ونزول أقسى العذاب الدائم بهم ومهما يكثر المال فهو تافه قليل بالنسبة إلى ما أعد لهم.

وجاءت هذه الجملة تعليلية دالة على سبب تحريفهم وتبديلهم ونسبتهم ذلك زوراً وكذبًا إلى رب العزة والجلال واستحقاقهم الويل.

وبعد هذا الإجمال فى بيان السبب عاد المولى سبحانه ففصل أمر هذا السبب قائلاً : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ إنهم استحقوا الويل لعمل أيديهم، ولما ظنوا أنه نفع لهم وكسب.

و«من» فى قوله ﴿ مِّمَّا كَتَبَتْ ﴾ تعليلية ومتعلقها الويل أو ما تعلق به الخبر «لهم» و«ما» موصولة بمعنى الذى والعائد- عليها محذوف أى «كتبته» وتصلح أن تكون

مصدرية وعلى الأول فالويل على ما نتج عن التحريف مما يضل الناس، وعلى الثانى فالويل على إحداثهم التحريف و«من» «ما» الثانية فى ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ مثل الأوليين تفسيراً وإعراباً أى بسبب الذى يكسبون أو بسبب كسبهم.

ولم يعد نسبة التحريف إلى الله لأنه داخل فى كتابتهم بأيديهم من باب الترويج لها.

وكرر الويل ثلاث مرات، كل ذلك للتأكيد على عواقب ما فعلوا وأسبابها الداعية إليها.

[٣١] قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨٢].

يتحدث المولى سبحانه عن بعض جنايات اليهود بادعائهم أن الله تعالى لن يعذبهم إلا أياماً قليلة لا تتعدى أربعين يوماً- مدة عبادتهم العجل إبان غياب موسى عنهم- أو لا تتعدى سبعة أيام تبعاً لمدة عمر الدنيا البالغة سبعة آلاف عام، عن كل ألف عام يوماً، وقد نشر أحبارهم ذلك لدى عوامهم، وأنهم- فيما عدا ذلك- أحباب الله اختصهم بجنته، والواقع أنهم كاذبون فيما زعموا والرسول ﷺ والمؤمنون مأمورون بكشف هذا الزعم الباطل وسؤالهم هل أعطاهم الله تعالى وعداً بالنجاة ومحدودية العقاب أو أن ذلك كذب على الله منهم وافتراء، ومعلوم أن وعد الله لايتخلف؟ والسؤال يحمل إحضار الدليل على صحة الدعوى، ولا وعد- أصلاً لهم- ولا دليل- وكل ما يشيعونه محض افتراء وليس من المعقول ترك الكافر على كفره دون عقاب أو ترك مرتكب المعاصى على معاصيه دون حساب بل إن الله سبحانه وتعالى أوعد الكافرين بالخلود فى النار إذا لم يؤمنوا، وأوعد العصاة بالعذاب على ما ارتكبوه فكل كافر وكل عاص

سوف يدخل نار جهنم ويخلد الكافر فيها، ولن يسوى بين الكافر والمؤمن فإذا كان الكافر يلقى عذابه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، فإن المؤمن الذى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويعمل الأعمال الصالحة عبادة وقربى إلى الله، وإصلاحًا فى معاملاته مع الناس وإحسانًا فى حياته الدنيا أعد الله له الخلود فى جنة الرضوان.

وهذه عدالة الحق سبحانه ألا يسوى بين المجرمين والمسلمين.

وهذا الحكم ليس خاصًا بشعب دون آخر ولا أمة دون أخرى، فاليهود مثلهم مثل غيرهم من بقية البشر يخضعون للحساب العادل، فمن آمن منهم وعمل صالحًا نجا من العذاب واستحق الجنة ونعيمها ومن استمر على كفره وعصى مولاه استحق الخلود فى النار كغيره من الأشرار ولن تنجيه شفاعة الشافعين.

وتتضمن الآية الأولى دعوى اليهود أن عذابهم فى النار لن يتعدى أيامًا معدودة، وإبطال زعمهم الكاذب وقد عبّر المولى سبحانه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾.

جملة «قالوا» حالية معطوفة على قوله تعالى- قبل ذلك- ﴿ **وقد كان فريقًا منهم** ﴾ - وقيل غير ذلك- وكان هذا من مفترياتهم وأكاذيبهم التى تجعلهم ليسوا أهلاً للإيمان الذى يطمع فيه الرسول والمؤمنون من هذه الفئة من الناس.

والمس: اتصال أحد الشيئين بآخر، ويلتقى مع اللمس فى بعض معانيه.

ويقصد بالنار: جهنم.

وعبّر بقوله «معدودة» عن معنى القلة ويقال: إن هذا التعبير جاء جريًا على عادة العرب فالعرب تسمى ما تيسر عده قليلاً وما تعسر عده كثيرًا فإذا قالوا: شىء معدود فمعناه أنه قليل، وإذا قالوا شىء غير معدود فمعناه أنه كثير.

زعمت اليهود أنها تعذب أربعين يومًا مدة عبادتهم العجل أو أنها تعذب سبعة أيام تبعًا لما حكى الأصمعى عن بعض اليهود أن عدد أيام عبادتهم العجل سبعة أو كما روى عن ابن عباس ومجاهد أن اليهود قالوا: عمر الدنيا سبعة آلاف سنة تعذب عن كل ألف سنة يومًا.

وطلب المولى سبحانه من رسوله- وعليه المؤمنون- أن يسألهم عن مدى صحة ما زعموا محاجة لهم ﴿ **قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾.

العهد: بمعنى إخبار الله لهم بما قالوا من وعد ووعيد أو هو الوعد بما قالوا، والهمزة فى ﴿ **أَتَّخَذْتُمْ** ﴾ للاستفهام التقريرى- وحذفت همزة الوصل من الفعل «اتخذ».

وكأنه يريد أن يقررهم بأحد الأمرين اتخاذ العهد بأن الله تعالى قد أعطاهم وعدًا بما زعموا- وهذا ليس بواقع على الحقيقة- والأمر الثانى كذبهم على الله وافتراؤهم عليه بنسبة الزعم بهذه المعاملة إليه ﴿ **أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ وأم - حينئذ- متصلة وقد جاء الاستفهام فى صورة التردد فى تعيين أحد الأمرين مع أن الرسول ﷺ يعلم علم اليقين بالثانى منهما وهو افتراؤهم على الله والتقدير: أتخذتم أم لم تتخذوا بل تقولون.

وقيل إن الاستفهام إنكارى لإنكار الاتخاذ ونفيه وأم منقطعة تفيد الإضراب بمعنى بل ومعنى بل الإضراب والانتقال من التوبيخ وإنكار الاتخاذ إلى التوبيخ بالتقول على الله، وجعل السكاكى أم متعينة للانقطاع لوقوع الجملة بعدها، ومن ادعى أنها متصلة لم يمنع وقوع الجملة بعدها كذلك.

وقوله تعالى: ﴿ **فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ** ﴾ جواب شرط محذوف والتقدير: إن كان الأمر كذلك فلن يخلف الله عهده والفاء الفصيحة تعرب عن هذا الشرط المقدر.

ولا يضر أن الجواب مستقبل والشرط ماض كقول الشاعر:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا   ثم القفول فقد جئنا خراسانا

فالفاء الفصيحة تفيد كون مدخولها سببًا عن المحذوف سواء ترتب عليه أو تأخر.

وجعل بعضهم مادخلت عليه الفاء الفصيحة دليل الجواب وضع موضعه والتقدير إن كنتم اتخذتم عند الله عهدًا فقد نجوتم لأنه لن يخلف الله عهده.

وجملة الشرط والجواب معترضة بين جملة ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ والمعادل لها وهو جملة ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ فلا محل لا من الإعراب.

وبعض اللغويين لايقول بوجود جملة شرطية محذوفة بل يجعل الفاء فى قوله: ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ للسببية ليكون اتخاذ العهد مترتبًا عليه عدم إخلاف الله تعالى عهده، ويكون المنكر مجموع الأمرين اتخاذ العهد وعدم إخلافه المترتب عليه.

وقد وبخهم المولى سبحانه- على إسنادهم إلى الله ما لا يعلمون وقوعه- مع أنهم أسندوا إليه من قبل ما يعلمون عدم وقوعه، للمبالغة فى التوبيخ فإن التوبيخ على الأدنى وهو غير المعلوم يستلزم التوبيخ على الأعلى وهو المعلوم بطريق الأولى.

وقوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وإن لم يكن صريحًا فى نسبة الافتراء إليهم على الله فإنه يدل عليه بطريق اللازم، ولاشك أن الكناية أبلغ من التصريح.

وقد أبطل المولى سبحانه قولهم الأول مرة أخرى على وجه أعم وأشمل لهم ولغيرهم من الكفار فقال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا هو الرد الثانى الدافع لهم بأن دعواهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة زعم باطل بل إن النار تمسهم وغيرهم من الكفار دهرًا طويلاً، وزمانًا مديدًا، والعموم برهان على إبطال زعمهم.

ولذلك لم يقل «بلى إنهم أصحاب النار» بل جاء عامًا شاملاً لجميع الكفار من أمثالهم وهم داخلون فيهم.

وبلى: حرف جواب مثل جير ونعم إلا أنها لا تقع جوابًا إلا لنفى متقدم سواء دخله استفهام أم لا فتكون إيجابًا له وهى جواب عن قولهم- قبل ذلك- ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

والسيئة الفاحشة الموجبة للنار وهى الكبيرة التى يستحق فاعلها النار.

والكسب: تحصيل النفع وقد أسند إلى فاعل السيئة على سبيل التهكم لأن فعلها لايحقق له نفعًا على الحقيقة بل يضره كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ الإحاطة: الشمول وعموم الظاهر والباطن، والخطيئة: هى الفعلة القبيحة التى يأتيها الإنسان عرضًا غير مقصود فى نفسه كأن يكون القصد إلى شىء فيقع فى شىء آخر كمن رمى صيدًا فأصاب إنسانًا بخلاف السيئة فإنها الفاحشة المقصودة لذاتها فالفرق بينهما أن السيئة تطلق على ما يقصد بالذات، والخطيئة تطلق على ما يقصد بالعرض لأنها من الخطأ ومعنى أن الخطيئة أحاطت به أنها استولت عليه من جميع جوانبه بحيث لم يبق له جانب من قلبه ولسانه وجوارحه إلا وقد اشتملت عليه كأنها صارت خاصة من خواصه ولذلك فسرت السيئة والخطيئة هنا بالكفر فهما- هنا- بمعنى واحد.

فمن كان على تلك الحال من اقتراف جريمة الكفر ﴿فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ذكر المصاحبة تدل على معنى الملازمة فالصحبة فى العرف تخص بالكثرة والملازمة، فهم أصحابها أى ملازمون للبقاء فيها على سبيل الخلود الذى بمعنى الدوام.

والمعتزلة يرون أن فاعل الكبيرة- من المؤمنين- يخلد فى النار بدليل هذه الآية ورد عليهم بأن مرتكب الكبيرة غير الكفر لم تحط به خطيئته لأنه لو لم يكن له سوى تصديق قلبه ولسانه لكفى دلالة على عدم إحاطة الخطيئة به.

وإذا كانت المعتزلة ترى أن العمل داخل فى الإيمان فليس لهم حجة فى الآية لأن الخطيئة فيها مفسرة هى والسيئة بالكفر فلا دلالة على ارتكاب غيره.

وما قاله الجبائى من أن الله تعالى -فى هذه الآية- توعد العصاة بالعذاب الدائم لا دليل عليه لأن الله تعالى يرد على جرم بنى إسرائيل بادعاء قلة العذاب وهو خاص بالكافر فحسب.

و«من» شرطية أو موصولة مبتدأ وجملة الشرط كسب أو صلة الموصول، وجواب الشرط أو خبر المبتدأ ﴿فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ويسوغ ذلك وقوع الفاء فى الجواب أو الخبر ويسوغ اعتبار «من» اسم موصول وجود قسيمه فى الآية التى بعد ذلك ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا... إلخ﴾.

وقد لاحظ اللفظ فى «من» فأتى بالضمائر الثلاثة فى كسب ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ على الإفراد ثم لاحظ المعنى فى التعبير باسم الإشارة الدال على الجمع ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ ولذلك سبب وجيه قائم على أساس أن الإقرار راجع إلى أن ارتكاب المعصية يتم من كل واحد على حدة ويلتقى العصاة فى النار فى صورة الجمعية.

وعبّر باسم الإشارة دون غيره مثل أن يقول فهم أصحاب النار لاستحضار المشار إليه من ضده الجماعة التى اتصفت بعمل السيئة وأحاطت بها الخطيئة فاستحقت النار الدائمة.

وآثر اسم الإشارة للبعيد للدلالة على بعد منزلتهم فى الكفر والضلال وشناعة قبحها.

ثم أكمل الحق سبحانه الصورة بما يدل على الترغيب بعد الترهيب فوصف حال المؤمنين العاملين واستحقاقهم جنة الرضوان، وعبّر عن ذلك بقوله عز حكمه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وفى ذكر الحالين المتقابلين من أهل النار وخلودهم، وأهل الجنة وخلودهم ما يبرز صورة أهل الوعيد وقد فاتهم الثواب وصورة أهل الوعد وقد نجوا من العقاب، فيكون ذلك داعيًا إلى التنفير من العصيان والعزوف عنه، وداعيًا إلى الترغيب فى الطاعة والانخراط فى سلكها.

ولسائل أن يسأل: لماذا عطف العمل على الإيمان؟ وما دلالة هذا العطف؟

عطف العمل على الإيمان يدل على المغايرة وأن مسمى العمل غير مسمى الإيمان وهو ليس شرطًا فيه عند أهل السنة، فالإيمان عقيدة هى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله والإيمان بسائر الرسل والكتب والملائكة واليوم الآخر وبالقدر خيره

وشره حلوه ومره وإذا قيل : إن جزء الشيء قد يعطف عليه للتشريف فالإيمان أشرف من العمل لأنه أساس قبول الأعمال الصالحة وأى عمل لايكون صاحبه على إيمان فهو ساقط على درجة الاعتبار كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور : ٣٩] وعليه فمرتكب الكبيرة غير خارج عن الإيمان .

والمراد بالذين آمنوا : المؤمنون بمحمد ﷺ والمؤمنون من الأمم السابقة كما قال ابن عباس وغيره وهو الظاهر ، وقيل المراد أمة محمد ﷺ خاصة ، واسم الموصول ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مبتدأ صلته ما بعده ، وعطف على الصلة ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وجملة ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ خبر المبتدأ .

ولسائل أن يسأل : لم ذكر الفاء فى جملة الخبر مع أصحاب النار وحذفها مع أصحاب الجنة؟

فنقول : لأن الفاء مع الوعيد- فى الأولى- والوعيد مظنة أن يتجاوز الله عنه دون الوعد فهو متحقق الوقوع بناء على كرم الكريم فى الحالين فأكد الأول بالفاء دون الثانى .

وقيل : إن ذكر الفاء وحذفها فى الحالين إشارة إلى الرحمة الإلهية جريًا على أساليب العرب فى ذلك ، تقول : «من دخل دارى فأكرمه» فهذا الأسلوب- مع الفاء- يقتضى إكرام كل داخل وقد لايكرم أحدهم ، ولكنك حين تقول : «من دخل دارى أكرمه» فإنه يقتضى إكرام كل داخل دون ريب أو تخلف عن الإكرام .

وقيل ذكر الفاء- فى الأولى- للدلالة على عدل الله بأن أدخل الكفار النار بسبب سيئاتهم ، وأدخل المؤمنين الجنة بفضل الله وكرمه لأن الإيمان والعمل الصالح لايفى بشكر نعم الله تعالى على عبده فى هذه الدنيا ومصداق ذلك قوله ﷺ : «لا يدخل

أحداً عمله الجنة قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته».

[٣٢] قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣].

صورة أخرى من جنايات بنى إسرائيل يذكر بها الحق سبحانه فيقول لرسوله والمؤمنين- وهم يطمعون فى إيمان اليهود المعاصرين: اذكروا ما حدث من أسلافهم حين أعطيناهم مبادئ شريعتهم فى التوراة والوحى إلى نبيهم موسى- عليه السلام- بأن يخصوا الله تعالى وحده بالتوحيد والعبادة، وأن يحسن الأبناء إلى الآباء فى الاحترام والتقدير والعناية بشئونهم وكفالتهم لهم جزاء أنهم سبب وجودهم، ورعايتهم لهم منذ طفولتهم حتى صاروا رجالاً، كما طلبنا منهم العناية بمن يمت إليهم بصلة القرابة فوصل الأرحام من مبادىء الشرائع الإلهية التى بلغها الأنبياء إلى أقوامهم، وكذلك التكافل الاجتماعى بمد الرعاية والعون لمن فقدوا آباءهم- وهم صغار فى سن لايستطيعون فيها رعاية أنفسهم ولا حفظ أموالهم ولا القيام بأعباء العيش والحياة - ومد العون- كذلك- للمساكين الذين يحتاجون إلى سد رمقهم، والإيواء فى مسكن يضمهم ولباس يقيهم بأس الحر والبرد، وأمرناهم بحسن المعاملة مع الناس بالقول الحسن وطيب المعاشرة والألفة، وأمرناهم- كذلك- بإتمام الصلاة المفروضة عليهم فى شريعتهم، وإيتاء الزكاة المقدرة بحسب ماجاء فى كتابهم على لسان نبيهم، ولكن أكثرهم لم ينفذوا ماجاء فى ميثاقهم، وأبوا أن يستجيبوا، وبأن أغلبهم على غير الهدى ولم يتحقق العمل بمقتضى هذه الشرائع إلا من عدد قليل منهم.

وهذه الآية تشتمل على جوانب لغوية تحمل سمات من أساليب العربية ذات الدلالة والمغزى فى سبك لغوى فريد:

أولاً: التعبير عن أخذ الميثاق بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ من معتاد أسلوب القرآن الكريم حينما يذكر الظرف «إذ» أن يحذف عامله المقدر فى صدر الكلام لأن سياق الكلام يرشد إليه فالتقدير فى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾: واذكر إذ أخذنا والمخاطب بفعل الأمر «اذكر» هو النبى ﷺ والمؤمنون معه لأن الهدف اطلاعهم على جريمة أخرى من جرائم اليهود غير تلك التى ذكرت من قبل وهى عدم استجابتهم لأوامر الله تعالى ونواهيه المذكورة فى التوراة، وذلك للتدليل على فساد الأسلاف وانتقال ذلك إلى الأخلاف.

وقيل: المخاطب بالفعل «اذكر» المقدر هم اليهود المعاصرون للنبى ﷺ للتسجيل عليهم- تبعًا لأسلافهم- بالعناد والعصيان وتوبيخهم على ذلك.

وذكر «بنى إسرائيل» بلفظ الغيبة إشارة إلى الأسلاف وامتدادًا إلى الأخلاف فالميثاق - التوراة- كتاب جميعهم على امتداد العصور، ولذلك فمرة يذكر الميثاق منسوبًا إلى بنى إسرائيل، وأخرى يذكره مضافًا إلى المخاطبين من المعاصرين مثل قوله قبل ذلك وبعده: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ﴾.

ثانيًا: التعبير عن المبدأ الأول من مبادئ الميثاق بقوله سبحانه: ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ هذه جملة خبرية تشتمل على الفعل المضارع المنفى بـ «لا» وبعده إلا الاستثنائية على طريق الاستثناء المفرغ ويجعلها اللغويون معمولاً لعامل مقدر مفهوم من السياق على تقدير: قلنا لهم أو قائلين لهم لا تعبدون إلا الله أو جواب قسم دل عليه المعنى أى حلفناهم لاتعبدون أو جواب الميثاق نفسه بدلالته على القسم.

وعلى أن الجملة فى محل المعمول لعامل مقدر تكون خبرية فى معنى النهى كقوله تعالى: ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وكقولك- لمن تخاطبه- تذهب إلى فلان وتقول له كذا وكذا وأنت تريد أن تقول له: اذهب إلى فلان وقل له كذا وكذا.

ويؤيد أن هذه الجملة الخبرية فى معنى النهى قراءة ابن مسعود «لاتعبدوا» على النهى والجملة- الأخرى- المعطوفة عليها: «وقولوا للناس حسنًا..».

ولسائل أن يسأل: لم فضلت صيغة الخبر- في الآية- على صيغة النهى الصريح مع أنه الأنسب لعطف الجملة؟.

فنقول: إن النهى الضمنى أبلغ من النهى الصريح للدلالة والإشعار بحقه في المسارعة إلى التنفيذ وأن على المخاطبين أن يسارعوا إلى ذلك فتقع منهم العبادة لله وحده فى الزمن الحاضر، ولايعكر على ذلك أنهم لم ينفذوا ولم يأتمروا، فإن الشأن هو المسارعة إلى التنفيذ.

وتحقق التناسب بعطف الجمل الإنشائية حال النهى الصريح جائز بيد أنه يجوز عطف الجمل الإنشائية على الجمل الخبرية فيما له محل من الإعراب- كما هنا- ولايفوت الغرض البلاغى الذى أشرت إليه فهو أولى- لذلك.

وقرأ بعضهم: «ألا تعبدوا إلا الله» وعلى ذلك تعد مصدرًا مؤولاً فى مقام البدل من الميثاق أو معمول له مع حذف الجار أى أخذنا الميثاق بألا تعبدوا أو على ألا تعبدوا إلا الله.

وفى النص الكريم- على هذا النسق- التفات من التكلم إلى الغيبة فى «أخذنا» و«إلا الله» والتفات من الغيبة إلى الخطاب فى «بنى إسرائيل» و«لاتعبدون».

وعلى أن المخاطب فى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ المعاصرون منهم يكون الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ثم الانتقال إلى الخطاب مرة أخرى.

وقرئ «يعبدون» بالياء على الغيبة لأن الحديث ـ أساسًا- عن الأسلاف الغائبين الذين أنزلت عليهم التوراة.

ثالثًا: التعبير عن المبدأ الثانى بقوله سبحانه: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الباء وما دخلت عليه والمصدر متعلق بعامل مقدر أى: وتحسنون إذا أحسنوا، أو أن الجار والمجرور متعلق بالمصدر بعده، ﴿إِحْسَانًا﴾ وهذا جائز لأن المصدر نائب مناب فعله، وهو يتعدى بالباء مثل قوله: ﴿أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وعلقه بعضهم بفعل تقديره: «ووصينا» وتكون «إحسانًا» مفعولاً لأجله.

والجملة معطوفة على ما قبلها.

و«الوالدين» تثنية والد وهو يطلق على الأب والأم حقيقة أو تغليبًا بناء على أن لفظ «والد» خاص بالأب والوصية بالوالدين تتكرر كثيرًا فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ويكفى دلالة على تأكيد الوصية بهما وأهميتها اقترانها بالأمر بعبادة الله وتوحيده فى الآيات كقوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله عز حكمه: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى غير ذلك.

رابعًا: التعبير عن ود ذوى القربى واليتامى والمساكين والإحسان إليهم بقوله سبحانه: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ عطف «ذى» وما بعدها على «الوالدين قبلها.

والقربى مصدر مثل الرجعى يقصد به قرابة الصلب والرحم واليتامى جمع يتيم كندامى جمع نديم وهو قليل وليس بقياس ويجمع على أيتام.

واليتيم: من فقد أباه وهو دون البلوغ، وأطلقه بعضهم على من فقد أمه- أيضًا- والأول هو الشائع فى بنى الإنسان أما البهائم فإن اليتيم يكون من جهة فقد الأم، وفى الطير من جهتى الأب والأم.

واليتم- فى اللغة- الانفراد - كالدرة اليتيمة- ويطلق اليتم بمعنى الغفلة، وفى المعنى الاصطلاحى شيء من المعنى اللغوى لأن اليتيم انفرد عمن يضمه إلى رعايته، ويتغافل الناس عن بره أو يبطئون عنه.

والمساكين: جمع مسكين على وزن مفعيل مأخوذ من السكون لأن حاجته إلى المال والرعاية أسكنته وأضعفته ويقال: تمسكن والأصح تسكن أى: صار مسكينًا.

وقد اختلف اللغويون وعلماء الشريعة فى المراد بالمسكين والفقير وهل بينهما فرق أو هما بمعنى واحد.

قال صاحب القاموس: الفقر- ويضم-: ضد الغنى، وقدره أن يكون له ما يكفى عياله، أو الفقير: من يجد القوت، والمسكين: من لا شيء له، أو الفقير: المحتاج، والمسكين: من أذله الفقر أو غيره من الأحوال.

والفقير - على ما روى عن الإمام أبى حنيفة - رضى الله عنه - من له أدنى شىء، وهو ما دون النصاب، أو قدر نصاب غير نام وهو مستغرق فى الحاجة، والمسكين من لا شىء له فيحتاج للمسألة لقوته، وما يوارى بدنه ولذلك تحل له المسألة، لكنها لا تحل من يملك قوت يومه بعد ستر بدنه، أو من يستطيع الكسب، أخرج أبو داود والترمذى والنسائى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سألنا وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته فى وجهه خموش أو خدوش أو كدوح**، قيل: يارسول الله: وما يغنيه؟ قال: **«خمسون درهمًا أو قيمتها من الذهب»**، وأخرج أبو داود عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف»** وكانت قيمة الأوقية فى ذلك الزمان أربعين درهمًا.

ووجهة أبى حنيفة بأن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، ودليله على ذلك قوله تعالى: **﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾** [البلد: ١٦] فالمسكين يلصق جسمه بالتراب فى حفرة يستتر بها مكان الإزار، ويلصق بطنه بالتراب من شدة الجوع، ولم يوصف الفقير بذلك.

ومع أن الفقير لا تحل له المسألة يجوز دفع الزكاة إليه ولو ملك عدة نُصب، إذا كانت مستغرفة فى حاجته والعالم الفقير يجوز دفع الزكاة إليه ولو كان يملك من الكتب ما قيمته نصاب أو أكثر لأنه يحتاج إلى كتبه فى التدريس.

ووجهة الشافعى - رضى الله عنه - عكس ذلك الفقير - عنده - من لا مال له ولا كسب يقع موقعًا من حاجته، والمسكين: من له مال أو كسب لايكفيه، فالفقير - عنده - أسوأ حالاً من المسكين، واستدل على ذلك بقوله تعالى: **﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾** [الكهف: ٧٩] فأثبت للمسكين سفينة، وبما رواه الترمذى عن أنس وابن ماجة والحاكم عن أبى سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: **«اللهم أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحشرنى فى زمرة المساكين»** وما رواه أبو داود عن أبى بكرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: **«اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفاقة»** ولأن الله تعالى

قدم الفقير على المسكين فى آية الزكاة لأن حاجته أشد ولأن الفقير من كسرت عظام صلبه فهو مكسور الفقار .

وقد أجيب على تلك الدلائل بما يذهب وجه الاستدلال بها وقد تعددت الروايات فى معنى الفقير والمسكين ، وتعارضت بين أن يكونا صنفين أو صنفًا واحدًا وورد فى القاموس القول بأنهما سواء .

وقد أوصى الله تعالى بكل هؤلاء خيرًا الوالدين أولاً- لأنهما صلب القرابة- ويليهما القريب تنبيهًا على صلة الأرحام ، وبعده اليتيم لعدم قدرته على تدبير مصالح نفسه تدبيرًا يصلح حياته فكفالته واجبة ولها الجزاء الوافى عند الله تعالى ويكفى قول الرسول ﷺ: **«أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين»** وأشار ﷺ بالسبابة والوسطى ، وجاء بعدهم بالمسكين وهو من يحتاج إلى معونة غيره بالمال ونحوه ، وهو أقل حاجة من اليتيم لأن المسكين يستطيع أن يباشر أعماله بنفسه أما اليتيم فلا .

ولسائل أن يسأل : لماذا عبّر بـ «ذى القربى» فأفرد «ذى» دون أن يجمع فيقول «ذوى القربى»؟

فنقول : - والله أعلم- إن «ذى» يراد به الجنس ، وقد أضيفت للمصدر «القربى» فيدخل فيه كل ذى قرابة ، ولعل التعبير بالإفراد يجعل ذوى القربى من القرب والتلاحم كأنهم شخص واحد .

خامسًا: أمرهم بمخاطبة الناس بالحديث الطيب ، وقد عبّر عنه بقوله عز شأنه : ﴿ **وقولوا للناس حسنًا** ﴾ أمرهم بالقول الحسن- بفتح الحاء والسين- على معنى قولوا للناس قولاً حسنًا فعبّر بالمصدر ليفيد المبالغة فى إحسان القول ، وقيل : الحُسن - بضم فسكون- لغة أخرى فى الحسن- بفتحتين- مثل الرُّشد والرَّشد والعُرب والعَرب والبُخل والبخَل . . إلخ .

وقرأ حمزة والكسائى ويعقوب «حسنًا» بفتحتين .

والمراد بالقول الحسن: الكلام اللين الطيب وما يحبون أن يخاطبوا به أو كان مما أخذ في الميثاق على بنى إسرائيل أن يقولوا الحق ويعلموا الناس ما فى التوراة من تصديق الإسلام وصفة رسوله ﷺ.

وقرئ: «حسنى» على وزن فُعلى وتكون صفة أيضًا والتقدير: قولوا للناس حسنى أى كلمة حسنى.

وفسرت- على ذلك- بوجهين، عدم التفضيل بمعنى مقالة حسنة أو أن تكون على معنى التفضيل: أى مقالة أحسن من غيرها، ومجيئها غير مضافة، ولا معرفة بأل نادر ويقع فى الشعر كقول الشاعر:

وإن دعوت إلى جلى ومكرمة يوما كرام سراة الناس فادعينا

سادسًا: أمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾ هذه الدعوة إلى أداء الصلاة وإخراج الزكاة مما اشتمل عليه ميثاق بنى إسرائيل على النحو الذى أمروا به فى شريعتهم، وإن دل بصورة عامة على دعوة كل مؤمن إلى ذلك، ويقصد بإقام الصلاة: المداومة على أدائها وإحسان أفعالها وأقوالها، والإيتاء: الإعطاء، ويقصد صرف الزكاة كما أمر الله تعالى بها مما أرشد إليه رسله وأنبياؤه إلى أقوامهم.

وبعد هذه التعاليم التى اشتمل عليها ميثاق بنى إسرائيل بين موقفهم منها وأنهم سواء كان منهم الأسلاف أو الأخلاف، لم يعملوا بمقتضاها أو عملوا مدة ثم عصوا أمر ربهم، وعبّر عن ذلك بقوله عز حكمه: ﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ**﴾ جاء ذلك على سبيل التوبيخ، وقطع الأمل فى إيمان أخلافهم لنقضهم الميثاق وعدم التزامهم بالعمل بما فيه.

وقد عمم الخطاب فى قوله ﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ**﴾ لبنى إسرائيل جميعًا بتغليب أخلافهم- المعاصرين للنبى ﷺ ومن بعدهم- على أسلافهم لأنه أتى بهم قبل ذلك مجتمعين فى

قوله ﴿ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وهذا يدل على أن الخطاب فى قوله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ موجه إلى النبى ﷺ والمؤمنين معه.

أما إذا كان هذا الخطاب موجهًا لبنى إسرائيل المعاصرين له ﷺ فالخطاب عام أيضًا فى قوله ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ من باب تنزيل الأسلاف منزلة الأخلاف لأن الجميع عاص ومتول، القدامى منهم عصوا الله ولم ينفذوا ما فى الميثاق من الأوامر والنواهى، والمعاصرون لم يعملوا بما فى الميثاق من معالم الإيمان بمحمد ﷺ وما جاء به مصدقًا لميثاقهم فكلاهما مكذب خارج على حدود شريعتهم وما أمرهم به نبيهم موسى عليه السلام.

ولذلك كان التولى عامًا فالمعاصرون على سنن المتقدمين منهم فى العصيان وهذا يدعو إلى توبيخهم على فعلهم القبيح وهو رفضهم الميثاق وبعدهم عن العمل بمقتضاه.

ولم يشذ عن ذلك إلا قليل من الأسلاف ممن اتبع اليهودية الصحيحة وقليل ممن أسلم من المعاصرين مثل عبد الله بن سلام وغيره.

والتولى هو أن يرجع الرجل عوده على بدئه وهم قد تركوا العمل وعادوا إلى المخالفة.

وهذه الجملة معطوفة بحرف العطف «ثم» على جملة ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.

وجاءت «ثم» للاستبعاد لتفيد شناعة جرم التولى والامتناع عما ينفعهم إلى ما يضرهم وعلى هذا المعنى يكون ارتدادهم بعد أخذ الميثاق.

ويمكن أن تكون«ثم» على أصل وضعها تفيد معنى التراخى فى الزمان، وعلى هذا المعنى يكون الانقياد قد وقع منهم مدة طويلة، ثم حدث الارتداد من بعد، وهو أشد قبحًا من عدم انصياعهم من أول الأمر.

ونصب «قليلاً» على الاستثناء فى كلام تام موجب- على المشهور عند العرب والنحاة.

وروى عن أبى عمرو وغيره من القراء رفع «قليلاً» وخرج على أنه بدل من الضمير الفاعل فى «توليتم» والذين خرجوه على ذلك ادعوا أن الكلام وإن كان موجبًا فإنه فى معنى المنفى- غير الموجب- فـ «توليتم» فى معنى «لم تفوا» وخرج على ذلك قوله ﷺ: - فى الصحيح- : «العالمون، هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر».

فالمعنى على النفى، أى «لم ينج» إلا الفرقة الفلانية.

وقول الشاعر:

وبالصريمة منهم منزل خلق ... عاف تغير إلا النؤي والوتد

فمعنى عاف تغير: لم يبق

وقيل: «إن «إلا»- صفة بمعنى غير ظهر إعرابها على ما بعدها وهذا لايتأتى إلا على مذهب ابن عصفور الذى يجوز الوصف بإلا مطلقًا سواء كان الموصوف نكرة أو معرفة، ظاهرًا أو مضمرًا لكن غيره يخص جواز ذلك بما إذا كان الموصوف نكرة أو معرفًا بلام الجنس، وعقد سيبويه لذلك بابًا فى كتابه وهو: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله:

أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة ... قليل بها الأصوات إلا بغامها

وقيل: يرفع «قليل» - فى الآية- على أنه مبتدأ خبره محذوف والتقدير «إلا قليل لم يتولوا»، وجملة «وأنتم معروضون» أى قوم شأنكم الإعراض.

ولسائل أن يسأل: ما الذى دل على هذا المعنى؟

فنقول: هو ورود الجملة بصورة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام، والجملة- على الراجح- حال مؤكدة للجملة قبلها.

ولكن هل التولى غير الإعراض أو مثله؟

فرق بعضهم بين التولى والإعراض.

فالتولى- كما ذكرت من قبل- أن يرجع عوده على بدئه، أى يرجع من حيث أتى، فهو أقرب أن يعود منهجه الأول.

أما الإعراض فهو: أن يترك المنهج، ويأخذ فى عرض الطريق، ومعنى ذلك أن المعرض لايسير على منهجه السابق الذى كان عليه فهو تارك للمنهج آخذ فى عرض الطريق وكأنه يحاول أن يعرف منهجه فيعسر عليه الرجوع إليه فهو أشد بعدًا وسلوكًا منحرفًا عن القصد.

ومن هنا جاءت الجملة الثانية مؤكدة لما ترمى إليه الجملة الأولى من ضلال هؤلاء الناكصين على عهد الله وميثاقه المنصرفين عنه انصرافًا أدى إلى وقوعهم فى التيه والضلال والشرور.

ولذلك كان هذا التذييل قويًا فى إفادة خروجهم على حقوق الميثاق، وعدم طاعتهم لما جاء فيه.

[٣٣] قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٨٤-٨٦].

هذه الآيات الكريمة استمرار للحديث عن نقض اليهود لعهود الله تعالى عليهم، وفى الآيات السابقة حديث عن نقضهم للعهود المتعلقة بحقوق الله تعالى، وهنا يتحدث القرآن الكريم عن نقض اليهود للعهود المتعلقة بحقوق العباد واستقامة الحياة بين الناس.

لقد أخذ الله تعالى على بنى إسرائيل- فى التوراة- أربعة عهود تتعلق بحقوق العباد تناولتها الآية الكريمة الأولى والآية التى تليها. وهذه العهود هى:

- **الأول:** ألا يقتل بعضهم بعضًا.
- **الثانى:** ألا يخرج بعضهم بعضًا من دياره.
- **الثالث:** ألا يتعاون بعضهم على غيره لإيذاء صاحبه.
- **والرابع:** أن يفدى بعضهم بعضًا إذا وقع أسيرًا فى حرب عدوانية.

وهذه العهود الأربعة مبادئ لاستقامة الحياة بين الناس ولوقايتهم من شرور اليهود وسعيهم بالفساد فى الأرض، وقد قرر المولى سبحانه هذه العهود وطالب اليهود- عند نزول التوراة- بالعمل بمقتضاها وحذرهم من مخالفتها حتى لا تحل بهم الكوارث وعقاب الله الأليم، وعدم تخفيفه عنهم لأنهم آثروا الدنيا على تنفيذ ما أمروا به من عهود التوراة ولا معين لهم ولا شفيع.

وقد عبّر المولى سبحانه عن إلزام اليهود بهذه العهود بقوله عز حكمه: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾** الميثاق: اسم لما تقع به الوثاقة، وهى الإحكام فى العقد والربط، والمراد به: العهد المؤكد باليمين.

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات تدل على عهود أخذها الله تعالى على البشر وأنواع من الناس، كذلك العهد الذى أخذه على جميع ذرية آدم بأن يقروا بربوبيته كما يفيده قوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾** [الأعراف: ١٧٢].

وأيضًا العهد الذى أخذه الله على الأمم أنهم إذا بُعث فيهم رسول مصدّق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره وذكره فى الكتب المتقدمة ولم يخالفوا حكمه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١] وهذا العهد خاص بأهل الكتاب ونبذهم ماجاءت به الرسل وراء ظهورهم، قال عز حكمه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١].

ومن هذه المواثيق تلك العهود الأربعة التى أخذها الله تعالى على بنى إسرائيل وتضمنتها الآيتان الكريمتان اللتان بين أيدينا.

وقد أخذ هذا الميثاق على الأسلاف من اليهود بيد أن الخطاب فى قوله تعالى: ﴿ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ موجه إلى اليهود المعاصرين للنبى ﷺ لأنهم من سلالتهم ومطالبون بمثل ما طولب به السابقون من آبائهم وكأنه قال أخذنا ميثاق آبائكم، وهم ملة واحدة وجنس واحد.

وقد اشتملت الآية الأولى على مبدأين: فالمبدأ الأول- وهو تحريم قتل بعضهم بعضًا- عُبر عنه بقوله سبحانه: ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ يقال فى اللغة: سفك الدمع والدم يسفكه ويسفكه سفكًا: أراقه وصبّه، والسفك: الصب والإراقة واسم الفاعل منه سافك، وصيغة المبالغة، سفاك، ويقال- أيضًا- أسفك يُسفك بمعنى سفك وبه قرئ ﴿ لَا تُسْفِكُونَ ﴾ بضم التاء وليست من القراءات المتواترة.

والمبدأ الثانى- تحريم إخراج بعضهم بعضًا من داره وقد عُبر عنه بقوله تعالى: ﴿ تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ ﴾ النفس مأخوذ من النفاسة، فنفس الإنسان أشرف ما فيه، والدار: المنزل المحتوى على أبنية يقيم فيها الإنسان وقال بعض اللغويين: كل

موضع حله قوم فهو دار لهم وإن لم تكن فيه أبنية، وقيل: سميت داراً لدورها على سكانها كما سمى الحائط حائطًا لإحاطته على ما يحويه.

والمراد: لايخرج بعضكم بعضًا من داره.

وهذان المبدآن يرسمان صورة لطلب الحياة الآمنة المستقرة على الأرض بترك العدوان على الناس وإخراجهم من ديارهم بغير حق.

والتعبير القرآنى- مبدأ عام- ينهى اليهود عن قتل النفس وإخراج الآخرين من ديارهم- بشتى الصور- سواء أكان هذا القتل لبنى جنسهم من اليهود أم لغيرهم من أجناس البشر، فقد خلق الله الناس للتعارف والتآلف لا للحرب والعدوان ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ [الحجرات: ١٣].

ولسائل أن يسأل: لم عبّر القرآن الكريم بقوله: ﴿**لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ**﴾ فهل يسفك أحد دمه ويخرج نفسه من داره؟

فنقول فى الجواب: إن عدوان الإنسان على أخيه الإنسان بالقتل والإخراج اختلال لميزان الإنسانية وقضاء على كيان النوع البشرى وإتلاف لحضارة الإنسان وقيمه وأخلاقياته.

وما أبرع القرآن الكريم حين عبّر عن عدوان الإنسان على أخيه الإنسان بأنه سفك الإنسان دم نفسه وإخراج الإنسان نفسه من داره فى قوله: ﴿**لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ**﴾ فإذا قتل شخص نفسًا قريبة منه ترجع إلى جنسه وطائفته فإن هذا القتل جريمة شنعاء محطمة لروح الجماعة وقاضية على كيانها فكأن الشخص القاتل يهدم قومه ويقضى عليهم وفى ذلك قضاء على نفسه وهلاك له وكذلك الاعتداء من القريب على قريبه بإخراجه من داره يعد عدوانًا على نفسه لأنه نيل من أسرته التى هى عنصر قوته ووجوده وأمنه واستقراره.

وهنا نهى لليهود عن عدوان بعضهم على بعض بالقتل والإخراج من دورهم وهم رهط واحد وأمرهم واحد، ولذا جعل القرآن الكريم قتل بعضهم بعضًا قتلاً لأنفسهم وإخراجهم إخراجًا لهذه الأنفس.

ثم ذيل الآية بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ الإقرار: هو الرضا بالأمر، والموافقة عليه استعدادًا للعمل به، وقد وافق اليهود على هذا الميثاق وحملوا أنفسهم تبعة العمل به.

وقد وثق هذا الميثاق بشهادة اليهود على أنفسهم كما جاء التعبير القرآني بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ وشهادة المرء على نفسه مفسرة بالإقرار فالعطف هنا للتأكيد كقولك، أقر فلان شاهدًا على نفسه.

وهذا يعنى أن المقرين من آباء اليهود وأسلافهم شهدوا على أنفسهم بالاستجابة والقبول، ومن المحتمل أن يكون قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ موجهًا إلى المعاصرين لنبينا ﷺ فهم شهود على ما وقع من آبائهم.

وهذا التذييل للآية بيان لإلزام اليهود بهذه المبادئ حتى لا يحيدوا عنها لكن الواقع أثبت خلاف ذلك فقتلوا النفس وأخرجوا بعضهم من ديارهم كما يتبين ذلك من الآية التالية:

والآية الثانية تتحدث عن أمرين:

- **الأول**: مخالفات اليهود لما أخذ عليهم فى الميثاق.

- **والثانى**: حكم القرآن الكريم عليهم بعد نقضهم العهود السابقة

فالأمر الأول يتضمن نقضهم للعهد بقتال أنفسهم وإخراج بعضهم بعضًا من ديارهم نصرة لحلفائهم من الأوس والخزرج وفداء أسراهم، وقد جاء التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾.

هذا خطاب لليهود المعاصرين للنبى ﷺ وبيان ما حدث منهم من نقض العهود التى أخذت على آبائهم وهى تشملهم أيضًا .

وذلك أن الأوس والخزرج- وهم الأنصار- كانوا فى الجاهلية عبّاد أصنام وكانت بينهم حروب كثيرة وكانت يهود المدينة ثلاثة قبائل «بنو قينقاع» و«بنو النضير» حلفاء الخزرج و«بنو قريظة» حلفاء الأوس فكانت الحرب إذا نشبت بين الأوس والخزرج قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه فيقتل اليهودى أعداءه وقد يقتل اليهودى الآخر من الفريق الآخر وذلك حرام عليهم فى دينهم ونص كتابهم ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا الأسرى من الفريق المغلوب فيفتدى بنو قينقاع والنضير من كان من أسراهم فى أيدى الأوس ويفتدى بنو قريظة من كان فى أيدى الخزرج منهم ويعاونهم فى ذلك الفداء فريق اليهود المحالف للقبيلة الغالبة من الأوس أو الخزرج مع أنهم لو أمكنهم قتل ذلك الأسير فى وقت الحرب لقتلوه، وقد عيروا بذلك : كيف يقاتلونهم ثم يفدونهم فقالوا : أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ولكنا نستحى أن نذل أو يستذل حلفاؤنا فذمهم الله تعالى على المناقضة وقد جاء التعبير القرآنى عن قتال بعضهم بعضًا بقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أى أنتم يا هؤلاء اليهود تفعلون ذلك بنصرتكم للأوس والخزرج من حلفائكم وقد وقعت «أنتم» مبتدأ أخبر عنه بجملة «تقتلون» واسم الإشارة منادى اعترض به بين المبتدأ والخبر- وتعد هذه الآية الكريمة دليلاً على جواز حذف حرف النداء مع اسم الإشارة .

وعبّر القرآن الكريم عن نصرة اليهود لحلفائهم من الأوس والخزرج بقوله تعالى : ﴿تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ تظاهرون : مأخوذ من التظاهر- بمعنى التعاون- وهو مشتق من الظهر لأنهم يقوون حلفاءهم فيكونون كالظهر لهم .

وفى القرآن الكريم آيات تشتمل على مادة «ظهر» التى تدور حول معنى التعاون

والتآزر كقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فقوله «تظاهرا» و«ظهير» راجعان إلى معنى التعاون. وأصل «تظاهرون»: تتظاهرون بتاءين الأولى حرف المضارعة والثانية تاء التفاعل فاجتمع مثلان واجتماعهما ثقيل فخفف بحذف التاء الثانية لدلالة الأولى عليها ولحصول الثقل بها ولعدم دلالتها على معنى المضارعة.

وقرأ أهل المدينة ومكة «تظاهرون»- بالتشديد- يدغمون التاء الثانية فى الظاء لقربها منها تخفيفًا وأجيز الإدغام لقرب المخرجين فالتاء من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا والظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا ولكون الظاء أقوى من التاء أدغمت التاء فى الظاء.

والإثم: فى الأصل- الذنب وجمعه آثام ويطلق على الفعل الذى يستحق عليه صاحبه الذم واللوم ويطلق- أيضًا- على ما تنفر منه النفس ولا يطمئن إليه القلب كما قال عليه الصلاة والسلام: «الإثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

والعدوان: مصدر معناه: الإفراط فى الظلم والتجاوز فيه والمشهور ضم عينه وفيه لهجة أخرى بالكسر فيقال «العدوان» والباء فى «بالإثم» تفيد معنى الملابسة فالمراد: تتعاونون على بنى جنسكم بحلفائكم ملتبسين بالإثم والعدوان.

وقد جاء التعبير القرآنى عن فدائهم الأسرى بقوله سبحانه: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾: الواو فى الفعل «يأتوكم» ضمير يعود إلى فريق اليهود الذى كان يخرج من دياركم وقت الحرب فبعض هؤلاء المطرودين كان يقع أسيرًا فى يد خصمه، وبعد نهاية المعركة يحاول بنو جنسه من اليهود فداءه من الأسر.

وأسارى: جمع أسير والأسير مشتق من الإسار لأنه يشد وثاقه كما فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤]، ثم سمى كل من يؤخذ فى الحرب أسيرًا وإن لم يشدوا وثاقه.

و«أسارى»- بضم الهمزة- قراءة الجماعة ما عدا حمزة، وهو جمع أسير بمعنى مأسور، والقياس أن يجمع أسير على أسرى- وقرأ به حمزة مع الإمالة- كما تقول: قتيل وقتلى وجريح وجرحى فوزن «فعلى» من جموع التكسير يطرد فيما دل على آفة من «فعيل» بمعنى مفعول كجريح وأسير ولا يجمع على «فعالى» إلا ما كان وصفًا على وزن «فعلان» أو «فعلى» مثل سكران وسكرى كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

ويظهر أن جمع أسير على «أسارى» من قبيل اختلاف لهجات العرب كما ذكر ذلك أحمد بن فارس في كتابه «الصاحبي في فقه اللغة».

وقال بعضهم: إن «أسير» يجمع على أسرى وأسارى جمع الجمع.

وقوله تعالى: «تفادوهم»: الفداء: طلب الفدية في الأسير والفداء- بكسر الفاء- يمد ويقصر «الفداء- الفدا» وقد تفتح الفاء فيأتي مقصوراً فقط «الفدا» والفدا والفدا والفدية: كله بمعنى واحد.

ويقال في اللغة: فداه وفاداه: إذا أعطى فداءه فأنقذه وفدى وفادى فعلان يتعديان إلى مفعولين الثاني منهما بحرف الجر تقول: فديت نفسي بمالي وفاديته بمالي. قال الشاعر:

قفي فادي أسيرك إن قومي وقومك ما أرى لهم اجتماعًا

وقد قرأ نافع وحمزة والكسائي «تفادوهم» والباقون «تفدوهم».

والمراد: تنقذوهم الأسر بالمال أو بالرجال كتبادل الأسرى.

ويقال: فداه بنفسه وفداه يفديه: إذا قال له: جُعلت فداك، وتفادوا: فدى بعضهم بعضًا وعليه قول الشاعر:

مهلاً فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد

والفداء هنا من جملة ما أخذ على بني إسرائيل.

وهنا نأتى إلى الأمر الثانى وهو حكم الله تعالى على تصرف اليهود المشين بنقض العهد فنلاحظ عدة أمور:

- **الأول:** الحكم بحرمة هذا التصرف بقتال بعضهم بعضًا وإخراجهم من ديارهم قال تعالى: ﴿**وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ**﴾ «هو»: هنا ضمير الشأن ويسمى ضمير القصة أو كناية عن الحديث والقصة ولايرجع إلا على ما بعده، إذ لايجوز للجملة المفسرة له أن تتقدم هى ولا شىء منها عليه وفائدته: الدلالة على تعظيم المخبر عنه وتفخيمه ويكون ملازمًا للإفراد ومن أمثلته: قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ١]- ﴿**فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ [الأنبياء: ٩٧] ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ**﴾ [الحج: ٤٦].

وجملة ﴿**مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ**﴾ تفسير لضمير الشأن وهى خبره وهذا الإخراج محرم فى التوراة لكنهم نقضوا العهد فيه.

- **والأمر الثانى:** ذمهم لسوء مسلكهم وقد عبّر عنه بقوله تعالى: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**﴾: جاء هذا الذم لهم لتمسكهم بفداء الأسرى وتعطيلهم المبادىء الأخرى من تحريم القتل والإخراج والمعاونة فلم يتركوا هذه المحرمات بل فعلوها.

والهمزة للإنكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام، أى أتفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب- وهو المفاداة - وتكفرون ببعض- وهو حرمة القتل والإخراج- مع أن من قضية الإيمان ببعضه الإيمان بالباقى لكون الكل من عند الله تعالى داخلاً فى الميثاق.

فمناط التوبيخ كفرهم ببعض المبادئ مع إيمانهم ببعضها الآخر حسبما يُفيده ترتيب النظم الدقيق.

- **والأمر الثالث:** جزاؤهم فى الدنيا والآخرة وقد جاء التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿**فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ**﴾.

فى كتب اللغة : خزى خزيًا : ذل وهان أو وقع فى بلية وأخزاه الله : أذله وأهانه، وقد أخزى الله اليهود فى الدنيا فقتل بنو قريظة عقب غزوة الأحزاب ونفى بنو النضير إلى الشام وضربت عليهم الجزية .

وفى الآخرة أعد لهم أشد العذاب .

وقال تعالى : «يردون» - بالياء- على أسلوب الغيبة رجوعًا به إلى قوله- قبل ذلك- «أفتؤمنون- فما جزاء من يفعل ذلك منكم » فالأسلوب على الخطاب لكنه جاء بالفعل «يردون»- بالياء- التفاتًا من الخطاب إلى الغيبة ليدل على فظاعة ما وقع فيه هؤلاء المخالفون .

والتذييل بقوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ : لتأكيد الوعيد السابق وهو أنه يعلم جرائمهم فيعاقبهم عليها ومن بينها ما سبق بيانه عنهم، وقرأ نافع وابن كثير وغيرهما بالياء «يعملون» على ما سبق بيانه فى «تردون» .

والآية الثالثة وهى قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ : تدل على بيان قبح ما فعلوا بنقضهم العهود التى أخذت عليهم ميلاً إلى مآربهم الدنيوية على تنفيذ ما أمروا به من عهود التوراة مما يعود عليه بالثواب فى الآخرة، وعبّر عن تفضيلهم الدنيا بالمشترى ﴿ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ وعبّر عن تركهم جانب الآخرة بالثمن الذى يدفع فى نظير المشترى المرغوب فيه ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ وهو وإبراز المعنوى فى صورة المحسوس لتتضح الخسارة التى لحقت بهم من ضياع الثواب، ونزول العذاب جزاء كفرهم ببعض مبادئ التوراة بقتلهم أنفسهم وإخراجهم فريقًا من ديارهم فحل عليهم الخزى فى الدنيا، وينتظرهم العذاب الشديد فى الآخرة، فقتلوا وأسروا وضربت عليهم الجزية، ولن يخفف عنهم شىء من هذا الذى حل بهم فى الدنيا، ولا ما ينتظرهم فى الآخرة فلا شفيع ولا نصير .

وتعرب «أولئك» مبتدأ و«الذين» بدلاً منه، وجملة «اشتروا» صلة الموصول، وخبر المبتدأ «فلايخفف عنهم العذاب» ودخلت الفاء فى جملة الخبر مراعاة لاسم الموصول .

ويجوز أن يعرب «أولئك» مبتدأ، و«الذين» مبتدأ ثانيًا وجملة «فلايخفف عنهم العذاب» خبر الثانى، والمبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول.

وجملة ﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ معطوفة على ما قبلها عطفًا للجملة الاسمية على الجملة الفعلية، وجوز بعضهم جعل الضمير «هم» فاعلاً لفعل محذوف يفسره ما بعده «ينصرون» فيكون من عطف الجملة الفعلية على الجملة الفعلية.

والضمير «هم» ليس ضمير فصل فلايفيد الحصر، وإنما قدم لرعاية الفاصلة والتأكيد بتكرير الإسناد، والدليل على أن تقديم هم ليس للحصر أنه لم يقل فى الجملة السابقة «فلا عنهم يخفف العذاب» فالمقام- إذا - مقام التقوية فى الإخبار.

[٣٤] قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧-٨٨]

تتحدث الآية الكريمة الأولى عن موقف اليهود من كثير من الرسل الذى أرسلهم الله تعالى إليهم ليوجهوهم إلى العقيدة السليمة بعبادة الله تعالى وحده والاستجابة لأوامره ونواهيه بيد أنهم لطبيعتهم المجبولة على العناد وارتكاب الجرائم والتى لم تتغير فى الخلف منهم عن السلف- كفروا بالرسل واحدًا بعد الآخر، وارتكبوا أقبح الفعال معهم فكذبوهم وتمادوا فى إهانتهم فقتلوا فريقًا منهم.

وهذه الآية تتضمن عدة أمور:

- **الأول:** بعث موسى- عليه السلام- بالتوراة وتتابع الرسل من بعده رسولاً فى إثر رسول.
- **الثانى:** إرسال عيسى- عليه السلام- إليهم وإيتاؤه البينات وتأييده بروح القدس.

- **والثالث**: عدم استجابة اليهود لهؤلاء الرسل وارتكاب أبشع الجرائم معهم بالتكذيب تارة والتقتيل تارة أخرى.

فبالنسبة للأمر الأول قال الله تعالى عن بعث موسى - عليه السلام - **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾**: الإيتاء: الإعطاء، وآتيته: أعطيته كما في قوله سبحانه: **﴿لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾** والكتاب: التوراة.

فالمعنى: أعطينا موسى التوراة، أى أوحينا بها إليه.

وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك فى آية سالفة هى قوله تعالى: **﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** [البقرة: ٥٣] فدعاهم إلى الإيمان بالله تعالى وبين لهم الحلال والحرام والوعد والوعيد وغير ذلك من المبادئ الإلهية كما قال تعالى - فى آية أخرى -: **﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾** [الأنعام: ١٥٤]، وأراد بهذا هدايتهم فلم يهتدوا من ضلالهم فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها.

وأما توالى الرسل فقد قال عنه سبحانه: **﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾**: القفا: مؤخر العنق، ويقال له القافية، ومنه قول رسول الله ﷺ فى تثبيط الشيطان للإنسان عن صلاة الفجر «**يقعد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نائم ثلاث عقد يضرب على كل عقدة بيده عليك ليل طويل فارقد**».

وقد اشتق من القفا، قفوته: إذا تبعت قفاه وقفينا مأخوذ من هذا أيضًا فمعناه: أتبعنا الرسل رسولاً فى إثر رسول.

وقفى يتعدى لمفعولين أحدهما بنفسه والآخر بالباء الداخلة على التابع تقول: قفيت محمدًا بعلىّ أى اتبعت الأول بالثانى، وعلى هذا كان مقتضى سياق التعبير أن يقول: «وقفينا بالرسل» لكن بالنص القرآنى أقيم فيه الظرف - هو **﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾** - مقام المفعول الأول لتضمن **﴿قَفَّيْنَا﴾** معنى «جئنا»، فالمعنى: وجئنا من بعده بالرسل.

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] وهؤلاء الرسل كثير منهم داود وسليمن وإلياس واليسع ويونس وزكريا وغيرهم.

وكل رسول جاء من بعد موسى بين لهم ما بين موسى من الإيمان بالله تعالى وطاعته والعمل بأوامره واجتناب نواهيه إذ دعوة الرسل واحدة ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الشورى: ١٣].

وقد صدرت الجملة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى.. إلخ﴾ بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بإرسال الرسل إلى اليهود وتتابعهم وما فعلوه بهم من سوء وإبرازذلك في صورة مؤكدة غاية التأكيد.

والأمر الثاني- إرسال عيسى بن مريم- عليه السلام- عبّر عنه بقوله سبحانه: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: خص عيسى- عليه السلام- بالذكر من بين الرسل الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل لأن شريعته قد نسخت كثيراً من أحكام التوراة بنزول كتابه الإنجيل قبل تحريفه ولدحض فرى اليهود وقبح ما فعلوه بعيسى وبيان حقيقة أمره، وقد أعطى عيسى «البينات» وهي المعجزات والحجج والدلالات التي أعطاها الله تعالى لعيسى كتكليم الناس وهو في المهد وتصوير الطير والنفخ فيها وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦] ثم قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩].

وقال عز حكمه فى سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

هذه هى البينات التى أعطاها الله تعالى لعيسى- عليه السلام- تأييدًا لرسالته حتى يؤمن به من أرسل إليهم من اليهود ومع ذلك لم يجد منهم أذانًا مصغية أو عيونًا مبصرة أو قلوبًا متدبرة.

وقد عبّر عن تأييد المولى سبحانه لعيسى بروح القدس بقوله عز حكمه: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: فى كتب اللغة: آد الرجل يئيد- مثل- باع يبيع- اشتد وقوى، والأيد والآد- بالمد- القوة، وتقول أيده تأييدًا: قواه وشد من أزره وتأيد الشىء: تقوى، ورجل أيد- بوزن جيد- قوى.

فمعنى أيدناه: قويناه.

وروح القدس: جبريل، وقال حسان:

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس به خفاء

والقدس هو الطهارة وروح القدس جبريل وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، أى الروح المقدسة، وهى المطهرة.

والدليل على أن روح القدس هو جبريل ما رواه البخارى عن أبى هريرة- رضى الله عنه- عن عائشة- رضى الله عنها- أن رسول الله ﷺ وضع لحسان بن ثابت منبرًا فى المسجد فكان ينافح عن رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك**»، وفى بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «**اهجهم- أو هاجهم- وجبريل معك**».

فإذا سأل سائل: لم سمى جبريل روحًا؟ ولم وصف بالقدس؟

فنقول- وبالله التوفيق: سمى روحًا لما كان يقوم به من الإتيان بالوحى عن ربه وإيصاله إلى الرسل فكان يحمل إليهم ما تحيا به القلوب والأرواح من المبادئ الإلهية التى تصلح شئون الناس وتقوم حياتهم كما أن الروح تحيا بها الأبدان والأجساد.

ووصف جبريل بالقدس- ومعناه: الطهر- لطهارته عن مخالفة الله تعالى فى شىء فالملائكة لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون.

وقد أيد الله عيسى بروح القدس- جبريل- كما أيد غيره من الأنبياء- ومنهم نبينا محمد ﷺ- فكان يلهمه المعارف والعلوم وما يتعلق برسالته ويسير معه حيث سار ويعينه على الحوادث والشدائد التى تمر به ويبصره بما أراده به أعداؤه من اليهود ويرشده إلى الصواب فى أموره بما يبلغه له عن ربه وما يهديه إلى الصراط المستقيم.

والأمر الثالث: وهو موقف اليهود من الرسل الذين بعثهم الله إليهم عبّر عنه بقول المولى جل شأنه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا.. إلخ﴾ معطوف على كلام مقدر، أى: أرسلنا الرسل إليكم فلم تستجيبوا ولم تستقيموا فاستكبرتم كلما جاءكم رسول.. إلخ،.

وهذا المحذوف كناية عن التكذيب والقتل وغير ذلك من قبائحهم وعنادهم.

وقوله: ﴿بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾ أى بما لا يوافقها ولا يلائمها.

وتهوى- مضارع: هو- بكسر الواو- إذا مال وأحب، وأصل الهوى الميل إلى الشىء ويجمع على «أهواء» كما جاء فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤] وسمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى النار، ولذلك لا يستعمل فى الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لاخير فيه.

واستعمال «تهوى» فى الآية التى معنا من هذا القبيل فما تهوى أنفسهم إلا الشر والفساد والضلال.

وقد يستعمل الهوى فى الحق، ومنه قول عمر- رضى الله عنه- فى أسرى بدر: «فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت» أى فضل قبول الفدية على قتلهم، وقالت عائشة- رضى الله عنها- للنبى ﷺ فى صحيح الحديث: «**والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك**» أخرجه مسلم.

واستكبرتم: معناه أبيتم وامتنعتم عن إجابة كل رسول إلى ما دعاكم إليه من الحق احتقاراً منكم للرسل واستبعاداً للرسالة، وهذا هو محل الاستفهام وهو الموبخ عليه.

وقد نشأ عن استكبارهم مبادرتهم لفريق من الرسل بالتكذيب ومبادرتهم لفريق آخر بالقتل.

ولسائل أن يسأل: لم قدم التكذيب على القتل فى قوله تعالى: ﴿**فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾؟

فالجواب: أنه قدم لأنه أول ما يفعلونه من الشر وهو واقع منهم فى الحالتين معًا سواء كذبوا فقط أم كذبوا وقتلوا فإنهم قد كذبوا المقتولين من الرسل أيضًا، واكتفى بذكر القتل دون التكذيب- مع الفريق الثانى- لأن القتل أشد فظاعة من التكذيب فضلاً عن فهمه عن السياق.

وكان ممن كذبوه من الرسل عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وممن قتلوه يحيى وزكريا عليهما السلام.

ولسائل أن يسأل- أيضًا- لم جاء «تقتلون»- بالفعل المضارع- وكان الأصل أن يجىء ماضيًا؟ فيقول: «وفريقًا قتلتم» على سياق ما قبله؟.

فالجواب: أن التعبير جاء بالفعل المضارع لحكاية الحال الماضية ليصور الواقع فى الماضى كأنه واقع وقت التكلم ولذا أخبر عنه بالمضارع الدال على الحال لبيان شناعة قتلهم الرسل ولاستحضار تلك الصورة التى تقشعر منها الأبدان وتبرأ العقول السليمة.

والآية الثانية وهى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ تتضمن بيان حقيقة أمر اليهود وحال قلوبهم التى لم تؤثر فيها دعوات الرسل المتابعة، ولا كل أساليب الهداية، مع ظهور المعجزات وكثرة الدلائل على صدق ما حدثتهم به الرسل.

وهذا حكم على اليهود فى كل زمان ومكان مع أن القول هنا صادر من اليهود المعاصرين للنبى ﷺ.

والآية تشير إلى عدة أمور:

- **الأول**: دعوى وجود ما يحول دون وصول الحق إلى قلوب اليهود من الأغطية أو نحوها.
- **والثانى**: بيان الخلل الحقيقى بما فى قلوبهم من الكفر والضلال الذى بعدوا به من رحمة الله وهدايته.
- **والثالث**: ما يترتب على هذا الخلل من قلة الإيمان وضعف وصوله إلى قلوبهم.

فالأمر الأول: وهو دعوى مايحول دون وصول الحق إلى قلوب اليهود- عبّر عنه بقوله تعالى- على لسانهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ : غُلْف - بضم الغين وسكون اللام- جمع أغلف- كأحمر وحُمْر وأصفر وصُفر- أى مغطاة بأغطية فلا تعى ما تقول وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] أى فى أوعية تمنعها من قبول دعوتك، وحكى عن أهل اللغة: غلفت السيف- بتضعيف اللام-: جعلت له غلافًا، فقلب أغلف: أى مستور عن الفهم والتمييز.

وقلوب اليهود- دون ريب- مغطاة بالأغطية المعنوية التى صرفتهم عن قبول دعوات الرسل، وحدت بهم إلى تكذيبهم تارة وقتلهم تارة أخرى.

وقد عبّر القرآن الكريم عن الحوائل التى تصرف قلوب الكفار والمنافقين الضالة عن الإيمان بعبارات متفاوتة تؤدى معنى واحدًا فتارة يعبّر بالختم، كما فى قوله تعالى: ﴿خَتَمَ

اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وتارة يعبّر بالطبع عليها كما فى قوله سبحانه: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣] وقوله عز حكمه: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٥٥].

ولكن اليهود زعموا أن الأغطية محسوسة مدركة وقد أبطل القران الكريم هذا الزعم.

والأمر الثانى: بيان الخلل الحقيقى بما فى قلوب اليهود من الكفر والضلال عبّر عنه بقوله سبحانه: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أصل اللعن فى كلام العرب: الطرد والإبعاد فالمعنى: أبعدهم الله من رحمته أو من توفيقه وهدايته أو من كل خير وخذلهم عن القبول.

وقد زعم اليهود أن على قلوبهم أغطية حسية تصرفها عن قول الحق وأنها خلقت وجبلت مغشاة لايصل إليها الحق لييأس الرسل من دعوتهم وليس الأمر كما زعموا- لأن قلوبهم مخلوقة على الفطرة التى يمكن لها أن تقبل الحق ولكن الخلل الحقيقى لم يكن من وجود أغطية حسية بل لما بها من الكفر والضلال الذى أدى إلى طردهم من رحمة الله تعالى، ولذا أضرب القرآن الكريم عما قالوا بالتعبير المشتمل على «بل» التى للإضراب فى قوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، فبين أن السبب الحقيقى فى انصرافهم عن الحق والاستجابة لدعوات الرسل- ومنهم نبينا محمد ﷺ- هو بعد قلوبهم عن توفيق الله وهدايته بسبب كفرهم وضلالهم.

والأمر الثالث: وهو ما يترتب على هذا الخلل من قلة إيمانهم- وعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾: هذا التعبير القرآنى الدقيق يشمل عدة معان يحتملها السياق الذى يقوم على أساسه توجيه كلمة «قليلاً».

فإذا جُعلت «قليلا» صفة لمصدر محذوف هو الإيمان والتقدير «فيؤمنون إيمانًا قليلا» فيكون ذلك شاهدًا على قلة إيمانهم لأنهم يؤمنون بالقليل من أحكام التوراة ويكفرون بالكثير منها كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] وهو إيمان لاينفعهم لأنه مغمور بما كفروا به.

وإذا جُعلت «قليلاً» تعبيراً عن عدد الأشخاص المؤمنين فيكون المراد قلة عدد المؤمنين منهم.

وإذا جُعلت صفة لزمان محذوف والتقدير «فيؤمنون زمانًا قليلاً» فيكون المعنى أن إيمانهم لايستمر طويلاً فإذا آمن فريق منهم رجع عن إيمانه بعد مدة قصيرة، وهذه حال اليهود الذين كانوا يهزأون بالمؤمنين الصادقين فيدخلون فى الإيمان وقتًا مجاراة لهم ثم يعودون إلى الكفر استهزاء كما فى الآية الكريمة التى حكت قولهم فى هذا الصدد ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢] وقال بعض العلماء فى تفسير ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ إنهم كانوا لايؤمنون بشىء وإنما قال: ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم بالجميع كافرون كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط، تريد: ما رأيت مثل هذا قط.

وما أبدع النسق القرآنى فإن كل هذه المعانى مجتمعة يفيدها هذا التعبير الموجز، فهو شامل لمعان كثيرة يعجز عنها أصحاب البيان وهى من الإيجاز القرآنى الجامع لما لا تحيط به الخطب الطويلة والعبارات المستفيضة ولذا كان هذا التعبير القرآنى يقف فى الذروة من الدقة اللغوية، وعلى هذا فالمعانى المرادة أن إيمانهم قليل لقلة ما يؤمنون به أو غير صحيح أو لا إيمان لهم وعدد المؤمنين منهم قليل وكانوا فى معظمهم لا يستقرون على الإيمان إذا دخلوا فيه ليؤثروا بذلك فى جماعة المؤمنين الصادقين فكشف الله تعالى خداعهم وكفرهم وطبائعهم التى ينم عنها سلوكهم المشين البغيض.

[٣٥] قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [البقرة: ٨٩-٩٠].

فى الآية الكريمة الأولى حديث عن مجىء خاتم الأنبياء نبى البشرية محمد ﷺ وتوجيهه الدعوة الإسلامية إلى اليهود المعاصرين له بعد كثير من الرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى أسلافهم .

وقد جرى اليهود على عادتهم من العناد والعصيان وعدم الاستجابة فكفروا به ﷺ وبكتابه القرآن الكريم كما كفروا بغيره من الرسل من قبل وبما جاءوا به من أوامر إليهية وكتب سماوية .

وقد تضمنت هذه الآية بيان كفرهم بالقرآن الكريم ومن أنزل عليه وهو نبى البشرية محمد صلوات الله وسلامه عليه ، لما كان من أمنيتهم السابقة بخروج النبى من بينهم واستفتاحهم به على الكفار من العرب . ونأخذ معك - أيها القارئ الكريم - فى بيان الأسرار اللغوية التى تضمنتها الآية الكريمة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ .

الكتاب الذى جاء من عند الله : هو القرآن الكريم وما معهم : هو التوراة ، والقرآن الكريم مطابق لها فى حكم الإيمان والدعوة إلى الله تعالى وبيان صفة النبى ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الاستفتاح : الاستنصار تقول : استفتحت أى استنصرت وهو مأخوذ من الفتح بمعنى النصر ، وفتح الله على فلان نصره كما قال تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال : ١٩] أى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر .

وقد كان اليهود يقولون لأعدائهم من مشركى العرب : قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم وكانوا يتمنون أن يكون منهم واستعظموا أن يخرج من غير اليهود ، وكانوا يستنصرون به إذا حزبهم أمر أو دهمهم عدو فيقولون ، اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد صفته فى التوراة وكانوا يقولون : إنا نسألك بحق النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان أن تنصرنا به على على أعدائنا المشركين .

فلما جاء النبى ﷺ من العرب وأنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم حسدوه وحسدوا العرب عليه فكفروا به وبكتابه القرآن الكريم .

وهذه الآية توضح أمر القرآن الكريم وكفر اليهود به وأمر النبى ﷺ واستفتاحهم به ثم كفرهم عند بعثته ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ ويوضح النص القرآنى كفرهم بهما معًا النبى وكتابه كما يتضح من الجملة الشرطية التى بينت معرفتهم الجيدة بالنبى وكتابه ثم الكفر بعد المعرفة حسدًا وبغيًا .

والتعبير القرآنى - فى الآية الكريمة - وردت فيه «لما» وهى التى يسمونها «لما» الرابطة وتقتضى جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما ويكون شرطها وجوابها فعلين ماضيين .

وقد تكررت «لما» - فى الآية - فذكرت مرتين الأولى فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ .

والثانية فى قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ و«لما» الأولى ذكر معها جملة الشرط وهى ﴿ جَاءَهُمْ كِتَابٌ ﴾ واختلف العلماء فى الجملة الثانية المترتبة عليها وهى جواب «لما» فقيل : إن جملة الجواب محذوفة والتقدير : «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم كذبوه» فجملة «كذبوه» هى الجوا ب وهى محذوفة على معنى أنه عند مجئ القرآن الكريم المصدق للتوراة قابلوه بالتكذيب ودل على المحذوف الكلام الآتى بعد ذلك .

وقيل : جواب «لما» هذه هى جملة «لما» الثانية كلها ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ ويعبّر ذلك عن مجيء القرآن الذى كانوا يعرفونه فى التوراة قبل مجيئه فكفروا به .

وقيل : جواب «لما» الأولى هى قوله تعالى : ﴿ كَفَرُوا بِهِ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا ﴾ جاء تكرارًا وإعادة لما ذكر فى أول الآية من قوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ

اللَّهِ﴾ . . إلخ، وكررها لطول الكلام بين شرط «لما» وجوابها فهو تكرار لتذكير السامع والقارئ بأصل الجملتين المطلوب الربط بينهما وهو مجيء القرآن وكفرهم به .

وجملة ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معطوفة على جملة «لما» الأولى وتفيد أمنيتهم التى كانوا يحلمون بها من مجيء النبى منهم فلما ظهر من العرب كفروا به لذلك .

وكفرهم بالنبى والقرآن يمثل نتيجة أليمة لم تكن متوقعة بعد هذه الدلائل على صدق القرآن وصدق النبى المبعوث به- لكنهم- لما جُبلوا عليه من فساد الطباع وإنكار الحق الواضح- سلكوا هذا السلوك الذى لا تقره مبادئ السلوك المستقيم ، ولذا قال الله تعالى فى شأنهم : ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فوصمهم بالطرد من رحمته بسبب هذا الكفر الذى أعماهم عن الهدى .

ولسائل أن يسأل : لم قال : ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل : «فلعنهم الله» على ما يقتضيه السياق؟

فنقول - وبالله التوفيق : أتى بالجملة الإسمية دون الفعلية ليفيد ثبوت طردهم ولزومه لهم على الدوام ، وأتى بحرف الجر «على» فى قوله : ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ تنبيهًا على أن اللعنة قد استعلت عليهم وشملتهم وقال : ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل «عليهم» بوضع الاسم الظاهر موضع الضمير لينبه على السبب الحقيقى لطردهم من رحمة الله- وهو الكفر- وإنها لخسارة فادحة لليهود أضاعت عليهم حياتهم فى الدنيا والآخرة .

وقد تضمنت الآية الثانية أمرين :

- الأول : ذم كفرهم وبيان سببه وهو حسدهم وبغيهم .
- الثانى : استحقاقهم غضب الله المتكرر عليهم وعذابه المهين .

فالأمر الأول : وهو ذم كفرهم وبيان سببه- عبّر عنه بقوله تعالى : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾

تستعمل «بئس» فى كلام العرب للغاية فى الذم كما أن «نعم» تستعمل للغاية فى المدح ولا تدخلان إلا على أسماء الأجناس والنكرات فنقول: نعم أو بئس الرجل زيد أو نعم أو بئس رجلاً زيد.

ويجوز أن يليها «ما» وهى مبهمة تقع على الكثرة ولا تخص واحداً بعينه وتفسر بالاسم الموصول بمعنى الذى أو باسم نكرة بمعنى شىء.

واشتروا معناه: استبدلوا واختاروا والمعنى فى قوله: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ بئس الشىء الذى اختاروه لأنفسهم حيث استبدلوا الباطل بالحق والكفر بالإيمان.

والمخصوص بالذم هو ﴿أَن يَكْفُرُوا﴾ وهو فى تأويل مصدر تقديره: كفرهم.

ولسائل أن يسأل: لم قال: ﴿أَن يَكْفُرُوا﴾- بالفعل المضارع - مع أن كفرهم واقع فى الماضى؟

فالجواب: أن التعبير بالمضارع لحكاية الحال الماضية واستحضاراً لفعلهم الشنيع.

وجاء قوله تعالى: ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بيانًا لسبب كفرهم واستبدالهم الضلالة بالهدى وذلك حسدهم من أجل إنزال القرآن على محمد صلوات الله وسلامه عليه، وكانوا يودون أن يُنزل عليهم ويبعث النبى منهم فقد حسدوه لذلك وكفروا به من أجله.

وبغيًا: مصدر بغى إذا تجاوز الحد فى الظلم ومفعول «يُنزل» محذوف تقديره: «الوحى» و«من فضله» صفة لهذا المفعول المحذوف المفهوم من السياق، ومنه نأخذ أن إنزال الوحى بفضل الله وليس بواجب عليه.

ولم يصرح بالمحسود وهو النبى ﷺ لفهمه من السياق ولبيان أن الحسد مذموم فى كل حال.

والأمر الثانى: استحقاقهم غضب الله تعالى عليهم وعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾. يقال- فى اللغة- باء بكذا: أى رجع به.

ومعنى «باءوا»: رجعوا، وأكثر ما يقال فى الشر والمراد لزمهم ذلك واستحقوه.

وغضب الله تعالى: ذمه إياهم فى الدنيا وعقوبته الشديدة لهم فى الآخرة.

وتنكير «غضب» للتعظيم والتهويل وأن ما ينتظرهم عقاب شديد.

و«على» فى قوله: ﴿بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ بمعنى «مع» أى تكرر عليهم الغضب مرتين متصلاً أحدهما بالآخر.

وتكرر الغضب عليهم لتكرر جرائمهم التى صدرت منهم من عبادة العجل والكفر بالأنبياء السابقين ثم الكفر بخاتمهم محمد ﷺ وذلك مقتض لتكرار غضب الله تعالى عليهم.

وقيل: إن الغضبين للكفر بالقرآن والكفر بمن أنزل عليه وهو نبى البشرية محمد ﷺ، وقيل: إن تكرر الغضب ليفيد شدته وهذا يدل على شدة الحال عليهم وتأكيد الخسران والهلاك لهم وانتقام الله تعالى منهم شر انتقام.

وعبر المولى سبحانه عن استحقاقهم العذاب المهين بقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ الإهانة: الإذلال والخزى، ومهين صفة للعذاب وهو اسم فاعل من أهان يهين إهانة، فهو عذاب شديد يذلهم ويخزيهم لأن كفرهم بما أنزل الله تعالى كأ مبنًا على الاستكبار والحسد المبنى على طمع النزول عليهم وادعائهم الفضل على الناس والاستهانة بما أنزل على نبى البشرية محمد ﷺ.

وهذا هو جزاؤهم الذى استحقوه ويستحقه كل كافر مخالف لأوامر ربه مكذب لما أنزل على رسله.

ولما كان سبب كفرهم البغى والحسد ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالإهانة والصغار فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى: : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أى صاغرين حقيرين ذليلين.

وقد عبّر القرآن الكريم بالاسم الظاهر فقال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ دون التعبير بالضمير كأن يقول: «ولهم عذاب مهين» ليبين سبب استحقاقهم هذا العذاب وهو كفرهم وضلالهم.

[٣٦] قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]

هذه الآية الكريمة توضح الدعوة الإسلامية الموجهة إلى اليهود للإيمان بالقرآن الكريم، وإعراضهم عنه وادعاءهم أنهم مطالبون بالإيمان بكتابهم التوراة دون ما عداها ودحض هذه الدعوة وبيان كذبها بسبب ما ارتكبوا من جرائم قتلهم الأنبياء، فقتلهم الأنبياء يقتضى كفرهم بالتوراة وسائر ما أنزل الله تعالى على رسله من كتب إلهية فكلها تحرم هذا الجرم الشنيع، وتطلب الإذعان لدعوات الرسل الكرام واتباعهم وطاعتهم فى كل ماجاءوا به عن ربهم.

والآية- على هذا - تتضمن أمرين:

- **الأول:** دعوة اليهود إلى الإيمان بالقرآن الكريم وإعراضهم عن قبول هذه الدعوة بزعمهم أنهم مطالبون بالإيمان بالتوراة وما أنزل على بنى إسرائيل فحسب.

- **والثانى:** إبطال القرآن الكريم دعوى إيمانهم بالتوراة وبيان كفرهم بها وبغيرها من الكتب الإلهية بسبب ما ارتكبوه من قبائح الاعتداء على أنبياء الله تعالى.

ونبين لك- أيها القارئ الكريم- الأسرار اللغوية التى تضمنها التعبير القرآنى فى هذه الآية.

فالأمر الأول: وهو دعوة اليهود إلى الإيمان بالقران الكريم وإعراضهم عن الاستجابة له- عُبر عنه بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ جاء الفعل «قيل» مبنيًا للمجهول- ليدل على أن هذا القول موجه من

ناصح أمين لهم يبصرهم بطريق الخير والسعادة- وهو الإيمان بالقرآن الكريم- ولم يشأ أن يذكر الناصح ؛ لأنه معلوم من السياق- وهو نبى البشرية محمد ﷺ الذى دعا إلى الله ونزل عليه كتاب الحق القرآنى الكريم .

ويفيد عدم التصريح- أيضًا- صدور هذا القول من كثير من الناصحين من أصحاب الدعوة وأهل الإيمان .

والمراد بما أنزل الله : القرآن الكريم .

ولسائل أن يسأل : لِمَ لَم يذكر صريح لفظ القرآن فيقول : «آمنوا بالقرآن» وقال : ﴿آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ؟ .

فنقول : جاء الأسلوب كذلك ليسوق الدعوة إلى الإيمان بالقرآن مع الدليل والبرهان على صحته ، وهو إنزاله من عند الله فيكون أجمع للمعانى فى أوجز لفظ .

ولم يصرح- هنا أيضًا- بمن أنزل عليه القران وهو نبينا ﷺ لفهم ذلك من السياق ، وما يقتضيه الإيمان بالقرآن الكريم من الإيمان بصاحبه- وهو الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وقد قالوا فى جواب هذه الدعوة إلى الإيمان بالقرآن : ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ : المراد بما أنزل عليهم : التوراة ، فزعموا أنهم مطالبون بالإيمان بها دون غيرها فقالوا : إننا نفرق فى الإيمان بما أنزل الله فنصدق ماجاءت به التوراة التى أنزلت علينا دون سواها ، وبئس ما قالوا .

ويفهم من هذا القول الصادر من اليهود كفرهم بما أنزل على غيرهم من الكتب الإلهية ويشمل ذلك الكفر بما أنزل على محمد ﷺ .

ومقالتهم هذه تدل على صلفهم وعنادهم وهى هاوية بهم إلى الكفر والضلالة فلابد من التصديق بما جاءت به جميع الكتب الإلهية ليكون الإيمان صحيحًا ؛ ولذا يعد الإيمان ببعضها دون البعض الآخر كفرًا بجميع ما أنزل الله .

ولسائل أن يسأل: لم لم يصرحوا بكفرهم بالقرآن فكانوا يقولون نؤمن بما أنزل علينا ونكفر بالقرآن؟

فالجواب: أنهم تركوا ذلك التصريح لما فيه من وصف أنفسهم بالكفر وتسجيل هذا الفعل القبيح عليهم فأرادوا أن يبتعدوا عنه وألا يصموا أنفسهم به على الأقل من حيث الصورة اللفظية وإن فهم ذلك من السياق.

أما الأمر الثانى وهو إبطال دعوى اليهود الإيمان بالتوراة فقد عبّرت عنه بقية الآية فى جمل متتالية توضح كل منها وجهًا من وجوه تفنيد دعواهم الباطلة أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم.

فالوجه الأول من وجوه تفنيد هذه الدعوى كفرهم بالقرآن الكريم وقد عبّر عنه بقوله تعالى: ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾.

قال الجوهرى- فى الصحاح- المشهور أن «وراء» بمعنى خلف وقد يكون بمعنى قدام أو أمام- وهو من الأضداد، قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩] أى أمامهم.

ويأتى وراء بمعنى سوى التى بمعنى غير كما يقال للرجل المتكلم بالحسن: ما وراء هذا الكلام الحسن شىء أى ليس عند المتكلم به شىء سوى ذلك الكلام.

وفسر الفراء لفظ «وراء» فى الآية بمعنى سوى وفسره أبو عبيدة بمعنى بعد فالمراد أن اليهود يكفرون بما سوى التوراة أى بغيرها من كتب الله أو يكفرون بما نزل بعدها من كتب إلهية والمقصود بذلك كفرهم بالقرآن الكريم.

والواود فى ﴿ وَيَكْفُرُونَ ﴾ للحال أى قالوا نؤمن حال كونهم كافرين بالقرآن.

وهذه الجملة الحالية لها مدخل فى الرد على دعواهم الزائفة فهى تبطل قولهم ﴿ نُؤْمِنُ ﴾ فأين الإيمان مع كفرهم بغير التوراة- وهو القرآن-؟ فهى تحمل الدليل على كذب ادعائهم وضلالهم.

وهذا وجه من وجوه تفنيد دعواهم لأن الكفر ببعض الكتب الإلهية يعد كفراً بجميعها.

ونجيء بك إلى حجة ثانية على كذب اليهود فى قولهم ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وهى ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ فالقرآن مصدق للتوراة فى أحكام الإيمان وفيها نعت النبى ﷺ والدلالة على نبوته ومع ذلك كفروا بالقرآن وهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها.

وجملة ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ حال تعود إلى القرآن الكريم و﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ حال ثانية مؤكدة لأن قوله ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ قد تضمن معناها، والحق هو: الحكم المطابق للواقع وعرفه بأل فقال ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ ولم يقل «وهو حق» ليبين أن وصف القرآن الكريم بصحة أحكامه وصدقه أمر مسلم لايشك فيه أحد ولا يمارى.

وإذا كان القرآن الكريم ثابت الصحة واضح الصدق فإن كفر اليهود به عناد وعنت ويدل ذلك على شدة جهالتهم وزيادة التوبيخ والتقريع لهم.

وثالث الوجوه فى تفنيد دعوى اليهود الإيمان بما أنزل عليهم: قتلهم الأنبياء، وقد عبّر عنه بقوله تعالى: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ فهذا تكذيب لهم وتوبيخ لأن الإيمان بالتوراة مناف لقتلهم أشرف خلقه، فالتوراة- وغيرها من كتب الله- تدعو إلى اتباع الأنبياء وطاعتهم وتنهى عن الإساءة إليه والنيل منهم.

والخطاب هنا لليهود المعاصرين للنبى ﷺ.

وأصل معنى «لم»: لأى شيء؟ وأصلها «لما» وهى «ما» الاستفهامية دخلت عليها لام الجر، والمعروف أن «ما» الاستفهامية إذا جرت حذفت ألفها.

ولسائل أن يسأل: لم نسب القتل إلى اليهود المعاصرين مع أنه صدر من أسلافهم لا منهم؟

فنقول: جاز ذلك- مع أن القتل صدر من أسلافهم- لأن قتل الأنبياء طبع متأصل فى نفوس اليهود فى كل زمان ومكان ولا ننسى أن اليهود المعاصرين للنبى ﷺ حاولوا قتله فعصمه الله من كيدهم، فصح نسبة القتل إليهم فى هذا التعبير القرآنى الدقيق.

ولسائل أن يسأل- أيضًا: لم عبّر بالمضارع فقال: «تقتلون» ولم يقل «قتلتم» مع أن الفعل صدر من أسلافهم فى الماضى؟

فنقول: عبر بالمضارع مع أن القتل ماض لأن المضى مفهوم من قوله- بعد ذلك- «من قبل» ولأن المولى سبحانه يريد حكاية الحال الماضية ليصور ماحدث كأنه يحدث الآن لتتمثل تلك الجريمة الشنعاء- وهى قتلهم الأنبياء- للعيان كأنها حاضرة بما تحمل من إثمهم وفداحة ما ارتكبوه من منكر ممقوت.

والمضارع- كما يقول علماء اللغة- يفيد التجدد والحدوث ففيه- أيضًا- دلالة على محاولتهم قتل نبينا محمد ﷺ ولكن الله نجاه من شرهم وعصمه من تدبيرهم الخبيث.

وفى إضافة «أنبياء» إلى لفظ الجلالة فى قوله «أنبياء الله» تشريف عظيم وإيذان بأنه كان ينبغى لمن جاء من عند الله تعالى أن يعظم وينصر لا أن يُقتل.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ جملة شرطية جوابها محذوف دل عليه قوله قبل ذلك: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ﴾ أى إن كنتم مؤمنين فلم فعلتم ذلك؟.

والإيمان الذى تضمنته الجملة الشرطية منفى عنهم فالمراد لستم مؤمنين لمنافاة ما صدر منكم- من قتل الأنبياء- للإيمان، وهذا كما تقول لشخص يدعى الاستقامة على طريق الشريعة وهو يفعل السيئات: إن كنت مستقيمًا فلم تفعل السيئات؟ فهذا التعبير يفيد نفى الاستقامة عنه أى: لست مستقيمًا لارتكابك المعاصى.

وهكذا أوسعهم المولى سبحانه إكذابًا وتفنيدًا وقد أقام أسس الرد عليهم مدعمة بالحجج والبراهين القاطعة التى تضمنتها هذه الآية الكريمة والآيات التالية التى نعرض لها بحول الله وعونه فى مجالات أخرى.

●●●

الفصل الثاني

كثرة المعانى وجدتها وطرافتها في المشترك اللفظى فى القرآن الكريم

•• مادة «ملك» وتصرفاتها

الملك- بكسر الميم وبفتحها وسكون اللام- : احتواء الشىء والقدرة عليه والاستبداد به .

يقال : مَلك الشيءَ، وأملكه الشيءَ، وملكه إياه تمليكًا : جعله ملكًا له ، وملكه أمره : جعله إليه .

والملك نوعان :

ملك هو التملك والتولى ، وملك هو القوة والأهلية لأن يملك ويتولى وإن لم يفعل ذلكَ، كما قال تعالى- على لسان موسى لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٠]، فلم يكونوا كلهم ملوكًا ، وإنما بعضهم لكن كان فيهم الاستعداد لذلك ، أما النبوة فخصت ببعضهم .

والإنسان يملك زمام نفسه بصرفها عن هواها ، ويملك أمر غيره بتوليه أمرهم .

والملك صفة قائمة بذاته تعالى متعلقة بالغير تعلق التصرف التام ، وافتقار المتصرف فيه إليه ولهذا لم يصح على الإطلاق لله تعالى .

والمَلك هو الله تعالى ، ملك الملوك ، ويستعمل المَلك لغير الله تعالى مجازًا .

والمُلك- بضم الميم- أخص من المِلك- بكسر الميم أو فتحها - لأن المُلك- بضم

الميم- تعلق باستيلاء، وتمكن من التصرف، مع الضبط ومع استغناء من المالك، وافتقار المملوك إليه.

فالمُلك: ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم.

والمُلك عام فكل مُلك ملك وليس كل ملك ملكًا ومن معنى المُلك: - خصوصية الحكمَ والسلطان- قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

المُلك الأول حقيقى عام هو لله تعالى، والمُلك الثانى والثالث هو مُلك الناس «على سبيل المجاز»، وقيل المراد بهما النبوة أو المال أو أمور الدنيا والآخرة، يعطيه الله تعالى للبعض ويمنع منه البعض الآخر.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [يونس: ٣١].

أى: من يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة، أو يملك القدرة على التصرف فيهما إبقاءً وإذهابًا أو يحفظهما من الآفات؟

وتفسيرهما بخلق السمع والأبصار أرجح وأوفق لصدر الآية ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

فالمُلك له سبحانه لا لغيره، إذ هو سبحانه المبدئ لكل شىء، وهو القائم به والمهيمن عليه، وهو- عز وجل- المُولى لأصول النعم وفروعها.

وأما مُلك غيره سبحانه فهو استرعاء منه تعالى وتولية.

والذى يستحق الحمد هو الله سبحانه وتعالى، وإنما يحمد غيره لجريان إنعامه تعالى على يده، فكلا الأمرين له سبحانه وتعالى فى الحقيقة، ولغيره بحسب الصورة، وتقديم «له الملك» لأنه كالدليل لما بعده.

وقال تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٥٣، ٥٤].

تدعى اليهود ملك سيادة الدنيا، وملك خيراتها فاليهود أوتوا نصيبًا من المُلك حيث كانت لهم أموال وبساتين وقصور مشيدة كالملوك، ولكنهم بخلوا على غيرهم بأقل القليل.

النقير: وضع ابن عباس طرف الإبهام على باطن السبابة ثم نقرها أى أنه كمفصل من مفاصل السبابة ﴿**فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا**﴾ أى شيئًا قليلاً.

أم يحسدون الناس «... إلخ».

والمراد بالناس سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ أو المراد يحسدون جميع الناس الذين بعث إليهم النبى ﷺ والمراد أن اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ كانوا يحسدونه على النبوة أو كانوا يحسدون الناس وهم العرب على بعثة النبى منهم ونزول القرآن الكريم بلغتهم ويحسدون الأمة كلها على ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا**﴾ فالمراد أنه ملك لا يقادر قدره أعطى الله سبحانه وتعالى آل إبراهيم وهم أسلاف النبى ﷺ وأبناء عمه النبوة والملك فلا عجب أن يعطى رسول الله ﷺ النبوة مثلهم، والمُلك فى آل إبراهيم هو مُلك يوسف وداود وسليمان عليهم السلام، أو آل إبراهيم هم جميع ذريته وتشريف البعض تشريف للكل.

ومن الناس من فسر الحكمة بالعلم، والمُلك بالنبوة لكن الأول أرجح.

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ [النساء: ٥٥]. الضمير لليهود فبعضهم آمن بما أوتى إبراهيم عليه السلام وبعضهم لم يؤمن، أو الضمير يعود إلى ذرية إبراهيم جميعًا، فبعضهم آمن بما أوتى، وبعضهم لم يؤمن.

وهذا تسلية لرسول الله ﷺ من حسد اليهود له ولأمته، ووعد بنصر الله تعالى له عليهم، وبيان قبح ما فعلوا من الحسد.

المَلَكُوت: جاء هذا اللفظ فى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

الملكوت: مصدر للفعل مَلَك، أُدخلت فيه التاء مثل الرهَبوت والرحَموت- كما قال أهل اللغة- وتاؤه زائدة للمبالغة، ولهذا فُسر بالمُلك العظيم، والسلطان القاهر.

وهو مختص بمُلك الله تعالى وقد يقال لغيره فيقال لفلان ملكوت دولة كذا، أى: هو سلطان عليها.

والآية فى شأن سيدنا إبراهيم عليه السلام، قيل المراد فيها بـ «ملكوت السموات والأرض»، أن الله سبحانه وتعالى أرى إبراهيم عليه السلام ربوبيته، ومالكيته للسموات والأرض وسلطانه تعالى عليهما، وقيل أراه العجائب والدلائل التى فى السموات والأرض بأن خرجت له السموات السبع وكشفت له فنظر إلى ما فيهن، وفرجت له الأرضون السبع فنظر إلى ما فيهن، وقيل: ملكوت السموات هى الشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض هى الجبال والأشجار والبحار.

ولايلزم كون الرؤية بصرية تمكينه من النظر إلى كل شيء، بل تمكينه من معرفة دلالتها على شئونه عز وجل، ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾: معناه ليكون من الراسخين فى اليقين إلى درجة عين اليقين فى معرفة الله تعالى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨٣].

فالمراد القدرة والسلطان على كل شىء لله تعالى وحده.

مَلك: هو من مادة ألك: بمعنى أرسل، يقال مألك: هى الرسالة.

فأصل مَلك: مألك، ثم قدمت اللام فصار ملأك، ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال، فقيل مَلك فلما جمعوا كلمة مَلك ردوها إلى الأصل فقالوا: ملائكة وملائك.

والميم فى «مَلك»- على هذا التفسير والاشتقاق- زائدة.

ويقال للرسالة- أيضًا مألك، ومألكة، وهى من ألك الفرس اللجام يألك: إذا مضغه، والرسالة تُؤلكُ فى الفم.

وقيل: الملك من الملك، والمتولى شيئًا من السياسات يقال له مَلك وهذا فى الملائكة، فإذا كان المتولَى شيئًا من السياسات بشرًا قيل له ملك.

وبعض الملائكة يتولون أمورًا معينة يرسلون فيها أو يقومون بها، ومنه مَلكُ الموت، قال تعالى: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥]، ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات: ٤].

قال تعالى: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ [الذاريات: ١، ٥].

الذاريات: هى الرياح التى تذرو التراب.

الحاملات وقرًا: السحب الحاملة للمطر.

الجاريات يسرًا: السفن تجرى جريًا سهلاً إلى حيث سيّرت.

المقسمات أمرًا: الملائكة.

وقيل المراد بالجميع الرياح، فهى التى تذرو وتحمل السحاب وتقسمه فى الأقطار، لكن الأول روى عن عمر- رضى الله عنه- وقاله الإمام على بن أبى طالب- كرّم الله وجهه- وهو على المنبر.

وقد وردت آيات كريمة فى مطلع سورة النازعات تدل على ما يسند إلى الملائكة من أمور يسوسونها ويقومون بها .

قال تعالى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ [النازعات : ١ - ٧] .

قيل هى طوائف من ملائكة الموت عليهم السلام ينزعون الأرواح من الأجساد وهم ينشطونها : أى يخرجونها من الأجساد من نشط الدلو من البئر : إذا أخرجها ، ويسبحون فى إخراجها سبح الذى يُخرج من البحر ما يُخرج ، فيسبقون ويسرعون بأرواح المؤمنين إلى الجنة وبأرواح الكفار إلى النار ، فيدبرون أمر ثواب الخلائق وعقابها ، بأن يهيئوها لإدراك ما أعدّ لها من المتع والعذاب .

ومال بعض المفسرين إلى تخصيص النزع بأرواح الكفار ، والنشط والسبح بأرواح المؤمنين ، لأن النزع جذب بشدة ، وأردف بقوله سبحانه «غرقًا» على معنى الإغراق فى النزع من أقاصى الأجساد ، وقيل : «الغرْق» : نوع و«النزع» جنس وذلك أنسب للكفار .

والنشط : الإخراج برفق وسهولة وهو أنسب بالمؤمنين ، وكذلك السبح ظاهر فى التحرك برفق ولطافة ، وقيل : النشط هو حل عقدة سهلة الحل ، وأخذ منها إخراج روح المؤمن كما يقال أنشطت العقال ونشطته .

أقسم سبحانه وتعالى بكل ذلك للإجلال والإعظام بالإقسام به .

ويمكن أن تفسر «النازعات» بملائكة العذاب و«الناشطات» بملائكة الرحمة .

أو «السابحات» طوائف من الملائكة يسبحون فى مضيهم فيسبقون إلى ما أمروا به من الأمور الدنيوية أو الأخروية ، فيدبرون أمره ، من كيفيته ، وما لابد منه فيه ، ويعم ذلك ملائكة الرحمة وملائكة العذاب .

وقيل المراد بالنازعات: النجوم السيارة، تنزع أى تقطع الفلك على ما يبدو للناس حتى تنحط إلى الغروب، وتنشط من برج إلى برج، وتسبح فى الفلك، فيسبق بعضها بعضًا، فتدبر أمرًا من اختلاف الفصول وتقدير الأزمنة، ومواقيت العبادات، والمعاملات المؤجلة.

وقيل: حدوث الليل والنهار، أو هى النفوس الفاضلة التى تنزع بالموت من الأبدان، والناشطات: النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج، وتسبق إلى الملائكة.

أو إنه إقسام بسلوك النفوس، وتطهير ظاهرها وباطنها بالاجتهاد فى العبادة والترقى، وقيل هم الغزاة والسابحات تعود إلى الخير إلى غير ذلك من المعانى والأكثرون على تفسير هذه الآيات بالملائكة مطلقًا وهو المرجح تبعًا للمقام.

وجواب القسم محذوف يدل عليه ذكر أحوال القيامة، أى لتبعثن.

●●●

•• مادة قـــدر

القدر والمقدار: الكمية للشيء وما يقاس به، يقال قدّر الشيء بالشيء وقدّره به: قاسه به قال تعالى: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤].

والتقدير بالنسبة للبشر: التفكير في تسوية أمر وتهيئته، أو أن ينوي أمرًا ويعقد عليه خيرًا كان أو شرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ [الذاريات: ١٨].

ويقال: قدّر القوم أمرهم: دبروه.

قدّرت عليه الثوب أي جاء على المقدار

والفعل: قدر يقدر ويقدُر، وفي الحديث: «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فاقدُروا له**» أي قدِّروا له عدد الشهر حتى تكملوا ثلاثين يومًا، وقيل قدِّروا له منازل القمر فإنها تدلكم وتبين لكم أن الشهر تسع وعشرون أو ثلاثون، والأول أرجح.

تقدَّر له الشيء: تهيأ، وفي دعاء الاستخارة: «اقدره لي ويسره لي» أي: هيئه واقض لي به.

قدّر كل شيء ومقداره: مبلغه.

والقدّر: الكُنه، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام: ٩١] أي ما عظموه حق تعظيمه.

والمقدار: الموت، قيل: إذا بلغ العبد المقدار مات، ويقال ينزل الشيء بمقدار، أي بقدر وهو مبلغه المحدد له، والقدر: الغنى والفقر، وقدّر الشيء وسّعه وضيّقه كما قال تعالى: ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، أي طاقته، ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦].

وعلى هذا فالقدر والمقدار مرتبطان.

فالمقدار قياس الشيء على شيء وتقدير الله تعالى الأشياء يكون على قدر لا تتجاوزه وفقًا لعلم الله تعالى وإرادته من طبيعتها ووقتها ومكانها.

ومن هنا فإننا نعرض للقضاء والقدر على ما عرف فى علم الكلام.

قيل: القدَر هو القضاء والحكم ويقال بفتح الدال وسكونها وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء ويحكمه من الأمور.

وفعل الله تعالى نوعان:

١- نوع أوجده بالفعل أى أبدعه كاملاً دفعة لاتعتريه الزيادة و النقصان إلى أن يشاء الله أن يفنيه أو يبدله كالسموات وما فيها، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣]. ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عبس: ١٩]

٢- نوع كتبه سبحانه وتعالى أزلاً:

يقول أهل السنة إن علم الله سبق فى البشر فعلم كفر من كفر منهم، كما علم إيمان من آمن، فأثبت علمه السابق فى الخلق وكتبه، وكل ميسر لما خلق له وكُتب عليه.

وتقدير الله الخلق تيسيره كلا منهم لما علم أنهم صائرون إليه من السعادة والشقاء، وذلك أنه علم منهم قبل خلقه إياهم فكتب علمه الأزلى السابق فيهم وقدّره تقديراً، كما قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [النمل: ٥٧] أى علمنا أنها من المعاقبين.

والقضاء هو- فى أصله-: القطع والفصل فمرجعه إلى انقطاع الشيء وتمامه والمراد منه الحكم فهو كل ما أحكم عمله وأتم وأدى أداءً كاملاً أو أحكمَ وأنفذ وأمضى، ويقال قضى الشيء: صنعه وقدره، قال تعالى: ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه: ٧٢] أى اعمل

ما أنت عامل، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] بمعنى حكم وحتم، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤] القضاء هنا بمعنى الفراغ والإنفاذ، وتقول قضيت حاجتي وقضيت عهدي أي فرغت وأنفذت، ويقال قضى صلاته: فرغ منها.

وعلماء التوحيد يقولون بوجهات مختلفة، فالأشاعرة يرون أن القدر هو تنفيذ الأحكام ومعناه إيجاد الله الأشياء على قدر مخصوص، ووجه معين أراده الله تعالى.

فيرجع القدر عندهم لصفة فعل أنه عبارة عن الإيجاد وهو من صفات الأفعال، والقضاء عندهم أحكام مكتوبة، فهو إرادة الله تعالى الأشياء في الأزل على ما هي عليه فيما لايزال، فهو من صفات الذات عندهم.

ويرى الماتريدية أن القدر هو الأحكام المكتوبة، فهو تحديد الله تعالى أزلاً كل مخلوق بحده الذي يوجد عليه من حسن وقبح، ونفع وضر إلى غير ذلك، أي علمه تعالى أزلاً صفات المخلوقات، فيرجع عندهم لصفة العلم وهي من صفات الذات، والقضاء عندهم تنفيذ الأحكام، فهو إيجاد الله تعالى الأشياء مع زيادة الإحكام والإتقان، فهو صفة فعل عندهم.

وعلى هذا فالقدر حادث والقضاء قديم عند الأشاعرة، ولا كذلك عند الماتريدية.

والقدرة إذا وصف بها الله تعالى فهي تعني نفي العجز عنه، ومحال أن يوصف غير الله تعالى بالقدرة المطلقة، وإنما يقال بالنسبة للإنسان قادر على كذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠][(١)] وقال سبحانه: ﴿لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤] والقدير هو الفاعل لما يشاء على ما تقتضي الحكمة، لا زائدًا عليه ولا ناقصًا عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى، فلا أحد من البشر يوصف بالقدرة من وجه إلا ويصح أن يوصف بالعجز من وجه، والله تعالى هو الذي ينتفي عنه العجز من كل وجه، والمقتدر يقارب القدير في المعنى، يقول سبحانه: ﴿فِي

(١) وغيرها من السور.

مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر : ٥٥]، وقد يوصف البشر بالمقتدر أى المكتسب للقدرة .

وقدرة الله تعالى متعلقة بجميع الممكنات لأنه لو خرج ممكن عن تعلقها لزم منه العجز ، وهو محال عليه وهى فى تعلقها الصلوحى القديم : أى صلاحيتها فى الأزل للإيجاد والإعدام فيما لايزال ، وفى تعلقها التنجيزى الحادث أى الإيجاد والإعدام بها بالفعل .

وقد جاءت سورة فى القرآن الكريم هى سورة القدر ، فى أولها يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر : ١ ، ٢] .

القدْر : هو العظمة والشرف .

١- لإعلاء شأن رسول الله ﷺ وعظمة رسالته ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر : ٦٧] .

٢- لأن العمل الصالح فيها يكون ذا قدر عند الله بكونه مقبولاً ، وأن من فعله كان ذا قدر عند الله .

٣- لأنها ليلة عظيمة بنزول القرآن الكريم فيها .

٤- لنزول الملائكة فى أعداد هائلة .

وقال : ليلة القدر ، ولم يقل : ليلة قدر ، ليضيف تعريفين : التعريف بالإضافة للمضاف ، والتعريف بالألف واللام للمضاف إليه ، فالتعبير بقوله «ليلة القدر» علم لتلك الليلة فيه قوة التعبير بالمركب الإضافى .

وقد نزل القرآن الكريم من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر ، ونزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ فى ليلة القدر ، فهو شرف عظيم وهى ليلة القدر يمنحه الله تعالى لعباده فى كل رمضان .

وقال سبحانه : ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ، قال العلماء : مضاعفة الحسنات أمر جائز ، فالله تعالى يضاعف أجر صلاة الجماعة والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة

ضعف، ويضاعف أجر الصلاة فى الحرم، لذلك قيل: إن معنى «ألف شهر» أن أى عمل فى تلك الليلة من صلاة أو تلاوة قرآن أو غير ذلك يضاعف، وقال جماعة من العلماء إن المراد حقيقة الألف شهر، وقال آخرون هى تعبير عن ثواب جميع الدهر، لأن العرب تذكر الألف للمبالغة.

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ﴾ التعبير هنا بالمضارع ليدل على أن نزول الملائكة متكرر، وهى جملة مستأنفة لبيان فضل هذه الليلة، تنزل الملائكة فوجًا فوجًا، فمن نازل وصاعد كأهل الحج ينزلون ليشاهدوا عبادة المؤمنين واجتهادهم، كما ينزلون للتسليم والزيارة والشفاعة، وتكون الطاعات فى حضور أولئك العظماء.

والروح هو جبريل عليه السلام فى أرجح الآراء، وقيل ملك عظيم أو صنف من الملائكة أو ملائكة الرحمة.

والملائكة يتشوقون لرؤية أهل الأرض وهم يتعبدون يدعون ويصلون فيسمح لهم بالنزول وبالحضور، والملائكة ينزلون كل يوم ليشهدوا أعمال المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٣، ٥] لم يقل هى سلام لإفادة الاختصاص أى ما ليلة القدر إلا سلام، فالصائمون القائمون لهم الأمن والطمأنينة لا غيرهم، وفى ليلة القدر لا تعمل الشياطين ويقضى فيها بالخير ولايجوز فيها الشر، ومعنى مطلع الفجر أى جميع أحيان تلك الليلة معمورة بنزول الملائكة فالغاية «حتى» تؤكد مدلول «الليلة كاملة» حتى طلوع الفجر.

وقد أطنب المولى سبحانه بذكر ليلة القدر ثلاث مرات للتفخيم، وفى قوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ ذكر الخاص بعد العام.

وتقدير هذه الليلة يفوق حدود الإدراك البشرى.

وبعض العلماء عد الحروف فى السورة إلى قوله: ﴿سَلامٌ هِيَ﴾ فوجدوها سبعة وعشرون حرفًا، فاستنتجوا أنها تكون ليلة سبع وعشرين.

•• وقفات فى سورة الفلق

الفلق- غاسق- وقب- النفاثات- الحسد والغبطة

أخرج البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجة عن أم المؤمنين عائشة- رضى الله عنها- أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم تمسّح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وروى عن كفاية هذه السور الثلاث للإنسان من كل سوء أحاديث وأخبار.

ونتناول أولاً كلمة «الفلق».

الفلق- كما يقول الراغب الأصفهانى-: شق الشىء وإبانة بعضه عن بعض، يقال فلقه يفلقه: شقه فانفلق وتفلق، ويقال فالق الحب: خالقه أو شاقه فى إخراج الورق منه أو شاقه عن النبات، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾[الأنعام: ٩٥]، والفلق الصبح أو ما انفلق من عموده أو الفجر قال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقيل الفلق: " الخلق كله، والفلق: المطمئن من الأرض بين ربوتين.

والفلق فعَل بمعنى مفعول، صفة مشبهة كحسَن وقصص بمعنى مقصوص، والمراد بالفلق ما يعم جميع الموجودات الممكنة كالعيون من الجبال والأمطار من السحب والنبات من الأرض، والأولاد من الأرحام، وخص فى العرف بالصبح، وفلق الصبح منبئ عن النور عقب الظلمة، والسعة بعد الضيق، والفتق بعد الرتق، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] وعد من الله تعالى بأن يخرج الإنسان ما يحيط به من ضرر إلى الحفظ والصون والأمان بقدرته، وأضيف إلى الرب سبحانه، لأن الإعاذة من المضار تربية للإنسان، والرب هو الذى يغير

الأحوال كتغيير الصبح بعد الليل فيخرج الناس من الأكدار إلى السعادة والخير، كما يخرج النور بعد الظلمة.

غاسق: قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣].

الغاسق: هو الليل إذا اعتكر ظلامه، وأصل الغسَق: الامتلاء، غسقت العين: إذا امتلأت دمعًا، وقيل الغسق السيلان، وغسق الليل: انصباب ظلامه.

وقيل الغاسق: القمر إذا امتلأ نورًا، وقيل الغاسق: الشمس إذا غربت لامتلائها نورًا أو الثريا، أو الحية.

وقب: معناه: دخل ظلامه فى كل شىء، وقيل وقب الظلام: دخل، ووقبت الشمس وقبًا ووقوبًا: غابت، والقمر: دخل فى الخسوف.

فوقوب القمر اسوداده حين دخوله فى الخسوف، وقيل القمر غاسق لسرعة سيره وقطعه البروج، وقيل سمى الغاسق لأن جرمه مظلم يستمد ضوءه من الشمس، ووقوبه هو أن يدخل فى المحاق آخر الشهر، والمنجمون يعدونه نحسًا، وأخرج أحمد والترمذى والحاكم وصححه وغيرهم عن عائشة - رضى الله عنها- قالت: «نظر رسول الله ﷺ يومًا إلى القمر لما طلع فقال: يا عائشة. استعيذى بالله تعالى من شر هذا، فإن هذا الغاسق إذا وقب.

وقيل الغاسق هى الشمس إذا غابت، وقيل إن وقوب الثريا هو سقوطها، وفى الحديث: «**إذا طلع النجم ارتفعت العاهة**».

والحية هى الغاسق إذا لدغت لامتلائها سمًا أو لسيلانه من نابها فى جسم الإنسان.

فهذه الآية الكريمة فيها استعاذة من شر الليل إذا دخل، ومن شر هذه الأشياء المذكورة، وهم يقولون إن الليل محل لحدوث بعض الشرور والتوقعات غير السارة عند العرب ومن أمثالهم: «الليل أخفى للويل»، ويقولون حين يشتد دخول الظلام يكون أدعى لحدوث الشر فيه.

فهذه استعاذة من بعض الشرور التى تحدث فى الليل أو حين محاق القمر أو حين

غياب الشمس أو حين سقوط النجم أو حين ظهور الحية، وقد جاءت فى هذه الآية السابقة الاستعاذة من شر كل مخلوق حسيًا أو معنويًا، والمطلوب هنا الاستعاذة من هذه الأمور المذكورة والاهتمام والاعتناء بالاستعاذة منها.

﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]

يقال فى اللغة: نفث ينفُث وينفث، والنفث: قذف الريق القليل وهو أقل من التفل، وقيل هو شبه النفخ، يكون فى الرقية ولا ريق معه، والأول هو الأصح، لما نقله ابن القيم لأن السحرة يمازج نفثهم بعض أجزاء أنفسهم الخبيثة، ونفث الراقى والساحر: أن ينفث فى عقده، ومنه الحية تنفث السم، وقيل: لو سألته نفاثة سواكٍ ما أعطاك، أى: ما بقى فى أسنانك فنفثت به.

والاستعاذة هنا من شر النفوس السواحر اللاتى يعقدن عقدًا فى خيوط وينفثن عليها، فالنفاثات صفة للنفوس، وجمع مؤنثًا تغليبًا للمؤنث على المذكر، وقدر بعضهم الموصوف مؤنثًا أى: النساء النفاثات، وذلك لأن النفث فى العقد غالبًا من عمل النساء وكيدهن.

والنفاثات فى العقد كما قلنا هن السواحر، والسحر هو كل ما لطف مأخذه ودق، يقال سحر- كمنع: خدع كسحر وتباعد وكسمع بكر، ومذهب أهل السنة وعلماء الأمة أن السحر ثابت وأن له حقيقة بدلالة الكتاب والسنة عليه، فينفرد الساحر بعلم قُوى فتاكة وبه يفرق بين المرء وزوجه، وتقع به أمور أخرى أكبر أو أقل من ذلك، وليس السحر كالمعجزة لمعرفة قواعده.

الحسد والغبطة:

قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] يقال فى اللغة حسده الشيء وعليه يحسده ويحسُده حسَدًا وحُسُودًا وحَسَادة: تمنى أن تتحول إليه النعمة والفضل من غيره أو أن يسلبهما، أو دوام ما فى الغير من نقص أو فقر أو نحوه، وربما كان مع ذلك سعى فى إزالة النعمة والفضل عن الغير المستحق لهما.

والحاسد ممقوت عند الله تعالى وعند الناس، لأن الحسد من الكبائر، ولكن إذا كان الحسد جبلة فى صاحبه، وحاول مجاهدة نفسه على عدمه فلا إثم عليه، بل يثاب على جهاد نفسه، والحسد يضر صاحبه، قال الشاعر:

واصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

والغبطة - بالكسر -: حسن الحال والمسرة، يقال فى اللغة غبطه كضربه وسمعه، وهى تمنى أن يكون له مثل ما لأخيه من النعمة، من غير تمنى زوالها، ويقال هو غابط والجمع غُبط ككتب.

وفى الحديث أنه ﷺ جاء وهم يصلون، فجعل يغبّطهم - هكذا روى مشدداً - أى يحملهم على الغَبط، ويجعل هذا الفعل عندهم مما يُغبط عليه.

وروى «يغبطهم» - بالتخفيف - فيكون قد غبطهم لسبقهم إلى الصلاة.

وقد روى «المؤمن يغبط والمنافق يحسد» قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقد يستعمل الحسد بمعنى الغبطة كما فى قوله ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضى بها، ويعلمها الناس».

قال أبو تمام:

هم حسدوه لا ملومين مجده وما حاسد فى المكرمات بحاسد

وقال:

واعذر حسودك فيما قد خصصت به إن العلا حسن فى مثلها الحسد

•• مادة «سَلِمَ» وتصرفاتها

السَّلم والسلامة: الخلو من الآفات الظاهرة والباطنة

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١]، أى خالية من العيوب والآفات الظاهرة، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، أى خال من الدغل وأمراض القلوب، النفاق والحقد.. إلخ، ويقال سلمه الله أى جعله خاليًا مما يضره، قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨].

وفى الجنة يكون السلام، وهو سلامة حقيقة: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وصحة بلا سقم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧] أى السلامة، وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ﴾ [يونس: ٢٥]، وقال عز حكمه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ [المائدة: ١٦].

والسلام اسم من أسماء الله تعالى، قال عز حكمه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقيل: وصف بذلك من حيث لا تلحقه العيوب

والسلام: التحية، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١]، وقال

سبحانه: ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨]، وقال عز حكمه: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الصافات: ١٢٠] والمراد الثناء عليهم والدعاء لهم بالسلامة، والسلام من الناس بالقول، ومن الله تعالى بالفعل، وهو إعطاء ما تقدم ذكره مما يكون في الجنة من السلامة.

والسلام يكون بمعنى سداد القول، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ويكون أيضًا بطلب السلامة كما في الآيات السابقة وكما في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥]، والسلام في الجنة يكون بالقول وبطلب السلامة كما قال سبحانه: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾ [الواقعة: ٢٦].

السَّلم:

السِّلام والسِّلْم والسَّلْم: الصلح، قال تعالى: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء: ٩٤]، نزلت فيمن قتل بعد إقراره بالإسلام، ومطالبته بالصلح، وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقال جل شأنه: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ [الأنفال: ٦١].

وتأتي بمعنى الاستسلام والخضوع، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [النحل: ٨٦، ٨٧]، وقال جل شأنه: ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٢] أي مستسلمون.

وقيل السلم ضد الحرب، والإسلام الدخول في السِّلم، وهو أن يسلم كل واحد منهما أن يناله ألم من صاحبه.

السَّلَمَ: يقال فى اللغة أسلمت الشىء إلى فلان: إذا أخرجته إليه، ومنه السلم فى البيع وهو: أن يُسلم عوضًا حاضرًا فى عوض موصوف فى الذمة إلى أجل ويسمى سلمًا وسلفًا، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٢] والحديث الذى رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «**أنهم قدموا المدينة وهم يسلفون فى الثمار السنتين والثلاث فقال: من أسلف فى شىء فليُسلف فى كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم**» متفق عليه، ويدل على ذلك أيضًا الإجماع: قال ابن المنذر أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن السّلم جائز.

والإسلام فى الشرع على ضربين: أحدهما الاعتراف باللسان، قال تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾ [الحجرات: ١٤] والثانى فوق الإيمان وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل واستسلام لله فى جميع ما قضى وقدّر، كما ذكر عن إبراهيم - عليه السلام- فى قوله: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا**﴾ [يوسف: ١٠١]، والمراد استسلام لرضا الله وسلامة من غواية الشيطان.

السُّلَّم: هو: ما يتوصل به إلى الأماكن العالية والأشياء الرفيعة، لأنه يوصل إلى السلامة، قال تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ**﴾ [الطور: ٥]، وقال سبحانه: ﴿**وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأنعام: ٣٥].

ويستعمل السَّلم والسلام بمعنى شجر عظيم كأنه سمى بذلك لاعتقادهم أنه سلم من الآفات.

فالمادة كلها تدور حول السلامة.

•• التروية

يقال روى من الماء- بالكسر- ومن اللبن يروى ريًا وروى مثل رضًا، وتروى وارتوى كله بمعنى، والاسم الرّى - أيضًا- وقد أرواني، وروى النبت وتروى تنعم ونبت ريان، وشجر رواء، ويقال ماء رواء- ممدود مفتوح الراء- أى عذب يروى الوارد إليه، ورويت رأسي بالدهن، ورويت الثريد بالدسم.

والرَّاوية: المزادة فيها الماء، والبعير راوية والرجل المستقى راوية.

ويقال: روَّيت القوم أرويهم: إذا استقيت لهم، ويقال من أين ريتكم: أى تستقون الماء؟ والروَّاء: الحبل الذى يروى به على الراوية.

ويقال تروَّى القوم وترووا: تزودوا بالماء.

ويوم التروية يوم قبل يوم عرفة- وهو الثامن من ذى الحجة- سمى به لأن الحجاج يتروون فيه من الماء، وينهضون إلى منى، ولا ماء فيها، فيتزودون ريّهم من الماء، أى: يُسقون ويستقون، وفى حديث ابن عمر كان يلبى بالحج يوم التروية(١).

ويقال: إن إبراهيم- عليه السلام- كان فى طريقه إلى منى ليذبح ولده، بعد أن رأى الرؤيا بذبحه، فخشى أن يكون ذلك من الشيطان، فتروَّى- من معنى التروى- أى تمهل حتى تأكد أن ذلك من الله.

والرويَّة فى الأمر: أن تنظر ولا تعجل، وتفكر فى الأمر يقال ترويت، وتروَّأت فى الأمر- بهمز وبغير همز- وقيل: إنها جرت فى كلام العرب غير مهموزة.

والرى: المنظر الحسن، لمكان النعمة، وهو خلاف أثر الجهد، وفى التنزيل العزيز: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤]، قرأ أهل المدينة «ريًّا» وهو وجه جيد بغير الهمز من «رأيت» يقول: منظرهم مرتو من النعمة فيكون من الفعل رويت- إذا لم يهمز.

---

(١) لسان العرب، ١٩/ ٦٣-٦٥.

•• العيد وتصرفات المادة التى أخذ منها

العيد: ما يعاود مرة بعد أخرى، فهو مشتق من العوْدْ، ويطلق على الزمان المعهود لعوده فى كل عام بالفرح والسرور.

وخص فى الشريعة بيوم الفطر ويوم النحر.

ولما كان ذلك اليوم مجعولاً للسرور فى الشريعة- كما نبه النبى ﷺ بقوله: «أيام أكل وشرب وبعال»- صار يستعمل العيد فى كل يوم فيه مسرة، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[المائدة: ١١٤].

وكان الحواريون قد سألوا عيسى بن مريم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٢، ١١٣]، وسؤالهم: هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قيل إنه سؤال من غير تحقيق منهم ولا عن معرفة بالله تعالى وقدرته، وإلا لم يقولوا ذلك، فالمؤمن لايليق به أن يسأل هذا السؤال، لكن الحواريين مؤمنون ومطلوب منا التشبه بهم والاقتداء كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]، والرسول ﷺ قال للزبير: إن لكل نبى حواريًا وإن حواريى الزبير، وقد أجيب عن التعبير بكلمة (يستطيع) بأجوبة منها:

معنى يستطيع يفعل أى هل يفعل كما تقول للقادر على القيام هل تستطيع أن تقوم؟ أى هل تفعل.

قيل: يستطيع بمعنى يجيب أى: هل يجيب ربك بإنزال مائدة؟

قيل: يستطيع بمعنى يريد أى: هل يريد ربك إنزال المائدة؟

والأولى أن يكون هذا السؤال صدر عن الحواريين وهم مؤمنون بغرض الاطمئنان والتثبت كما قال الخليل عليه ﷺ: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، والدليل على ذلك قولهم: ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى سبب هذا السؤال أن عيسى - عليه الصلاة والسلام - قال لقومه: هل لكم أن تصوموا ثلاثين يومًا، ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم، فإن أجر العامل على من عمل له، ففعلوا، ثم قالوا: يا عيسى ابن مريم. قلت لنا إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا بكذا فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ .. إلخ، فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخرهم كما أكل منها أولهم، وجاء عن ابن عباس أن المائدة كانت تنزل عليهم حيث نزلوا.

والمائدة المشهور فيها أنها لمعنى الخوان - بضم الخاء وكسرها والكسر أرجح وأفصح - وهى الشيء المرتفع يهيأ ليؤكل عليه الطعام وهو مشتق من ماد يميد: إذا تحرك أو من ماده بمعنى أعطاه، فهى فاعلة بمعنى مفعولة، كعيشة راضية بمعنى مرضية، أو بجعلها للتمكن مما عليها كأنها بنفسها معطية لمن يأكل منها، فهى فاعلة للعطاء كقولهم للشجرة المثمرة مطعمة، وقيل: المائدة كل ما يمد ويبسط، والمراد بها السفرة - وأصلها طعام المسافر ثم سمى بها الجلد المستدير الذى تحمل به غالبًا، أو لأن هذا الجلد المتخذ للطعام له أشياء يعلق ويربط بها فإذا حلت أسفر عما فيه.

والمراد بقولهم تكون لنا عيدًا أنها تكون طعام فرح وسرور كلما نزلت.

والعيد يقال فى الأصل لكل ما عاد عليك فى وقته، قال الأعشى:

فوا كبدى من لاعج الحب والهوى إذا اعتاد قلبى من أميمة عيدها

والعيد واوى كما ينبئ عنه الاشتقاق من العود، ولكنهم قالوا فى جمعه أعياد، وكان القياس أعواد، لأن الجموع ترد الأشياء إلى أصولها، وذلك جاء بالياء ولم يرد إلى الأصل كراهة اشتباه هذا الجمع بجمع عود بمعنى خشبة ونحوها على أعواد، ولم يعكسوا بجمع عود على أعياد مراعاة لاستعمال الأخف فى الأكثر استعمالاً وهو العيد لا العود مع رعاية ظاهر المفرد «عيد» بخلاف عود فهو مناسب للجمع بالواو «أعواد».

والعادة: اسم لتكرير الفعل حتى يصير ذلك كالطبع، ولذلك يقال العادة طبيعة ثانية.

والعود: الرجوع إلى الشىء بعد الانصراف عنه، إما انصرافًا بالذات، أو بالقول والعزيمة كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] أى من النار، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: ٣] والعود المقصود فى الآية عود فعل وهو الوطء عند أبى حنيفة وعند أحمد يكفى العزم على الوطء وعند الشافعى: إمساكها مدة يمكن أن يطلق فيها فلم يفعل.

والعود: البعير المسن لمعاودة العمل على مر السنين ولعود السنين عليه ومرورها مرة بعد أخرى، والعود: الطريق القديم الذى يعود السير إليه وعيادة المريض، والمعاد: المصدر الميمى واسم المكان والزمان من عاد يعود، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، قيل: المراد مكة وهو وعد من الله تعالى برده إليها بعد أن هاجر إلى المدينة لأن مكة مسقط رأسه وقد حزن لفراقها.

والفعل «عاد» يتعدى بنفسه وبإلى واللام وعلى وفى، قال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ [المجادلة: ٣]، وقال عز حكمه: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ [طه: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فالفعل يتعدى بنفسه وبالحرف.

●●●

•• الأضحية والنحر وما تصرف من مادتيهما

الضحى: انبساط الشمس وامتداد النهار، حين تطلع الشمس، فيصفو ضوؤها.

ويراد به الوقت كما في قوله تعالى: ﴿ **وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ** ﴾ [الضحى: ١، ٢]، وقوله سبحانه: ﴿ **وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا** ﴾ [النازعات: ٢٩]، وقال عز حكمه: ﴿ **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى** ﴾ [طه: ٥٩].

ويقال ضحي يضحى: تعرض للشمس أو أصابه حرها ويقال- أيضًا- ضحى يضحو ضحوًا، قال الله تعالى لآدم عليه السلام: ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ⑪⑧ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ** ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، هو من ضحي يضحىٰ لا من ضحى يضحو أي لك أن تتفيأ من حر الشمس.

تضحّى: أكل ضُحى مثل تغذّى، والضَّحاء والغداء لطعام الضحى والغداة.

والأضحية من هذا، ويقال لها أضحاة وجمعها «أضْحَى» وأضحية وجمعها «الأضاحي»، ويقال لها ضحية وجمعها «ضحايا»، وتسميتها بذلك في الشرع لقوله ﷺ: «**من ذبح قبل صلاتنا هذه فليعد**».

وضاحية كل شيء: ناحيته البارزة، ويقال لما حول المدينة الضواحي، وليلة إضحيانة وضحياء: مضيئة إضاءة الضحى، ومنه عيد الأضحى وعيد النحر.

ويقال **نحر** البعير طعنه في أعلى صدره حيث تكون القلادة منه وذلك حين يذبحه، ونحر المصلي: استقبل القبلة بنحره وصدره، وانتصب، أو وضع يديه على نحره وصدره. قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** ﴾ [الكوثر: ١، ٢]، أي نحر الإبل تطعم لحمها الفقراء أو المحاويج، وخصت الإبل لنفاستها وقيمتها في سد الجوع.

وقيل أيضًا: استقبل القبلة بصدرك، أو ضع يديك على صدرك فى الصلاة.

وقرأ ابن مسعود قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] فقرأ فنحروها مكان فذبحوها.

وفى سورة الكوثر حث على مراعاة هذين الركنين وهما الصلاة ونحر الهدى أو الأضحية وأنه لابد من تعاطيهما فى عيد النحر فذلك واجب، وقيل: المراد حث على قتل النفس بقمع الشهوة وقيل: نحره: قتله، وانتحروا على كذا: تقاتلوا، ونحرة الشهر ونحيره: أوله، وقيل آخر يوم من الشهر، والنحرير العالم بالشىء والحاذق فيه.

●●●

•• التشريق ومادته التى تصرف منها

شرقت الشمس شروقًا: طلعت، وأشرقت: أضاءت، وأشرق: أضاء أو دخل فى وقت الشروق أو اتجه إلى الشرق فهو مشرق، قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال سبحانه: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، وقال عز حكمه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]، وهذا فى الحديث عن قوم لوط.

والشرق والمشرق حيث تطلع الشمس، والمشرق والمغرب إذا قيلا بالإفراد فإشارة إلى ناحيتى الشرق والغرب، وإذا قيلا بلفظ التثنية فإشارة إلى مطلعى ومغربى الشتاء والصيف، أو مشرقى الشمس والقمر، وإذا قيلا بلفظ الجمع فباعتبار مطلع كل يوم ومغربه، أو مطلع كل فصل ومغربه، أو بمشارق الكواكب ومغاربها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

والمِشْرَقة: المكان الذى يظهر للشرق، وشرّقت اللحم: ألقيته فى المِشرقة، والمُشَرَّق: مصلى العيد، لقيام الصلاة فيه عند شروق الشمس.

وشرقت الشمس: اصفرّت للغروب ومنه أحمر شارق: شديد الحمرة، ولحم شرَق: أحمر لا دسم فيه.

•••

•• التوكيل والتوكل

التوكيل: أن تعتمد على غيرك، وتجعله نائبًا عنك.

يقال: وكَلَ أمره إلى غيره يكله وكلاً: اعتمد عليه فيه، ووثق به أن ينجزه.

والوكيل: الذى يوكل إليه الأمر، ويسلم له، فهو الذى يتولى أمورك، ويقوم بقضاء أعمالك، ويحافظ عليها، فالوكيل يأتى بمعنى الحفيظ، ويأتى بمعنى الكفيل، أو المسئول عنه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

اعتمد المسلمون- فى غزوة أحد- على الله فى تحقيق النصر والحفظ من كيد الأعداء ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٨١]، يقول له ﷺ سأنوب عنك فى إفشال مخططات المنافقين، وقال عز حكمه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ١٣١، ١٣٢]، يتولى الحق سبحانه أمر القضاء عليهم إذا لم يؤمنون، وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: ١-٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٨] فالله تعالى نائب عنك وهو المسئول والمراقب يحاسبهم وينصرك عليهم.

الوكيل: هو المسئول والراعي والحافظ قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَان منكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، فالله تعالى نائب عنهم نصرهم في بدر، وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، أي يعينه، وييسر له أمر الرزق وقال جل جلاله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦]، وقال عز من قائل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، أي لست مسئولاً عن أمرهم، ويقول سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٣]، وقال عز وجل: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ [النساء: ١٠٩].

التوكل: يقال على وجهين: يقال توكلت لفلان، بمعنى توليت عنه، ويقال وكلته فتوكل لي وتوكلت عليه بمعنى اعتمدت.

●●●

الفصل الثالث

الألوان والأطياف والظلال فيما يظن من المترادف فى القرآن

•• مواد «الخوف والرجاء والوجل» وتصرفاتها

الخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة.

ويضاد الخوف الأمن.

ويستعمل ذلك فى الأمور الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] وقال عز حكمه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٣]، وقال عز حكمه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥]، فقد فسّر ذلك بعرفتم وحقيقته وإن وقع لكم خوف من ذلك لمعرفتكم.

والخوف من الله تعالى لايراد به ما يخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف من الأسد، إنما يراد به الكف عن المعاصى، واختيار الطاعات، ولذلك قيل: لايُعد خائفًا من لم يكن للذنوب تاركًا.

والتخويف من الله تعالى هو الحث على التحرز وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر: ١٦]، ونهى الله تعالى عن مخافة الشيطان، والمبالاة بتخويفه فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أى فلا تأتمروا للشيطان وأتمروا لله، وقال سبحانه:

﴿ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ** ﴾ [طه: ٦٧، ٦٨]، توقع موسى حدوث ما لايؤيده بل يضاده.

الوجل: استشعار الخوف بمعنى أن يظهر على الشخص أثر الخوف يقال: وجل يَوجَل وجَلا فهو وَجِل، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال سبحانه عن ضيف إبراهيم حين تبشيرهم له بغلام عليم: ﴿ **إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ** ﴾ [الحجر: ٥٢، ٥٣]، وقال سبحانه: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، والوجل: الفزع الناشيء عن الخوف، وفى الحديث: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب»، أى فزعت من الخوف، استعظامًا لشأنه الجليل وتهيبًا منه جل وعلا، والاطمئنان المذكور فى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢]، أى فزعت من الخوف، استعظامًا لشأنه الجليل وتهيبًا منه جل وعلا، والاطمئنان المذكور فى قوله تعالى: ﴿ **أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: ٢٨]، لاينافى الوجل والخوف، لأنه عبارة عن ثلج الفؤاد، وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد، وهو يجامع الخوف، ووفق بعضهم بين الآيتين بأن الذكر فى إحداهما ذكر رحمة، وفى الأخرى ذكر عقوبة «مكروه» فلا منافاة بينهما.

وأخرج البيهقى وجماعة عن السدى أنه قال فى الآية: هو الرجل يريد أن يظلم، أو يهم بمعصية فيقال له: اتق الله تعالى فيجل قلبه، وحمْل على الخوف وقت الهم بمعصية، أو إرادة ظلم، وهذا الوجل فى قلب المؤمن كضرمة السعفة كما جاء عن عائشة- رضى الله عنها- ، وقد يكون من العلامة للوجل حدوث قشعريرة والدعاء عند الوجل مستجاب.

●●●

الرُّوع والرَّوع والخلد

الرُّوع موضع الرَّوع وهو القلب قال الشاعر :

جذلان قد أفرخت عن رُوُعه الكُرب

ورُوع القلب : ذهنه وباله ، وقال أبو عبيدة : رُوعى أى نفسى وخلدى ونحو ذلك .

وفى الحديث المرفوع : «إن فى كل أمة محدَّثين ومرَّوعين فإن يكن فى هذه الأمة منهم أحد فهو عمر» ، المرَوَّع الذى ألقى فى رُوعه الصواب والصدق ، وكذلك المحدث كأنه حُدِّث بالحق الغائب فنطق به .

والرَّوع إصابة الرُّوع واستعمل فيما ألقى فيه من الفزع وغيره كالدهشة والعجب بعد هدوء النفس وسكونها ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ [الرعد : ٧٤] .

يقال رعته وروَّعته وريع فلان وناقة روعاء : فزع ، فالرَّوع : الفزع ، يقال راعنى الأمر يَرُوعنى رَوْعًا ورُوُوعًا والروعة : الفزْعة ، وفى حديث الدعاء «اللهم آمن روعاتى» وفى المثل أفرخ رَوْعه أى ذهب فزعه وانكشف وسكن والفزع لايخرج من الفزع وإنما يخرج من الموضع الذى يكون فيه وهو الرُّوع- القلب- فهو كالفرخ فى البيضة .

ورُعت فلانًا وروعته : أفزعته فارتاع أى فزع ، وفى الحديث إن النبى ﷺ ركب فرسًا لأبى طلحة ليلاً لفزع ناب أهل المدينة ، فلما رجع قال : لم تراعوا ، إنى وجدته بحرًا ، معناه : لا فزع ولا رَوْع ، فاسكنوا واهدأوا ، وحديث ابن عمر- رضى الله عنهما- لم تُرع أى لا فزع ولا خوف .

وقد يستعمل الرَّوْع فيما يدهش ويعجب ومنه الأروع الذى يروع بحسنه فيعجبك

ويدهشك وهو متفرع عن المعنى الأول- الفزع- كأن الشىء الذى يروع بحسنه يفزع كما قال الشاعر :

يهولك أن تلقاه فى الصدر محفلاً

الخلد- بالتحريك : البال والقلب والنفس، وجمعه أخلاد يقال : وقع ذلك فى خلدى أى فى رُوعى وقلبى، قال أبو زيد : من أسماء النفس الرُّوْع والخلد وقال : البال : النفس والتفسير متقارب.

●●●

•• الاستواء والجلوس

الاستواء فى كلام العرب على وجهين:

أحدهما: أن يستوى الرجل ويتم شبابه وقوته، قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ**﴾ [القصص: ١٤] ببلوغ الأربعين التى هى غاية الاستواء، وكمال العقل، ويبدأ الاستواء من ثمان وعشرين إلى ثلاث وثلاثين سنة، ثم يدخل فى حد الكهولة، وبلوغ الأربعين غايتها.

الثانى: أن يستوى عن اعوجاج، تقول سويته فاستوى.

وهناك وجه ثالث، استوى إلىّ وعلىّ، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾ [فصلت: ١١] عمد وقصد، كما تقول: فرغ الأمير من بلد كذا وكذا ثم استوى إلى بلد كذا وكذا: قصد إليه، وقال سبحانه: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه: ٥] قال الأخفش: علا تقول: استويت فوق الدابة، وعلى ظهر البيت: أى علوته، واستوى على ظهر دابته: استقر، أى تمكن من الركوب، وقال ابن الأعرابى: هو على عرشه كما أخبر، فقال له رجل: إنما معناه استولى، فقال ابن الأعرابى: ما يدريك، العرب لا تقول استولى على الشىء حتى يكون له مضاد، فأيهما غلب فقد استولى، أما سمعت قول النابغة:

إلا لمثلك أو مَن أنت سابقه ... سبق الجواد إذا استولى على الأمد

وسئل مالك بن أنس: استوى كيف استوى؟ فقال: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وقال ابن عباس: يقال كان قائمًا فاستوى قاعدًا، وكان قاعدًا فاستوى قائمًا، وكل فى كلام العرب جائز، فالقعود يكون عن قيام[١] ولذلك قيل: القعود نقيض القيام[٢].

(١) اللسان ١٩/ ١٤١ (٢) المصدر السابق: ٤/ ٣٥٧.

جلس:

أصل الجلس: الغليظ من الأرض، وسُمِّي النَّجْد جلْسًا، وجلس: أصله أن يقصد بمقعده جلْسًا من الأرض، ثم جُعل الجلوس لكل قعود، والجلوس قيل: إنه يكون عن اضطجاع كما جاء في الحديث: «وكان مضطجعًا أو متكئًا فجلس»، والمجلس لكل موضع يقعد فيه الإنسان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، والقعود له هيئة خاصة بالجلوس على المقعدة، وهي السافلة، والجلس مكان مرتفع يقعد عليه الإنسان.

والاستواء استقرار وظهور، وغلبة وقهر، لا على هيئة الجلوس، بل على هيئة المتمكن من الشيء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، أي استقررت، وقال سبحانه: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣] أي استقررتم، وقال سبحانه: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [الزخرف: ١٣]، وليس منظورًا فيه إلى هيئة الجلوس المعروف.

فالجلوس على مكان والاستقرار يكون تاليًا دالاً على التمكن والثبات على مقعد أو غيره من الأشياء.

●●●

•• الشك والريب والريبة

الشك: التردد فى الشيء وعدم الوصول فيه إلى اليقين، وهو اعتدال النقيضين عند الإنسان، وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما.

والشك ربما كان فى الشيء: هل هو موجود أو غير موجود؟ وربما كان فى جنسه من أى جنس هو؟ وربما كان فى بعض صفاته، وربما كان فى الغرض الذى لأجله أوجد.

والشك ضرب من الجهل، وهو أخص منه، لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين رأسًا.

فبينهما عموم وخصوص مطلق: الجهل أعم من الشك فكل شك جهل وليس كل جهل شكًا.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ: ٢١]، وقال عز حكمه: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]، وقال جل شأنه: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ [الدخان: ٩].

الريب: يقال: رابني كذا، وأرابني، فالريب أن تتوهم بالشيء أمرًا ما فينكشف عما تتوهمه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

والريبة: اسم من الريب، قال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٠]، فالمراد مسجد الضرار أي تدل على دغل وقلة يقين.

والارتياب مثله، قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠] وقال سبحانه فيهم- أيضًا: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠] وقال سبحانه فيهم أيضًا-: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

والدليل على اختلاف معنى الشك والريب إتيانهما معًا في بعض الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هو: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ

مُرِيبٍ ﴾ [هود: ١١٠]، أى موهم موقع فى قلق النفس وعدم طمأنيتها وقال عز حكمه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم: ٩]، وقال جل شأنه: ﴿إلقيا فى جهنم كل كفار عنيد، مناع للخير معتد مريب، الذى جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه فى العذاب الشديد﴾ [انظر: سبأ وفصلت والشورى].

والريب: الحادث من حوادث الدهر، يفجأ الناس، ولا يستيقنون بوقت وقوعه، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠]، أى: حادث الموت الذى يفجأ ولا يستيقين وقت وقوعه لكنهم يتوهمون حصوله وفق اعتقادهم وفى الوقت القريب.

وسماه ريبًا لا لأنه مشكوك فى كونه- فالموت يقع بجميع الناس- بل من حيث يشك فى وقت حصوله، فالإنسان يشك أبدًا فى ريب المنون من جهة وقته، لا من جهة كونه.

●●●

•• السير والمشي

السير: المضى فى الأرض ويقال: رجل سائر وسيّار، قال تعالى: ﴿ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال سبحانه: ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ [سبأ: ١٨]، وقال عز وجل: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩].

ويقال فى اللغة سرتُ وسرتُ بفلان وسيَّرته، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢]، والمراد الحث على السياحة فى الأرض، والتسيير على ضربين:

- أحدهما بالاختيار والإرادة من السائر مثل ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [يونس: ٢٢].

والثانى بالقهر والتسخير، كتسخير الجبال، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ ﴾ [النبأ: ٢٠].

فالسير هو الذهاب والانتقال فى الأرض من مكان إلى آخر.

المشى: الانتقال من مكان إلى آخر على الرجلين بإرادة، ويقال مشى: خطا وانتقل على رجليه أو على قوائمه الأربع إذا كان من ذوات الأربع، قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢٠]، وقال عز حكمه: ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ [النور: ٤٥]، وقال سبحانه:

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، وقال سبحانه: ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴾ [طه: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ ﴾ [لقمان: ١٩]، وقال جل ثناؤه: ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا ﴾ [ص: ٦].

فالمشى قائم على الترجّل والخطو ويكون بإرادة كما تقدم فى الآيات السابقة وكقوله تعالى: ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ [البقرة: ٢٠].

●●●

•• اليأس والقنوط

اليأس: انتفاء الطمع عن الشيء، أى انقطاع الأمل فى حصول الشيء، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠]، قيل فى معنى الآية عدة أوجه منها: أن أتباع الرسل لما طال عليهم النصر، وطالت مدة التكذيب من الكفار فاستشعروا اليأس، أو أن الرسل أنفسهم حدثوا قومهم بالنصر، ثم لما تأخر ظن الرسل أن أتباعهم كذبوهم فيما وعدوا به من النصر، أو أن قوم الرسل كذبوهم فوصلوا حد ألا أمل فى إيمانهم، أو لا أمل فى مجيء النصر، والمراد أنه خطر فى قلبهم من الوسوسة والشك وهو من حديث النفس، وحديث النفس قد يكون ذنبًا بضعف الإيمان وقد يكون معفواً عنه، قال ﷺ: «إن الله تعالى تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم أو تعمل».

وقال تعالى: فى الحديث عن إخوة يوسف وحالهم مع أخيهم يوسف ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠]، معنى استيأسوا يئسوا من يوسف عليه السلام وإجابته لهم إلى مرادهم، فاستفعل بمعنى فعل، وقيل السين والتاء للمبالغة، أى: يئسو يأسًا كاملاً لأن المطلوب المرغوب مبالغ فى تحصيله، ولعل حصول هذه المرتبة لهم من اليأس لما شاهدوا من تعوذه بالله تعالى مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده فى أقصى مراتب الكراهة، وأنه مما يجب أن يحترز عنه، ويعاذ بالله تعالى منه ومن تسميته ذلك ظلمًا، وهذا فى قول يوسف عليه السلام ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٧٩].

ومعنى ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ انفردوا عن غيرهم واعتزلوا الناس متناجين متشاورين فيما يقولون لأبيهم عليه الصلاة والسلام، ونجيا: مصدر كالتناجي..

وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ [الممتحنة: ١٣]، والمراد بقوله سبحانه: غضب الله عليهم: اليهود، أو مشركو مكة أو جماعة من المنافقين، ينسوا من خير الآخرة وثوابها، لعنادهم الرسول ﷺ كما يئس الكفار: الموتى في قبورهم، حيث تبينوا حرمانهم من النعيم الأخروى، أو «من» بيانية، أى: كما يئس الكفار الأحياء من موتاهم الذين سكنوا القبور أن يبعثوا، ويلقوهم في الدنيا - والكفار - حينئذ - يكونون هم المغضوب عليهم، ووضع الظاهر موضع المضمر لدمغهم بالكفر.

القنوط: أن يظهر أثر اليأس على الإنسان، فيتضاءل وينكسر، قال تعالى فى شأن الملائكة ضيف إبراهيم وهم يحدثونه عن البشارة بغلام عليم: ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ [الحجر: ٥٥]، وقال أيضًا عن إبراهيم عليه السلام ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال عز حكمه: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦]، وقد يجمع بين اليأس والقنوط فلا يوجد في حصول الشيء المرغوب فيه ويظهر أثر اليأس على صاحبه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت: ٤٩].

نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة، وقيل: في عتبة بن ربيعة، وقد بولغ في يأسه من جهة الصيغة، لأن فعولاً من صيغ المبالغة، ومن جهة التكرار المعنوى، فإن القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ولما كان أثره الدال عليه لايفارقه كان في ذكره ثانيًا بطريق أبلغ وقدم اليأس، لأنه شيء حادث في القلب والنفس، يقطع رجاء اليائس من الخير وهو المؤثر فيما يظهر على صورة صاحبه من التضاؤل والانكسار.

●●●

•• دائمًا - أبدًا

دائمًا: أصل الدوام السكون، يقال: دام الماء أى سكن، ونهى أن يبول الإنسان فى الماء الدائم: أى الساكن، ويقال: دام الشىء: إذا امتد عليه الزمان «مدة» فهو دائم، قال تعالى: ﴿**أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا**﴾ [الرعد: ٣٥].

ويقال دام على الشىء: واظب عليه، فهو دائم، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾ [المعارج: ٢٣]، ويقال: لا أفعله مادام كذا: أى مدة دوامه، قال سبحانه: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ**﴾ [هود: ١٠٨، ١٠٧]، وقال عز حكمه: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا**﴾ [المائدة: ٢٤]، وقال عز وجل: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٥]، وقال سبحانه: ﴿**وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ**﴾ [المائدة: ١١٧]، وقال جل شأنه: ﴿**وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا**﴾ [المائدة: ١٩٦].

فمادة الدوام تدل على زمن ممتد مدة معينة وقد يراد بها الدهر أو الزمن كله مثل قوله تعالى: ﴿**أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا**﴾ [الرعد: ٣٥].

أبدًا: الأبد عبارة عن مدة الزمان الممتد الذى لا يتجزأ وذلك أنه يقال زمان كذا ولايقال أبدا كذا، والأبد: الدهر.

وأبدًا: ظرف زمان لاستغراق النفى، أو الإثبات فى المستقبل واستمراره، تقول لا أكلمه أبدًا: أى من لدن تكلمت إلى آخر عمرك، وسأظل فى كذا أبدًا أى لا أبرحه مادمت حيًا.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥]، وقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ [النساء: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

وقد تدل القرينة على عدم استمرار النفى، أو الإثبات فى المستقبل، كما فى قوله تعالى- على لسان قوم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

أى بدت العدواة والبغضاء مستمرة حتى تؤمنوا بالله وحده.

●●●

•• الأزل والقدم

الأزل -بالتحريك- : القدم، قال أبو منصور الأزهرى : ومنه قولهم : هذا شىء أزلى أى قديم، وذكر بعض أهل العلم أن أصل هذه الكلمة قولهم للقديم : «لم يزل» - إثبات الوجود- ثم نسب إلى هذا فلم يستقم إلا بالاختصار فقالوا يزلى، ثم أبدلت الياء ألفا لأنها أخف فقالوا : أزلى.

وللعلماء فى القديم والأزلى ثلاثة أقوال :

القول الأول: أن القديم هو الموجود الذى لا ابتداء لوجوده، والأزلى ما لا أول له عدميًا أو جوديًا، فكل قديم أزلى ولا عكس.

القول الثانى: أن القديم هو القائم بنفسه الذى لا أول لوجوده، والأزلى ما لا أول له عدميًا أو وجوديًا قائمًا بنفسه أو بغيره.

القول الثالث: أن كلاً منهما- القديم والأزلى- ما لا أول له عدميًا أو وجوديًا، قائمًا بنفسه أو لا وعلى هذا الرأى فهما مترادفان.

فعلى القول الأول : الصفات السلبية لا توصف بالقدم، وتوصف بالأزلية بخلاف الذات العلية، والصفات الثبوتية، فإنها توصف بالقدم والأزلية، وعلى القول الثانى : الصفات- مطلقًا- لا توصف بالقدم، وتوصف بالأزلية، بخلاف الذات العليا فإنها توصف بكل منهما، وعلى القول الثالث : كل من الذات والصفات مطلقًا يوصف بالقدم والأزلية.

والقدم الذاتى : هو عدم افتتاح الوجود، وإن شئت قلت : عدم الأولية للوجود، وأما القدم فى حقنا فالمراد به الزمانى وهو طول المدة.

وضبط - فى الفقه- بسنة فإذا قال الرجل : كل من كان من عبيدى قديمًا فهو حر ، عتق من له عنده سنة .

وهذا مستحيل فى حقه تعالى :

وكذلك القدم الإضافى كقدم الأب بالنسبة للابن .

فالقدم ثلاثة أقسام :

ذاتى : بالنسبة لله تعالى .

زمانى : طول المدة .

إضافِى : بالنسبة للغير .

●●●

•• القديم والعتيق

القِدَم: وجود فيما مضى، والبقاء وجود فيما يستقبل، والتقدم باعتبار الزمان، أو الشرف.

يقال: فلان متقدم على فلان: إذا كان أسبق منه وجودًا أو شرفًا، ويقال قدَّم فلان لفلان كذا: عمله له فيما مضى، أو كان فيما مضى سببًا فى حدوثه الآن، وقدَّم: عمل شيئًا قبل الآخَر، أو عمل عملاً فيما مضى، وقدَّم إليه كذا أو به: أنبأه به قبل وقوعه، وقدَّم لنفسه الخير: عمل فى حياته ما ينفعه فى آخرته، ويقال قدّم أمرًا بين يدى آخر: فعل الأول قبل أن يقدم على الآخر، وقدَّم فلان بين يدى فلان: سبقه بالقول أو الحكم.

وأكثر ما يستعمل القديم باعتبار الزمان نحو قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، وقال سبحانه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، وقال عز حكمه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، أى سابقة فضل ثابتة، وقال عز وجل: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: ٦١]، أى كان فيما مضى سببًا فى حدوث العذاب لنا، وقال عز من قائل: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠]، وهذه الآية فى الحديث عن اليهود أى لبئس ما فعلوا فيما مضى.

وقال عز حكمه: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ [المجادلة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

قيل معناه لا تتقدموه، وتحقيقه: لا تسبقوه بالقول والحكم، بل افعلوا ما يرسمه لكم، كما يفعله العباد المكرمون، وهم الملائكة حيث قال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

العتيق: المتقدم فى الزمان، أو المكان، أو الرتبة، ولذلك قيل للقديم: عتيق، وللكريم: عتيق، ولمن خلا عن الرق: عتيق.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، ويقول عز وجل: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]

قيل: وصفه بذلك لأنه لم يزل معتقًا أن تسومه الجبابرة صغاراً.

والعاتق: الجارية التى عُتقت عن الزوج، لأن المتزوجة كالمملوكة.

●●●

•• الجديد والحديث

الجديد يقال: جدَّ الشىء يجُدُّ جدّة فهو جديد: خلاف قدُم، فهو قديم باعتبار الزمانين الماضى والحاضر، وكل ما أُحدث إنشاؤه فهو جديد.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، وقال عز حكمه: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] والخلق الأول قديم والخلق الثانى جديد، وفى الآية إشارة إلى النشأة الثانية وذلك قولهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩، ٩٨].

وقوبل الجديد بالخلق لما كان المقصود بالجديد القريب العهد من الإنشاء.

الجُدّة: الطريقة، وجمعها جُدد، كغرفة وغرف، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، أى طرائق مختلفة الألوان، وهى مأخوذة من قولهم مجدود: أى مسلوك.

وأصل الجَدّ قطع الأرض المستوية، ومنه: جدَّ فى سيره، وجدَّ فى الأمر، ومنه جادة الطريق، والجديدان: الليل والنهار فكل منهما يقتطع من الآخر.

الجد: العظمة والفيض، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ٣]، المراد عظمته أو فيضه، والجد الحظ الدنيوى، ومنه قوله ﷺ: «لاينفع ذا الجد منك الجد» أى لا يتوصل إلى ثواب الله تعالى فى الآخرة بالحظ فى الدنيا، ولكن بالطاعة التى يجد فيها الإنسان، أو لا ينفع الجد الذى هو أبو الأب، أى كل إنسان بعمله لا بنسبه.

الحديث: يقال حدث الأمر: وقع وحصل، وأحدثه: أوجده، والمراد: كون الشيء بعد أن لم يكن في الماضي عرضًا كان أو جوهرًا، وإحداث الجواهر ليس إلا لله تعالى.

والمُحدث: ما أُوجد بعد أن لم يكن، قال تعالى: ﴿فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] وقال عز حكمه: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]وقال عز حكمه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

والحادثة: النازلة العارضة، قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]، ومعنى محدث جديد أو موجد.

حدَّث كذا وبكذا تحديثًا: خبَّر ونبَّأ، وهو كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة ٤٠]، أي تنبئ، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]، وقال عز حكمه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، وقال جل شأنه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقال جل شأنه: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٣] وقال سبحانه: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: ٥٩]، وقال عز وجل: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾]النساء: ٧٨]، وقال جل شأنه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، التحديث بالنعمة كناية عن شكرها، وإظهار آثارها.

يطلق الحديث على الرؤيا والحلم، لأن النفس تحدث به منامًا، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن يكن فى هذه الأمة محدّث فهو عمر**» يعنى من يُلقى فى رُوعه من جهة الملأ الأعلى شىء.

●●●

•• التفويض والتوكيل

التفويض: يقال فوَّض إليه الأمر: صيَّره ورده إليه، وجعله الحاكم فيه، وفى حديث الدعاء: «فوضت أمرى إليك» أى رددته إليك، ومنه حديث الفاتحة «فوَّض إلىَّ عبدى».

ويقال: أموالهم فوضى بينهم: أى هم شركاء فيها، وشركة المفاوضة: الشركة العامة فى كل شىء، وهو أن يكون مالهما جميعًا من كل شىء يملكانه بينهما، كأن يدخلا بينهما فى الشرك الاشتراك فيما يحصل لكل واحد منهما من ميراث، أو يجده من ركاز، أو لُقَطة، ويلزم كل واحد منهما ما يلزم الآخر من أرش جناية، وضمان غصب، وقيمة متلف، وغرامة الضمان أو كفالة، قال الشافعى هذا فاسد، وأجازه أبو حنيفة، وحكى ذلك عن مالك، وشرط أبو حنيفة لها شروطًا هى: أن يكونا حرين مسلمين، وأن يكون مالهما فى الشركة سواء، وأن يخرجا جميع ما يملكانه من جنس الشركة، وهو الدراهم والدنانير.

وحجتهم قوله ﷺ: «**إذا تفاوضتم فأحسنوا المفاوضة**»، وقيل: إن هذا الحديث يقصد منه المفاوضة فى الكلام، ولهذا رُوى فيه: «**ولا تجادلوا فإن المجادلة من الشيطان**»(١).

تفاوض القوم فى الأمر: أى فاوض فيه بعضهم بعضًا، وفى حديث معاوية لدَغْفَل بن حنظلة: بم ضَبطْتَ ما أرى؟ قال: بمفاوضة العلماء، قال: وما مفاوضة العلماء؟ قال: كنت إذا لقيت عالمًا أخذت ما عنده، وأعطيته ما عندى.

المفاوضة: المساواة والمشاركة وهى مفاعلة من التفويض كأن كل واحد منهما ردّ ما عنده إلى صاحبه، أراد: محادثة العلماء ومذاكرتهم العلم(١).

---

(١) اللسان: ٩/ ٧٦.

قال تعالى- على لسان مؤمن آل فرعون لقومه-: ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٣، ٤٤]، أى أرده إليه فهو الذى يقضى ويفصل بيننا، فأصله من قولهم: مالهم فوضى بينهم أى مختلط بينهم، ومنه شركة المفاوضة، فهو من المعنى الحسى، وباتوا فوضى أى مختلطين، ومنه يجىء الاتكال فى الأمر على آخر، وردّه إليه فيقال: فوّض إليه أمره، والفرق بين التفويض والتوكيل أن التفويض ترك حرية التصرف لمن أسندت إليه أمورك للقضاء والفصل فيها بينك وبين غيرك كمؤمن آل فرعون لبيان أينا على صواب وحساب كل.

أما التوكيل فهو أن تجعل غيرك نائبًا عنك فى إنجاز أعمالك مما يثقل بك، أو لا تستطيع أن تقوم به.

والوكيل يختار وينتقى وإلا ضاع الأمر.

والوكالة لا تكون فيما يجب على الإنسان أن يقوم به بنفسه، وإلا أدى ذلك إلى ضياع الأمور، وعدم تحقق المطلوب.

ولذلك يقال: واكل فلان: إذا ضيع أمره متكلاً على غيره، وتواكل القوم: إذا اتكل كل على الآخر، ورجل وُكلة تكلة: إذا اعتمد على غيره، ومن هذا المعنى جاء قول رسول الله ﷺ: **«لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»**.

●●●

•• شاء- أراد

شاء: الشىء قيل: هو الذى يصح أن يُعلم ويُخبر عنه حسيًا كان أو معنويًا.

وعند كثير من المتكلمين: هو اسم مشترك المعنى، إذا استعمل فى الله وفى غيره، ويقع على الموجود والمعدوم، وعند بعضهم الشىء عبارة عن الموجود.

والشىء: مصدر شاء.

وإذا وصف به الله تعالى فمعناه شاء فهو فعل بمعنى فاعل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، هو الفاعل لكل شىء مثل: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، أى الذى يشاء كل شىء، وإذا وصف به غير الله فمعناه المشىء كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، أى: مشىء، فهو مصدر بمعنى المفعول.

المشيئة عند أكثر المتكلمين كالإرادة سواء، وعند بعضهم: المشيئة فى الأصل إيجاد الشىء وإصابته، وإن كانت قد تستعمل فى المتعارف موضع الإرادة، فالمشيئة من الله تعالى هى الإيجاد، ومن الناس هى الإصابة، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وهى بمعنى الإيجاد والإعدام، قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وهى بمعنى إصابة الإنسان الشىء كما فى قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا

تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿ جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين ﴾ [النحل: ٣١].

الفرق بين المشيئة والإرادة:

المشيئة من الله تعالى تقتضي وجود الشيء ولذلك قيل: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والإرادة منه لا تقتضي وجود المراد لا محالة، ألا ترى أنه سبحانه قال: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة: ١٨٥] في شأن إفطار الصائم للعذر كالمرض أو السفر، وقال تعالى: ﴿ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلمًا للعباد ﴾ [غافر: ٣١] ومعلوم أنه قد يحصل العسر، والتظالم فيما بين الناس.

قالوا: ومن الفرق بين المشيئة والإرادة أن إرادة الإنسان قد تحصل من غير أن يتقدمها إرادة الله، فإن الإنسان قد يريد ألا يموت، ويأبى الله ذلك، أما مشيئة الإنسان فلا تكون إلا بعد مشيئة الله تعالى، فلا يصيب الإنسان شيئًا إلا بعد إيجاد الله تعالى له، قال تعالى: ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليمًا حكيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ [التكوير: ٢٩].

روى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ [التكوير: ٢٨]، قال الكفار: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ [التكوير: ٢٩].

وقال بعضهم: لولا أن الأمور كلها موقوفة على مشيئة الله تعالى، وأن أفعالنا معلقة بها، وموقوفة عليها لما أجمع الناس على تعليق الاستثناء به في جميع أفعالنا كما قال إسماعيل لأبيه: ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾

[الصافات : ١٠٢]، وكما قال موسى للخضر عليهما السلام : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف : ٦٩]، وكما قال يوسف لأبويه وإخوته : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٩].

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : ٢٤].

●●●

•• السريع والحثيث

السريع: السرعة ضد البطء يقال سرُع يسرُع سرعة وسَرعًا: خفَّ وبادر، فهو سريع والجمع سراع، وجاء الوصف «سريع» وصفًا لله تعالى، مضافًا إلى الحساب والعقاب، أى إن حسابه وعقابه واقع لا محالة، ولا يشغله حساب أو عقاب عن حساب أو عقاب، ولا تبطئه رويه.

ويقال سارع فى كذا: مضى فيه وبادر، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]، أى إنهم يرغبون فى موالاة الكفار ويخفون مسرعين إليها.

والإسراع يستعمل فى الأجسام والأفعال، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣]، ويقول عز حكمه: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤]، ويقول سبحانه: ﴿سَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ويقول جل شأنه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

الحثيث: الحث هو الإعجال فى اتصال، وقيل: هو الاستعجال، يقال: حثه يحثه حثًا والحثيثى: الحثَ بمعنى حضّه، وولى حثيثًا: أى مسرعًا حريصًا، ولا يتحاثون على طعام المسكين أى لا يتحاضون، ورجل حثيث: حادَ سريع فى أمر، كأن نفسه تحثه، وقوم حِثاث، وامرأة حثيثة فى موضع حاثة، والحثحثة: اضطراب البرق فى السحاب، والحثحاث: السير الذى لا وتيرة فيه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي يعقبه سريعًا كالطالب له الحريص عليه، والمعنى أن الله تعالى يغطى النهار بالليل فالمراد يُلبسه مكانه فيصير الجو مظلمًا بعد ما كان مضيئًا، وقيل: يغطى سبحانه الليل بالنهار، وقرأ حميد بن قيس يغشى الليل والنهار مما يؤكد المعنى الثانى، والليل قبل النهار بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، والمسلوخ منه قبل المسلوخ، فالنهار بالإدراك أولى، والطلب من النهار «يطلبه حثيثًا» أظهر، فضوء النهار هو الهاجم على ظلمة الليل، وقد يكون الظلام هاجمًا على ضوء النهار، والمراد اللحوق والإدراك.

يقول تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣][1]، كلاهما يعقب الآخر.

وقوله «حثيثًا» حال من الفاعل «الطالب» أى حاثًا أو حال من المفعول به بمعنى محثوثًا أو صفة لمصدر محذوف، أى: طلبًا حثيثًا، وهذا يكون بقدرة الله تعالى.

●●●

(١) وغيرها من السور.

•• الغيث والمطر

الغيث: الغوث بالواو يقال فى النصرة، وفعله أغاث بوضع اسم المصدر مكان المصدر، فتقول أغاثه غوثًا: فرّج عنه، ويقال على الأصل: أغاثه إغاثة، وفى الحديث: «اللهم أغثنا» من الإغاثة.

ويقال: غاثه يغيثه- فى النصرة- وهو قليل.

ويقال: أجاب الله غوثاه وغُواثه وغَواثه، ولم يأت فى الأصوات شىء بالفتح غيره، وإنما يأتى بالضم: الغواث، وهو صوت الصائح مثل البكاء والدعاء، ويأتى بالكسر: الغياث- بقلب الواو ياء لكسر ما قبلها- والأول- بالواو- أعلى فى اللغة، والأمر منه: أغثنا.

والغيث: المطر والكلأ، وقيل الأصل المطر، ثم سُمى ما ينبت به غيثًا.

يقال: غاث الغيث الأرض: أصابها، ويقال غاثهم الله، وغاث الله البلاد يغيثها غيثًا: إذا أنزل بها الغيث، ومنه الحديث «فادع الله يغيثنا»، والسؤال- فعل الأمر منه- «غثنا» قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال عز حكمه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٨].

ويأتى «استغاث» بعدة معان:

منها الصوت والطلب، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ

فيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

ويحتمل الوجهين الإغاثة والغيث في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، ويصح أن يكون «يستغيثوا» من الغوث «ويغاث» من الغيث.

المطر: هو الماء المنسكب من السحاب، ويقال- أيضًا- لما ينزل من علُ كالماء من السحاب، مثل ما أنزل من الحجارة على قوم لوط وأضرابهم من النار حين طلبوا إنزال الحجارة عليهم.

ويستعمل الفعل الثلاثى «مطر» فى الخير والمزيد «أمطر» فى العذاب قال ابن سيدة أمطرهم الله فى العذاب خاصة، ويقال: مطرتهم السماء تمطرهم مطرًا، وأمطرتهم: أصابتهم بالمطر، وهو أقبحهما ومطرت السماء وأمطرها الله «فى التعدية»، قال تعالى: ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

وفى المعنى الثانى: العذاب قال تعالى فى الحديث عن قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]، وعنهم- أيضًا- ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾، والضمير يعود إلى قرية قوم لوط، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

والمستمطر: طالب المطر ويعبر به عن طالب الخير.

●●●

●● أفلح- فاز- نجح

الفلاح: الظفر وإدراك البغية، وهو نوعان: دنيوى وأخروى، فالدنيوى: الظفر بالسعادات التى تطيب بها حياة الدنيا، وهو البقاء، والغنى والعز، والأخروى: أربعة أشياء، بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل، ولذلك قيل: «لا عيش إلا عيش الآخرة».

قال تعالى: ﴿**أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ**﴾ [الأعلى: ١٤]، وقال جل شأنه: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩]، وقال عز حكمه: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [المؤمنون: ١]، وقال جل شأنه: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الحج: ٧٧]، وقال سبحانه: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ**﴾ [طه: ٦٤] يقصد- فى هذه الآية- الفلاح الدنيوى وهو الأقرب.

وسمى السجود الفلاح لقولهم عنده «حى على الفلاح» وفى الأذان كذلك أى على الظفر الذى جعله الله تعالى لنا بالصلاة.

الفوز: النجاة من المكروه يقال: فاز فوزًا ومفازًا ومفازة فهو فائز، قال تعالى: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [النساء: ١٣]، فقد نجا من يدخل الجنة من النار والعذاب فيها، ولذلك حينما يموت الإنسان ويدخل قبره يؤتى له بمقعده فإن كان صالحًا يقال له هذا مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا فى الجنة، فيرى أنه أنقذ من العذاب بدخول الجنة، وقال سبحانه: ﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وإن كان هذا الإنسان غير صالح قيل له هذا مقعدك من الجنة قد أبدلك الله به مقعدًا فى النار.

وقال سبحانه: ﴿فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١]، وقال عز حكمه: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٣]، وسميت الصحراء مفازة لأنها فى الأصل مهلكة لمن يمشى فيها ولايعرف نواحيها أو الخروج منها، ومن يعرف كيف يخرج منها فقد نجا وفاز.

النُجح: السعى فى طلب الشىء لإدراكه ومثله النجاح والإنجاح فالإنسان يسعى فى أمره حتى ييسر ويسهل له الحصول عليه ولذلك يقال نجح أمر فلان أى تيسر ويسهل له الحصول عليه ولذلك يقال نجح أمر فلان أى تيسر وسهل فهو ناجح، فالمادة تفيد بذل الجهد والمشقة فى طلب أمر من الأمور، وكما يقال من جد وجد ييسر الله له الحصول على مطلوبه، وأحيانًا يسعى الإنسان ولايصل إلى المطلوب، ولذلك قال الشاعر:

فعلى أن أسعى وليـ　　　ـس علىّ إدراك النجاح

●●●

الباب الثانى

لغة الحديث الشريف

• الفصل الأول

خصائص التعبير فى الحديث

• الفصل الثانى

من بدائع البيان النبوى

• الفصل الثالث

الصيغ والتراكيب فى الحديث

الفصل الأول

خصائص التعبير في الحديث النبوى الشريف

•• فصاحته وبلاغته ﷺ

«أفصح الخلق- على الإطلاق- سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ حبيب رب العالمين جلا وعلا، قال رسول الله ﷺ: «**أنا أفصح العرب**»(١) وروى بلفظ: «**أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنى من قريش، ونشأت فى بنى سعد بن بكر**».

وعن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمى أن رجلاً قال: يارسول الله ما أفصحك. . ! فما رأينا الذى هو أعرب منك، قال: حق لى، فإنما أنزل القرآن علىّ بلسان عربى مبين»(٢).

وقريش أفصح العرب قاطبة.

حدث إسماعيل بن أبى عبد الله- ونقله أحمد بن فارس- قال: أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم، ومحالهم أن قريشًا أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب، واختار منهم محمداً ﷺ فجعل قريشًا قطّان حرمه، وولاة بيته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش فى ديارهم وكانت قريش مع فصاحتها، وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم، وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم(٣).

---

(١) رواه أصحاب الغريب.

(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان.

(٣) المزهر للسيوطى ١/ ٢٠٩ و٢١٠ وانظر: الصاحبى لابن فارس ص ٣٣.

ولذلك ارتفعت قريش فى الفصاحة عن عنعنة تميم، وتلتلة بهراء، وكسكسة ربيعة، وكشكشة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة.

وقال ابن فارس: ألا ترى أنك لا تجد فى كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذى تسمعه من أسد وقيس مثل: تعلمون ونعلم، ومثل «شعير» و«بعير»(١).

وقد جمع رسول الله ﷺ هذه الفصاحة لقومه، وأضاف إليها من فصاحته وبلاغته، فقد وردت ألفاظ جديدة فى كلامه ﷺ، وتعد من ارتجاله ﷺ أو من تعليم الله تعالى له بالوحى، ويمثل غريب الحديث جانبًا كبيرًا من ذلك، ومنه قوله ﷺ: «**أفضل الصدقة المنيحة تغدو بعساء وتروح بعساء**» قال الخطابى: قال الحميدى: العساء: العُس، ولم أسمعه إلا فى هذا الحديث(٢) و«**خضراء الدمن**»: المرأة الحسناء فى المنبت السوء، و«المخيلة» بمعنى طول الثوب وتعبر عن الإعجاب بالنفس، وقد ورد عن ﷺ- فيما رواه ابن عباس- رضى الله عنهما: «**كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خلتان: سرف ومخيلة**» وعن ﷺ - أيضًا- «**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه**»(٣)، ومثل قوله ﷺ لعائشة رضى الله عنها: «**مالى أراك شعثاء سلتاء مرهاء**»(٤).

ومن ذلك تسمية ناقته ﷺ «العضباء»، والعضباء فى الأصل: المكسورة القرن، وقد عضبت تعضب، وأعضبتها أنا، وقد يكون العضب فى الأذن: قطْعها، وناقة النبى ﷺ

---

(١) المزهر للسيوطى ١/ ٢١٠، ٢١١ والصاحبى ص ٣٤، وهناك عجرفية أخرى ذكرها ابن سيدة قال: وعجرفية ضبة، أراها تقعرهم فى الكلام، اللسان ١١/ ١٣٩.

(٢) النهاية تحقيق طاهر الراوى وآخر، نشر المكتبة الإسلامية، ٣/ ٢٣٨.

(٣) القاموس المحيط ٣/ ٣٨٣ واللسان ١٣/ ٢٤١ وما بعدها.

(٤) قالت عائشة: يارسول الله، أو لسنا من العرب؟ قال: «بلى»، وربما أنسيت العرب الكلمة فيعلمنيها جبريل، العقد الفريد، ط ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، دار الكتاب العربى، بيروت، ٦/ ٢٢٦، الشعثاء: من لا تضع الدهن، السلتاء: من لا تضع الكحل، المرهاء: التى لا تختضب وانظر فى خضراء الدمن: اللسان ١٧/ ١٤، ١٥.

تسمى العضباء، وليس من هذا- أى ليس من كسر القرن، أو شق الأذن- وإنما ذاك اسم سميت به(١).

كذلك تسمية فرس جبريل عليه السلام «حيزوم» ووردت فى حديث رسول الله ﷺ يوم الخندق.

وقد نقل الإسلام ألفاظًا من معانيها اللغوية إلى معانيها الشرعية، كالمؤمن والمسلم، والكافر والمنافق، والصلاة والزكاة والحج- وفى هذا سائر أبواب الفقه(٢).

وغيّر رسول الله ﷺ معانى بعض الألفاظ على طريق النقل والتجوز، قال ابن برهان: «إن رسول الله ﷺ نقل بعض الألفاظ من اللغة إلى الشرع، ولا تخرج بهذا النقل عن أحد قسمى كلام العرب، وهو المجاز»(٣).

من ذلك: الرّقوب، قال ﷺ: **«ما تعدون الرقوب فيكم؟»** قال: قلنا: الذى لايولد له، قال: ليس ذلك بالرقوب، ولكنه الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئًا- أى لم يمت له، ولم يحتسب عند الله، وكذلك: الصرعة، قالﷺ: **«فما تعدون الصرعة فيكم؟»** قال: قلنا الذى لا يصرعه الرجال، فقال: ليس بذاك، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب، وكذلك المفلس، قال ﷺ: **«أتدرون من المفلس؟»** قالوا: المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع، قال: **«المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن نفدت حسناته أخذ من سيئات صاحبه فحمِلت عليه، ثم طرح فى النار»**.

كذلك المحرَم- اسم لأول شهور السنة الهجرية- سماه بذلك رسول الله ﷺ كما فى الحديث: **«أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم»**، وكانت العرب تسمى صفر الأول وصفر الثاني(٤).

---

(١) المزهر: ١/ ٢٩٥

(٢) المزهر: ١/ ٢٩٥.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٢٩٨و٢٩٩.

(٤) المصدر السابق ١/ ٣٠٠و ٣٠١.

ويحوّل رسول الله ﷺ التسمية من اسم إلى آخر، قال ﷺ: **«لايقولن أحدكم عبدى وأمتى، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامى وجاريتى، وفتاى، وفتاتى[١]»**، وكذلك سمى «الكرم» العنب والحبلة، قال ﷺ: **«لاتقولوا الكرّم ولكن قولوا: العنب والحبلة، فإنما الكرم المسلم»[٢]**.

وجاءت التراكيب الرائعة المبتكرة فى كلامه ﷺ والدالة على جوامع كلمة ﷺ ومن ذلك:

- «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ».
- «حُفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات».
- «قل آمنت بالله ثم استقم».
- «ليس الخبر كالمعاينة»، ذكر أنه أول من قال ذلك.
- «يا خيل الله اركبى»[٣].
- «اشتدى أزمة تنفرجى».
- «المؤمن مرآة أخيه».
- «هدنة على دخن»[٤].
- «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا».

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) دليل الفالحين ٤/ ٥٦٧.

(٣) صحيح مسلم. والفاخر للمفضل بن سلمة، ص١٦٨، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب. تحقيق عبد العليم الطحاوى، سنة ١٩٧٤م، قال ابن الأثير: هذا على حذف المضاف، أراد: يا فرسان خيل الله اركبى، وهذا من أحسن المجازات وألطفها، اللسان ١٣/ ٢٤٥.

(٤) الدخن.. بالتحريك- مصدر: دخنت النار تدخن إذا ألقي عليها حطب رطب وكثر دخانها، والدخن: الحقد وتفسير الحديث: لا ترجع قلوب قوم على ما كانت عليه أى: لا يصفو بعضها لبعض فهو سكون لعلة لا للصلح وشبهها بدخان الحطب الرطب لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر وأصل الدخن أن يكون فى لون الدابة أو الثوب كدرة إلى سواد، اللسان ١٧/ ٦.

وجاءت الأمثال دالة على البراعة اللغوية فى هذه الصور الأخاذة الممثلة للمطلوب فى دقة وأناقة.

والمثل- كما يقال- «تجتمع فيه أربع لا تجتمع فى غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية» «وهو أوضح للمنطق وآمن للسمع، وأوسع لشعوب الحديث»(١).

ومن ذلك:

حدثنا محمد بن عبادة. أخبرنا يزيد. حدثنا سليم بن حيّان. حدثنا سعيد بن مينا. حدثنا جابر بن عبد الله يقول: جاءت ملائكة إلى النبى ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوه له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيًا، فمن أجاب الداعى دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يُجب الداعى لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أوّلوها له يفقهها، قال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة، والداعى محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً، فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد فرّق بين الناس(٢).

اللغة:

بيان المثل:

إن العين نائمة والقلب يقظان: أى تنام عينه ولا ينام قلبه، والمراد أن ذهنه متوقد للفهم، وقد اختلف هل ذلك رؤيا منام أو يقظة؟ سواء كان هذا أو ذاك فإن رؤيا الأنبياء من الوحى، كما نعلم عن رؤيا الخليل بذبح ولده، ورؤيا رسول الله ﷺ قبل البعثة، ورؤيا دخول مكة.

---

(١) نهاية الأرب ٣/ ٢.

(٢) صحيح البخارى، كتاب الاعتصام.

وهذا مخالف للرؤى العادية التى يتحدث عنها علماء النفس، ومنها الصادق وغيره، وفى الإسلام تعبير الرؤيا، ومنها ما هو من الله وما هو من الشيطان.

ويقول ابن حجر: هذا تمثيل يراد به حياة القلب، وصحة خواطره.

ومعنى أولوها له: فسرّوها.

والمثل: هو الشبه، وقد يراد به القصة أو الحالة التى تدعو إلى التأمل والتفكير والدهشة، ويراد به- أحيانًا- مضرب المثل.

مثلاً: يصدق على الواحد والكثرة لوقوعه فى سياق الإثبات، لكن الواضح هنا إرادة مثل واحد، وعبّر بالظاهر عن المضمر.

والمثل يحكى حالة من بنى دارًا، ونصب فيها مأدبة، وأرسل داعيًا يدعو الناس لحضورها، فمن حضر أكل، ومن لم يحضر لم يأكل.

وهى تمثل ما أعد الله تعالى من الجنة، وبعث الداعى إلى طاعة الله وهو محمد ﷺ، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه لم يدخل، ولم يستمتع بنعيمها، وهذا ما فسرته به الملائكة.

فرق: بتشديد الراء أو سكونها جعل الناس فريقين أحدهما فى الجنة، والآخر فى النار.

وهذا التشبيه مركب وليس مفردًا.

حدثنا أبو اليمان. أخبرنا شعيب. حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن أنه حدثه أنه سمع أبا هريرة- رضى الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إنما مثلى ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش، وهذه الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن، ويغلبنه، فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وهم يقتحمون فيها»**(١).

---

(١) صحيح البخارى، عمدة القارى ٢/ ٧٦.

بيان المثل

اللغة:

إنما: أداة قصر يليها المقصور، والمقصور هنا حال الرسول ﷺ مع الناس، والمقصور عليه حال الرجل المستوقد للنار.

والمثل بمعنى القصة والحالة والشأن.

استوقد: السين والتاء هنا للتوكيد، واستوقد وأوقد بمعنى واحد مثل استجاب وأجاب، ومستوقد النار يجمع أولاً ما سيوقده.

أضاءت ما حوله: الفعل «أضاء» يتعدى إلى مفعول هو «ما» أو لازم «وما حوله» ظرف، أو يرفع «ما» فاعلاً أى استضاءت الأماكن التى حوله، والإضاءة: زيادة النور وقوته.

الحجز: جمع حجزة وهى معقد الإزار من وسط الإنسان، وفى قوله: «آخذ بحجزكم» التفات من الغيبة إلى الخطاب، وهو خطاب الناس جميعًا مع تخصيص المخاطبين بمزيد الشرف.

وفى رواية مسلم «أنا آخذ بحجزكم هلم عن النار، هلم عن النار فتعصوننى تقتحمون فيها».

المثل:

يدفع رسول الله ﷺ الناس عن الكفر والعصيان- وذلك بالتوجيه والإرشاد والنصح بالتوجه إلى الإسلام والطاعة- وهم يقعون فى المعاصى على الرغم من هذا التحذير وتكرره، وقد شبه الرسول ﷺ حال هذا الدفع بحال الموقد للنار يحاول دفع الفراش والهوام عن النار، ولكنها تقع فيها ولا ترجع ولا تستجيب، والفراش والدواب يمثل بهن الناس الكفرة والعصاة فى عدم الانتفاع بالإسلام وثوابه ورضاهم بالعقاب والهلاك، على الرغم من هداية الرسول لهم دون أن يستجيبوا.

حدثنا محمد بن العلاء قال: حدثنا حمّاد بن أسامة عن بُريد بن عبد الله عن أبى بردة عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «**مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تُمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله به، فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به**»(١).

«بيان المثل»

اللغة:

المثل: الصفة والحال،

الهدى والهداية: الدلالة التى توصل إلى الخير.

الغيث: المطر وعليه تتوقف حياة كل شىء كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

أصاب أرضًا: نزل فوقها، والإصابة تدل على التأثير فيها بما يتسبب عنه إنبات النبات، واستعمل القرآن الكريم الإصابة بالمطر قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ويقال فى اللغة: صابه صوبًا، وأصابه إصابة، والصوب والإصابة- هنا- بمعنى نزول المطر، ويقال- أيضًا-: الصيب مأخوذ من صاب المطر الأرض.

نقية: بمعنى أرض طيبة، وجاء ذلك فى رواية مسلم: «فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء.. إلخ» ومعنى طيبة: جيدة التربة صالحة لإخراج النبات منها.

---

(١) صحيح البخاري. كتاب العلم.

الكلأ: النبات الرطب واليابس، أما العشب فهو الرطب فحسب، وأما اليابس منه فيسمى الحشيش.

أجادب: جمع مفرده جدب- بفتح الجيم والدال- وليس جمعًا قياسيًا، والمراد طائفة من الأرض غير صالحة للإنبات ولا يتسرب الماء خلالها.

قيعان: جمع قاع، ويراد به الأرض المستوية الملساء التى لا نبات فيها ويجمع أيضًا على أقوُع وأقواع.

لم يرفع بذلك رأسًا: معناه لم يحو شيئًا من العلم من تمسكه بالدين، أو حواه ولم يستفد منه أى استفادة فامتنع من تحصيله أو قبوله، فلم ينفع نفسه ولم ينفع غيره، وفسر ابن حجر «لم يقبل هدى الله» بعدم الدخول فى الإسلام وهذا التعبير كقوله تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا** ﴾ [الروم: ٣٠].

النحو:

مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم:

«مثل» الأولى مبتدأ خبره «الكاف» التى وقعت اسمًا بمنزلة «مثل».

وعطف العلم على الهدى وهما بمنزلة الدلالة والمدلول، فبينهما صلة، ووشائج قربى، ومع ذلك فواو العطف تقتضى المغايرة، ولذلك قيل: إن الهدى يعنى العمل التطبيقى، والعلم يعنى فقه الأمور، ومعرفة مبادئها وأحكامها.

جملة «أصاب أرضًا»: إما حال من الغيث، أو تقع موقع الصفة، لأن «ال» فيه للجنس فكأنه بمنزلة النكرة.

فكان منها نقية قبلت الماء: «كان» - هنا- تامة أو ناقصة «ومنها» خبرها تقدم على اسمها «نقية» وجملة «قبلت الماء» صفة لـ «نقية»، ومثلها «وكان منها أجادب أمسكت الماء».

وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء.. إلخ.

فاعل «أصاب» ضمير مستتر جوازًا يعود على الغيث، وفهم- مع طول الكلام- من السياق- و«طائفة» مفعول به للفعل «أصاب» و«أخرى» صفة «طائفة» و«إنما» إنّ مكفوفة عن العمل بـ«ما» وما بعدها مبتدأ وخبر «هى قيعان» و«لاتمسك ماء» جملة فى محل الصفة لـ«قيعان» لأنه نكرة، وما بعدها معطوف عليها «ولا تنبت كلأ»، واستخدم «إنما» فى الأمر المعلوم المسلم به عن طبيعة هذه الطائفة من الأرض، وعدم إمساكها الماء، أو إنباتها الكلأ.

صور المثل

التمثيل قائم على أساس تشبيه هيئة بهيئة ليكون أمتع، وأوقع، وأبلغ.

وتنوعت نظرات شرّاح الحديث فى ذلك: قيل- كما فى حاشية السندى على البخارى- هما نوعان: «مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعث به رسول الله ﷺ فعلم وعلم».

هذه صورة من يحصّل العلم وينتفع به فيعمل به وينفع غيره مثلت بصورة الأرض الطيبة التى تقبل الماء، فتحيا، وتنبت النبات، فينتفع به الناس، ومثل الأجادب التى تمسك الماء فينتفع به الإنسان والحيوان والطير، وهذه تمثل من حصّل العلم ونسب إليه- وهذا نوع انتفاع- وإن لم يعمل به، ويؤثر فيه، فهذا صنف واحد.

والنوع الثانى: «مثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به».

هذه صورة من دخل فى الدين، ولم يحصل العلم، ولم يستفد منه، ولم يُفد غيره، فامتنع من التحصيل، والقبول، ولم ينفع نفسه، ولا غيره، أو لم يدخل فى الإسلام أصلاً، فمنع الخير كله، هذه صورته وهى ممثلة بصورة طائفة من الأرض ملساء مستوية «قيعان» لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ.

وقيل- كما يرى القسطلانى فى شرحه على البخارى-: هى ثلاثة أنواع:

- **النوع الأول:** «مثل من فقه فى دين الله» أخذ العلم وحصّله، لكنه لم ينتفع به، وإن نفع غيره، كالأجادب التى تمسك الماء، فلا تستفيد هى منه بنبات أو غيره، وإنما يستفيد الناس بالتقاط الماء منها، وكذلك هذا النوع من الناس يأخذ الآخرون عنهم العلم، وإن لم ينتفعوا به ولم ينشروه.

- **والنوع الثانى:** «مثل من نفعه ما بعث به رسول الله ﷺ فعلم وعلم» هذا الصنف من الناس حصّل العلم، وانتفع به، ونفع غيره من الناس، وهذا مصور بحال الأرض الطيبة التى يصيبها الغيث فتحيا، وتنبت ما ينفع الناس والأحياء من النبات وغيره.

- **والنوع الثالث:** ومثله من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى جاء به رسول الله ﷺ وهذا الصنف هو المذموم الممثل بالقيعان، لدخوله فى الدين، وعدم الاهتمام بالعلم، حصله أو لم يحصله- وعدم استفادته أو إفادة غيره، أو من لم يدخل أساسًا فى دين الله.

وقيل- كما يرى ابن حجر: الأنواع أربعة:

- **الأول:** «من فقه فى دين الله».

- **الثانى:** «من نفعه ما بعث الله به النبى ﷺ».

وصورة كل منها معروفة من قبل.

- **الثالث:** «من دخل فى الدين ولم يحصّل العلم، أو حصّله، ولم يعمل به، ولم ينتفع به غيره، وهذا النوع كالأرض السبخة تتلقى الماء فيمر خلالها، ولكن لم يظهر له أثر فيها، أو فى غيرها، وهذا ما قال عنه ﷺ: «**من لم يرفع بذلك رأسًا**».

- **الرابع:** من لم يدخل فى الإسلام مع دعوته إليه، فصورته ممثلة بالقيعان، وهو ما قال عنه رسول الله ﷺ: «**ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به**».

وكل هذه الأوجه والاحتمالات جائزة مع شىء من التقدير، فيقدر تكرير «من» فى أكثر من موقع على حسب الأنواع، فتقدر «من» قبل قوله ﷺ: «ونفعه ما بعثنى الله به» لتصبح على تقدير «ومن نفعه ما بعثنى الله به» وتقدر «من»- كذلك- قبل قوله ﷺ:

«ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» ليصبح التقدير «ومن لم يقبل هدى الله الذى أرسلت به»، وهذا كما قدروا فى قول حسان بن ثابت:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

فهو على تقدير «ومن يمدحه وينصره».

والحديث يدل على دعوة الإسلام إلى العلم، ورفع شأن العلماء، والعلم واسع المفهوم، فمع شموله العلم الدينى يشمل علم الحياة الصحيحة، وإعمار الكون على أساس مما أحله الله تعالى فى جميع الأعمال والعلوم، صناعية وزراعية وتجارية وتكنولوجية إلى غير ذلك مما يجد من العلوم، وإذا استخدمت فيما ينفع الناس والمجتمعات.

ويدل هذا على أن الإسلام دين العلم، وحين يمتدح العلماء لايقتصر على علماء الدين، بل يمتدح العلماء من كل قبيل وفن، ونوع كما قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ [فاطر: ٢٧]. فالعلماء الذين يخشون الله هم فى كل التخصصات والعلوم التى تضمنتها الآية الكريمة فى النبات والجيولوجيا والإنسان والحيوان إلى كل ما يتعلق بها وبغيرها من علوم وفنون.

والحديث يدل على علم رسول الله ﷺ الذى يأتيه عن طريق الوحى عن أنواع الأرض، ومايجود فيها من النبات وما لايجود، ويستخرج هذه الصور الجمالية فى اللغة التى تدهش أرباب البيان.

وجمع الحديث إلى جانب التصوير الفنى الجميل جملة من الألفاظ اللغوية الرصينة، والعبارات الدقيقة، مما لايملكه غير أفصح الخلق سيدنا محمد ﷺ.

هذا وكان ﷺ يخاطب العرب ويبعث إليهم برسائله المكتوبة، مستعملاً لغتهم فى بعض الأحيان إذا اقتضاها المقام، ومن ذلك ما كتبه ﷺ إلى وائل بن حجر الحضرمى

وأهل حضر موت: «إلى الأقيال العباهلة من أهل حضر موت بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة على التيعة شاة والتيمة لصاحبها وفى السيوب الخمس، لا خلاط ولا وراط ولا شناق، ولا شغار، فمن أجبى فقد أربى وكل مسكر حرام»[١].

الأقيال: جمع قيل وهو الملك.

التيعة: أربعون من الغنم.

التيمة: مايزيد على الأربعين من الشياه.

السيوب: الأموال المدفونة.

الخلاط: خلط الرجل إبله أو غنمه أو بقره مع غيرها مما هو لغيره حتى لايدفع الزكاة.

الوراط: الغش والخديعة.

الشناق: ما بين الفريضة والتى بعدها مما لايدفع فيه زكاة فى عدد الإبل أو البقر أو الغنم.

الإجباء: أن يبيع الزرع قبل أن يدرك.

أربى: وقع فى الربا.

ومن هنا تعددت بعض روايات الحديث، كقوله ﷺ- فيما روى عن كعب بن عاصم الأشعرى- قال: **«سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليس من امبر امصيام فى امسفر». قيل هذه لغة الأشعريين، كما حكى البغدادى فى كتاب الكفاية فى علم الرواية[٢] فهم يقلبون اللام ميمًا فيقولون: مررت بامقوم أى بالقوم»[٣].**

ومثل قوله ﷺ: «ما أغناك الله فلا تسأل الناس شيئًا، فإن اليد هى المنطية، وإن اليد السفلى هى المنطاة، وإن مال الله مسئول ومُنطى» أنطى بمعنى أعطى لغة بنى سعد[٤].

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢٧
(٢) ص: ٢٨١.
(٣) الفائق: ٣/ ٤٤٢
(٤) الفائق: ٣/ ٤٤٢.

وكانت تأتى بعض الروايات بإعراب مخالف للهجة قريش، ففى رواية لمسلم فعرّفنا منهم اثنا عشر رجلاً[(١)]، وعند البخارى «ففرقنا منهم اثنى عشر رجلاً»[(٢)].

وفى شواهد التوضيح يذكر ابن مالك أنها لغة بنى الحارث بن كعب يلزمون المثنى وما جرى مجراه الألف فى أحواله كلها[(٣)].

وتعدد روايات الحديث قد تكون ناشئة عن خطاب رسول الله ﷺ للقبائل العربية كما سبق، وقد تكون ناشئة عن رواية الحديث بالمعنى، فتكون من تصرف الرواة، وذلك بعد ما يكون من توثيق الرواية، والعمل على تحقيق الدقة فى نقلها حتى كان الصحابى أو الراوى إذا شك فى لفظه هل هى أو غيرها قالها رسول الله ﷺ كان الراوى يذكر الاثنين معًا بـ «أو» التى تفيد الشك، كقوله ﷺ- بالنسبة للرجل الذى بال فى المسجد- «صبوا عليه سجلاً من ماء أو ذنوبًا من ماء».

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يستوثقون جدًا بحيث كان بعضهم يرد تغيير لفظة فى الحديث، فعن عبيد بن عمير قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل المنافق كمثل الشاة الموابضة بين الغنمين»** سمعه ابن عمر فقال: لاتكذبوا على رسول الله ﷺ، إنما قال: **«مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين»**[(٤)].

وكانوا – دائمًا- يذكرون قول رسول الله ﷺ فى الحديث المتواتر **«من تعمّد علىّ كذبًا فليتبوأ مقعده من النار»**[(٥)]، وتجوز الرواية بالمعنى بشروط ذكرها علماء

(١) صحيح مسلم.
(٢) صحيح البخارى. ١/ ٧٩ ط. مصطفى الحلبى ١٩٣٣م.
(٣) شواهد التوضيح بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م ص ٩٧.
(٤) الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى: الطبعة الأولى، طبعة السعادة، ص ٢٦٧.
(٥) صحيح مسلم.
(٦) هى شروط فى المروى، وشروط فى الراوى، فمن شروط المروى: ألا يكون الحديث غامضًا مشتركًا محتملاً مشكلاً، وفى الراوى أن يكون خبيرًا بمدلولات الألفاظ والتراكيب العربية حقيقيها ومجازيها، عليمًا بما يصح أن يحل محل غيره مما لا يصح، وإلا وجبت الرواية بالنص واللفظ. وقد جازت الرواية بالمعنى للصحابة والتابعين من أولى الفصاحة، ولأنهم ينسبون إلى قبائل متعددة تعددت رواياتهم بالمعنى، فمنهم القرشى والكنانى والبكرى والتغلبى والهمدانى والكندى والقضاعى والزبيدى والمكى والمدنى والحضرمى.. إلخ.

الحديث[٦]، يقول البغدادى «أما الدليل على جواز ذلك للعالم بمعنى الحديث فهو ما رواه يعقوب بن أكيمة الليثى عن أبيه قال: قلنا لرسول الله ﷺ: **«يارسول الله. إنا نسمع منك الحديث، فلا نقدر على تأديته كما سمعنا، قال: إذا لم تحرموا حلالاً ولا تحلوا حرامًا، وأصبتم المعنى فلا بأس»**[١].

وقد أجيزت الرواية بالمعنى حال الضرورة، كأن يند لفظ عن الذاكرة، ويحتاج إلى بيان حكم من الأحكام الشرعية، فلا يعرف هذا الحكم دون ذكر اللفظ أو مرادفه، وذلك لايباح إلا لمن كان أحق بالرواية بالمعنى عليمًا بلغات العرب، وبصيراً بالمعانى، ودقائق ألفاظها، ولاتجوز الرواية بالمعنى للجاهل بمعنى الكلام ومواقع الخطاب، وما يحتمل منه وما لايحتمل[٢].

وقد تأخر تدوين الحديث، ففى عهد رسول الله ﷺ لم يدون منه شىء إلا القليل فى أخريات حياته ﷺ، قال ﷺ: **«لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه، وحدثوا عنى ولا حرج ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»**[٣].

وفى عام فتح مكة خطب رسول الله ﷺ خطبة، ثم قام رجل يمنى فقال: **«اكتب لى يارسول الله، فقال رسول الله اكتبوا لأبى فلان»**[٤]، أى اكتبوا له الخطبة.

ولم يدون من الحديث شىء فى عهد الصحابة، وكبار التابعين، وإن ظهرت الحاجة ماسة إلى كتابة الحديث، وكان لعمر بن عبد العزيز شعور كبير بذلك فى مطلع القرن الثانى الهجرى، وفى منتصفه ظهرت بعض كتب الحديث المرتبطة بالفقه مثل موطأ مالك، وفى القرن الثالث دُوّن الحديث، وظهر تدوينه بصورة واسعة بحيث عُد العصر الذهبى، وظهرت فيه المؤلفات التى أخذت اتجاهات متنوعة، فظهر التأليف على المسانيد كمسند عبد الله بن موسى الكوفى والإمام أحمد وإسحق بن راهوية وغيرها،

---

(١) الكفاية ص ٣٠٠، ٣٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٠.

(٣) صحيح مسلم.

(٤) صحيح البخاري. ط. مصطفى الحلبى، ١٣٥٢هـ- ١٩٩٣م. ١/ ٢٢.

وظهر التأليف على الأبواب، ومن كتب هذا التصنيف صحيحا البخارى ومسلم ومن سار على منوالهما(١).

بلاغة رسول الله ﷺ

يجد الدارسون لحديثه الشريف أنه يلى القرآن الكريم فى بلاغته، وهو ينهج منهج القرآن الكريم فى قمة البلاغة إلا أن القرآن معجز، يقول مصطفى صادق الرافعى: «إذا قرنت كلمة من تلك البلاغة إلى مثلها فى القرآن رأيت الفرق بينهما كالفرق بين المعجز وغير المعجز سواء، وكلام رسول الله مما يطمع فى مثله فتحس أن بين نفسك وبينه صلة تطوع لك القدرة عليه، بخلاف القرآن فإنك تستيئس من جملته، ولا ترى لنفسك طريقًا إليه ألبتة»(٢).

لكن صاحب الحديث رسول الله ﷺ يملك من أدوات البيان ما يجعله فى الذروة والسنام فعند رسول الله ﷺ «القدرة على وضع الألفاظ وتشقيقها حتى أتى بألفاظ لم تسمع من العرب قبله، وهذه لم يتفق لأحد مثلها فى بلاغتها، وقوة دلالتها، وتأليفها وتنضيدها، وقد روى عن على بن أبى طالب- كرّم الله وجهه- قوله: «ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ، وسمعته يقول: « **مات حتف أنفه وما سمعتها من عربى قبله**»(٣).

●●●

(١) مقدمة ابن حجر لفتح البارى بشرح صحيح البخارى.
(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٣٦٦.
(٣) المصدر السابق ص ٣٤٧.

•• المترادف فى الحديث

اللمز والهمز والنبز

عن أبى مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى البدرى- رضى الله عنه- قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل، فتصدق بشىء كثير، فقالوا مُراء، وجاء رجل آخر، فتصدق بصاع، فقالوا إن الله لغنى عن صاع هذا فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

نحامل: أى يحمل أحدنا على ظهره بالأجرة، ويتصدق بها.

والرجل الذى تصدق بالكثير هو عبد الرحمن بن عوف، والرجل الذى تصدق بصاع قيل: هو أبو عقيل، وقيل غيره، وكان قد ذهب إلى السوق وتحامل على ظهره، فعمل بصاعين ادخر واحدًا لأهله وتصدق بالآخر.

فلمزوا الأول بأنه مُراء: من المراءاة، وهو العمل ليراه الناس يكتسب منهم غرضًا دنيويًا.

ولمزوا الثانى بأن الله غنى عن صاعه:

سمى من اللامزين- فى مغازى الواقدى- معتب بن قشير وعبد الرحمن بن مُبتل.

وفى الحديث أن العبد يطيع مولاه جهده وطاقته وعلى حسب قدرته واستطاعته.

واللمز والهمز: العيب، والهمّاز واللمّاز والهمزة واللمزة: العيّاب للناس إلا أن اللماز أو اللمزة هو الذى يعيبك فى وجهك والهماز والهمزة: من يعيبك فى الغيب.

والنبز: اللمز، والنبز ككتف اللئيم فى حسبه، وفى خلقه، ويقال رجل نبزة كهمزة: يلقب الناس كثيرًا، ومعنى يلقبه أى يعيبه، والتنابز: التعاير والتداعى بالألقاب «المعايب»(١).

(١) القاموس المحيط، ١/ ١٢٤، ٢/ ١٩٨ و٢٠٠.

سخر منه وبه- سخرًا كاستسخر: هزئ والاسم السخرية، وسخره- كمنعه- سخريًا- بالكسر والضم: كلفه ما لا يريده وقهره، ورجل سُخَرة - كهُمزة: يسخر من الناس، وكبُسْرَة: من يُسْخَر منه، ومن يتسخّر كل من قهره، قال تعالى: ﴿**إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**﴾ [هود: ٣٨] أى إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلوننا.

سخّره تسخيراً ذلله وكلفه عملاً بلا أجرة كتسخّره[٢].

فهنا نجد فروقًا واضحة بين هذه الألفاظ: اللمز والهمز والنبز فهى مختلفة فى جوانب من المعنى، حيث إن اللماز يعيب فى الوجه والهماز يعيب فى الغيب.

أما النبز فهو العيب فى حسب الإنسان وأخلاقه، والسخرية عامة تشمل العيب وتشمل معانى أخرى كالتسخير بمعنى التذليل والقهر.

●●●

(١) القاموس المحيط، ١/ ١٢٤ و ٢/ ١٩٨ و ٢٠٠.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٧.

•• الفطانة والفراسة والعجز

الفطانة: القدرة على الإقناع والإفهام، والقدرة على المراجعة والمناقشة، وتكون ملازمة كما فى الأنبياء والرسل، وفعلها- حينئذ- فطن- على وزن كرُم.

فالفطانة- فى حق الأنبياء والرسل- هى: التيقظ لإلزام الخصوم وإحجاجهم، وطرق إبطال دعاويهم الباطلة، والذكاء فى إدراك الأمور الدقيقة، وهو أخص من الفهم.

قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ**﴾ [الأنعام: ٨٣]وقال سبحانه- على لسان قوم نوح-: ﴿**يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا**﴾ [هود: ٣٢] وقال عز حكمه: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥].

فلا يجوز أن يكون الرسول أو النبى مغفلاً، وهو الذى تدخل عليه الأمور الخفية كالشُّبه المزخرفة، لكن إذا نبهته تنبه، ولايجوز أن يكون أبله- الأبله مرادف للمغفل- ولايجوز أن يكون بليداً، وهو الذى لايفهم المسألة إلا بعسر، فالرسل والأنبياء قادرون على أن يردوا زيف الخصم، ويفحموه على تقدير وقوع جدال منهم، وهذا لأن الأنبياء والرسل بعثوا لإقامة الحجج وإبطال شُبه المجادلين(١).

ويمكن أن تكون تارة ولا تكون أخرى، وفعلها فطن أو فطن من بابى «فرح ونصر»، ويقال «فرح ونصر»، ويقال فى المصدر فطنًا- مثلثة وبالتحريك-، وبضمتين وفطونة وفطانة، فهو فاطن وفطين وفطون وفطن والجمع فُطن- بالضم- وهى فطِنة وفاطنة فى الكلام، والتفطين: التفهيم(٢).

الفراسة: النظر فى الأمور بخبرة ووعى، بحيث يعرف الصحيح من الخطأ، والسليم من الزائف، وهى قدرة فائقة على التميز، بعكس من عنده غفلة فيخدع.

---

(١) شرح الخريدة البهية للشيخ الدردير، ص ٤٣٥، ٤٣٦.
(٢) القاموس المحيط، ٤/ ٣٥٨.

يقال تفرس: تثبت ونظر، وأرى الناس أنه فارس «خبير» والفراسة: الحذق[١].

العجز: غلبة الأشياء لمن يحاول أن يغلبها بجهد لا يمكنه من غلبتها.

فقد يحاول إنسان أن يمنع نفسه من الوقوع فى هواه، فلا يستطيع، فيغلبه هواه، ويقف مكتوف اليدين يترك نفسه تفعل ما تشاء، وليس عنده قوة تمنعه من المضى فيما تريد من الهوى، وهذا تسليم بالضعف، والهزال، والهوان على النفس.

والعاجز والعجوز: الضعيف، وفعله كضرب وسمع، وعجزت- كنصر وكرم- عجوزاً: صارت عجوزاً، وأعجزه الشيء: فاته، وأعجز فلانًا: وجده أو صيره عاجزاً.

والمعجزة: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة، أى: لايستطيع أحد من القوم معارضتها، بمعرفة أسبابها، كالسحر والشعوذة، فهى أمور معتادة يمكن معرفتها[٢].

فالمعجزة تتغلب على المخالف لها، حين يُعمل عقله، كما فعل سحرة فرعون حين رأوا عصا موسى تتحول إلى حية حقيقية، لا على سبيل التخييل فى السحر أمام الناظرين كما قال تعالى: ﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ**﴾ [طه: ٦٦] و﴿**سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**﴾ [الأعراف: ١١٦]، أما عصا موسى فقد رأوها ﴿**فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ**﴾ [طه: ٢٠]، فآمنت السحرة بمعجزة موسى ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ**﴾ [طه: ٧٠].

وهذا إذا خُلى العقل عن المؤثرات عليه من العناد والمكابرة، فإذا ما دخل العناد والمكابرة لم يدرك صاحبه عظمة المعجزة مع وضوحها له قال تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾ [النمل: ١٤].

---

(١) القاموس المحيط ٢/ ٢٤٥.

(٢) شرح الخريدة البهية للشيخ الدردير، ص ٤٢٢ وما بعدها.

والمعاجزة- مفاعلة من العجز- بمعنى الممانعة، فكل خصم يحاول أن يمنع الآخر عن تحقيق مراده، وكان هذا يحدث من معاندى الأنبياء والرسل، فكانوا يعاجزونهم وأولياءهم، أى يمنعونهم من أداء رسالتهم، ليصيروا إلى العجز عن أداء أمر الله تعالى، وكلما حاول الرسل عرض الحق سابقهم المعاندون إلى معارضته، ظنًا منهم أنهم يستطيعون معاجزتهم، وممانعتهم، ولكن الله تعالى تكفل بنصر أنبيائه ورسله، وجعلهم يغلبون من يعارضونهم، وأعد لهؤلاء الممانعين من ظهور الحق، وانتشاره، العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ**﴾ [الأنعام: ١٣٤]، وقال عز حكمه: ﴿**وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ [الحج: ٥١]، وقال جل ثناؤه: ﴿**وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ**﴾ [سبأ: ٣٨](١).

الكَيْس: الخفة والتوقد، كاس كيسا وهو كيْس وكيِّس، والجمع أكياس، والكيّس فى الأمور يجرى مجرى الرفق فيها، والكيسى: نعت المرأة الكَيِّسة، وهو تأنيث الأكيس، وقد كاس الولد يكيس كيْسًا وكياسة، والكيِّس: العاقل، وفى الحديث: «أى المؤمنين أكيَس؟» أى أعقل، والكيْس: خلاف الحمق، والكيس: العقل، يقال: كاس يكيس كيسًا.

وفى الحديث عن النبى ﷺ: «**الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت**»، أى العاقل- وفى الحديث أيضًا- «هذا من كيس أبى هريرة- بكسر الكاف- أى من العلم المقتنى فى قلبه، كما يقتنى المال فى الكيس- من الأوعية وعاء معروف يكون للدراهم والدنانير والدُّر والياقوت- ورواه بعضهم بفتح الكاف «من كَيّس أبى هريرة» أى من فقهه وفطنته، لا من روايته(٢).

فالعاقل يحاسب نفسه، ويمنعها من الوقوع فى المعاصى بحكمته وفطنته، وقدرته على علاج محاولة النفس الوقوع فى المحرمات، حتى لا يتعرض لعقاب الله تعالى.

(١) وانظر فى المعاجزة: القاموس المحيط ٢/ ١٨٧، ١٨٨.
(٢) اللسان، ٨/ ٨٤، ٨٥، ٨٦.

أما العاجز فقد ورد فى تكملة الحديث : «والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله» فهو ضعيف أن يكبح من جماح نفسه وتغلبه فيتركها ترتع فى هواها الذى يوقعها فى المعاصى، ويعرضها لعقاب الله تعالى، ومع ذلك يتمنى على الله ألا يؤاخذه بعجزه، وعدم قدرته على منع نفسه عن الهوى، أو يتمنى على الله النجاة من العذاب والحصول على الثواب ، وهيهات إلا إذا تاب ورضى عنه مولاه .

●●●

•• السداد - القصد - المقاربة - الغدوة - الروحة - الدلجة

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «**إن الدين يسر، ولن يُشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة، والروّحة، وشىء من الدُّلجَة**»(١).

وهى رواية له «سدّدوا، وقاربوا، واغدوا، ورُوحوا، وشىء من الدُّلجة، القصد القصدَ تبلغوا» وفى رواية «ولن يشادَ الدين» مرفوع على لم يسم فاعله، وروى منصوبًا.

لن يشاد الدين: المشادّة التشدُّد، والشدة: الاشتداد، والتقوية، والشدّ: العدْو.

وبناء المفاعلة «يشادّ الدين» ليس للمغالبة بل للمغالبة نحو: «طارقت النعل»: الطراق - ككتاب: كل خصيفة يخصف بها النعل(٢).

فالتشدد من جانب المكلف.

والمراد: لا يتعمق أحد فى الأعمال الدينية، ويترك الرفق إلا عجز، وانقطع عن عمله كله، أو بعضه «إلا غلبه» الدين فالضمير المرفوع المستكن يرجع إليه، والهاء تعود إلى المكلف المشدّد على نفسه، وعجز ذلك المشدد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه، ولايمكن القيام بكلها فى كل وقت، لأن الوقت لايقبل عملين، وليس للإنسان فى جوفه من قلبين.

فسددوا: الفاء فى جواب شرط مقدر، أى: إذا بينت لكم ما فى المشادة من الوهن فسددوا أى: الزموا السداد، وهو التوسط من غير إفراط ولا تفريط. قال أهل اللغة: السداد: التوسط.

---

(١) رواه البخارى. انظر دليل الفالحين، ١/ ٣٨٣ وما بعدها.

(٢) القاموس المحيط ٣/ ٢٦٦.

والسداد: الإصابة فى الأقوال والأعمال والمقاصد، والإصابة فى جميعها هى الاستقامة، والمقصود بها الاستقامة على عمل الطاعات، والانتهاء عن جميع المخالفات، إذ لا تتأتى الاستقامة مع شىء من الاعوجاج، فإنها ضد الاعوجاج.

ويقال: سدده تسديدًا: قوّمه ووفقه للسداد، أى: الصواب من القول والعمل، وسدّ الثلمة: أصلحها ووثقها، واستد: استقام، وأسدَّ: أصاب السداد، وطلبه(١).

قاربوا: المقاربة: «القصد الذى لا غلو فيه» بمجاوزة المأمور به، والزيادة فيه «ولا تقصير» بالإخلال بشىء منه، وشىء مقارب: بين الجيد والردىء، وقيل المراد: إذا لم تستطيعوا العمل بالأكمل فاعملوا ما يقرب منه.

الغدوة: بفتح الغين المعجمة- المرة من سير أول النهار الذى هو الغدو، والغدوة: البكرة، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس، وغدا غدوًا: بكر، والغدو: سير أول النهار.

الرَّوْحة: المرَة من سير آخر النهار المسمى بالرواح، والرواح: سير آخر النهار، والرواح أيضًا: العشى أو من الزوال إلى الليل.

الدُلجة: يقال أدلج وادلج- بالتخفيف والتشديد- قيل: إن ذلك كله يستعمل فى سير الليل كله، والدلجة- بفتح الدال وضمها.

وأكثرهم يقول ادلج- بالتشديد: سار آخر الليل، وأدلج- بتخفيف الدال: سار الليل كله.

والدلجة: سير ساعة من الليل أو السير آخر الليل بضم الدال، وبفتح الدال: سير الليل كله.

الدّلج- محركة- والدُلجة- بالضم والفتح- السير من أول الليل، وقد أدلجوا فإن ساروا من آخره فادّلجوا- بالتشديد.

والخلاصة أن الدّلجة: سير ساعة قيل من أول الليل، وقيل من الليل كله.

أما الفعل فبالتخفيف أدلج : سار من أول الليل ، وبالتشديد «ادّلج» سار من آخر الليل .

ومن هنا قال بعضهم : إن الفعل يستعمل لسير الليل فى أى جزء منه ، فى أوله ، أو وسطه ، أو آخره .

والمراد التمثيل ، معناه : استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال فى وقت نشاطكم «أول النهار- غدوة- آخر النهار- روحة» ووقت فراغ قلوبكم «الدّلجة» لأنها وقت الصفاء بحيث تستلذون العبادة ، ولا تسأمون ، وتبلغون مقصودكم .

كما أن المسافر الحاذق يسير فى هذه الأوقات ، ويستريح هو ودابته فى غيرها فيصل إلى المقصود بغير تعب .

شبه رسول الله ﷺ مايقع من العابد من الاستراحة وقتًا ، والتعبد أوقات النشاط والفراغ بحلول المسافر تارة ، وارتحاله فى أوقات النشاط أخرى ، ووجه الشبه : الوصول إلى المقصد ، فالمسافر الحاذق يسير فى أول النهار ، أو فى آخره ، أو فى جزء من الليل ، بنشاط الدواب فى السير فيها لبرد الهواء ، فيقطع فيها من المسافة ما لايقطعه فى أطول منها من باقى الأوقات- فى وقت الظهيرة مثلاً حيث يشتد الحر ، وتتعب الدواب عن المشى ولذلك يستريح فى وقت القيلولة ووقت تعب ماشيته- فيصل إلى المقصود بلا تعب .

وكذلك العابد يتحيّن أوقات نشاطه ، فيبذل جهدًا فى العبادة ويستريح فى الأوقات الأخرى حتى لا يتعب ، فيراوح بين أوقات العمل ، وأوقات الاستراحة فيصل إلى المقصود ، والواو فى قوله «الغدوة والروحة وشيء من الدلجة عاطفة بمعنى أو» .

القصد القصد: بالنصب على الإغراء أى الزموا التوسط فى الأمر من غير إفراط ولا تفريط .

والقصد هو استقامة الطريق والاعتماد وضد الإفراط وهو كالاقتصاد والعدل والتقتير[(١)] .

تبلغوا: أي إن تفعلوا ذلك على وجه القصد والمقاربة تبلغوا القصد من مرضاة ربكم، ودوام القيام بعبوديته، فالقصد مع المداومة أفضل من الكثير مع الانقطاع .

فإن تعاطيتم المشاق ربما مللتم فانقطعتم عن العبادة .

●●●

(١) القاموس المحيط ١/ ٣٣٩.

•• الكرْم - العنب - الحبلة

عن أبى هريرة- رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تسموا العنب الكرم فإن الكرم المسلم»** متفق عليه [1].

إنما نهى عن هذا لأن العرب كانوا يسمون الخمر كرْمًا، لما يدعون من إحداثها فى قلوب شاربها من الكرم فنهى عن تسميتها بما يتمدح به لتأكيد ذمها وتحريمها وعُلم أن المسلم أو قلبه فيه نور الإيمان، فهو أولى بذلك الاسم.

وعن وائل بن حجر- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: **«لاتقولوا الكرم ولكن قولوا العنب والحبَلة»** رواه مسلم.

الحبَلة: - بفتح الحاء والباء- ويقال- أيضًا- بإسكان الباء، فهذا لا مدح فيه ولا زائد على تعيّن المسمى.

والحبَلة- محرّكة: شجر العنب، وربما سُكن، ويقال فيها الحبْل اسم جنس جمعى.

كرُم فهو كريم وهى كريمة: ضد اللؤم، ورجل كرَم- محركة: كريم، للواحد، والجمع، الكرْم: العنب، وقوله «رزقًا كريمًا» كثيرًا و«قولاً كريمًا» سهلاً لينًا.

وليس الغرض من النهى فى الحديث حقيقة النهى عن تسمية العنب كرمًا، ولكنه رمز إلى أن هذا النوع من غير الأناسى المسمى بالاسم المشتق من الكرم أنتم أحقاء بألا تؤهلوه لهذه التسمية غيرة للمسلم النقى أن يشارك فيما سماه الله تعالى، وخصّه، بأن جعله صفته، فضلاً أن تسموا بالكريم من ليس بمسلم، فكأنه قال: إن تأتى لكم ألا تسموه مثلاً باسم الكرَم ولكن بالجفنة أو الحبَلة فافعلوا، وقوله: فإنما الكرْم المسلم: أى فإنما المستحق للاسم المشتق من الكرم هو المسلم [1].

•••

(١) القاموس المحيط ٤/ ٣٧١، ٣٧٢.

الفصل الثانى

من بدائع البيان النبوى

[١] عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»(١).

المعانى اللغوية

بُنى: فعل ماض مبنى للمجهول، من «بنى يبنى» مثل أن تقول بنى فلان بيتًا.

إقام الصلاة: تعديلها وملازمتها.

إيتاء الزكاة: إعطاؤها، من قولهم: آتاه إيتاء، أما آتيته أتيًا وإتيانًا، فالمراد منه: جئته.

والزكاة: الطهارة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] أى تطهر، وهى النماء، يقال: زكا الزرع: نما، والزكاة شرعًا: إعطاء جزء من المال الذى بلغ حولاً إلى الفقير، وإلى بقية مصارف الزكاة.

والصوم: الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

والحج: فى اللغة القصد وشرعًا: قصد بيت الله الحرام للنسك.

المسائل النحوية

الإسلام: نائب فاعل للفعل «بنى».

خمس: التقدير خمس دعائم، وصرّح بعضهم به، ويروى - عند مسلم - خمسة،

(١) مدة القارى بشرح صحيح البخارى للبدر العينى. ١/ ١١٨ ومابعدها.

والتقدير خمسة أشياء، أو أركان، أو أصول، ولم تذكر التاء فى رواية البخارى لعدم ذكر المعدود كقوله ﷺ: «**من صام رمضان وأتبعه ستًا من شوال**» الحديث، والقاعدة النحوية أن العدد من ثلاثة إلى تسعة يذكر مع المؤنث، ويؤنث مع المذكر إذا كان المعدود مذكورًا، أما إذا لم يكن مذكورًا فيجوز الأمران.

شهادة: بالجر بدل من «خمس» ويجوز رفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أى هى شهادة أن لا إله إلى الله.. إلخ ويجوز نصبه بتقدير أعنى.

الأسرار البلاغية

والإسلام بأركانه الخمسة وقطبها شهادة أن لا إله إلا الله، إذ لايقوم الإسلام بدونها، فبنيانه وقيامه هو عليها، والاستعارة المكنية تتبعها استعارة تخييلية(١).

ويمكن أن تُجرى الاستعارة على أنها تبعية، فيشبّه ثبات الإسلام واستقامته بالبناء الذى هو مصدر للفعل «بنى» ثم يشتق من البناء بمعنى الثبات والاستقامة الفعل «بنى» بمعنى ثبت واستقام على هذه الأركان.

ويُفهم من معنى الحديث أن الإنسان يكون مسلمًا بتوافر هذه الأركان الخمسة، ولكن العلماء يجمعون على أن ترك غير الشهادتين لايوجب الكفر، وقول بعض العلماء بكفر من ترك الصلاة - كالشافعى وأحمد - فالغالب أنهم يقصدون الزجر والوعيد، أو أنه يعد كفرًا إذا استحل ترك هذا الركن.

وهذه الدعائم فرض عين على كل من يتصف بالإسلام ولا تسقط عن أحد إلا لضرورة حددها، الفقهاء.

(١) يُتخيل أن الإسلام بيت، وكأنه ذلك المتخيل، ويتخيل فيه عمل البناء اللازم لإقامة البيت، وكأن الأركان هى الأعمدة، وهذا التخييل يقوم بقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى أو الحقيقى.

[٢] عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

المعانى اللغوية

المراد باليد: يمكن أن يكون حسيًّا، وهو اليد الجارحة، فالإيذاء بها منهى عنه، ويدخل فى اليد معنى كل عدوان على حق الغير، فهو نوع من الإيذاء، وإن لم يكن باليد الحقيقية.

المهاجر: - فى الأصل - الذى ترك وطنه وعشيرته، كما كان فى صدر الإسلام - فالهجر: الترك، والفعل هجر يهجر - بالضم - هجرًا وهجرانًا، وقد حزن على انقضاء الهجرة من لم تتيسر له، وهذه هى الهجرة الحقيقية، ثم استعملت هنا بمعنى ترك الأمور التى نهى الله تعالى عنها.

والمهاجر من صيغ المفاعلة، وهى تعنى إشراك اثنين فى شىء، ولكن الصيغة هنا ليست على بابها فهى من طرف واحد فحسب، فهى بمعنى الهاجر كالمسافر بمعنى السافر، والمنازع بمعنى النازع.

المسائل النحوية

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده: «المسلم» مبتدأ خبره «من» - الاسم الموصول - وصلته «سلم المسلمون».. إلخ، ويجوز أن يكون «من سلم المسلمون».. إلخ، خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره: هو، والجملة خبر المبتدأ «المسلم» قبله.

ومثله: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

الأسرار البلاغية

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده: المبتدأ والخبر هنا معرفتان، وإذا عُرف الطرفان أفادت الجملة القصر والحصر، لكن لا تفيد هنا ذلك، بل المعنى المراد: المسلم الكامل، كما تقول: زيد الرجل، أى الكامل فى الرجولة.

والمراد بالكامل الإسلام من لم يؤذ مسلمًا بقول ولا فعل، وليس هذا المعنى على القصر والحصر، بل المراد أن من لم يؤذ مسلمًا بيده أو قوله أو عمله فهو الكامل، يعنى أنه أحسن من غيره وأفضل، كما يقول العرب: المال الإبل، أى أفضل المال الإبل، وكما تقول: الناس العرب، أى خير الناس العرب، فالمعنى المراد أن خير المسلمين وأفضلهم من اجتمع لديه أداء حقوق الله تعالى، وأداء حقوق المسلمين، ومعنى ذلك أن من لم يسلم المسلمون من لسانه ويده لا تكون له هذه الأفضلية ولا هذا الكمال.

والتعبير بنفى الأفضلية والكمال كثير فى كلام العرب وكذلك التعبير بإثباتهما.

وفى الحديث من البديع الجناس الحاصل بالاشتقاق، وذلك برجوع اللفظين إلى أصل واحد اشتقاقًا، مع اختلافهما معنى كما فى قوله سبحانه: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ**﴾ [الروم: ٤٣] فالقيم يرجع إلى ما يرجع إليه الفعل «أقم» وهو مادة «قوم» والمعنى متنوع بتنوع الاشتقاق.

وفى الحديث الحث على ترك أذى المسلمين بأصناف الإيذاء، ويكون هذا بحسن معاملة الناس، والدعوة إلى ترك المعاصى، واجتناب ما نهى الله تعالى عنه.

وهذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ.

[٣] عن أبى هريرة- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ والمسجد الأقصى**».

المعانى اللغوية

لا تشد الرحال: الفعل تُشد بصيغة المبنى للمجهول، والنفى بـ «لا» معناه النهى فهو بمعنى: لا تشدوا الرحال، وسبب العدول عن النهى إلى أسلوب النفى للرغبة فى التوجه إلى هذه المساجد من المسلمين، وحملهم على الانصراف عن غيرها إليها بألطف وجه، ولذلك رأى بعضهم أن النفى أبلغ من صريح النهى كأنه قال: لايقصد بالزيارة

إلا هذه المساجد، لفضائلها الكثيرة، ووقع فى رواية مسلم: «**تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد**» وليس فى هذه الرواية منع شد الرحل لغيرها.

والتعبير بـ «شد الرحال» كناية عن السفر، فهو بيان لما جرت العادة به عند السفر من الإعداد له، والتجهيز للراحلة أو وسيلة السفر، فالمراد: قصد هذه المساجد سواء كان ذلك بركوب الرواحل الخيل والبغال والحمير والسيارات والطائرات، أو كان ذلك بالمشى إليها، والرحل للبعير كالسرج للفرس.

المسجد الحرام:

هو المحرّم لأن الحرام اسم للشىء المحرم.

مسجد الرسول ﷺ: الألف واللام فيه للعهد عن سيدنا محمد ﷺ وقال فى هذه الرواية «مسجد الرسول» ولم يقل «ومسجدى» كما ورد فى بعض الروايات الأخرى إشارة إلى التعظيم لنسبته الظاهرة إلى من اختص بالرسالة العظيمة رسالة الإسلام، ويجوز أن يكون هذا التعبير من تصرف بعض الرواة.

والمسجد **الأقصى**: هو بيت المقدس، وهنا أضاف الموصوف إلى الصفة، وقد جوّز ذلك بعض النحاة من الكوفيين، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ**﴾ [القصص: ٤٤]، وأوّله البصريون بأن المضاف إليه محذوف أقيمت الصفة مقامة، أى مسجد المكان الأقصى، وبجانب المكان الغربى، وسمى المسجد الأقصى بذلك لبعده عن المسجد الحرام، والمسجد النبوى الشريف، أو لأنه لم يكن وراءه مسجد حين بُنى، وهو فى أقصى موضع من الأرض ارتفاعًا، وقربًا إلى السماء، ويقال قَصَا المكان يقصو قصواً وقصِىَ: بُعد فهو قصىّ، وقاصٍ ويقال فلان بالمكان الأقصى، والناحية القصوى أى البعيدة.

حكم شد الرحال إلى هذه المساجد

فهم من هذا الحديث فضيلة هذه المساجد ومزيتها على غيرها، لكونها مساجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأن المسجد الحرام قبلة الناس، وإليه حجهم، ومسجد

الرسول ﷺ أسس على التقوى، والمسجد الأقصى كان قبلة الأمم السابقة، ولفظ الحديث «لا تشد» خبر معناه النهى كما ذكرنا عن شد الرحال إلى مواضع أو مساجد أخرى، إنما تشد إليها فقط، فإذا نذر الإنسان أن يصلى فيها لزمه ذلك، وبه قال مالك وأحمد والشافعى، فمن نذر أن يصلى فى مسجد مكة أو المدينة أو بيت المقدس فعليه السير إليها، ووردت بعض الروايات عن بعض الأئمة أنه لايلزمه إلا إذا نذر ذلك فى المسجد الحرام، كما نقل عن الشافعى فى الأم ونقل عن غيره أن ذلك خاص بالحرمين، وأما الأقصى فلا، واستأنس بحديث جابر «أن رجلا قال للنبى ﷺ: **«إنى نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلى فى بيت المقدس. قال: صل ها هنا»** وبعض العلماء يرى أنه لو قال: «آتى مكة أو مسجد الخيف أو أمشى إلى الحرم، أو ذكر بقعة أخرى من بقاع الحرم كالصفا والمروة، ومنى والمزدلفة، ومقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وزمزم وغيرها فهو كما لو قال: إلى بيت الله الحرام لشمول حرمة الحرم لذلك كله» وعن أبى حنيفة أنه لايلزم المشى إلا أن يقول: إلى بيت الله الحرام أو إلى الكعبة، أو إلى مقام إبراهيم، أو إلى مكة، والشد إلى المسجد الحرام فرض للحج والعمرة.

أما إذا نذر الصلاة فى غير هذه المساجد الثلاثة من البقاع فإن له الخيار فى أن يأتيها أو يصليها فى موضعه لايرحل إليها، وقصد هذه المساجد ليس محرمًا، وإنما هو أمر مباح، له أن يذهب إليها متى شاء، وله ألا يذهب، سواء نذر أو لم ينذر، وله أن يصلى فيها وفى غيرها، خلافًا لبعض العلماء الذين قالوا يجب عليه الوفاء إذا نذر الصلاة فى أى مسجد، ولكن الراجح أنه لا يجب فى غير المساجد الثلاثة المذكورة، للحديث الذى معنا.

وأما قصد غير المساجد من الرحلة فى طلب العلم، وفى التجارة، والتنزه وزيارة الإخوان ونحو ذلك فليس منهيًا عنه ولايدخل فى النهى الوارد فى الحديث.

[٤] عن البراء- رضى الله عنه- قال: **«أمرنا النبى ﷺ بسبع ونهانا عن سبع، أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعى، ونصر**

المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس، ونهانا عن آنية الفضة، وخاتم الذهب، والحرير، والديباج، والقسى، والإستبرق»(١).

وفى رواية أخرى للبخارى- أيضًا-:

حدثنا آدم: حدثنا شعبة. حدثنا أشعث بن سليم، قال: سمعت معاوية بن سويد بن مقرن، قال: سمعت البراء بن عازب- رضى الله عنهما- يقول: «نهانا النبى ﷺ، عن سبع، نهى عن خاتم الذهب- أو قال: حلقة الذهب- وعن الحرير والاستبرق والديباج والميثرة الحمراء، والقسى، وآنية الفضة وأمرنا بسبع بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ورد السلام، وإجابة الداعى، وإبرار القسم، ونصر المظلوم»(٢).

المعانى اللغوية

بسبع : أى بسبعة أشياء

- **اتباع الجنائز**: يقال : تبعت القوم واتبعتهم : إذا مشيت خلفهم، وأو مروا بك فمضيت معهم، والمراد باتباع الجنائز، المضى معها للصلاة عليها، وتشييعها إلى القبر.

- **عيادة المريض**: هى زيارة المريض، والسؤال عن حاله.

- **إجابة الداعى**: هو من يدعو إلى وليمة، أو مشاركة فى أمر من أموره، وإجابته تكون بطاعته وتلبية طلبه.

- **إبرار القسم**: يقال : أبرّ القسم : إذا صدّقه، فإذا حلفت فأصدق فى يمينك، وإذا حلف أحد عليك لتفعل ما يريده، أو على أمر أنت تقدر على تصديقه، وليس فيه شىء

(١) عمدة القارى. المجلد الرابع ج٨ ص ٦ . لم يذكر البخارى- فى هذه الرواية- من المنهيات إلا ستة، ولعل ذلك سهو من الناسخ وهذا أولى من نسبته إلى البخارى أو شيخه، وقد ورد السابع فى الرواية الأخرى الواردة بعد ذلك فى باب خواتيم الذهب عن آدم عن شعيب .. إلخ.

(٢) عمدة القارى، المجلد الحادى عشر، ج ٢٢، ص ٢٩.

محرم، فعليك أن تصدقه كيلا يحنث في يمينه كما لو حلف ألا يفارقك حتى تفعل كذا، وأنت تستطيع فعله، ولذلك ورد إبرار المقسم أي الحالف.

- **تشميت العاطس**: التشميت- بالشين والسين- الدعاء بالخير والبركة، وبالشين أعلى، وهو مشتق من الشوامت، وهي القوائم، فهو دعاء للعاطس بالثبات على طاعة الله عز وجل، وقيل معناه: أبعدك الله عن الشماتة، وجنبك ما يُشمت، والشماتة: فرح العدو ببلية تنزل بمن يعاديه.

- **الديباج**: هو من الثياب سداه ولحمته حرير، والغليظ منه يسمى الاستبرق، والرقيق يسمى السندس، وفي القرآن الكريم عن أهل الجنة ﴿ **يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ** ﴾ [الدخان: ٥٣] وهي ألفاظ فارسية معربة.

- **الميثرة**: وثره يثره: وطأه، والوثير: الفراش الوطيء والميثرة: مفعلة من الوثارة، وأصلها: موثرة فقلبت الواو ياء لكسر الميم- والميثرة الحمراء التي جاء فيها النهي كانت مركبًا من مراكب الأعاجم، تتخذ كالفراش الصغير، وتحشى بقطن أو صوف يجعلها الراكب تحته على الرحال فوق الجمال، قال ابن الأثير: ويدخل فيه سائر السروج لأن النهي اشتمل على كل ميثرة حمراء سواء كانت على رحل أو سرج(١).

- **القسي**: قال ابن الأثير: هو ثياب من كتاب مخلوط بحرير يؤتى بها من مصر، نسبة إلى قرية تسمى القس، وقيل إن أصل القسي: القزّي منسوب إلى القزّ وهو نوع من الحرير، أو أنه نوع أبيض من الحرير منسوب إلى القس وهو الصقيع لبياضه.

معنى الحديث

أمرنا النبي ﷺ بجملة حقوق للمسلم على أخيه المسلم تتلخص في الاهتمام به به موته بالصلاة عليه وتشييع جنازته، وفي الحديث عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اتبع جنازة مسلم إيمانًا واحتسابًا، وكان معها حتى يُصلى عليها**

(١) اللسان ٧/ ١٤٠، ١٤١.

ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين»، وزيارته إذا مرض، وفى الحديث الشريف عند مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل فى خرفة الجنة حتى يرجع**»، قيل: يارسول الله. وما خرفة الجنة؟ قال: «**جناها**». وفى حديث كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**من عاد مريضًا خاض فى الرحمة، فإذا جلس استنقع فيها**»، وفى رواية أخرى: «**ثم إذا خرج من عنده فلا يزال يخوض فيها حتى يروح من حيث خرج**»، وإذا دعاه إلى وليمة أو أمر يهمه شاركه فى ذلك، وأوجب ذلك بعض العلماء، وقيل هى سنة وذلك أوجب على من له قرابة، وعن بعض العلماء أن ذلك مستحب، ومن حقوق المسلم على المسلم أن يصدق يمينه إذا حلف على أمر يريده منه، وذلك كله فى غير ما فيه إثم، وعلى المسلم أن يبادل أخاه المسلم التحية بإلقاء السلام عليه، ورده إذا سلم عليه، وأن يقف بجواره فى الحق، فيأخذ له حقه إذا كان مظلومًا، ويعينه على الحصول عليه، وإذا كان ظالمًا رده عن ظلمه فهذا الرد نصر له كما قال الرسول ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» قالوا يارسول الله: « **ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا؟**» قال: «**أن ترده عن ظلمه فذلك نصره**»، ومن حقوق المسلم على أخيه أن يشمته إذا عطس وحمد الله بأن يقول له: **يرحمك الله** ويرد العاطس: **يهديكم الله** ونحو ذلك.

وقد نهانا الرسول ﷺ عن استعمال الأوانى من الفضة أو الذهب والنهى للتحريم، ففى حديث حذيفة- رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا فى صحافها**» الحديث، ويستوى فى ذلك الرجال والنساء، كما نهانا ﷺ عن استعمال خاتم الذهب للرجال فهو حرام، وأما التختم بالفضة فهو جائز للرجال، فعن أنس - رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتمًا من فضة له فص ونقش عليه محمد رسول الله، والحرير حرام على الرجال دون النساء أيضًا، ففى حديث علىّ- كرم الله وجهه- «أن النبى ﷺ أخذ حريرًا فجعله فى يمينه، وأخذ ذهبًا، فجعله فى شماله، ثم قال: «إن هذين حرام على ذكور أمتى حلّ لنسائهم».

[٥] أخبر أبو سلمة أن عائشة- رضى الله عنها- زوج النبى ﷺ أخبرته قالت: أقبل أبو بكر- رضى الله عنه- على فرسه من مسكنه بالسنح حتى نزل، فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة- رضى الله تعالى عنها. فتيمم النبى ﷺ وهو مسجى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبّ عليه فقبّله، ثم بكى فقال: «بأبى أنت يا نبى الله ، لايجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد متها، قال أبو سلمة، فأخبرنى ابن عباس- رضى الله عنهما- أن أبا بكر- رضى الله عنه- خرج وعمر- رضى الله عنه- يكلم الناس فقال: اجلس فأبى، فتشهد أبو بكر- رضى الله عنه- فمال إليه الناس وتركوا عمر، فقال: «أما بعد فمن كان منكم يعبد محمدًا ﷺ، فإن محمدًا ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤] والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبو بكر-رضى الله عنه- فتلقاها منه الناس، فما يسمع بشرٌ إلا يتلوها.

المعانى اللغوية

السُّنح: بضم السين المهملة والنون والحاء المهملة: هو منازل بنى الحارث بن الخزرج، بينها وبين منزل رسول الله ﷺ ميل، وضبط بعضهم الكلمة بإسكان النون.

تيمم النبى ﷺ: أى قصده.

وهو مُسجى: يقال سجيت الميت تسجية إذا مددت عليه ثوبًا ومعنى مسجًّى هنا مُغطًّى.

يُرد حبرة: يقرأ ببرد حبرة على الوصف وببرد حبرة بالإضافة، والبردة: الشملة المخططة، وحبرة- بوزنً عنبةً- ثوب يمانى يكون من قطنٍ أو كتان مخطط فقال بعضهم هو ثوب أخضر.

ثم أكبّ عليه: أكب لفظ من النوادر لأنه بالهمزة لازم وبغيرها «كب» متعد عكس المشهور من التعدية بالهمزة فى القواعد التصريفية.

فقبله- أى بين عينيه- فعن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن أبا بكر قبَّل بين عينى النبى ﷺ وهو ميت.

بأبى أنت: أى أنت مفدًّى بأبى أو فديتك بأبى.

لايجمع الله عليك موتتين: أى لن يجمع الله عليك شدة بعد هذا الموت، لأن الله تعالى قد عصمك من أهوال القيامة، وقيل: المعنى: لايموت موتة أخرى فى قبره كما يحيا غيره فى القبر فيسأل ثم يموت، أو المعنى لايجمع الله موت نفسك، وموت شريعتك، فشريعتك باقية إلى يوم القيامة.

أما الموتة التى كتب الله عليك فقد متها: كتب هنا بمعنى قدرها عليك، وفى رواية: التى كتبت عليك أى قدرت، و«متها» بضم الميم وكسرها.

معنى الحديث

إن أبا بكر- رضى الله عنه- دخل على النبى ﷺ بعد موته، وهو مغطى بثوب مخطط، فكشف عن وجهه وقبله بين عينيه، وانهمر فى البكاء، وذكر أن النبى ﷺ لن يلقى شدة بعد هذا الموت، لحماية الله تعالى له من أهوال القيامة، وأن شريعته باقية والحمد لله، ولما وجد عمر- رضى الله عنه- يحدث الناس فى وفاة النبى ﷺ وأنه كان يمنعهم من أن يقولوا إنه قد مات، لأن عمر -رضى الله عنه- كان يقول: إن النبى ﷺ ذهب لميعاد ربه، كما ذهب موسى لمناجاة ربه، فوجه أبو بكر الحديث لعمر يأمره بالجلوس ولما أبى- لما دخله من الدهشة والحزن - تشهد أبو بكر قائلاً: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فتوجه الناس إليه، فتلا عليهم الآية الكريمة ﴿ وما

مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وبين لهم أن الحى المعبود بحق هو الله تعالى وأن الرسول بشر يحيا ويموت كما يموت البشر، وقد أبدى أبو بكر تجلدًا وتلا الآية تعزيًا وتصبرًا.

وفى الحديث استحباب تغطية الميت وجواز تقبيله، وقبّل أبو بكر النبى ﷺ أسوة بالنبى حين قبّل عثمان بن مظعون وهو ميت- كشف النبى ﷺ الثوب عن وجهه وأكب عليه وقبّله بين عينيه ثم بكى بكاءً طويلاً حتى رُؤيت الدموع تسيل على وجنته.

وفى الحديث أيضًا جواز البكاء على الميت من غير نوح، وفى فضل أبى بكر الصديق على عمر- رضى الله عنهما-، وفيه اهتمام السيدة عائشة أم المؤمنين- رضى الله عنها- بأمر الشريعة وأنها لم يشغلها ذلك عن حفظها ما كان من أمر الناس فى ذلك اليوم، وفيه جواز الدخول على الميت بغير استئذان، وقيل إن أبا بكر استأذن، فلما دخل أذن للناس.

[٦] عن أبى هريرة- رضى الله عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع»**.

المعانى اللغوية:

عليهما جنتان من حديد، الجنة فى الأصل: الحصن وسميت بها الدرع التى يلبسها المحارب، لأنها تجن صاحبها أى تحصنه من ضربات الأعداء.

من ثديهما: الثّدىّ جمع ثدى، والثدى للرجل والمرأة.

إلى تراقيهما: التراقى جمع ترقوة، ولكل إنسان ترقوتان، وهما العظمان المشرفان على أعلى الصدر من رأس المنكبين إلى طرف ثغرة النحر.

إلا سبغت: امتدت وغطت سائر الجسد، ووفرت: بمعنى كملت وتمت، وفى رواية: انبسطت.

حتى تخفى بنانه: البنان هى الأصابع، وتخفى بمعنى تستر الأصابع، لطولها وانبساطها، وفى رواية: حتى تُجنّ بنانه وهى بمعنى تستر.

وتعفو أثره: يقال: عفا الشىء وعفوته أنا، لازم ومتعد، وعفت الدار: إذا غطاها التراب، والمراد: تمحو أثر مشيه بسبوغها وكمالها كما يمحو الثوب الذى يجر على الأرض أثر صاحبه إذا مشى بمرور الذيل عليه.

لزقت كل حلقة مكانها: أى التصقت، وفى رواية غاصت كل حلقة مكانها.

معنى الحديث

هذا مثل ضربه النبى ﷺ للجواد والبخيل، وشبههما برجلين أراد كل واحد منهما أن يلبس درعًا يحمى نفسه بها من ضربات الأعداء، والدرع أول ما يلبس إنما يقع على موقع الصدر والثديين إلى أن يدخل لابسها يديه فى كميه ويرسل ذيلها على أسفل بدنه، فصور الرسول ﷺ الذى يبذل المال فى وجوه الخير، وفى حقوق الله تعالى فيه، وينشرح صدره عند الإنفاق، بصورة شخص لبس درعًا، فامتدت وغطت سائر جسده، وحصنته، وهذا يمثل سعة صدر المنفق، ومطاوعة يده له وامتدادها بالعطاء، وصور الرسول ﷺ البخيل الذى تشح نفسه وتضيق إذا طلب منه شىء من حق الله فى ماله بصورة شخص يحاول لبس الدرع، ويداه مغلولتان لا يستطيع تحريكهما يدخلهما فى الدرع، فإذا أراد أن يمرر يده فى الدرع لم يستطع، فتبقى الدرع عند ترقوته وثدييه، ولا تستر جسمه وتضيق عنه، وهذا يمثل ضيق صدر البخيل إذا طلب منه شىء، وتنقبض يده عن الإنفاق.

وأيضًا فهذا المثل النبوى الكريم يبين أن الكريم يستره الله بنفقته، ويستر عوراته، ويمحو عنه خطاياه فى الدنيا والآخرة، كما تستر الدرع صاحبها، أما البخيل فأمره

مفتضح فى الدنيا والآخرة كمن لبس درعًا إلى ثدييه فيبقى مكشوفًا ظاهر العورة، مفتضحًا فى الدارين، وتبقى ذنوبه لا ترفع عنه ولا تكفر فيعذب بها، كالدرع القصيرة تترك صاحبها معرضًا للآفات والمصائب، وأيضًا فإن مال المتصدق المخرج لحقوق الله ينمو ويكثر كما تسبغ الدرع على صاحبها، أما مال البخيل فبضد ذلك يضؤل ويقل ويتلف إذا لم يخرج حق الله فيه.

فعلى كل طائع أن يسارع إلى إخراج زكاة ماله، وإلى الإكثار من العطاء والصدقات، وبذل المال فى وجوه الخير ليعود ذلك عليه بالنفع فى الدنيا والثواب فى الآخرة، وأن يبعد نفسه عن الشح والبخل حتى لايعرض ماله للنقصان، والذهاب فى الدنيا، ويعذب به فى الآخرة ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

[٧] عن سعيد بن أبى بردة عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال: **«على كل مسلم صدقة، فقالوا: يا نبى الله، فمن لم يجد؟ قال: يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة».**

المعانى اللغوية

على كل مسلم صدقة: الصدقة- فى معناها المشهور-: «هى العطية من المال وغيره»، ولكنها- هنا- فى الحديث أعم من ذلك، فتكون بأمور أخرى كإغاثة الملهوف، والأمر بالمعروف وغير ذلك.

ولفظ «على»- من حيث الظاهر- يفيد أن الصدقة واجبة لكن استعملت هنا للاستحباب لا للوجوب، فهذه الصدقات المطلوبة من الإنسان تستحب ولا تجب، وهى صدقات تكون شكرًا لله تعالى على نعمته على الإنسان بسلامة أعضائه، كما جاء

فى حديث آخر عن أبى هريرة- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «**كل سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس**» والسلامى هو المفصل، وفى حديث عائشة- رضى الله عنها- أن النبى ﷺ قال: «**خلق الله كل إنسان من بنى آدم على ستين وثلاثمائة مفصل**»، ينبغى أن نشكر الله على سلامتها بالصدقة.

يا نبى الله فمن لم يجد؟ : أى فمن لم يقدر على الصدقة المالية فماذا يفعل؟

يعين ذا الحاجة الملهوف: هو المستغيث، وهو المتحسر والمضطر والمظلوم، وتلهف على الشيء: تحسّر، وهو أعم من أن يكون مظلومًا يريد تخليصه من الظلم الذى وقع عليه، أو أن يكون عاجزًا عن عمل شيء يريد منك أن تساعده فيه، وتعينه عليه، كأن تعينه فى حمل شيء على دابته، أو تحمله هو عليها مثلاً ونحو ذلك.

فليعمل بالمعروف: ليس المقصود العمل اليدوى، وإنما الأمر بالمعروف، وجاء ذلك فى رواية أخرى عن شعبة «فليأمر بالمعروف» وزاد فى رواية أخرى «وينهى عن المنكر».

وليمسك عن الشر: الإمساك أعم من أن يكون بمنع الشر عن غيره، فكأنه تصدق عليه بالسلامة منه، فإن كان شره لا يتعدى نفسه فقد تصدق على نفسه بأن منعها من الإثم.

فإنها له صدقة: جاء الضمير مؤنثًا لأنه يريد به خصال الخير السابقة، من الصدقة أو العمل باليد أو الإغاثة أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. إلخ، وقد يعود الضمير على خصلة الإمساك عن الشر، وورد بالتذكير فى رواية أخرى «فإن الإمساك له صدقة».

معنى الحديث

فى هذا الحديث الشريف دعوة لكل مسلم- على سبيل الندب- إلى التصدق بالمال على الفقراء والمتحاجين شكرًا لله تعالى على نعمة خلقه وسلامته، وفى ذلك شفقة وعطف على العاجزين عن الكسب، والمحتاجين إلى معاونة، وإذا لم يكن الإنسان ذا

مال فإن هناك وجوهًا أخرى للبر بالناس، على كل فرد أن يعملها، فعليه ألا يكسل عن كسب المال، وبذل الجهد فى سبيل الحصول عليه، للإنفاق منه على نفسه، وإخراج جزء منه صدقة، وصلة لأهله وذويه، ومن يحتاج إليه، وهناك وجوه أخرى للبر والتعاون بين الناس، فمن احتاج إلى مساعدة حال وقوعه فى الضرر على كل مسلم أن يسارع إلى إنقاذه مما وقع أو سيقع به بشتى الصور والوسائل، فإن كان عاجزاً ساعدته، أو مظلومًا رددت مظلمته ودفعت الظلم عنه، وعلى الإنسان أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، بالحسنى والرفق فى الأمور، وتنبيه الناس إلى ما ينفعهم، ومنعهم مما يضرهم، وأن يكف الإنسان شره عن غيره، ليكون المجتمع متحابًا متآزرًا آمنًا مستقرًا.

وهذا الحديث يبين أن المسلم أخ المسلم لا يسىء إليه، ولا ينال منه، ويقدم له كل وجوه الخير والمعروف، والإسلام دين المسالمة والتعاون بين أبناء البشر جميعًا.

[٨] عن عبد الله بن عمر – رضى الله بن عمر – قال: قال النبى ﷺ: **«مايزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة ليس فى وجهه مزعة لحم، وقال: إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ: وزاد عبد الله: حدثنى الليث، حدثنى ابن جعفر: فيشفع ليُقضى بين الخلق، فيمشى حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا، يحمده أهل الجمع كلهم»**.

المعانى اللغوية

مُزعة لحم: هى القطعة من اللحم يقال: مَزَعْت اللحم: قطعته قطعة قطعة، ويقال: أطعمه مزعة من لحم: أى قطعة منه.

ومعنى أن المكثر من السؤال وطلب العطاء يأتى يوم القيامة ليس فى وجهه قطعة لحم: أنه يبعث ووجهه عظم كله، فيكون ذلك شيئًا يعرف به، أو أنه يعذب فى وجهه حتى يسقط لحمه، لمشاكلة العقوبة فى مواضع الجناية من الأعضاء، لكونه أذل وجهه بالسؤال.

وقيل المراد: أنه يأتى يوم القيامة وليس فى وجهه من الحسن شىء، لأن حسن الوجه هو مما فيه من اللحم.

وقيل إن المراد أن المكثر من سؤال الناس يأتى يوم القيامة ساقطًا لا قدر له ولا جاه.

إن الشمس تدنو يوم القيامة: أى تقرب، من الدُنو وهو القرب.

وقد يسأل سائل: كيف انتقل من الحديث عن المكثر من السؤال إلى قرب الشمس من الرؤوس؟

نقول: ذلك لبيان مدى الأذى الذى يلحق بالمكثر من السؤال فى هذا اليوم، فإذا قربت الشمس يكون أذاها لمن لا لحم فى وجهه أكثر وأشد من غيره.

حتى يبلغ العرق نصف الأذن: فى الكلام اختصار، والأصل: حتى يبلغ العرق من الكافر نصف الأذن، ، فأجمل هنا، وفصّل ذلك فى أحاديث أخرى.

فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد ﷺ: فى الكلام إيجاز، فالمستغاث بهم كثير بين آدم وموسى وبين موسى ومحمد ﷺ وهم مذكورون فى حديث طويل فى الشفاعة.

ولفظ «بينا» ظرف زمان بمعنى المفاجأة وأصله «بين» زيدت فيه ألف وهو يضاف إلى جملة فعلية واسمية، ويحتاج إلى جواب يتم به المعنى، وجوابه هنا «استغاثوا»، والأفصح فى جوابه ألا يكون فيه إذ، أو إذا كما وقع هنا بدونهما، وقد يقال: بينا زيد جالس إذ دخل عليه عمرو أو إذا دخل عليه عمرو

حتى يأخذ بحلقة الباب: أى باب الجنة، أو هو مجاز عن القرب إلى الله.

يبعثه الله مقامًا محمودًا: هو الشفاعة العظمى التى اختصت نبينا محمد ﷺ لا يشركه فيها غيره، والمراد بالشفاعة إراحة أهل الموقف من أهوال يوم القيامة، بالقضاء بينهم، والفراغ من حسابهم وهو يوم يجمع فيه الناس من الأولين والآخرين.

فحال المكثر من السؤال سيئة فى هذا اليوم، ومقام الرسول ﷺ هو مقام إنقاذ الناس من هول الموقف حين يغرف الكافر فى عرقه من شدة دنو الشمس، وزحام الخلائق، ويكون لنبينا ﷺ المقام المحمود بالشفاعة العظمى، ويوخذ من الحديث أن السائل مكثرًا هو السائل لغير ضرورة لا تحل له الصدقة، لأنه غنى، وإذا جاء يوم القيامة فتؤذيه الشمس أكثر من غيره، ويحذر الرسول ﷺ من الإلحاف فى المسألة لغير حاجة إليها، وأما من سأل مضطرًا فيباح له ذلك إذا لم يجد عنها بدًا، ورضى بما قسم الله له، ويرجى أن يؤجر عليها، وفى الحديث بيان الشفاعة التى اختص بها رسول الله ﷺ فى يوم الفزع الأكبر.

[٩] عن أبى هريرة- رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من **كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».**

المعانى اللغوية:

من كانت له مظلِمَة: بكسر اللام وفتحها والكسر أشهر- والمراد بها حق الغير الذى يناله الشخص منه إيذاء له أو استيلاء على ما هو لغيره من مال أو منفعة.

والمراد: من كانت عليه أو عنده مظلمة لأحد الناس، فاللام بمعنى على أو عند، وفيما رواه البخارى عن مالك: من كانت عنده مظلمة لأخيه.

والعرض: كل ما يحافظ عليه الإنسان، ويصونه من نفسه أو حسبه ومن يلزمه أمره بحيث يمدح منه أو يذم، وينتقص أو يثلب، وهذا مما يلحق الضرر المعنوى.

والمراد بالشىء: الأشياء الأخرى التى تدخل فى ملك الإنسان مثل ماله أو ممتلكاته كالدور والدواب وغيرها، فالاعتداء على هذه الأشياء ظلم، وكذلك العدوان بالضرر الحسى، كالضرب والإهانة بأنواعها، وإحداث أضرار مادية.

فيتحلله: التحلل أن يطلب من صاحبه الذى نال منه التنازل عن حقه له، والعفو عنه.

معنى الحديث

يمنع الإسلام إيذاء الآخرين، أو سلب حقوقهم، ونحو ذلك، لما له من عواقب وخيمة تعود على من ظلم غيره، وأخذ حقه ظلمًا وعدوانًا فحرمة أعراض الناس مصونة، والحفاظ على أشيائهم أمر ضرورى، ليسلم المجتمع من الشرور والآثام، وليظل الصفاء والمودة وحسن العشرة قائمة بين أبناء المجتمع المسلم، ولذلك يحرص الإسلام على هذه العلاقات الطيبة، وسلامتها، فيطلب النبى الكريم من الذى يخدش شرف الناس فيغتابهم بلسانه، ويكشف ما ستره الله من أمورهم أن يعتذر لمن اغتابه، ويطلب منه أن يسامحه، ويعفو عما بدر منه من إيذاء له، كما يطلب النبى ﷺ ممن سلب مالاً، أو اعتدى على ممتلكات غيره، بأن أخذ داره أو دابته فاستعملها دون إذنه، وانتفع بها من غير رضاه أن يرد المال إلى صاحبه، والعقار والحيوان ونحوه إلى من يملكه، ويحاول استجلاب عطف صاحبه، والسماح عما سلف منه، فإذا لم يفعل الظالم ذلك، ولم يقدم اعتذاره، ولم يرد ما عليه من حقوق اغتصبها، فإنه يوم القيامة- حيث لا يوجد متاع دنيوى يقتص منه- يتحول الأمر إلى الاقتصاص من حسنات الظالم، فيؤخذ منها حق المظلوم ويُعطى له حتى يستوفى حقه عند ظالمه، فإذا نفدت حسنات الظالم، وبقى عليه شىء من حق لمظلوم يؤخذ من سيئات المظلوم- بقدر حقه- ثم توضع على الظالم، وهنا يستحق الظالم دخول النار، لأنه اعتدى على الناس، ولم يعطهم حقهم الذى سلبه فى الدنيا وهم لم يسامحوه فيه جزاء وفاقًا.

ما يؤخذ من الحديث:

أ- قام الإجماع على أن الظالم إذا بيّن مظلمته للمظلوم فأبرأه منها سقط الحق عنه ولم يعاقب عليه، ومثل ذلك ما لو كانت بين شخصين معاملة، وحلل بعضهما الآخر

من كل ما جرى بينهما مما يمكن أن يكون فيه ظلم لأحدهما من الآخر، فيعد ذلك براءة لكل منهما فى الدنيا والآخرة.

ب- يجب بيان مقدار المظلمة عند طلب البراءة منها، بدليل قوله «أخذ منه بقدر مظلمته».

جـ- إذا اغتاب رجل رجلاً فبلغ القول من اغتابه فلابد أن يستحله، وإن لم يبلغه استغفر الله ولا يخبره، وأما التحلل فى المال والمنافع فلا يصح إلا بأن يهبه صاحبه لمن استولى عليه.

[١٠] عن عمران بن حصين- رضى الله عنهما- قال: قال النبى ﷺ: **«خيركم قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال عمران: لا أدرى أذكر النبى ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة، قال النبى ﷺ: إن بعدكم قرنًا يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون، ولا يستشهدون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن».**

المعاني اللغوية

خيركم قرنى: أى خير الناس أهل قرنى، أى أهل زمنى أو عصرى.

ثم الذين يلونهم: أى الذين يقربون من عصره ﷺ، وقد اختلف العلماء فى القرن، فقيل: ثمانون سنة، وقيل أربعون، وقيل مائة، وقيل غير ذلك، والمقصود فى الحديث الزمن الذى يجمع الناس قل أو كثر.

يخونون ولا يؤتمنون: أى لا يثق الناس بالخائنين لخيانتهم الظاهرة، فلا يبقى للناس اعتماد عليهم.

ويشهدون ولا يُستشهدون: ذكر بعض أهل العلم أن المراد شاهد الزور، واحتج بحديث عمر- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال: **«ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل ولا يُستشهد»**، وليس المراد الشهادة من غير طلب إذا كان ذلك فى إثبات حق، أو دفع مكروه.

وينذرون ولايفون: من الوفاء فلا يوفون بالنذر، فمن نذر فى طاعة فعليه الوفاء، ومن لم يف بنذره كان مذمومًا، ووقع فى الحرام.

ويظهر فيهم السِّمَن: قال بعض العلماء: المراد كثرة المال، والتوسع فى المأكل والمشرب، مما يصرفهم عن الطاعة، ويوقعهم فى المعاصى.

معنى الحديث

جعل النبى ﷺ عصره، والقريب من عصره قدوة حسنة لمن يريد الصلاح والتقوى والخير، حيث سادت الصفات الطيبة، والخصال الحميدة، وابتعد الناس- آنذاك- عن الشرور والآثام والمعاصى، وكانوا يتمسكون بأخلاق الإسلام من الأمانة والشهادة بالحق والوفاء والزهد والقناعة، ثم نبه النبى، إلى ما فشا فى الناس بعد ذلك من الرذائل، وأنها خطر على المجتمع، وأخطر هذه الرذائل الخيانة لله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٧].

وخيانة أمانة الله بالتقصير فى الطاعات، والانغماس فى الشهوات، وخيانة أمانات الناس تؤدى إلى ضياع الحقوق، ووقوع الشر والفساد الذى يستشرى فيقوض المجتمع، ويضعفه، ويزلزل أركان الاستقرار فيه، حيث تنعدم الثقة، ويضيع الأمن بين الناس، وحذر النبى ﷺ من ظهور الكذب فهو آفة من آفات النفاق، وشهادة الزور تضيع الحقوق، وهى من أكبر الكبائر كما قال النبى ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» قلنا: بلى يارسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس، فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور «ثلاثًا» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» كما حذر النبى الكريم من عدم الوفاء الذى يوجد عند طائفة من الناس، فينذرون ولايؤدون النذر، وفقدان الأداء دليل على انهيار قيمة فاضلة من قيم السلوك الإنسانى وهى الوفاء.

كما حذر ﷺ من انشغال بعض الناس بجمع المال دون بحث عن حلاله وحرامه وأن ينشغل الناس بالمنع فيتلهون بها عن الطاعات، وعن إعطاء حق الله فى هذا المال،

وإنفاقه فى طرقه المشروعة التى تفيد المجتمع، وتنفع الأمة، وربما أدى المال ببعض الناس إلى الانحراف الذى يجر على المجتمع الضرر والشرور.

ما أحكم الإسلام وهو يدعو إلى القيم والمثل الفاضلة، والتمسك بها، وجمع المال من حلال، واستخدامه فى النافع المفيد..!

[١١]- عن عائشة- رضى الله عنها- : **«أن بعض أزواج النبى ﷺ قلن للنبى ﷺ: أيُّنا أسرع بك لحوقًا؟ قال: أطولكن يدًا، فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يدًا، فعلمنا بعدُ أنما كانت طول يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقًا به وكانت تحب الصدقة».**

المعانى اللغوية

قلن: أينا: لم يقلن أيتنا- بتاء التأنيث- لأنه ليس بفصيح لتأنيث كل.

أطولكن يدًا: لم يقل: طولاكن- بلفظ المونث- لأن اسم التفضيل المضاف يجوز فيه المطابقة وعدمها.

والمقصود بطول اليد هو: كثرة الإنفاق، والجود بالمال فلم يرد باليد العضو ولا بالطول: الطول الحقيقى لليد، بل أراد العطاء وكثرته، فاليد هنا استعارة للصدقة والطول من خصائص اليد الجارحة ترشيح لها لأنه ملائم للمستعار منه، ولو قال: أكبركن لكان تجريدًا لها.

فأخذوا قصبة يذرعونها: هذا يجرى على بيان طول يد كل واحدة على الحقيقة ويؤيد ذلك ما روى عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ لأزواجه: أسرعكن لحوقًا بى أطولكن يدًا، قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا فى بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمد أيدينا فى الجدار نتطاول فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينت بنت جحش وكانت امرأة قصيرة، ولم تكن أطولنا فعرفنا حينئذ أن النبى ﷺ إنما أراد بطول اليد الصدقة.

فكانت سودة أطولهن يدًا: على الحقيقة لكن التى ماتت أولاً هى زينب بنت جحش، فقد توفيت فى خلافة عمر سنة عشرين على حين توفيت سودة فى خلافة معاوية سنة أربع وخمسين من الهجرة.

معنى الحديث

سألت بعض أزواج النبى، عن الزوجة التى ستلحق مبكرة برسول الله ﷺ فأجابهن بكلمة عامة شاملة وهى طول اليد ولم يذكر معناها، مع أنه يشمل معنيين الطول القياسى والطول بمعنى كثرة الجود والإنفاق، فظنت نساؤه ﷺ أن المقصود الطول الحقيقى، فذهبن يقسن أطوال أذرعهن، ثم تبين لهن- بعد ذلك- أن التى ماتت لم تكن أطولهن ذراعًا، إنما كانت قصيرة الذراع، لكن تبين لهن أنها كانت بمعنى الجود وكثرة إنفاق المال إلى درجة تزيد على الباقيات اللاتى تأخر رحيلهن، فبدأ الرحيل بزينب لكثرة عطاياها وإنفاقها، لأنها امرأة صناع اليد كانت تدبغ وتخرز وتتصدق فى سبيل الله.

وهكذا علمن خلاف ما اعتقدن مما يدل على أن المنفقين فى سبيل الله لهم عند الله جزاء عظيم، وكما عجل لحوق زينب برسول الله لتحظى بالفضل الجزيل عند الله، فإن المولى سبحانه يعجل بالصالحين المنفقين للقائه.

ما يستفاد من الحديث:

١- فى الحديث معجزة لرسول الله بمعرفة ما يطلعه الله تعالى عليه من الغيب، لكنه لما كانت معرفة الآجال والكشف عنها مما لا يظهر قبل وقوعه استعمل الرسول ﷺ لفظًا مشتركًا غير صريح يحتمل معنيين حقيقة ومجازًا حتى يخفى على السامع المراد ليبقى الغيب أمرًا محفوظًا مخصوصًا بالوحى من الله تعالى، وساغ استعمال لفظ غير صريح لكون موضوع الحديث ليس من الأحكام التكليفية.

٢- فيه - أيضًا- جواز إطلاق اللفظ بمعنيين أو أكثر كالمشترك- بغير قرينة- كلفظ أطولكن إذا لم يكن هناك محذور أو إذا كان لغرض معين.

٣- فيه أن من حمل الكلام على ظاهره وحقيقته لم يلم وإن كان مراد المتكلم مجازه، كما فهمت نساء النبى ﷺ من الطول.

[١٢] حدثنا أبو نعيم قال: حدثنا مسعر عن زياد قال: سمعت المغيرة - رضى الله عنه يقول: **«إنْ كان النبى ﷺ ليقوم- أو ليصلى- حتى ترم قدماه- أو ساقاه- فيقال له، فيقول: أفلا أكون عبدًا شكورًا»، وقالت عائشة- رضى الله عنها- «كان يقوم حتى تفطر قدماه».**

المعانى اللغوية

إن كان ليقوم: كلمة «إن» مخففة من الثقيلة، وهى بكسر الهمزة، وضمير الشأن فيه محذوف، والتقدير: إنه كان، واللام فى «ليقوم» مفتوحة للتأكيد، و«أو ليصلى» شك من الراوى، وفى رواية «ليقوم يصلى»، وفى حديث عائشة- رضى الله عنها- «كان يقوم الليل».

حتى ترم قدماه: مضارع من الورم، وماضيه ورم، وهو من باب فعل يفعل- بكسر العين فيهما- تقول: ورم يرم ورمًا، والورم انتفاخ القدمين، ولذا جاء فى إحدى الروايات «حتى انتفخت قدماه»، و«حتى» هنا كلمة للغاية ومعناها «إلى».

تفطر قدماه: فى رواية عائشة - رضى الله عنها-: التفطر: التشقق فى القدمين، وورد بتاء واحدة وبتاءين، وفى رواية «حتى تزلع قدماه» وتزلع بمعنى تتشقق أيضًا.

فيقال له: لم يذكر المقول، ولا بيّن القائل، أما المقول فمقدّر تقديره: فيقال له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، كما ورد فى روايات أخرى- ويمكن أن يكون القائل عائشة- رضى الله عنها- أو غيرها.

عبدًا شكورًا: الشكر: الاعتراف بالنعمة، والقيام بالخدمة، والفاء فى قوله ﷺ: «أفلا أكون» للسببية وتعطف على محذوف تقديره: أأترك تهجدى فلا أكون عبدًا شكورًا؟.

معنى الحديث:

حدّث الصحابى الجليل المغيرة بن شعبة- رضى الله عنه- فيما رواه عنه زياد بن علاقة التغلبى فيما حدث به مسعر بن قدام العامرى الهلالى، فيما نقله عنه أبو نعيم

الفضل بن ركين، أن النبى ﷺ كان يواظب على قيام الليل، وصلاة النوافل فيه، ويطيل القيام بإعطاء الركعات حقها، والقراءة فيها، والاستمرار بقطع وقت طويل من الليل فى أدائها، والإكثار منها، ولم يكن يبالى بما ينال جسده الشريف من إرهاق ومشقة فى أداء الصلاة، لأنه كان يُقبل على الصلاة بقلب متصل بالله سبحانه، فكان لايمل كان يُقبل على الصلاة بقلب متصل بالله سبحانه، فكان لا يمل من عبادة ربه، وإن أضر ذلك ببدنه، وصح عنه ﷺ أنه قال: «**وجعلت قرة عينى فى الصلاة**» وكان ينجم عن طول قيامه أن تتأثر قدماه، فيصيبهما الورم والانتفاخ، وقد يصيبهما تشقق من كثرة القيام والركوع والسجود، وربما أثر ذلك فى ساقية من النصب والإعياء، وعدم القدرة على تحمل التعب الشديد، ولكنه ﷺ لم يكن يحس بمتاعب، أو آلام فى أثناء الصلاة، وهو يؤديها مقبلاً عليها مشتغلاً برب العالمين، يناجيه، ويدعوه، ويستغفره، ويعيش فى جواره الملكوتى العلوى فى الصلاة التى تفتح باب القرب من المولى الجليل، وقد رأى الصحابة الأجلاء هذا التأثر الجسمانى على النبى ﷺ فحدثوه فى ذلك، وأنه ينبغى أن يحافظ على جسمه من التعب والإرهاق، بكثرة صلاة القيام، وقالوا له: أنت لست فى حاجة إلى كثرة العبادة، لأنك مكرم من مولاك بغفران ذنوبك ما سبق منها وما لم يقع بعد، لأن الله تعالى تكفل لك بذلك، فلماذا تتعب نفسك؟ فأوضح لهم النبى الطائع المتهجد أن لله تعالى عليه نعمًا كثيرة، وغفران الله تعالى له يعد من هذه النعم التى تقتضى منه الشكر والعرفان، بأن يقدم فروض الولاء والطاعة لمولاه شكرًا له وتحية على أن أعطاه المغفرة وغيرها من نعمه الجزيلة، حتى يظهر بمظهر العبودية، وإخلاص الوجه لله سبحانه، وإن من لا يؤدى الشكر على النعم يكون بعيدًا عن الوفاء والإخلاص، وعلينا أن نقتدى به ﷺ فلا نضجر من العبادة، بل نقابلها بالصبر والتحمل.

ما يستفاد من الحديث

أ- فيه أخذ الإنسان على نفسه بالشدة فى العبادة، وإن أضر ذلك ببدنه، وله أن يأخذ نفسه بالرخصة، ويكلف نفسه بما سمحت، إلا أن الأخذ بالشدة أفضل، لأنه إذا فعل ﷺ وقد غفر له، فكيف من لم يعلم أنه غفر له أم لا؟

ب- فيه أن الشكر يكون بالعمل، كما يكون باللسان، قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

جـ- فيه ما كان النبى ﷺ - والأنبياء جميعًا- يفعلونه من الاجتهاد فى العبادة، والخشية من الله تعالى؛ للعلم بعظيم نعم الله تعالى عليهم، فبذلوا مجهودهم فى عبادته، ليؤدوا بعض شكره، مع أن حقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العباد، فقد قال النبى ﷺ: **«إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية»**.

د- توفيق الله تعالى لعمل صالح يقتضى شكر ذلك بعمل آخر، ثم يكون شكر ذلك العمل الثانى بعمل ثالث، فيتسلسل ذلك إلى غير نهاية.

[١٣] عن أبى هريرة- رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«يمين الله ملأى لا يُغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وقال أرأيتكم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يقض ما فى يمينه، قال: وعرشه على الماء، بيده الأخرى الميزان، يخفض ويرفع»**.

المعانى اللغوية ومعنى الحديث

«يد الله» حقيقة، لكنها ليست كأيدى البشر التى هى جوارحهم، ومعنى «ملأى» أن الله تعالى فى غاية الغنى، وهو الذى يملك أرزاق العباد التى لا نهاية لها، ومعنى «لايغيضها نفقة» أن النفقة على العباد لا تنقص منها شيئًا، فهو من: غاض الماء يغيض: إذا نقص ومعنى: «سحاء» أى: دائمة السح وهو الصب والسيلان، فالله تعالى دائم العطاء ورزقه واسع كالعين المملوءة بالماء التى لا ينقطع فيضها وغزارة مائها، ولا ينقص منها أن يستقى من يريد الرى ممن يحتاج إلى الماء، ثم إن عطاء الله تعالى على عباده متدفق تدفق السحب الهطلاء التى ينصب ماؤها بغزارة وكثرة فيروى الزرع والضرع، كذلك فمعين الخير والرزق والمدد الإلهى لا ينضب ولا ينقطع، ولا يتأثر نتيجة الأخذ منه والجود به على العباد، فهو موصول الجود، متصل الكثرة، والزيادة مع ما يأخذه المرزوقون كل ليل وكل نهار، منذ خلق الله هذا العالم، ومع مرور ملايين السنين والأحقاب على هذا العالم، منذ خلق الله السموات والأرض، فإن عطاء الله تعالى

للمخلوقين، إذ يستمر المدد، وتستمر القدرة الإلهية فى خلق النعم والأرزاق، بحيث تبدو خزائن الله تعالى مملوءة بالخير دائمًا، لاينقصها الأخذ منها، ولم تتأثر بالجود على خلق الله، مع استمرار العطاء هذه السنين الطوال منذ كان عرشه على الماء قبل خلق الكون وما فيه إلى الآن، وهذا ما فى يمين الله تعالى وقدرته.

ثم تحدث الرسول ﷺ عن عدالة الحق سبحانه فى توزيع الأرزاق على العباد، ففى يده الأخرى الميزان، وهذا يشير إلى أن الحق سبحانه يقسم أرزاق الناس والمخلوقات فيما بينهم بالعدل، ولا يظلم ربك أحدًا مثقال ذرة فهو «يخفض» و«يرفع» أى يوسْع الرزق على من يشاء، ويقتر على من يشاء كما يضع الوزَّان عند الوزن، يرفع مرة ويخفض أخرى، وهذا كقوله تعالى: ﴿**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**﴾ [الروم: ٣٧ وغيرها من السور]، وكما قال عز حكمه: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ**﴾ [الشورى: ٢٧].

ويمين الله تعالى ويده الأخرى والميزان ورفعه وخفضه أشياء لاينبغى الخوض فيها، لأنها خارجة عن نطاق علمنا، ولا يسعنا إلا أن نؤمن بها، ونصدق من غير أن نبحث عن الكيف، لأنه مجهول، والسؤال عنه بدعة، ولا نصف الله عز وجل بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية كما قال الله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١]، وغاية ما علينا أن نعلم أن الأرزاق بيد الله، وتقسيمها بين العباد تقسيم بالعدل الذى لا يشوبه شائبة الظلم، وأن نعم الله تعالى لا تنفد ومع ذلك فعلينا مع تقدير الأرزاق فى علم الله تعالى أن نأخذ بالأسباب، وأن نعمل على تحصيل الرزق، وألا نتواكل، لأن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وكما قال الرسول ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا».

[١٤] عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال: أثنى رجل على رجل عند النبى ﷺ فقال: «**ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك- مرارًا- ثم قال: من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة**

فليقل: أحسب فلانًا والله حسيبه، ولا أزكى على الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه».

المعانى اللغوية

أثنى رجل على رجل عند النبى ﷺ قيل: المثنى هو محجن بن الأدرع الأسلمى وهو رجل قديم الإسلام، نزل البصرة، واختط مسجدها، وله أحاديث، والمثنى عليه ذو البجادين، واسمه عبد الله بن عبد بهم بن عفيف المزنى، مات فى غزوة تبوك، وقال عبد الله بن مسعود- رضى الله تعالى عنه-: دفنه النبى ﷺ وحطه بيده فى قبره، وقال: «**اللهم إنى قد أمسيت عنه راضيًا فارض عنه**»، قال ابن مسعود: «فليتنى كنت صاحب الحفرة»، قال الذهبى: حديث صحيح.

فقال: ويلك قطعت عنق صاحبك: الويل فى الأصل: الحزن والهلاك، والمشقة من العذاب، ويستعمل بمعنى التعجب والتفجع، وقطع عنق الرجل فى رواية: قطعتم ظهر الرجل، وهى استعارة لأن المراد أن المثنى عليه ربما يغتر بكثرة الثناء، والمبالغة فيه فيغتر بذلك فيهلك، ويصيبه الانحراف، وعدم الطاعة.

فليقل: أحسب فلانًا: الحسبان- بكسر الحاء- الظن أى أظنه كذلك، وفعله حسبته أحسبه، ويقال فى العد والحساب: حسبته أحسبه- بضم السين فى المضارع- حسبًا وحسبانًا وحسابة.

إن كان يعلم ذلك منه: المراد بالعلم هنا هو الظن، فإذا كان المادح يظن وجود صفات الخير فى الممدوح ذكرها دون مبالغة، وكثيراً ما يأتى العلم بمعنى الظن، وإنما قلنا: معناه يظن حتى لايقال: إذا كان يعلمه فلمَ يقول: أحسبه؟

معنى الحديث

إن النبى ﷺ رأى رجلاً يمدح آخر عنده، ويبالغ فى مدحه، كما ورد ذلك فى رواية أخرى عن أبى موسى- رضى الله عنه- قال: «سمع النبى ﷺ رجلاً يثنى على رجل، ويطريه فى مدحه، فقال: «**أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل**»، وقد أراد النبى ﷺ أن يمنع

الإغراق والغلو فى المدح، ولم يعب ﷺ تزكية الرجل إذا اقتصد ولايتغالى، وهذا التوجيه النبوى الكريم إرشاد للأمة، ومنع لما يحدث أحيانًا من قيام فرد أو أفراد بالتزلف إلى بعض الناس بالمدح المصنوع والثناء الزائد عن الحد، وربما أثر ذلك على الممدوح فتضيع بعض الحقوق نتيجة اغترار الممدوح، فيضع الحق فى غير أهله، أولايجد من ينصحه فى بعض ما يحتاج إليه ما عساه أن يكون قد قصّر فيه، فتضيع بذلك النصيحة الواجبة على المسلم لأخيه.

ولأن الإنسان لايعرف الغيب، ولايطلع عليه، فيجب أن يمسك عن الحكم على إنسان آخر بالصلاح أو غيره، لأن الذى يعلم الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، بل حذر الإسلام من مدح الإنسان نفسه، فربما كان على خلاف ذلك، كما قال تعالى: ﴿ **فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ** ﴾ [النجم: ٣٢]، وليكون الثناء على الغير مقبولاً علمنا الرسول ﷺ أن نقول: أحسبه كذا وكذا ولا أزكى على الله أحدًا» ولا يمدح إنسان آخر إلا إذا غلب على ظنه وجود ما يقوله فيه، مع إسناد الأمر فى النهاية إلى الله تعالى، وبذلك يلتزم كل إنسان بالحق والصدق، والبعد عن النفاق..

[١٥] عن حكيم بن حزام- رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال:
«اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يُعفه الله ومن يستغن يغنه الله».

المعانى اللغوية

اليد العليا واليد السفلى: قيل: اليد العليا هى المنفقة أو المعطية، واليد السفلى هى السائلة أو الآخذة، روى أحمد والبزار الحديث عن عطية السعدى: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اليد المعطية خير من اليد السفلى»**، وقيل: اليد العليا يد الله ويليها يد المعطى، ويد السائل هى السفلى، فعن ابن مسعود- رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«الأيدى ثلاثة: يد الله العليا، ويد المعطى التى تليها، ويد السائل أسفل إلى يوم القيامة»**، قال الحاكم: هذا حديث محفوظ مشهور، والصواب أن اليد العليا هى

المعطية كما تشهد بذلك الأحاديث الصحيحة، وسميت يد المعطى العليا لأنها عالية فى باب الفضل، وهى تعلو وقت العطاء على يد السائل الأخذ.

ابدأ بمن تعول: أى بمن تلزمك نفقتهم الأقرب فالأقرب، فيبدأ بنفسه، ثم بولده، لأن الولد كبعضه، فإذا ضيّعه هلك، ولم يجد من ينوب عنه فى الإنفاق عليه، ثم على زوجته، لأنه إذا لم يجد ما ينفق عليها فرّق بينهما، وقد ورد ذلك فى الحديث الشريف عن أبى هريرة- رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**تصدقوا**»، فقال رجل: يارسول الله، عندى دينار فقال: «**تصدّق به على نفسك**»، قال: عندى آخر، قال: «**تصدق به على زوجتك**»، قال: عندى آخر، قال: «**تصدق به على ولدك**»، قال: عندى آخر، قال: «**تصدق به على خادمك**»، قال: عندى آخر، قال: «**أنت أبصر**»، وروى النسائى- من طريق طارق المحاربى- ولفظه «قدمنا المدينة فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: «**يد المعطى العليا، وابدأ بمن تعول أمك وأباك، وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك**».

من يستعفف: من الاستعفاف وهو طلب العفة، وهو الكف عن الحرام، والسؤال من الناس، وقيل: الاستعفاف: الصبر والنزاهة عن الشىء.

يعفه الله: من الإعفاف، أى يصيّره عفيفًا.

خير الصدقة عن ظهر غنى: أى ما أبقت غنى وهو الصدقة بالفضل عن قوته، وقوت عياله وحاجته، وقال الخطابى: أفضل الصدقة ما أخرجه الإنسان من مال بعد أن يستبقى منه قدر الكفاية لأهله وعياله، وفسّره بعضهم بأنه الغنى الذى يستظهر به على الحاجات والنوائب.

ومن يستغن يغنه الله: من يطلب الغنى من الله يعطه.

معنى الحديث

امتدح الرسول الكريم أهل العطاء والجود والكرم بالمال ممن ينفقه لمن يحتاج إليه من الفقراء والمساكين والغارمين وأضرابهم، ولاشك أن العطاء يرفع قدر صاحبه، لأنه ذو

فضل على هؤلاء السائلين الذين يمدون أيديهم بالسؤال طلبًا للصدقة، ويدعو الرسول الكريم الإنسان إلى الاهتمام بالإنفاق من ماله وكسبه على نفسه وعشيرته الأقربين، من الزوجة والولد والأم والأب، والأخ والأخت، وهكذا سائر الأقارب حتى لا تمتد أيديهم إلى السؤال، وجعل الشرع الشريف الإنفاق على بعض هؤلاء واجبًا، وعلى بعضهم مندوبًا إليه، ثم عليه- بعد ذلك- أن يمد يد المساعدة لغير هؤلاء من ذوى الحاجات من الناس فيعطيهم من مال الله الذى آتاه إياه.

ويدعو الرسول ﷺ الناس إلى الإنفاق والصدقة فى اعتدال فلايخرج بالصدقة إلى الحد الذى يستغرق كل المال، ويبقى الرجل بلا مال، فيضيّع نفسه وأهله، بل عليه أن يستبقى قدرًا صالحًا من المال للإنفاق على نفسه وأهله، ثم ينفق ويتصدق بالفاضل منه الزائد على ذلك، وإن الصدقة والإنفاق لايذهب بها الغنى أبدًا، فليقدم صاحب المال على الإنفاق، فما نقص مال من صدقة، وعلى المحتاجين أن يأخذوا قدر حاجتهم، لا أن يجعلوا السؤال وسيلة لجمع المال الكثير من غير حاجة إليه، فالنفقة مطلوبة للسائل المحتاج ولا ينبغى له أن يريق ماء وجهه فى طلب الحصول على المال، فمن أعف نفسه كفاه الله حاجته، وعصمه عن ذل السؤال، وعليه أن يبحث عن عمل يكتسب منه قوته وقوت أولاده وذويه بدلاً من التسول، ومحاولة اقتناص المال من غير عمل فما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من كسب يده، والعمل الشريف إذا أراد به صاحبه الاستغناء عن الناس بارك الله فيه وأغناه بما كسب.

[١٦] حدثنا شعبة قال: سمعت محمد بن المنكدر قال: سمعت جابر بن عبد الله- رضى الله عنهما- قال: **«لما قتل أبى جعلت أكشف الثوب عن وجهه أبكى وينهونى والنبى ﷺ لا ينهانى، فجعلت عمتى فاطمة تبكى، فقال النبى ﷺ تبكين أو لا تبكين مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه».**

المعانى اللغوية

لما قتل أبى: قتل أبوه عبد الله يوم أحد، ومثل به المشركون، فجدعوا أنفه وأذنيه، وكانت غزوة أحد فى سنة ثلاث من الهجرة فى شوال.

وينهونى: بحذف إحدى النونين، وروى «وينهوننى» على الأصل.

عمتى فاطمة: هى عمة جابر وهى شقيقة أبيه عبد الله بن عمرو.

تبكين أو لا تبكين: قيل: كلمة «أو» ليست لشك، بل هى من كلام الرسول ﷺ للتسوية بين البكاء وعدمه، أى: فو الله إن الملائكة تُظله سواء تبكين أم لا، والرسول ﷺ يعزيها بذلك ويخبرها بما صار إليه من الفضل، وقيل: إن «أو» للشك من الراوى، كأنه قال: تبكين، أو قال: لا تبكين، وفى مسلم «تبكى» بغير نون، لأنه استفهام لمخاطب عن فعل غائبة، ولذلك قال القرطبى: ولو خاطبها بالاستفهام خطاب الحاضرة لقال: لـمَ تبكين؟ بالنون، وجاءت رواية للقرطبى: لم تبكى؟ وفى رواية: تبكيه أو لا تبكيه، وهو إخبار عن غائبة، ولو كان خطاب الحاضرة لقال: تبكينه أو لا تبكينه بنون فعل الواحدة الحاضرة، ثم معنى هذا أن عبد الله مكرم عند الله تعالى، ولذلك ظللته الملائكة بأجنحتها.

مازالت الملائكة تظله بأجنحتها: إظلاله بأجنحتها لاجتماعهم عليه، وتزاحمهم على المبادرة بصعود روحه، وتبشيره بما أعد الله من الكرامة، أو أنهم أظلوه من الحر لئلا يتغير، أو لأنه من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، وعن جابر: **«لقينى رسول الله ﷺ فقال: ألا أبشرك أن الله أحيا أباك وكلمه كفاحًا، وما كلم أحدًا قط من وراء حجاب»**.

معنى الحديث

هذا صحابى جليل هو عبد الله بن عمرو والد جابر- رضى الله عنهما- استشهد فى غزوة أحد، وقد مثل به المشركون شر تمثيل بما يعد خروجًا على حفظ حرمات القتلى فى الحرب، لأن المشركين لم يرعوا فى الله إلا ولا ذمة، وخرجوا عن العرف الإنسانى، والإسلام ينهى عن المُثلة، بقتلى الحرب، ويحفظ لهم حرماتهم، وبعد استشهاده جاء ابنه جابر- رضى الله عنه- فوجده مسجى بثوبه فكشف الثوب عن وجهه، وقبّله، وبكى لفراقه، وفى كل ذلك كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يحاولون كفّ جابر عما

يفعل بأبيه، وعن مكانه، لكن النبى ﷺ وقف صامتًا لا يأمر بشيء، ولا ينهى، وكأنه موافق على مايجرى من بكاء على الميت، وتقبيل له، وموافق أيضًا على كلام من ينهونه عن ذلك من الصحابة، فاكتفى بقولهم وفعلهم عن قوله وكلامه ﷺ، وهذا هو ما يعرف عن علماء السنة بالتقرير، وهو أن يقر النبى ﷺ بفعل فلاينكره فيعنى ذلك جوازه، وعدم إنكاره، ولما بكت أخت الشهيد عبد الله وهى السيدة فاطمة- رضى الله عنها- أخبرها النبى ﷺ بمنزلة شقيقها العالية عند الله تعالى، وأن الملائكة نزلت من عند الله تحيط به وتتسابق فى الصعود بروحه إلى السماء ابتهاجًا بهذا الشهيد العظيم المنزلة عند الله تعالى، واستمروا يتحلقون به ويظلونه حتى رفع من مكانه، وهذا يدل على مكانة هذا الشهيد، ومكانة الشهداء الذين باعوا أنفسهم فى سبيل الله، وقدموا أرواحهم فداء لدينه وإعلاءً لكلمته.

[١٧] حدثنا يحى بن بُكير قال: حدثنا الليث عن عُقيل عن ابن شهاب قال: «أخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء امرأة من الأنصار بايعت النبى ﷺ- أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعة فطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه فى أبياتنا، فوجع وجعه الذى توفى فيه، فلما توفى وغسّل وكُفن فى أثوابه دخل رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله، فقال النبى ﷺ: **«وما يدريك أن الله أكرمه؟»** فقلت: بأبى أنت يارسول الله، فمن يكرمه الله؟ فقال: **«أما هو فقد جاءه اليقين، والله إنى لأرجو له الخير، والله ما أدرى- وأنا رسول الله- ما يفعل بى»**، قالت: فوالله لا أزكى أحدًا بعده أبدًا».

المعانى اللغوية

اقتسم المهاجرون قرعة: أى اقتسم الأنصار المهاجرين بالقرعة فى نزولهم عليهم، وسكناهم فى منازلهم، لأن المهاجرين لما دخلوا المدينة لم يكن معهم شيء من أموالهم، فدخلوها فقراء، فاقتسم الأنصار معهم أموالهم ومساكنهم وزوجاتهم بالتنازل عنها.

فطار لنا عثمان بن مظعون: يعنى وقع فى القرعة فى سهم الأنصار الذين منهم أم

العلاء، ولفظ البخارى- فى كتاب الشهادات- فسكن عندنا عثمان بن مظعون، فاشتكى فمرّضناه حتى إذا توفى وجعلناه فى ثيابه دخل علينا رسول الله ﷺ إلخ.

وأبو السائب: كنية عثمان بن مظعون.

فشهادتى عليك لقد أكرمك الله: مثل هذا التركيب يستعمل عرفًا، ويراد به معنى القسم، كأنها قالت: أقسم بالله لقد أكرمك الله.

وما يدريك: أى من أين علمت أن الله أكرم عثمان بن مظعون؟.

بأبى أنت يارسول الله، فمن يكرمه الله؟. أى أنت مفدى بأبى أو أفديك بأبى، فعثمان بن مظعون مؤمن خالص مطيع، فإذا لم يكن هو من المكرمين من عند الله **فمن يكرمه الله؟**

أما هو فقد جاءه اليقين: أى خاتمته عُلمت بموته، وهو مما يرجى له الخير، وأما غيره فخاتمة أمره غير معلومة، أهو يرجى له الخير عند اليقين أى الموت أم لا؟ فالقسم مقدّر.

كيف يقول الرسول ﷺ: **وما يدريك أن الله أكرمه؟** مع أن عثمان بن مظعون أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا، وقد أخبر النبى ﷺ- فى مقام آخر- بأن أهل بدر غفر الله لهم؟

نقول: قيل إن ذلك كان قبل أن يُخبر أن أهل بدر من أهل الجنة.

كيف يقول الرسول الكريم: وما أدرى- وأنا رسول الله ما يُفعل بى مع أنه يعلم أنه غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

قيل: يحتمل أن يكون هذا قبل إعلامه ﷺ بالغفران له، أو يكون المعنى: ما يُفعل بى فى أمر الدنيا مما يصيبهم فيها، وقال ذلك موافقة لقوله تعالى فى سورة الأحقاف: ﴿ **قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ** ﴾ [الأحقاف: ٩]، ويحتمل أن ما يعلمه الرسول ﷺ من الغفران هو العلم المجمل، والمنفى هو الإحاطة بالتفصيل.

ويستفاد من الحديث جواز تقبيل الميت والدعاء له وإباحة الدخول عليه بعد التكفن وفيه أيضًا أنه لايجزم لأحد بالجنة إلا ما نص عليه الشارع كالعشرة المبشرين وأمثالهم والإخلاص أمر قلبى لا اطلاع لنا عليه وفيه مواساة الفقراء الذين ليس لهم مال ولا منزل ببذل المال وإباحة المنزل تغلبًا على الشح وإعمالاً لمبدأ التراحم بين المسلمين.

الفصل الثالث

الصيغ والتراكيب فى الحديث

أبنية الأسماء فى إيجاز

مجرد الثلاثى:

١- فَعْل- فِعْل- فُعْل «ساكن العين».

٢- فعَل- فَعِل- فَعُل «بتحريك العين وفتح الفاء».

٣- فِعَل- فِعِل- فِعُل «بتحريك العين وكسر الفاء».

٤- فُعِل- فُعُل «بتحريك العين وضم الفاء».

الأمثلة:

يضرب الجسر على جهنم[١]: الصراط- رُخِّص لصاحب القربة أن يبيعها بَخرْصها من التمر[٢]- فأخذهم سَلمًا[٣] «سلمًا» - بفتح السين واللام وبكسر السين وإسكان اللام- وهو بمعنى الاستسلام أو الصلح- فغطّنى حتى بلغ منى الجُهد[٤] بمعنى «الجهد» بفتح جيم الجهد وضمها، أى بذل ما فى الوسع من طاقة أو مشقة- إن الحرب خدعة[٥] «خدعة» - بضم الخاء وسكون الدال، أو مع فتح الدال، وبفتح الخاء مع إسكان الدال- ما بنا من حاجة ولا بخل[٦] «بخل» - بضم الباء وإسكان الخاء أو بفتحهما- لا يلتقط لقطته إلا من عرّفها[٧] «لقطته» -بضم اللام وفتح القاف وإسكان القاف- سُحُقًا سُحقًا[٨]- بضم السين وإسكان الحاء وضمها- وأن تؤدوا خمس ما غنمتم[٩]-

(١) صحيح مسلم.

(٢) المصدر السابق، والخرص: المقدار.

(٣) (٤) (٥) (٦) (٧) (٨) (٩) المصدر السابق.

«خُمس» بضم الخاء والميم وإسكان الميم- أعوذ بك من الخبث والخبائث[1] «الخبث» بضم الخاء والباء وإسكان الباء.

أبنية الرباعى المجرد:

١- فَعْلل- فِعلِل- فُعلُل.

٢- فِعلل.

٣- فِعَلّ مثل فِطَحْل- اسمًا- وهِزَبْر- صفة-.

٤- فِعْلل[2].

هذه أبنية ستة، ولبعض اللغويين زيادة عليها مثل فُعْلَل مثل جُخْدَب.

«ماهذا الخنجر»- بكسر الخاء وفتحها، وإسكان النون أى «سكين»- «ذاك شيطان يقال له خِنَزْب»- بفتح الخاء وكسرها مع سكون النون، وفتح الزاى- «اشترت نُمْرُقُة فيها تصاوير» - النمرقة نوع من الوسائد- بضم النون وإسكان الميم وضم الراء، وبضم النون وإسكان الميم وفتح الراء، وبكسر النون وإسكان الميم وكسر الراء.

أبنية الثلاثى المزيد:

تأتى الزيادة فى أول الاسم أو وسطه أو آخره، بحرف «أفعل» مثل «دونكم يا بنى أَرْفدة»- بفتح الهمزة وإسكان الراء، وبفتح الفاء وكسرها- فعَال مثل «لكل داء دواءٌ»، وبحرفين مثل «يقول فى ركوعه سبُّوح قُدُّوس» وبثلاثة أحرف مثل «ولا يدخَلها إلا بُجلُبّان السلاح» «جُلُبّان»- بضم الجيم واللام وتشديد الباء وهو قراب السيف.

مزيد الرباعى:

بحرف مثل «ستّرت على بابك دُرنُوكًا» «دُرنُوك»- بضم الدال وفتحها، والنون

(١) المصدر السابق.

(٢) اتفق علماء اللغة على الأبنية الخمس- على حسب الترتيب المذكور- وتأتى فى الأسماء والصفات، والسادس منها قليل.

مضمومة- وبحرفين مثل «دعى بترجمانه» فى تاء «ترجمان» الفتح والضم، وضم الجيم، وروى بفتح الجيم مع فتح التاء.

أبنية الأفعال فى إيجاز

مجرد الثلاثى:

له ستة أبواب مستعملة:

١- فَعَل - بفتح العين فى الماضى- معها ثلاثة أبنية للمضارع: فَعَل يفعِل- فعَل يفعُل- فعَل- يفعَل.

٢- فعِل- بكسر العين فى الماضى- معها صيغتان للمضارع: فعِل يفعَل- فعِل يفعِل.

٣- فعُل- بضم العين فى الماضى- معها بناء واحد للمضارع: فعَل يفعُل.

الشواهد من الحديث:

«إذا أبق العبد» وردت الرويات بفتح الهمزة والباء، وبفتح الهمزة وبكسر الباء- و«ومسسنا الطيب»- بكسر السين الأولى وبفتحها- «لا أكون كذبتُه فأهلك» «أهلك»- روى بكسر اللام وبفتحها - «تعس مسْطح» - ورد الفعل «تعِس» بكسر العين وفتَحها- «إذا صلحت صلح الجسد كله» «صلَح» بفتح اللام وضمها.

ويزاد الفعل بحرف أو أكثر من حروف «سألتمونيها» وأحيانًا يكرر أحد الحروف الأصلية، وقد تأتى الزيادة لإلحاق وزن من أوزان الثلاثى بأوزان الرباعى، وتزاد الحروف لمعان مقصودة، والإلحاق له فوائد ترتبط باللفظ، وإذا لم تكن قد حدثت فائدة من زيادة الحرّوف فإن ذلك غالبًا يرجع إلى تعدد اللهجات، مثل: سرى وأسرى، ووفى وأوفى ونحو ذلك.

الشواهد من الحديث:

«أبْرِدوها» بالماء- «ثم يُفصم عنى وقد وعيته»- يروى «يفصم» بفتح الياء وسكون الفاء، ويروى بضم الياء وسكون الفاء من أفصم المطر أى: أقلع وكف- «أخرجت لهم هذا القدح فأسقيتهم فيه».

وقد جاءت أبنية وصيغ فى بعض الأحاديث تستحق الوقوف عندها، قال ﷺ: «من تحلم بحُلم لم يره كُلّف أن يعقد بين شُعيرتين ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يضرُّن منه صُبَّ فى أذنه الآنُك يوم القيامة»(١) «آنُك» وزنه: أفْعُل، قيل: إن هذا الوزن لم يرد فى كلام العرب(٢)، والفعل «تحلَّم» أى تكلف الحلم(٣).

وصيغة «فعِّيل» قالت هند بنت عتبة- زوج أبى سفيان - رضى الله عنهما-: «يارسول . إنَ أبا سفيان رجل مِسِّيك فهل علىّ حرج أن أطعم من الذى له عيالنا؟ قال: « لا أراه إلا بالمعروف».

«المسِّيك» تفيد هذه الصيغة شدة البخل والإمساك، وهذه الصيغة من صيغ المبالغة.

وجاءت صيغة اسم المفعول «محنوذ» بمعنى مشوى، دخل خالد بن الوليد - رضى الله عنه- مع رسول الله ﷺ على ميمونة وهى خالته وخالة ابن عباس، فوجد عندها ضباً محنوذاً(٤)، يقال فى اللغة: حنذ الجدى وغيره يحنذه حنذاً، شواه أو سمطه، وهو محنوذ وحنيذ كما يقال مطبوخ وطبيخ، وقد جاء فى القرآن الكريم: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، فوردت الصيغتان- كما ترى- إحداهما فى القرآن الكريم، والأخرى فى الحديث الشريف.

وجاءت جموع فى الحديث تستحق التوقف عندها، مثل «أرضون»، قال ﷺ: «من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوّقه يوم القيامة من سبع أرضين»(٥)، جعل «الأرضين»- وهى مؤنثة- كالمذكر فجمعها جمع مذكر؛ إذ لا يجمع جمع مذكر إلا ما كان معناه مذكراً كما يقول النحاة، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فعاملها معاملة العقلاء المذكرين.

---

(١) صحيح البخارى، كتاب التميز ١/ ٥٤. (٢) عمدة القارى للعيني، ١/ ٤٣٩.
(٣) ضبط «الحلم» بضم الحاء وسكون اللام وبضمهما.
(٤) صحيح البخارى. كتاب الأطعمة، ٧/ ٦٢.
(٥) صحيح البخارى. كتاب بدء الخلق، ١٤/ ١٣٠.

ولم يجمعوا «أرض» على «أرضات»؛ لأنها بالنسبة للسماء تحت وسفل، فعبر عنها بهذا اللفظ الجارى مجرى المصدر لفظًا ومعنى، وكأنه وصف لذاتها لا عبارة عن عينها وحقيقتها؛ إذ يصلح أن يُعبَّر به عن كل ما له فوق، وهو- بالإضافة إلى ما يقابله- سُفلٌ، فسماء كل شىء أعلاه، وأرضه أسفله، ولذلك جمعت «أرض» جمع تصحيح «أرضون» لما اعتمد الكلام على ذوات الأرضين، وأنفسها، على التفصيل والتعيين لذواتها(١).

أى: كأنها سُفلٌ متعدد الأنواع والطبقات، فلذلك ألحقت بالمذكر كالوصف للمذكر.

وتأتى فى الحديث «فعْل» مكان أفعال وفعول، مثل ضيف مكان أضياف وضيوف، وقال ﷺ: «لعبد الله بن عمرو بن العاص- رضى الله عنهما- «**إن لزورك عليك حقًا**(٢) **فالزور هم الزوار، فاستغنى بـ «فعْل» عن «فُعَّال»**».

وجاء الجمع «صواحب» فى قوله ﷺ لعائشة- رضى الله عنها-: «إنكن صواحب يوسف»(٣)، ويذكر النحاة أن وزن «فواعل» من جموع التكسير يكون لغير فاعل الذى يوصف به المذكر العاقل(٤)، ويذكرون أن هذا الجمع شاذ، ومثله على القياس عواتق(٥).

---

(١) نتائج الفكر للسهيلى ص ١٥٨، ١٥٩.
(٢) صحيح البخارى، كتاب الأدب، ٨/ ٣٨.
(٣) المصدر السابق، كتاب الصلاة، ١/ ١٦١.
(٤) الكتاب، ٣/ ٦٣٣، والأشمونى، ٤/ ١٤٠.
(٥) انظر كتابنا: أبنية العربية، ص ١١٤.

•• اختلاف الأوجه الإعرابية في الحديث

وردت جمل وتراكيب في الحديث الشريف تحتمل عدة أوجه إعرابية، وذلك يتفرع عن تعدد المعاني والسياقات اللغوية.

ما فيه وجهان:

ومن ذلك: «أن يعبد الله ولا يشرك به شيئًا» ضبط الفعلان يعبد ويشرك بالبناء للمعلوم، وبالبناء للمفعول، فعلى الأول- وهو المشهور - الفاعل للفعل «يعبد ويشرك» ضمير يعود على العبد، وبالبناء للمفعول تصبح الرواية أن «يُعبَد الله ولا يُشرك به شيءٌ» فلفظ الجلالة نائب فاعل، و«شيء» نائب فاعل، ومعناه نفى أى إشراك، وكان «شيء» هنا كناية عن المصدر الذى هو «إشراك».

«وإنْ قضيبًا من أراك» روى بنصب «قضيبًا» ورفعه، فالنصب على أنه خبر «كان» المحذوفة مع اسمها بعد «إن» الشرطية، ويقوى هذا الوجه وجود كان فى عبارة السائل: «وإن كان شيئًا يسيرًا يارسول الله» والوجه الثانى - وهو الرفع يتخرَّج على أنه نائب فاعل لفعل مقدر، أى: وإنْ قُطع قضيب من أراك.

«الذى تفوته صلاة العصر كأنما وُترَ أهله وماله» روى «أهله وماله» بالنصب والرفع، فالنصب على أنهما مفعول ثان ومعطوف عليه، والعامل فيهما الفعل «وُتر» - المبنى للمفعول- لأنه ينصب مفعولين، رُفع الأول منهما وهو الضمير العائد على «الذى تفوته صلاة العصر» أى ووتر هو أهله وماله، أى أذهب أهله وماله، أى ضيَّعهما، وبقى بلا أهل ولا مال، والرفع «أهله وماله» على أن الأهل نائب فاعل للفعل المبنى للمفعول «وُتر» بمعنى انْتُزِعَ منه أهله وماله، و(ماله) معطوف على ما قبله، والفعل (وَتَر) المبنى للمعلوم يأتى بمعنى ذهب، وبمعنى نقص، وعلى ذلك يتعدى إلى مفعول واحد أو إلى مفعولين فيقال: وَتره حقه وماله: نقصه إياه، ويقال وترُته: نقصتُه، فجعلته وترًا بعد كثرته، وعلى البناء للمعلوم «وتَر» يقال: وتَرَه الله أهله وماله، فإذا بُنى للمفعولَ صار «وُتِر أهله وماله» والفاعل مقدر للعلم به، وهو الله تعالى.

«بعثت أنا والساعة كهاتين»، رويت «الساعة» بالنصب والرفع، وخُرِّجت رواية النصب على أن «الساعة» مفعول معه والواو- قبلها- بمعنى «مع»، وكأنه يقول: بُعثتُ أنا وانتظروا الساعة، ويصح الرفع بالعطف على نائب الفاعل- هو ضمير المتكلم «التاء» فى «بُعثت»- وبعضهم يضعف الرفع، لكن لا ضعف فيه، فالمقارنة قائمة على الرفع مثل النصب وكأنه ﷺ يشير إلى حلول أجل الساعة وقربها ببعثته ﷺ فبعثته ﷺ تقترن بالساعة وتدل على قربها، وكأن قيامها صار محققًا للتعبير بالفعل الماضى المبنى للمفعول «بُعثتُ».

«دخل رسول الله ﷺ على أبى سلامة وقد شق بصره فأغمضه» الفعل «شق»- بفتح الشين وتشديد القاف- و«بصره» روى بالرفع والنصب فالرفع يأتى على أساس أنه فاعل «شق» يقال شق بصرُ الميت، أى شخص فلا يرتد بصره من الوقوع على شىء ينظر إليه، وعلى رواية نصب «بصَرَه» يكون مفعولاً للفعل «شق» والفاعل ضمير يعود على الميت، وذكر بعض النحاة أنه يقال: شقَّ الميتُ بصره، وهو الذى حضره الموت، وصار ينظر إلى الشىء لايرتد إليه طرفه، ولم يجز النصب بعض النحاة، لكن الرواية صحيحة فى الحديث مما يدل على جواز هذا الوجه، ولا شىء فيه؛ لأننا نقول: «مات فلان» وهو لم يُحدث الموت، وإنما قام به.

ما فيه ثلاثة أوجه أو أكثر:

ومن ذلك: «فإذا ربيع يدخل فى جوف حائط من بئر خارجة»، رُوى «بئر»- بالتنوين وبغير تنوين- و«خارجة» - بالتنوين- على التاء- وبهاء مكان التاء- فجاءت إحدى الروايات هكذا «بئرٍ خارجةٍ» بتنوين الكلمتين على أن الثانية صفة للأولى، وجاءت رواية أخرى: «بئرِ خارجةَ» بدون تنوين «بئر» وإضافته إلى «خارجة»: علم على صاحب البئر- والبئر- هنا- بمعنى البستان، والعرب قد يطلقون الآبار أسماء للبساتين، كقولهم بئر أريس، وبئر حاء، وبئر معونة، ووردت رواية ثالثة هى: «بئرٍ خارجهُ» بتنوين «بئر» وفتح الجيم بعدها هاء الضمير «خارجهُ» فالبئر خارج من الحائط، وورود الروايات فى الحديث تدلل على صحة الإعراب.

أساليب نحوية

الجملة الشرطية:

يقول النحاة إن جملة الشرط يأتى فيها فعل الشرط وجوابه على أوجه، فيمكن أن يكون كل من الشرط والجواب ماضيًا، أو يختلفان أحدهما ماضٍ والآخر مضارع، وجاء ذلك فى كثير من أحاديث رسول الله ﷺ.

ولكن وقوع فعل الشرط مضارعًا، والجواب ماضيًا لم تكن محل إجماع من النحاة، وقد وردت بعض الأحاديث على هذا الوجه، منها ما روى عن أبى هريرة- رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يقم ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه**»[1]، ففعل الشرط «يقم» مضارع، وجوابه «غُفر» ماضٍ، ووردت رواية أخرى اتحد فيه الشرط والجواب فى النوع فعلين ماضيين «من قامَ رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»، وأورد القسطلانى فى رواية أخرى هى اتحاد الشرط والجواب مضارعين «من يقم يغفر» رواها النسائى؛ ولأن رواية فعل الشرط مضارعًا والجواب ماضيًا لم ترق النحاة ذهبوا فى تعليلها إلى أنها من تصرف الرواة.

وقد انبرى ابن مالك يدافع عن صحة هذه الرواية يقول: «والنحويون يستضعفون ذلك، ويراه بعضهم مخصوصًا بالضرورة، والصحيح الحكم بجوازه مطلقًا، لثبوته فى كلام أفصح الفصحاء، وكثرة صدوره عن فحول الشعراء، ومنه قول الشاعر: قُعنُب بن ضمرة:

إن يسمعوا سَيْئةً طاروا لها فرحًا ... عني وما سمعوا من صالح دفنوا[2]

وجاء ذلك فى حديث السيدة أم المؤمنين عائشة- رضى الله عنها- فى قولها عن أبيها- رضى الله عنها- «إنه رجل أسيف متى يقم مقامك رقّ»[3].

حذف الشرط والجواب:

يأتى هذا فى سياق الإيجاز فى كلامه ﷺ بحذف ما يعلم من السياق لدلالة الحال

---

(١) صحيح البخارى، كتاب الأيمان، ١/ ١٥.

(٢) رواية الأشمونى «سُبَّة» ولكن رواية شواهد التوضيح أصح. شواهدالتوضيح، ص ٦٨.

(٣) صحيح البخارى، كتاب الصلاة، ١/ ١٨٢، وكتاب بدء الخلق، ٤/ ١٨٢.

والكلام عليه، وهذا وجه بديع من البلاغة النبوية ومن ذلك قوله ﷺ: **«البيّنة وإلا حدّ فى ظهرك»**(١)، قال ﷺ لهلال بن أمية حين قذف امرأته بالزنى، و«البينة» مفعول لفعل مقدر مع فاعله، أى أحضر البينة، و«إلا حدّ» حذفت جملة الشرط، والأصل وإن لا تحضر البينة، وقد حذف صدر جملة الجواب الاسمية «المبتدأ» وحذفت الفاء التى يرى النحاة وجوب اقتران جواب الشرط بها إذا كان جملة اسمية، والأصل: وإلا تحضرها فجزاؤك حد فى ظهرك.

ومن ذلك- أيضًا- قوله ﷺ: «حكاية لقول أم إسماعيل عليه السلام وهما ببطن مكة- «تسمَّعَتْ» فسمعَتْ- أيضًا- فقالت: قد أسمعْت إن كان عندك غَواث»(٢)، فأصل الكلام: إن كانَ عندك غواث فأغثنى، فحُذفت الجواب لدلالة السياق والحال عليه، ومن حديث ﷺ- فيما يرويه أبو ذر- رضى الله عنه- قال: **«قال لى جبريل: من مات من أمتك لايشرك بالله شيئًا دخل الجنة- أو لم يدخل النار- قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن»**(٣).

الفاء التى تدخل على جواب الشرط:

من المعروف عند النحاة أن جواب الشرط يجب اقترانه بالفاء إذا كان جملة فعلية فعلها جامد أو منفية بـ«ما» أو بـ«لن» أو مقرونًا بـ«قد»، أو بالتنفيس أو سوف، أو كان طلبيًا، أو كان جملة اسمية.

وهذا ما كثر مجيئه فى كلام العرب وجاء عليه مدار القرآن الكريم والحديث الشريف.

وقد وردت جملة أحاديث كان جواب الشرط فيها مما يجب أن يقترن بالفاء، وجاء خليًا منها، من ذلك: سأل رجل البراء- رضى الله عنه-: أوليتم يوم حُنين؟ فقال البراء: أما رسول الله ﷺ لم يولِّ يومئذ(٤)، فالجملة الجوابية منفية «لم يول» وقد وقعت

(١) صحيح البخارى، كتاب الشهادات، ٣/ ٢٣٣، وكتاب التفسير، ٦/ ١٢٦.

(٢) صحيح البخارى، كتاب الأنبياء، ٤/ ١٧٣، وفتح البارى. ٦/ ٤٦٢.

(٣) صحيح البخارى، كتاب بدء الخلق، ٤/ ١٣٨.

(٤) صحيح البخارى، كتاب الجهاد والسير، ٤/ ٨١.

مجردة من الفاء، وقال ﷺ- فى جوابه لسعد بن أبى وقاص حين سأله عن التصدق بماله-: «**إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس**»(١)، فالجواب جملة اسمية حذف صدرها، والأصل: فهو خير، وقد حذفت الفاء مع صدر الجملة وهو المبتدأ.

ووقع فى جواب أما جواب الشرط دون الفاء مع إيجاب النحاة لهم، من ذلك قوله ﷺ: «**أما بعد ما بال رجال يشترطون شروطًا ليست فى كتاب الله**»(٢) ومثل قوله ﷺ عن اللقطة «**فإن جاء صاحبها وإلا استمتع بها**»(٣)، وفى رواية: «فاستمتع بها»(٤)، وعد النحاة ذلك من باب الضرورة، قال سيبويه: سألت الخليل عن قول من قال: إن تأتنى أنا كريم، فقال: لايكون هذا إلا أن يضطر شاعر كقول حسّان:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلان(٥)

استعمال بعض أدوات الشرط على غير ما قرره النحاة:

«لو» تستعمل شرطًا للتعليق فى الماضى ويقل وقوع المضارع بعدها(٦) قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا** ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقد ورد فى حديث صلح الحديبية «فقالوا لا نقر بها فلو نعلم أنك رسول الله اتبعناك»(٧)، وحملها النحاة على أن «لو» إذا كانت بمعنى «إن» الشرطية صح ذلك، كما فى حديث الثلاثة الذين سقطت على غارهم صخرة، قال كل منهم «اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه»(٨)، والمعروف أن أصحاب الغار كانوا مستيقنين بعلم الله ذلك، ولم يقصدوا ذلك بل قصدوا بالعلم اعتداد الله تعالى بما قدموا من أعمال خير وبر وعلى ذلك جاءوا بالمضارع وبإن التى تفيد الشك.

(١) صحيح البخارى، كتاب الفرائض، ٨/ ٨٧.
(٢) صحيح البخارى، كتاب البيوع، ٣/ ٦٦.
(٣) (٤) صحيح البخارى، كتاب اللقطة، ٣/ ١٦٦.
(٥) الكتاب، ٣/ ٦٤، ٦٥.
(٦) المصدر السابق ٤/ ٢٢٤.
(٧) صحيح البخارى، كتاب مواقيت الصلاة، ١/ ١٤١.
(٨) صحيح البخارى، حديث الغار، ٤/ ٢١٠.

ومما جاء كثيراً فى حديث رسول الله ﷺ «بينا» و«بينما» ومن ذلك قوله ﷺ: «بينا أنا نائم رأيت الناس يُعرضون عليّ، وعليهم قُمَص منها ما يبلغ الثُدِيَّ ومنها ما دون ذلك»... إلخ[(١)]، وعن أنس بن مالك- رضى الله عنه- قال: «بينما نحن جلوس مع النبى ﷺ فى المسجد دخل رجل على جمل فأناخه فى المسجد»[(٢)]... إلخ.

وجاء الجواب بعد «بينا» و«بينما» أحيانًا مقترنًا بـ «إذ» ومنها فى الحديث السابق «إذ دخل رجل» و«إذ» تستعمل ظرفًا للماضى من الزمان و«إذا» تستعمل ظرفًا للمستقبل من الزمان، وأحيانًا تأتى «إذ» للمستقبل كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ [المدثر: ٣٣][(٣)].

و«بينا» أصلها «بين» بإشباع الفتحة فتتحول إلى ألف، و«ما» فى «بينما» زائدة، ويراد بـ «بينا» و«بينما» معنى المفاجأة وتضافات إلى جملة فعلية أو جملة اسمية، ولهما جواب، وتقع فى جوابهما «إذ» الظرفية.

اقتران خبر كاد بـ «أن»:

يرى سيبويه أن اقتران خبر كاد بـ «أن» مختص بالشعر كما قال رؤبة:

قد كان من طول البلى أن يمصحا[(٤)]

ولم يأت خبر «كاد» فى القرآن الكريم مقترنًا بـ «أن» لكن قد وردت بعض الأحاديث التى اقترن فيها خبر كاد بـ «أن» منها قوله ﷺ: «**فكاد بعض المسلمين أن يرتاب**»[(٥)]، وقوله ﷺ: «**حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب**»[(٦)]، وقوله ﷺ: «**حتى إذا كاد أن يدخل**»[(٧)].

ولكن ابن مالك يصحح ورود خبر كاد مقرونًا بـ «أن» وقال: إن ذلك خفى على كثير

(١) صحيح البخارى، كتاب الإيمان، ١/ ١٢

(٢) المصدر السابق، ١/ ٢٤.

(٣) المدثر، الآية ٣٣، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم للشيخ عضيمة، ١/ ١.

(٤) الكتاب ١/ ٣٠٧، ٣/ ١٦٠.

(٥) صحيح مسلم ١/ ١٠٥.

(٦) المصدر السابق، ١/ ١٦٨.

(٧) المصدر السابق. ٢/ ١٧٢، ٤/ ٢٤٢.

من النحويين بوقوعه فى كلام لا ضرورة فيه، والصحيح جواز وقوعه إلا أن وقوعه غير مقرون بـ «أن» أكثر من وقوعه مقرونًا به، وجعله قياسيًا، لأن المانع من اقتران الخبر بـ «أن» فى باب المقاربة هو دلالة الفعل على الشروع، كطفق وجعل، فإن «أن» تقتضى الاستقبال، وفعل الشروع يقتضى الحال فتنافيا، وما لايدل على الشروع كعسى وكاد فمعناه مستقبل، فاقتران خبره بـ «أن» مؤكد لما يقتضيه، فإنها تقتضى الاستقبال، ويضاف إلى ذلك ورود الاقتران بـ «أن» فى الكلام الفصيح كالأحاديث.

وقال: إن خبر «كاد» اقترن بـ «أن» فى الشعر فى غير ضرورة، مثل قول الشاعر:

أبيتم قبول السلم منا فكدتمو   لدى الحرب أن تغنوا السيوف عن السَّلِّ

فهو هنا ليس ضرورة، إذ كان من الممكن للشاعر الاستغناء عن الاقتران بـ «أن» كأن يقول:

أبيتم قبول السلم منا فكدتمو   لدى الحرب تغنون السيوف عن السل

فالضرورة ما لا مندوحة للشاعر عنه.

الحذف

يحذف بعض أجزاء الجملة لفهمه من السياق.

حذف المبتدأ والخبر.

عن أنس - رضى الله عنه- قال: «مُرَّ على النبى ﷺ بجنازة، فأثنوا عليها خيرًا، فقال: «**وجبت**»، ثم مُرَّ بأخرى فأثنوا عليها شرًا- أو قال غير ذلك- فقال: «**وجبت**»، فقيل: يارسول الله، قلت لهذا وجبت، ولهذا وجبت فقال: «**شهادة القوم، المؤمنون شهداء الله فى الأرض**».

ففى قوله: «شهادة القوم» حذف الخبر، والتقدير: شهادة القوم مقبولة، وفى رواية: «شهادة القوم المؤمنين» فيكون «المؤمنين» صفة للقوم، و«شهداء الله فى الأرض» خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هم شهداء الله فى الأرض.

حذف الفعل:

ومنه قوله ﷺ للحادة على زوجها: «**أفلا أربعة أشهر وعشرًا**» الأصل: أفلا تتربصين أو تمكثين أربعة أشهر وعشرًا، وهذا يدرك من السياق، وحرف «لا» يُنفى به المستقبل، وقلما يُنفى به الماضي إلا مع تقديره بمعنى «لم» كقوله:

وأي عبد لك لا ألمَّا(١)

وقد يحذف الفاعل، قال سلمة: «كنا نصلي مع النبي ﷺ حتى توارت بالحجاب»(٢) فالفاعل مقدّر هو «الشمس» ومثله قوله تعالى: «حتى توارت بالحجاب»(٣).

وقد يحذف المفعول به ومنه قوله ﷺ: «فما روى عن أنس- رضى الله عنه- «**من ذبح قبل الصلاة فليعد**» أي ذبح الأضحية فليعد الذبح، ونحو ذلك.

وكذلك حذفت بعض متعلقات الفعل ومن ذلك قوله ﷺ: «**لو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوًا**»(٤) أي: لو يعلم الناس ما في هذين الوقتين والصلاتين من الثواب والخير لأتوهما.

وقد يحذف المنعوت، ويبقى النعت قائمًا مقامه مثل حديث «المؤمن يأكل في معىً واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»(٥).

وهذا لأن الصفة هي المرادة، وإذا اعتمد الكلام على الصفة استغنى عن الموصوف، كقولك: مؤمن خير من كافر، وقوله تعالى: ﴿**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [الأعراف: ٤٤]، وأشباه ذلك لأن الفخر أو المدح إنما يتعلق بالصفة لا بالموصوف(٦).

مما يخالف بعض القواعد النحوية:

منه إضافة الموصوف إلى صفته ومن ذلك قوله ﷺ: «**شغلونا عن صلاة**

(١) الأمالي، ص ٨٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب لاصلاة، ١/ ١٤٧.

(٣) ص. الآية٣٢، وانظر عمدة القاري، ٥/ ٣٧٥.

(٤) صحيح البخاري كتاب الصلاة، ١/ ١٢٢.

(٥) صحيح مسلم.

(٦) نتائج الفكر، ص٢٠٩.

الوسطى»(١) وأضاف «صلاة» إلى «الوسطى» وأصله: الصلاة الوسطى، وقوله ﷺ: «مسجد الحرام ومسجد الأقصى»(٢)، أصلهما: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى فأزيل عن حده.

وعلى هذا فيجوّز الكوفيون إضافة الشيء إلى نفسه وإلى صفته، ويمنع ذلك البصريون، ويقدرون محذوفًا يعد مضافًا إليه أي: مسجد البلدة الحرام ومسجد المكان الأقصى.

ومن ذلك مسجد الجامع أي مسجد المكان الجامع، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤]، أي المكان الغربى(٣).

ولكن صاحب الأمالى يخطئ وضع كلمة محذوفة على هذا النحو، وقال: «ليس هو كما توهموه من الحذف أى: جانب المكان الغربى، فإن هذا تأويل محال، لأن المكان الغربى ليس غير الجانب، ولايقدر أن تجعله غيراً له إلا بفساد المعنى».

قوله ﷺ: «يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها، ولو فِرْسنَ شاة»(٤).

روي بإضافة «نساء» إلى «المؤمنات».

قال القاضى عياض:

«قوله: يا نساء المؤمنات، ويا نساء المسلمات، رويناه بفتح الهمزة، وخفض المؤمنات على الإضافة، قيل: معناه: يا فاضلات النساء المؤمنات، وقيل: معناه يا نساء الجماعات المؤمنات، وقيل: يا نساء النفوس المؤمنات، وكله بمعنى، ويصح على إضافة الشيء إلى نفسه على مذهب الكوفيين، ورويناه ـ أيضًا ـ برفع «يا نساء» ورفع «المؤمنات» ومعناه: «يا أيها النساء المؤمنات» ويجوز رفع «نساء» وكسر «المؤمنات» وكسره علامة النصب على النعت على الموضع، كما تقول: «يا زيد العاقل»(٥).

●●●

(١) صحيح مسلم١/ ٤٣٦.
(٢) صحيح مسلم
(٣) الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى ٢/ ٤٣٦-٤٣٨ وهمع الهوامع، ٢/ ٤٩.
(٤) صحيح مسلم ٢/ ٧٤١.
(٥) مشارق الأنوار، ٢/ ٢٥٣.

الفهرس

الموضوع — الصفحة

فهرس الجزء الأول

المقدمة ٣

الباب الأول

لغة القرآن الكريم

الفصل الأول: خصائص التعبير فى القرآن الكريم ١٥

تمهيد: اللفظ والتركيب فى القرآن ١٥

خصائص التعبير القرآنى فى سورة البقرة ٢٣

الفصل الثانى: كثرة المعانى وجدتها وطرافتها فى المشترك اللفظى فى القرآن الكريم ١٣٣

خلف ١٣٣ - عرج ١٣٥ - رأى ١٣٦ - سرُر - سرى - أسرى ١٣٨ - فتح ١٤٠ - نصر ١٤٢ - شهد ١٤٤ - أيد ١٤٦ - أمر ١٤٨ - أم ١٥٠ - أمن ١٥٢ - أنس ١٥٣ - البهتان ١٥٤ - بغى ١٥٥ - تلا ١٥٦ - البر ١٥٧ - البر ١٥٨ - أجل ١٥٩ - أدى ١٦٠ - بسط ١٦١ - يعث ١٦٣ - تجارة ١٦٤ - جعل ١٦٦ ترك ١٦٧ - إمام ١٦٨ - أمة ١٦٩ - أكل ١٧٠ - بدأ ١٧١ - بدا ١٧٢ أتى ١٧٣ - أخذ ١٧٥ - أذن ١٧٧ - الإخلاص ١٧٩ - الابتلاء ١٨١ - أرض ١٨٣ - أفك ١٨٥ - الف ١٨٧ - آلو وآلى ١٨٩ - أثر ١٩١ - أخر ١٩٣

الفصل الثالث: الألوان والأطياف والظلال فيما يظن من المترادف فى القرآن الكريم ١٩٥

دنا وقرب ١٩٥ - القلب والفؤاد ١٩٨ - المجاعة - المخمصة - المسغبة ٢٠٠ - البخل والشح ٢٠٢ - البطش والعقاب ٢٠٣ - طغى وظلم ٢٠٤ - غشى وغطى ٢٠٦ - الشك والمرية ٢٠٨ - قنت وخشع وضرع ٢١٠ - الخضوع والخشوع الكنوع ٢١١ - السراط والطريق والسبيل ٢١٢ - المأوى والمآب ٢١٤ - المرجع والمصير ٢١٥ - العطاء والرفد و الهبة ٢١٦ - الأمنية والرجاء ٢١٨ - الرغبة والطمع ٢٢٠ سرى وأسرى وسار ٢٢٢ - ضل وغوى ٢٢٤

الباب الثانى

لغة الحديث الشريف

الفصل الأول: خصائص التعبير فى الحديث ٢٣١

فصاحته وبلاغته ﷺ ٢٣١

المترادف فى الحديث ٢٤٥

-البر والإحسان ٢٤٥ - العتل والجواظ والغليظ و الجعظرى ٢٤٦ - الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون والمتنطعون ٢٥١ - التخلل ٢٥٢ - الفرك والفروك ٢٥٢ - القراب والمغفرة ٢٥٣ - المدرج والمدرجة والسبيل والسابلة ٢٥٣ - الصرعةُ ٢٥٤ - من المبتكر فى كلامه ﷺ ٢٥٧. ٢٥٨

الفصل الثانى : من بدائع البيان النبوى ٢٥٩

ما يعدل الجهاد ٢٥٩

انما الأعمال بالنية ٢٦٠

أكبر الكبائر ٢٦٤

المسلم أخو المسلم ٢٦٧

أتدرون من المفلس ٢٦٩

أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ٢٧٢

ما لك يا حنظلة ٢٨٠
أغلقوا الباب ٢٨٤
الشهداء أربعة ٢٨٧
ألا كلكم راع ٢٩١
عليكم يالصدق ٢٩٣
مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها ٢٩٦
سبعه يظلهم الله فى ظله ٢٩٩
يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ٣٠٤
يا غلام إنى أعلمك كلمات ٣٠٨
ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان ٣١٠
الفصل الثالث: اللهجات والصيغ والتراكيب فى الحديث ٣١٥
إجراء المثنى على لغة إلزامه الألف ٣١٥
إجراء القول مجرى الظن ٣١٦
المستثنى ٣١٧
تثنية الفعل وجمعه مع الفاعل المثنى والمجموع ٣١٨
الفعل المضعف الثلاثى بين الفك والإدغام ٣٢٠

●●●

فهرس الجزء الثانى

التقديم ٣٢٩

الباب الأول

لغة القرآن الكريم

الفصل الأول: خصائص التعبير فى القرآن الكريم ٣٤٧

خصائص التعبير القرآنى فى سورة البقرة ٣٤٨

الفصل الثانى: كثرة المعانى وجدتها وطرافتها فى المشترك اللفظى فى القرآن الكريم ٤٩١

(ملك) ٤٩١ (الذاريات ذروًا- فالحاملات وقرًا- فالجاريات يسرًا - فالمقسمات أمرًا) ٢٩٥-(والنازعات غرقًا- والناشطات نشطًا- والسابحات سبحًا- فالسابقات سبقا - فالمدبرات أمرًا) ٥٩٦ -(قدر) ٤٩٨-(القدْر) ٤٩٨-(المقدار)٤٩٨-(القدَر) ٤٩٩-(القضاء) ٤٩٩- (سورة القدر) ٥٠١- (الفلق)- (غاسق) - (وقب)- (النفاثات)- (الحسد والغبطة) ٥٠٣- (سلم) ٥٠٧- (روي: التروية) ٥١٠- (عوَد: العيد) ٥١١- (ضحو: الأضحية) - ٥١٥- (نحر: النحر) ٥١٥- (شرق: التشريق) ٥١٧- (التوكيل والتوكل)٥١٨.

الفصل الثالث: الألوان والأطياف والظلال فيما يظن من المترادف فى القران الكريم ٥٢١

(الخوف والرجاء والوجل) ٥٢١-(الرُّوع والرَّوع والخلَد)٥٢٣- (الاستواء والجلوس) ٥٢٥- (الشك والريب والريبة) ٥٢٧- (السير والمشى) ٥٣٠- (اليأس والقنوط) ٥٣٢- (دائمًا-أبدًا) ٥٣٤- (الأزل والقدم) ٥٣٦- (القديم والعتيق) ٥٣٨- (الجديد والحديث) ٥٤٠- (التفويض والتوكيل) ٥٤٣- (شاء-أراد) ٥٤٥- (السريع والحثيث) ٥٤٨- (الغيث والمطر) ٥٥٠- (أفلح-فاز-نجح) ٥٥٢

الباب الثانى

لغة الحديث الشريف

الفصل الأول: خصائص التعبير فى الحديث الشريف ٥٥٧

فصاحته وبلاغته ﷺ ٥٥٧

المترادف فى الحديث ٥٧٣

- اللمز والهمز والنبز ٥٧٣
- الفطانة والفراسة والعجز ٥٧٥
- السداد- القصد -المقاربة - الغدوة -الروحة -الدلجة ٥٧٩
- الكرْم -العنب -الحبَلة ٥٨٣
الفصل الثانى : من بدائع البيان النبوي ٥٨٥
أركان الإسلام ٥٨٥
المسلم الكامل ٥٨٧
المساجد التى تشد إليها الرحال ٥٨٨
المأمورات السبعة والمنهيات السبعة ٥٩٠
ما حدث يوم وفاة رسول الله ﷺ ٥٩٤
مثل البخيل والمنفق ٥٩٦
على كل مسلم صدقة ٥٩٨
التحذير من المسألة بغير حاجة ٦٠٠
رد المظالم إلى أهلها ٦٠٢
خير القرون ٦٠٤
أى زوجات الرسول ﷺ أسرع لحوقًا به؟ ٦٠٦
قيام رسول الله ﷺ حتى ترم قدماه ٦٠٨
يمين الله ملأى ٦١٠
ثناء الإنسان على غيره ٦١١
اليد العليا واليد السفلى ٦١٣
استشهاد الصحابى الجليل عبد الله والد جابر -رضى الله عنهما- ومنزلته عند الله تعالى ٦١٥

وفاة عثمان بن مظعون ومنزلته -رضى الله عنه- ٦١٧

الفصل الثالث: الصيغ والتراكيب فى الحديث الشريف ٦١٩

أبنية الأسماء فى إيجاز ٦١٩

-مجرد الثلاثى وروده فى الحديث ٦١٩

-مجرد الرباعى وروده فى الحديث ٦٢٠

- المزيد من الأسماء وروده فى الحديث ٦٢٠

أبنية الأفعال فى إيجاز ٦٢١

-مجرد الثلاثى وروده فى الحديث ٦٢١

-المزيد من الأفعال وروده فى الحديث ٦٢٢

- أبنية وصيغ يوقف عندها ٦٢٢

اختلاف الأوجه الإعرابية فى الحديث ٦٢٤

- ما فيه وجهان ٦٢٤

- ما فيه ثلاثة أوجه أو أكثر ٦٢٥

أساليب نحوية وورودها فى الحديث ٦٢٦

الجملة الشرطية ٦٢٦

- حذف الشرط والجواب ٦٢٦

- الفاء التى تدخل على جواب الشرط ٦٢٧

- (لو) ٦٢٨

- (بينا) و (بينما) ٦٢٩

اقتران خبر كاد بـ (أن) ٦٣٠

الحذف ٦٣٠

-حذف المبتدأ والخبر ٦٣٠

- حذف الفعل ٦٣١
- حذف الفاعل والمفعول وبعض متعلقات الفعل ٦٣١
- حذف المنعوت ٦٣١
مما يخالف بعض القواعد النحوية : إضافة الموصوف إلى صفته ٦٣١
الفهرس ٦٣٣

●●●